مُنْتَقَىْ التَّفَاسِيْرِ

في تفسير سورة البقرة

المجلد الأول

تفسير الآيات (حتى الآية ٦٤ من سورة البقرة)

الإبراز الثاني (تهذيب وتنقيح وتحقيق وزيادة)

د. محمد عبد المعطي محمد

مقدمة : القرآن هو الحل.

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (الأحزاب-٥٦). فاللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباع منهجه بالحق إلى يوم الدين. وبعد.

فإن الله تعالى قد مَنَّ عليَّ بصحبة كتابه العظيم منذ سنواتٍ عدة قضيتُ ما كان قبلها شاعراً عاشقاً لعلوم اللغة العربية، وقارئاً نهماً للفلسفة والعقيدة والمنطق والاجتماع والتاريخ والسيرة وكثيرا من العلوم الإنسانية والبحتة؛ كل ذلك بجانب دراستي المتخصصة في العلوم التطبيقية بحكم كوني طبيباً.

ثم كان أنْ جمعني الله تعالى بإخوةٍ صالحين حببوا إليَّ علوم الشريعة، فكنتُ إذا علمت منها طرفاً أخذتُ في البحث عن جذوره وتأصيله في فنه. وهذه عادةٌ لي في تكوين منهجية علمية تأصيلية، وهذا من فضل الله تعالى.

قرأتُ في علوم الحديث، وعلوم الأصول، وعلوم القرآن حتى ترسَّخت لديَّ ملكةُ فهمِ كتب الكبار المتقدمين من أهل العلم، ثم إنني وجدتُ قلبي يميل شيئا فشيئاً إلى علوم كتاب الله العزيز، فانكببتُ أجمع ما يسَّر اللهُ لي من بيان بعض الآيات [1] ؛ فصرتُ أقع على النكت الحِسان، والنوادر، والدُرر والجُمان من فهوم العلماء، فأقف أمامها مدهوشا من عظمة كتاب الله -تعالى- وتحمله كل تلك المعاني والدلالات.

هذا الكتاب الذي حوى كل العلوم، وفيه من البلاغة ما يجعل آلاف العلماء يتناولونه فهما، وتفسيرا، وتأويلاً، وتحقيقا لمعانيه؛ فيعطي كلَّ أحدٍ منهم على قدر ما وسعه، ولا يحرم الآخرين بل يهبهم كذلك من فهم بلاغته ما ترى فيه العجب العجاب. وكما قال الشيخ محمد الشعراوي إن عطاء القرآن لا ينقطع.

وما زالت تتكشف لي كل يومٍ عظمة هذا الكتاب العظيم؛ فمنذ أن بدأتُ مشروعي في جمع النكت ومحصلات الفهوم من بطون كتب العلماء الكبار منذ عام ١٤٣٦ لهجرة النبي -عليه أفضل الصلاة والسلام- منذ ذلك الحين وأنا تنفتح أمامي كل يوم كنوزٌ من فهم، وتدبر كتاب الله تعالى.

هذه الكنوز تزيد في يقيني وإيماني أن هذا الكتاب هو دستور الحق الذي يضبط الحياة كلها تحت منهج سماوي لا يأتيه أي خلل، بل يثبت كل يومٍ أنه المفتاح لمغاليق الأحوال والظروف والوقائع التي تتجدد في حياتنا

(١) وكنت أقرأ في (المكتبة الشاملة) كل ما يخص موضوع الآية التي أردت فهمها من كل التفاسير التي بين يدي، فخالط دمي وعقلي أسلوب المتقدمين من علماء التأويل، وأهل المعاني والتفسير.

ثقافيا وعلميا واجتماعيا وسياسيا، وفيه الحلول الناجعة لكل مشكلاتنا المعاصرة، وإنني لأقولها بأعلى صوتي (القرآن هو الحل).

إن مصيبتنا الأكبر، وأهم سبب لإخفاقاتنا هو تهميش فهم ومدارسة وتحقيق كتاب الله –تعالى– على أرض الواقع. وهذا ما نجح فيه الأعداء بمساعدة الفاسقين والمنافقين وعباد الكراسي من بني جلدتنا حين جعلوا القرآن في حياتنا مجرد رمزٍ قديمٍ، وقلادةٍ باليةٍ نتقلدها ليُقال إننا مسلمون؛ فنقرأه على الأموات، ونقيم له المسابقات والحفلات، ونتيمن به ونضعه في علبة مُذَهَّبة في البيوت والسيارات، وأمثلنا طريقةً الذين يحفظون حروفه وأداءه والمد والغُنَّة في الآيات، فإذا سألتَ عن معنى {العاديات ضبحاً، والموريات}، قيل لك: هيهات؛ هيهات.

لقد صار القرآن في خير أحواله لدينا نظريات ومواعظ تبكينا ويسلينا (وعاظ السلاطين) بها لنصبر على الفقر والكفر والفساد والخيانة؛ بينما ينعم (الولي الأمير) بخيراتنا وينهب أرزاقنا، ويفسد الفساق أبناءنا وبناتنا، ويبلبل الملحدون والزنادقة يقيننا وإيماننا.

وقد حَرَّم أولياؤنا– الطواغيت– علينا تفسير كلام الله تعالى على حقيقته، وتدبره على تحقيقه، وإعمال بنود أحكامه وتعاليمه على أصولها. فبقي القرآن في حياتنا شعاراً فقط، وبركةً نتبرك بها كتبركنا بشيوخ يلبسون الممزق من الثياب.

وفي ذلك الجو المشحون كتبتُ باكورة معاملتي مع القرآن (النسمات السابحة في تدبر سورة الفاتحة) ونشرتها إلكترونياً على الشبكة الدولية (الانترنت)، ولاقى بفضل الله قبولا جيدا في عدة مواقع على الشبكة، إذ كان الهدف الأساس من ورائه هو ضبط علاقتنا بالقرآن العظيم، وإرجاعه فاعلا في العقل والوجدان والشعور والعمل الإسلامي، وفهم طبيعة منهجه وتوجيهه لكامل الحياة على نورٍ من الله تعالى.

ثم شرعتُ في جمع تدبر وتفسير " سورة البقرة" في أجزاءٍ تتبعت فيها منهجيةً مُحَدَّدةً وهي:

(١) قراءةُ مصادر تفسير الآيات قراءةً جيدةً من أجل فهم إطارٍ متكامل لها، فإن كتب التفسير تتنوع في جوانب تناولها لمعاني القرآن؛ فمنها ما يهتم بجانب اللغة، ومنها ما يهتم بنواحي الفقه، ومنها الذي يعنيه التأصيل العقدي وعلم الكلام (التوحيد)، وآخر يجمع التفسير من المأثور (الأحاديث والآثار)، وعلى نقيضه من يجمع في تفسيره تحليل الرأي والعقول... وهكذا.

(٢) محاولة إذابة ما تحصَّل لديَّ من علم التفسير في كل آيةٍ، بل في كل مقطعٍ وكلمةٍ في الآية في بوتقةٍ واحدةٍ وتقريب المنقول عن العلماء ليمثل مادةً منسجمةً من تفسير الآيات تجمع أكثر المناحي التي تقرب معاني القرآن وهداياته، مع الأخذ من كل مذاهب التفسير ما يتفق مع منهجية أهل السنة والجماعة في فهم الآيات.

(٣) جمع كثيرٍ من النكت والملاحظات والتأصيلات البلاغية والعلمية في آيات القرآن العظيم، بحيث تبين عظمة هذا الكتاب الذي فيه تبيان كل شيء.

(٤) ربط المعاني بمنهجية القرآن في ضبط إيقاع الحياة، وتوجيه كل تفاصيل حياة المسلم، وإصلاح مشاكل المجتمع، وتقويم القلوب، والرد على مشتبهات العقول، وتحديد موقف المؤمنين من القضايا القديمة والمستجدة. وهذا من خلال تأمل واستقراء واستنباط ممنهج في آيات القرآن ومعها شروح السنة الصحيحة وأصول الدين وعلوم اللغة وتوجيهات الخطاب.

وكل هذه ملكات يكتسبها المرء من تعظيمه لكتاب الله تعالى واستلهامه في حياته، ومطالعة كتب الربانيين من العلماء المتقدمين الذين اعتنوا به تفسيرا وتأويلاً، وكذلك تذوق علوم اللغة وفنون الكلام العربي، مع القواعد السليمة في البناء المنهجي لعلوم الشريعة وأصولها.

(٥) حاولتُ أن استنتج (قواعد التفسير) وضبط منهجية متكاملة للنظر في كتاب الله تعالى من خلال مدارسة التدبر، ومعالجة التفسير ، والترجيح بين أقوال المفسرين، و النظر في مناسبات الآيات وسياقاتها المتعددة (السياق التركيبي؛ سِباقاً ولِحاقاً، والسياق التاريخي في سبب وملابسات النزول، والسياق المنطقي الرابط لمحور المعاني فيها، وسياق الخطاب)، ودور تلك السياقات في توجيه المعاني، مع التحليل اللغوي الدقيق لفهم (لغة القرآن) وتوجيهها للمشكل من معانيه، مع ربط معاني القرآن بتفسيرات القرآن نفسه في مواضع مختلفة، وكذلك تفسيرات السنة، وقواعد الدين العامة.

وهذا في الحقيقة منهجٌ –أنعم الله عليَّ به– وشرعتُ في تأصيله وتنقيحه منذ زمنٍ طويلٍ يزيد على سبعة أعوام، وما زلت مستمتعا بالعمل على تجليته وسميته (القراءة الشمولية للقرآن العظيم.. تدبر القرآن من الداخل).

كتبتُ كتابي هذا، ولا أزال أنقحه وأزيد وأراجع فيه، فكتاب الله أعظم من أنْ تكتب فيه كتابا وتنساه، بل إن اهتمامي بعظمة كتاب الله تعالى يزداد كل يومٍ، حتى جعلتُ مشروع حياتي الأكبر هو دراسة كتاب الله، ولي

كتب في طور الإعداد والتأمل منها (لغة القرآن.. ما فوق البلاغة)، (الأمثال القرآنية.. دراسة تفسيرية بلاغية).

وهنا –بحول الله –تعالى– وتوفيقه– الإبراز الثاني لكتابي (منتقى التفاسير – في تفسير وتدبر سورة البقرة ج١) فيه تنقيحات وتحقيقات وزيادات شريفة تتبعتها من درر التفاسير، وتلقيح الأفكار وإعمال المدارسة الدقيقة والمعايشة الأنيقة لكتاب الله تعالى.

فإن كان من خير وتوفيق فمن الله الكريم الحليم، وإن كان من تقصيرٍ وزلل فمن نفسي الغرور ومن الشيطان. وأسأل الله سبحانه أن يجعله زاداً لي ويتقبله في حسناتي ويحمني به يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام التامين على سيد الأنبياء والناس أجمعين.

كتبه/ أبو عمر وحمزة وعبد الرحمن.

د. محمد عبد المعطي محمد أحمد.

تم تنقيحه وزيادته يوم الإثنين الموافق ١٤٤٤/٣/٢١ لهجرة الرسول ﷺ .

الموافق ٢٠٢٢/١٠/١٧ لميلاد المسيح عليه السلام.

حول سورة البـقرة.

سورة البقرة أطول سور القرآن العظيم، وفيها أطول آياته (آية الدين) وهى وحدها تعتبر دستور الدولة الإسلامية الأسمى؛ ولذلك ورد في موطأ الإمام مالك أن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر ظل ثماني سنوات يدارسها ويتعلم أحكامها.

وهذه السورة الكريمة تعرض قضايا شتى، وتناقش تفاصيل بناء الدولة المؤمنة في مدينة رسول الله ﷺ، وتدعم أساساتها وأساسات كل دولة للإسلام إلى يوم القيامة، وتبصّرها بما يحتف بها من أعداء ومن منافسين دينيين وحضاريين.

فقد جادلت السورة الكفار والمشركين وأهل الكتاب، ورسمت خطوطا واضحةً للطابور الخامس من المنافقين تبيّن خطورتهم على دولة الإسلام.

ثم إن هذه السورة تناقش عدداً غير قليلٍ من أحكام العبادات وأحكام الأسرة المسلمة.

فتصير هذه السورة في النهاية مجموعة من وجباتٍ إيمانيةٍ دسمة في سبيل إنشاء الضمير الإيماني، والأسرة المؤمنة، والدستور الإيماني، والدولة المؤمنة.

سبب تسميتها.

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ (سُورَةَ الْبَقَرَةِ)، فَقَدْ وَرَدَ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ النَّبِيءَ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَفَتَاهُ»، وَفِيهِ عَنْ عَائِشَةَ: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا قَرَأَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ».

وسميت البقرة بسبب أظهر الحوادث التي ذكرتها، وأغربها، وهي بقرة بني إسرائيل [(١)] التي ماطلوا في السؤال عنها، وما تدل على أخلاقهم من اللجاجة والجدل العقيم والسفاهة في الفكر والقول والعمل، وإرادة

---

(١) قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٧٠):
يَنْبَغِي النَّظَرُ فِي وَجْهِ اخْتِصَاصِ كُلِّ سُورَةٍ بِمَا سُمِّيَتْ بِهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَرَبَ تُرَاعِي فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْمُسَمَّيَاتِ أَخْذَ أَسْمَائِهَا مِنْ نَادِرٍ، أَوْ مُسْتَغْرَبٍ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ مِنْ خَلْقٍ، أَوْ صِفَةٍ تَخُصُّهُ، أَوْ تَكُونُ تلك الصفة مَعَهُ أَحْكَمُ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَسْبَقُ لِإِدْرَاكِ الرَّائِي. وَيُسَمُّونَ الْجُمْلَةَ مِنَ الْكَلَامِ أَوِ الْقَصِيدَةَ الطَّوِيلَةَ بِمَا هُوَ أَشْهَرُ فِيهَا.
وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ أَسْمَاءُ سُوَرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَتَسْمِيَةِ (سُورَةِ الْبَقَرَةِ) بِهَذَا الِاسْمِ لِقَرِينَةِ ذِكْرِ قِصَّةِ الْبَقَرَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهَا، وَعَجِيبِ الْحِكْمَةِ فِيهَا. انتهى.
قلتُ: سميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت في بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام.
واختلف الناس بشأن قاتله، ثم رفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام ليحكم في هذه الجناية التي خفي مرتكبها.
وسأل موسى ربه؛ فأمرهم أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل بجزء منها فيحيا فيخبر عن قاتله.

التلبيس في الأمر الواضح المبين، وردهم شرع الله – سبحانه– وأمره بأسفه الحجج وأسخف السؤالات، وقد كانوا كلما زادت لجاجتهم زاد الأمر تعقيدا عليهم، وتلبيسا؛ حتى قام عليهم من الله تعالى الحجة والبرهان أنهم لا يستحقون التشريف برسالة هداية البشرية لتنتقل المهمة لأمة محمد –عليه السلام– وليحذر أتباع محمدٍ– ﷺ– ما وقع فيه أولئك المُغَفَّلون.

فهؤلاء هم (المغضوب عليهم) الذين جاء ذكرهم في سورة الفاتحة، ودعاء المؤمنين ألا يكونوا على طريقهم، فأراد الله تعالى في هذه السورة بيان بعض صفات أولئك المغضوب عليهم، وهو من حسن المناسبة فتأمله.

وتسمى (الزهراء) معناه المنيرة، وهو مفرد (الزهراوين) المقصود بهما سورتيْ (البقرة، وآل عمران) كما ثبت من حديث أبي أمامة الذي رواه مسلم وغيره: "...اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ...".

وَفِي «الْمُسْتَدْرك» عن عبد الله بن مسعود موقوفا ومرفوعا أَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «إن لكل شيء سناما، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تُقْرَأ، خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة» حديث حسن [١].

وَسَنَامُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ، وَهَذَا وَصْفُ تَشْرِيفٍ يدل على مكانتها من سور القرآن العظيم.

وَقد سماها بعض العلماء (فسطاط القرآن) – وفيها حديث لا يصح عن ابن مسعود – وذلك أنَّ الفسطاط يحيط بالبلد كما يحيط بها السور العالي. ولعله لاحتوائها على أحكام كثيرة وعظيمة ومواضيع شتى تشتمل عليها (حتى قال بعض الأشياخ– كما نقل ابن العربي–: إن فيها ألف أمر وألف نهي وألف خبر. قيل: وفيها خمسة عشر مثلاً من أمثال القرآن. ولهذا أقام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ثماني سنين على تعلمها).

وعدد آياتها مائتان وست وثمانون آية. وعدد كلماته ستَّة آلاف كلمة، ومائة وإحدى وعشرون كلمة. وحروفها خمس وعشرون ألفاً وخَمْسمائة حرف.

مجموع فواصل (نهايات) آياتها (ق م ل ن د ب ر) ويجمعها (قم لندّبر). وعلى اللاَّم آية واحدة {فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل}، وعلى القاف آية واحدة {وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ} آخر الآية المائتين.

وقد أكثر بنو إسرائيل من السؤال عن صفة البقرة وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ولو ذبحوا أي بقرة في أول الأمر لكفتهم.

١ رواه وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره ، وقال في التعليقات الحسان: صحيح . دون ((ثلاثة ليال...))، راجع ((السلسلة الصحيحة)) رقم(588)و ((الضعيفة)) رقم(1349).

فضائلها

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَو فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تستطيعها البطلة». رَوَاهُ مُسلم.

(روى الإمام أحمد في المسند – بسنده – عن النَّوَّاس بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ».

وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ ﷺ : «كَأَنَّهُمَا غمامتان أو ظُلَّتَان سَوْداوان بينهما شَرْق كأنهما فِرْقان من طَيْرٍ صَوافٍّ يحاجَّان عن صاحبهما». وكذلك رواه مسلم في صحيحه..

الزهراوان: أى المنيرتان، وَالْغَيَايَةُ: مَا أَظَلَّكَ مِنْ فَوْقِكَ، مثل السحابة. وَالْفِرْقُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، أي مجموعتان وسِربان من الطيور . وَالصَّوَافُّ: الْمُصْطَفَّةُ الْمُتَضَامَّةُ.

وَالْبَطَلَةُ: هم السَّحَرَةُ، وَمَعْنَى لَا تَسْتَطِيعُهَا البطلة: أَيْ لَا يُمْكِنُهُمْ حِفْظُهَا؛ وَقِيلَ: لَا تَسْتَطِيعُ النُّفُوذَ فِي قَارِئِهَا. أو لا يثبت معها سحرهم. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ –ﷺ– قَالَ: " اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، وفاتحة (آل عمرانَ): (الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).. [١]

وفي سورة البقرة أعظم آية في القرآن– آية الكرسي– فقد روى أبو داود –بسند صحيح على شرط مسلم– عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ : {أبا المنذر أيُّ آيةٍ معك من كتاب الله أعظم؟}، قال: قلتُ الله ورسوله أعلم. قال: {أبا المنذر أي آية معك من كتاب الله أعظم؟}، قال: قلتُ (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، قال: فضرب في صدري، وقال: {لِيَهْنَ لك يا أبا المنذر العلم}.

(وَإِذا كَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدٍ بِإِقَامَةِ الدولة الْإِسْلَامِيَّةِ، وَاسْتِقْلَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَدِينَتِهِمْ؛ كَانَ مِنْ أَوَّلِ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ تَصْفِيَةُ هذه الدولة الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَنْ تَخْتَلِطَ بِعَنَاصِرَ مُفْسِدَةٍ فاسدة حاسدة. تفسد مَا أَقَامَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الصَّلَاحِ الذي تسعى فيه لِتَكْوِينِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ النَّقِيَّةِ مِنْ شَوَائِبِ الدَّجَلِ وَالدَّخَلِ.

١– رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وصححه وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ، وقال الألباني: حسن، صحيح أبي داود (1343).

وَإِذْ كَانَتْ سورة البقرة أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَقَدْ عُنِيَ بِهَا الْأَنْصَارُ وَأَكَبُّوا عَلَى حِفْظِهَا، يَدُلُّ لِذَلِكَ مَا جَاءَ فِي السِّيرَةِ أَنَّهُ لَمَّا انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ النَّبِيُّ – ﷺ – لِلْعَبَّاسِ: «اصْرُخْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ يَا أَهْلَ السَّمُرَةِ (يَعْنِي شَجَرَةَ الْبَيْعَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ)، يَا أَهْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» فَقَالَ الْأَنْصَارُ: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ. وَفِي «الْمُوَطَّأِ» قَالَ مَالِكٌ إِنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَى سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا. [١]

ولعل هذا يدلك دلالة صريحة على اهمية ومكانة سورة البقرة ما يجعلها السورة الثانية بعد الفاتحة..

مناسبتها للفاتحة قبلها.

ووجه مناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة قبلها أن الفاتحة مشتملة على بيان وصوف الربوبية أولا، وأحكام العبودية ثانيا، وطلب الهداية في الدنيا والآخرة لسبيل الفالحين وصراط المهتدين ثالثا.

وكذلك سورة البقرة مشتملة على بيان معرفة الرب؛ وأدب المعاملة معه سبحانه؛ والأمر بتوحيده والتحذير من الكفر به، وتشتمل على العبادات وتفصيلها وما يتعلق بها، وعلى بيان ما يحتاج العبد إليه في الدنيا والآخرة لهدايته الصراط المستقيم الذي يطلبه المؤمنون في آخر سورة الفاتحة.

وفي أول البقرة يومئ السياق القرآني الحكيم إلى ذلك في قوله تعالى: " ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدىً لِلْمُتَّقِينَ " (البقرة: 2). [٢]

فحصل من هذه السورة بأسرها بيان (الصراط المستقيم) المذكور في سورة (الفاتحة) على الاستيفاء والكمال. أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تنكب عنه، وكأن العباد لما علّمهم الله تعالى أن يقولوا في أم الكتاب: {اهدنا الصراط المستقيم}، قيل لهم عليكم بالكتاب الذي لا ريب فيه إجابةً لسؤالهم، ثم – بيَّن لهم حال مَن سلك ما طلبوه، فكأنْ قد قيل لهم إن أهل الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من شأنهم

---

١ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور رحمه الله (1/ 202) بتصرف يسير.

٢ – وهنا نكتةٌ لطيفةٌ وجدتها في تفسير الألوسي، قال: لما افتتح سبحانه الفاتحة بالأمر الظاهر المحكم الذي ليس به لبس " الحمد لله رب العالمين "؛ وكان وراء كل ظاهرٍ في عالم الشهادة غيب وباطنٌ يجب على المتقين الإيمان به. افتتح الله تعالى سورة البقرة بعدها بما بطن سره وخفي أمره إلا على مَن شاء الله تعالى فقال سبحانه: " ا ل م " وهي الحروف المقطعة التي يجب الايمان بحكمتها، وتفويض معانيها للرب العلي إيمانا بالغيب الذي امتحن الله تعالى المتقين به، ومدحهم على الإيمان به، وبأمثاله من الغيب... ولهذا قال الصديق– رضي الله تعالى عنه–: لكل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور، وقال الشعبي: سر الله تعالى فلا تطلبوه.). اه تفسير الألوسي = روح المعاني (1/ 101) بتصرف وتلخيص.

وأمرهم كيت وكيت، والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين من أمرهم وشأنهم كيت وكيت، والضالون هم النصارى الذين من شأنهم وأمرهم كيت وكيت.

وما أرقى وألطف هذه المناسبة بين سورتي الفاتحة والبقرة.

ترتيبها في النزول

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة. وهي أطول سور القرآن على الإطلاق.

وَقَدْ عُدَّتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ السَّابِعَةَ وَالثَّمَانِينَ (٨٧) فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ. والثانية في ترتيب المصحف.

قال العلماء: نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَقَبْلَ آلِ عِمْرَانَ.

(نزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهي أول ما نزل في المدينة.

وحكى ابن حجر في «شرح البخاري» الاتفاق عليه.

ولا شك أن سورة البقرة فيها فُرِض الصيام، والصيام فُرِض في السنة الأولى من الهجرة، فرض فيها صوم عاشوراء ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية لأن النبي – ﷺ – صام سبع رمضانات أولها رمضان من العام الثاني من الهجرة، فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية.

وفي البخاري عن عائشة «ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده» (تعني النبي ﷺ) وكان بناء رسول الله على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة، وقيل في أول السنة الثانية، وقد روي عنها أنها مكثت عنده تسع سنين فتوفي وهي بنت ثمان عشرة سنة وبنى بها وهي بنت تسع سنين.

إلا أن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام يُنْبِئ بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست كما سنبينه عند آية: " فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ " (الْبَقَرَة: 196).

وقد يكون ممتدا إلى ما بعد سنة ثمان كما يقتضيه قوله: " الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ "– الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ– " لِمَنِ اتَّقى" (الْبَقَرَة: 197– 203).

على أنه قد قيل إن قوله: " وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ "(الْبَقَرَة: 281) الآية هو آخر ما نزل من القرآن، وقد بيَّنَّا أنه قد يستمر نزول السورة فتنزل في أثناء مدة نزولها سور أخرى). [١]

---

١ التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور (1/ 201) الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ.

(... وإن المعول عليه في القول بترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها- لا جميعها- وفي هذه السورة آيات في أواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا، في حين أن الراجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة.

فأما تجميع آيات كل سورة في السورة، وترتيب هذه الآيات، فهو توقيفي مُوْحَى به.

روى أصحاب السنن- بسند صحيحٍ- عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: مَا حَمَلَكُمْ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى الأَنْفَالِ، وَهِيَ مِنَ المَثَانِي، وَإِلَى بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ المِئِينَ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ، مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟

فَقَالَ عُثْمَانُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ، وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ فَيَقُولُ:

«ضَعُوا هَؤُلَاءِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا».

وَإِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الآيَةَ فَيَقُولُ: «ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا»،

وَكَانَتِ الأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةٌ مِنْ آخِرِ القُرْآنِ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ. [١]

فهذه الرواية تبيّن أن ترتيب الآيات في كل سورة كان بتوقيف من رسول الله – ﷺ-، وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان النبي – ﷺ- أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي – ﷺ – القرآن، وفي رواية – فيدارسه القرآن، فإذا لقيه جبريل –عليه السلام- كان أجود بالخير من الريح المرسلة. ومن الثابت أن رسول الله – ﷺ- وقد قرأ القرآن كله على جبريل- عليه السلام- كما أن جبريل قد قرأه عليه. ومعنى هذا أنهما قرآه مرتبةً آياته في سوره بوحيٍ من الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٠٨٦) في التفسير، باب ومن سورة التوبة، وأبو داود رقم (٧٨٦) في الصلاة، باب من جهر بها، أي: بسم الله الرحمن الرحيم، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي: هو من التابعين من أهل البصرة، قد روى عن ابن عباس غير حديث. نقول: ويزيد الفارسي: لم يوثقه غير ابن حبان، وكذا رواه أحمد والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم من طرق أخر عن عوف الأعرابي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ومن ثَمَّ يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورةٍ من سوره شخصيةٌ مميزة! شخصيةٌ لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روحٍ حيّ مميزِ الملامحِ والسِّمات والأنفاس!
ولها موضوعٌ رئيسيٌّ، أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محورٍ خاص. ولها جوٌّ خاصٌّ؛ يظلِّل موضوعاتِها كلها، ويجعل سياقَها يتناول هذه الموضوعات من جوانبَ معينة، تُحَقِّق التناسقَ بينها وِفْق هذا الجو. ولها إيقاعٌ موسيقيٌّ خاص– إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبةٍ موضوعية خاصة. وهذا طابعٌ عامٌ في سور القرآن جميعا.

ولا يشذ عن هذه القاعدة –حتى– طوال السور كهذه السورة.)[١]

****

نظرة موضوعية على بيئة النزول ومحاور سورة البقرة.

قلنا واستعرضنا في جولة سريعة كيف أن سورة البقرة برمتها تبين وتفصل ذلك الصراط المستقيم الذي يطلبه المؤمنون في سورة الفاتحة قبلها. وإن هذا ليبين سر ترتيبها في المصحف بعد الفاتحة.

وأما عن سر نزولها في أول ما نزل بعد الهجرة يقول الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– ما مختصره:

هذه السورة تضم عدة موضوعات. ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا. فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها – ﷺ– وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها..

وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى. وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم – عليه السلام– صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم.

وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين، كما سيجيء في استعراضها التفصيلي.

---

١ في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى (1/ 27)

ولكي يتضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهة، وبين خط سير الدعوة أول العهد بالمدينة، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى. يحسن أن نلقي ضوءا على مجمل هذه الملابسات التي نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء. مع التنبيه الدائم إلى أن هذه الملابسات في عمومه. الملابسات التي ظلت الدعوة الإسلامية وأصحابها يواجهونها- مع اختلاف يسير- على مر العصور وكر الدهور من أعدائها وأوليائها على السواء. مما يجعل هذه التوجيهات القرآنية هي دستور هذه الدعوة الخالد ويبث في هذه النصوص حياة تتجدد لمواجهة كل عصر وكل طور ويرفعها معالم للطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاق، بين العداوات متعددة المظاهر ، متوحدة الطبيعة. وهذا هو الإعجاز يتبدى جانب من جوانبه في هذه السمة الثابتة المميزة في كل نص قرآني.

لقد تمت هجرة الرسول – ﷺ- إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم. تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره.

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب (المدينة)، لتكون قاعدة للدعوة الجديدة، عدة اتجاهات. سبقها الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل.. وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى. ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة.

كذلك يبدو اتجاه الرسول – ﷺ- إلى الطائف محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة. وهي محاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله – ﷺ- أسوأ استقبال، وسلطوا عليه سفهائهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه الشريفتين، ولم يتركوه حتى آوى إلى حائط (أي حديقة) لعتبة وشيبة ابني ربيعة. وهناك انطلق لسانه بذلك الدعاء الخالص العميق: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى عدو ملكته أمري! أم بعيد يتجهمني؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي. ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك».

بعد ذلك فتح الله على الرسول – ﷺ- وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب، فكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية.

وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون إلى المدينة تباعا، تاركين وراءهم كل شيء، ناجين بعقيدتهم وحدها، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، من الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيرا قط. ثم هاجر رسول الله – ﷺ– وصاحبه الصديق. هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها من قبل طويلا. وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول– ﷺ.

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوه القرآن بها في مواضع كثيرة. وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقوّمات الإيمان، وهي تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا. ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذي كان قائما بالمدينة حينذاك: «الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ، هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ، وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. » الآيات.

ثم نجد بعدها مباشرة في السياق وصفا للكفار وهو يمثل مقومات الكفر على الإطلاق. ولكنه أولا وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك، سواء في مكة أو فيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. ».

ذلك كانت هناك طائفة المنافقين. ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التي أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة في ظروفها التي تمت فيها، والتي أشرنا إليها من قبل ولم يكن لها وجود بمكة. فالإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة، بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكة فينافقونها. فأما في يثرب التي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة– أي مدينة الرسول– فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا– وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما– وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفرٌ من الكبراء، دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم.

ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة.

وسنجد في أول السورة وصفا مطولا لهؤلاء المنافقين، ندرك من بعض فقراته أن المعنيّ بهم في الغالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التظاهر بالإسلام، ولم ينسوا بعد ترفعهم على جماهير الناس، وتسمية هذه الجماهير بالسفهاء على طريقة العلية المتكبرين!: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ. » الآيات.

وفي ثنايا هذه الحملة على المنافقين- الذين في قلوبهم مرض- نجد إشارة إلى «شَياطِينِهِمْ». والظاهر من سياق السورة ومن سياق الأحداث في السيرة أنها تعني اليهود، الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد. أما قصتهم مع الدعوة فنلخصها في هذه السطور القليلة:

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة. كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب- الأوس والخزرج- ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلا لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء، إلا أنهم كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب. ثم كان هنالك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام- وهي البيئة التي يجد اليهود دائما لهم فيها عملا! - فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعا. فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم، ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس والخزرج، وقد أصبحوا منذ اليوم يُعرفون بالأنصار، إلى المهاجرين، وألف منهم جميعا ذلك المجتمع المسلم المتضام المتراص الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا على الإطلاق.

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن فيهم الرسالة والكتاب. فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائما. فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب! فلما وجدوه يدعوهم- أول من يدعو- إلى كتاب الله، بحكم أنهم أعرف به من المشركين، وأجدر بالاستجابة له من المشركين. أخذتهم العزة بالإثم، وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة! ثم إنهم حسدوا النبي - ﷺ- حسدا شديدا. حسدوه مرتين: مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب- وهم لم يكونوا يشكون في صحته- وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة.

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى: ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة. ويذوبوا في المجتمع الإسلامي. وهما أمران- في تقديرهم- أحلاهما مر! لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه سورة البقرة، (وسور غيرها كثيرة) في تفصيل دقيق، نقتطف هنا بعض الآيات التي تشير إليه. جاء في مقدمة الحديث عن بني إسرائيل

هذا النداء العلوي لهم: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.» الآيات. وبعد تذكير هم طويلا بمواقفهم مع نبيهم موسى– عليه السلام– وجحودهم لنعم الله عليهم، وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم.

ونكثهم لعهد الله معهم. جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟».

«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ. قالُوا: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا، وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ»..

«ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ»..

«وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ»..

«وَقالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى. تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ».. «وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ».. إلخ الآيات في التحذير منهم.

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا. مما جعل القرآن يخاطبهم– في عهد النبي – ﷺ– كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى– عليه السلام– وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبار هم جبلة واحدة.

سماتهم هي هي، ودورهم هو هو، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان! ومن ثم يكثر الالتفات في السياق من خطاب قوم موسى، إلى خطاب اليهود في المدينة، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين. ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها. وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغدا كما استقبلتها بالأمس تماما! وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة، تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دس وكيد، وحرب منوعة المظاهر، متحدة الحقيقة! وهذه السورة التي تضمنت هذا الوصف،

وهذا التنبيه، وهذا التحذير، تضمنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها قديما، ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيرا.

تبدأ السورة– كما أسلفنا– بوصف تلك الطوائف التي كانت تواجه الدعوة أول العهد بالهجرة– بما في ذلك تلك الإشارة إلى الشياطين اليهود الذين يرد ذكر هم فيما بعد مطولا– وتلك الطوائف هي التي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك. ثم تمضي السورة على محورها بخطيه الأساسيين إلى نهايتها. في وحدة ملحوظة، تمثل الشخصية الخاصة للسورة، مع تعدد الموضوعات التي تتناولها وتنوعها.

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى: المتقين. والكافرين. والمنافقين. وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين. نجد دعوة للناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده. وتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله. وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة. ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ! هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وعند هذا المقطع الذي يشير إلى خلق ما في الأرض جميعا للناس تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض: «وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً». وتمضي القصة تصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان حتى تنتهي بعهد الاستخلاف– وهو عهد الإيمان–: «قُلْنَا: اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَل. انتهمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني إسرائيل– أشرنا إلى فقرات منها فيما سبق– تتخللها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله الله مصدقا لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى– عليه السلام– وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الأول من السورة.

ومن خلال هذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بني إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه. لقد كانوا أول كافر به. وكانوا يلبسون الحق بالباطل. وكانوا يأمرون الناس بالبر– وهو الإيمان– وينسون أنفسهم. وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه. وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من إطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته! وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا. وكانوا يدَّعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم– كما كان

النصارى يدعون هذا أيضا– وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل– عليه السلام– بما أنه هو الذي حمل الوحي إلى محمد دونهم! وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء. وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى– كما فعلوا عند تحويل القبلة– وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين. كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين.

ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه وتذكرهم بمواقفهم المماثلة من نبيهم موسى– عليه السلام– ومن شرائعهم وأنبيائهم على مدار أجيالهم. وتخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل، وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل.

وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد. كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون، بما أنهم ورثة إبراهيم.

وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته، ويتقيدون بعهده مع ربه وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد – ﷺ– والمؤمنين به، بعد ما انحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة، والخلافة في الأرض بمنهج الله ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه. وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام– وهما يرفعان القواعد من البيت: «رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنا مَناسِكَنا، وَتُبْ عَلَيْنا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وعند هذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبي – ﷺ– وإلى الجماعة المسلمة من حوله حيث يأخذ في وضع الأسس التي تقوم عليها حياة هذا الجماعة المستخلفة على دعوة الله في الأرض، وفي تمييز هذه الجماعة بطابع خاص، وبمنهج في التصور وفي الحياة خاص.

ويبدأ في هذا بتعيين القبلة التي تتجه إليها هذه الأمة. وهي البيت المحرم الذي عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه ويطهراه ليعبد فيه الله وحده، هذه القبلة التي كان النبي – ﷺ– يرغب ولا يصرح في الاتجاه إليها: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

ثم تمضي السورة في بيان المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة. منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة، تبين لها أن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء. وأن الإصابة بالخوف والجوع ونقص

الأموال والأنفس والثمرات ليس شرا يراد بها، إنما هو ابتلاء، ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه. وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء والله يعدهم مغفرة منه وفضلا. وأن الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. وتبين لهم بعض الحلال والحرام في المطاعم والمشارب. وتبين لهم حقيقة البر لا مظاهره وأشكاله. وتبين لهم أحكام القصاص في القتلى. وأحكام الوصية. وأحكام الصوم. وأحكام الجهاد. وأحكام الحج. وأحكام الزواج والطلاق مع التوسع في دستور الأسرة بصفة خاصة. وأحكام الصدقة وأحكام الربا. وأحكام الدّين والتجارة..

وفي مناسبات معينة يرجع السياق إلى الحديث عن بني إسرائيل من بعد موسى. وعن حلقات من قصة براهيم. ولكن جسم السورة– بعد الجزء الأول منها– ينصرف إلى بناء الجماعة المسلمة، وإعدادها لحمل أمانة العقيدة، والخلافة في الأرض بمنهج الله وشريعته. وتمييزها بتصورها الخاص للوجود، وارتباطها بربها الذي اختارها لحمل هذه الأمانة الكبرى.

وفي النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها، فيبين طبيعة التصور الإيماني، وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم، وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه، مع السمع والطاعة: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَقالُوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا، غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها، لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا، وَارْحَمْنا، أَنْتَ مَوْلانا، فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ».

ومن ثم يتناسق البدء والختام، وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان. انتهى. [١]

أقول: سورة البقرة هي أطول سور القرآن كلها، ولقد تضمّنت هذه السورة – بسبب طولها – مقاطع كثيرة فيها قواعد كلية وفروع تفصيلية لابدّ من الإشارة إليها إجمالاً قبل الخوض في شرح مفرداتها وتفسير معانيها.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٨-٣٤) باختصار يسير.

وإن أعجب ما في هذه السورة أنها – رغم طولها وإسهابها وتنوّع أغراضها – تدور حول محور أساسي يكاد يكون ثابتاً: وهو هدى القرآن تتباينُ إزاءه مواقفُ الناس، من متّقين مفلحين، وكَفَرةٍ خاسرين، ومنافقين مُفْسِدين. وعلى رسم هذه المواقف وتحليل سماتها، انطوى من أول السورة مقطع غير قليل.

الحقيقة أن المحور الرئيس الذي التفت حوله هذه السورة الكريمة هو بيان ذلك (الصراط المستقيم) وتحديد دستور بناء (دولة الإيمان) و (الأمة المؤمنة) على أرض الواقع، عن طريق رسم قسمات عملية واقعية واضحة له على مدى تنقلاتها الكثيرة وأحكامها المفصلة العميقة.

وترغيباً للناس في اتّباع سبيل المتقين المهتدين، تتمهّل السورة في عرض نماذج من الوصايا الدينية، وصور من التكاليف الشرعية: فمن دعوة إلى التحلي بخصال العابدين، وانتظار البشارة بما وعد الله أولئك السعداء من النعيم المقيم، إلى افتراض الفرائض، وتحديد الأوامر، وإلقاء التبعات على عواتق المؤمنين.

ففي سورة البقرة نتلو آيات تحضّنا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وآيات أخرى تحرّم علينا الخمر والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل الربا ومزاولة السحر، ومقاربة النساء في ظروف معينة، ونكاح المؤمنين المشركات وتزويج المشركين المؤمنات، وإثارة الفتن بتهديد الحرّيّات والإكراه في الدين، ومقاطع تتفاوت إطناباً وإيجازاً توضح أحكام القتال والقصاص في القتلى، والوصيّة للوالدين والأقربين، معاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة، والنفقات والمستحقين لها من الناس، وقضايا الزوجية والطلاق والرضاعة والعدّة وخِطْبة المعتدّة ونفقتها ومتعة المطلّقة والإيلاء من النساء، وكتابة الدّيْن والإشهاد عليه، وأداء الرهان، ومسائل الأيْمان والعفو عن يمين اللغو.. كل ذلك بأسلوب يجمع إلى دقة الفقه والتشريع أجملَ التوجيه وأحلاه، في قصة تُحْكَى أو واقعة تُرْوَى، أو موعظة مؤثّرة تمسّ شغاف القلوب.

ولكي يتمّ التناسق بين البدء والختام، انتهت السورة بمثل ما استُهِلّت به من عرض تحليلي لخصال المؤمنين المتقين الذين وُصفوا في المطلع بأنهم يؤمنون بما أنزل إلى محمد – ﷺ – وما أنزل من قبله، وبالآخرة هم يوقنون، ثم وُصفوا في الخاتمة بأنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا يفرّقون بين أحد من رسله، ويقولون: "سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير". ويبتهلون إلى الله في دعاء ضارع مستغيث: أن يخفّف عنها التكاليف والآصار، ويكتب لها النصر على القوم الكافرين. وهكذا دارت السورة بدءاً ووسطاً وختاماً حول موضوع واحد منسجم متناغم، يصوّر بوجه عام مواقفَ الناس إزاء هداية القرآن، ويبين معالم الصراط المستقيم الذي يطلب المؤمنون من ربهم الهداية إليه كل حين. ويعتني بوجه خاص بتصوير أدق اللمحات

للمتقين الذين اهتدوا بوحي القرآن، وآمنوا بالله أخلص الإيمان، وتحملوا تكاليف الدين في خضوع وإذعان.

هذا إيمان الرسول ومن كان معه على إيمانه وأنهم قالوا: "سمعنا وأطعنا". لا كقول بني إسرائيل "سمعنا عصينا". فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء مما نُبِّه عليه وأن يأخذ نفسه بكذا وكذا، وأن ينسحب إيمانه على كل ذلك، وأن يسلم الأمر لله الذي يَطلُب منه الهداية ويتضرع إليه بأن لا يؤاخذه لما يثمره الخطأ والنسيان وألا يُحمّله ما ليس في وسعه وأن يعفو عنه.

فما أجمل ما اجتمعت عليه هذه السورة المباركة على تنوع مواضيعها وتنقلها البديع من غرض لغرض ومن معنىً لمعنى، ومن أسلوبٍ لآخر. بلاغةً وفصاحةً وطلباً للانتباه الدائم ودفعا للملل.

(تلك هي سورة البقرة.. أرأيت وحدتها في كثرتها؟ أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقول أحسن دمية، بل أجمل صورة حية. كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم، وفقًا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومُزَكِّيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها.. فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجم منها –كسائر النجوم في سائر السور– كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية "معجزات" ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!). [١]

١–النبأ العظيم للشيخ الدكتور محمد عبد دراز رحمه الله (ص: 284)

بداية التفسير.

" ألم "، والحروف المقطعة.

جاء في تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاته– رحمه الله:

{الم} هذه فاتحة سورة البقرة، وقد تنوعت فواتح السور في القرآن الكريم تبعا لتنوع موضوعاتها، فمنها من بُدِئ بالثناء وإثبات الحمد لله، كما في سورة الفاتحة {الحمد لله رب العالمين} (الفاتحة: ٢)، وكما في سورة الأنعام: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور} (الأنعام: ١).

ومنها من بُدِئ بالنداء مثل: {يا أيها النبي} (التحريم ١، الطلاق ١)، {يا أيها المزمل} (المزمل: ١) {يا أيها المدثر} (المدثر: ١).

ومنها من بدئ بالقسم مثل {والصافات} (الصافات ١)، {والذاريات} (الذاريات ١)، {والطور} (الطور ١)، {والنجم} (النجم ١) ....

ومن سور القرآن ما بدأ ببعض الحروف الهجائية التي لا تكون كلمات مثل: ألف، لآم، ميم.

وفي القرآن صيغ مختلفة من هذه الفواتح منها ما هو ذو حرف واحد، وحرفين، وثلاثة، وأربعة، وخمسة.

وقد تكررت (أ ل م) في بداية ست سور: سورة البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

وليس لهذه الفواتح في لغة العربية معان مستقلة، ولم يرِد من طريقٍ صحيح عن النبي – ﷺ – بيانٌ للمراد منها، بَيْدَ أنه قد أُثِرَت عن السلف آراءٌ متعددة في معاني هذه الحروف، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين:

أحدهما: أنها جميعا مما استأثر الله به، ولا يعلم معناها أحدٌ سواه وهذا رأي كثير من الصحابة والتابعين، ومنقول عن أبي بكر الصديق أنها من سر الله الذي استأثر به لنفسه سبحانه.

ثانيهما: أن لها معنىً وقد ذهبوا في معناها مذاهب شتى.

١ – فمنهم من قال: هي أسماءٌ للسور التي بدئت بها، أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع في أخرى.

٢ – ومنهم من قال: إنها رموزٌ لبعض أسماء الله تعالى وصفاته، فنسب إلى ابن عباس في: كهيعص أن الكاف من الملك، والهاء من الله والياء من العزيز والصاد من المصور– ونسب إليه أنها إشارة إلى الكاف، هاد، أمين، عالم، صادق، وروي عن الضحاك في معنى آلر: أن الله أرفع.

٣ – ومنهم من قال: إنها قسمٌ أقسم الله به لبيان شرف هذه الحروف وفضلها إذ هي مباني كتابه المنزل على رسوله.

٤ – ومنهم من قال: إن المقصود بها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم.

٥ – ومنهم من قال: إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة واستدراجها إلى استماع القرآن والإنصات إليه، فقد كان العرب يتواصون بعد الاستماع إلى القرآن، فلما سمعوا هذه الحروف أنصتوا إليها ثم استمعوا إلى ما بعدها. انتهى كلامه

ونبدأ بالمتفق عليه من نقاطٍ حول هذه الحروف فنقول:

- الحروف المقطعة. هى حروفٌ عربية افتتح الله بها سبحانه تسع وعشرين سورة من سور القرآن العظيم. تُقرأ بأسمائها في التهجي على التقطيع والفصل، فمثلاً " ألم " تقرأ (ألف لام ميم)؛ فهذه خصيصتها الأولى.
- وهي أربعة عشر حرفاً بغير التكرار (أى = نصف الحروف الأبجدية العربية تقريبا)!! كما أنها حوت فوق كل ذلك من كل جنسٍ من الحروف– في نطقها ومخارج لفظها– نصفه، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المهجورة، ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المُطْبِقة ونصف المنفتحة.
- وقد وردت كحرفٍ واحدٍ مثل (ق، ن)، و حرفين مثل (حم)، و ثلاثةٍ مثل(ألم، ألر، طسم)، وأربعةٍ مثل(ألمر)، وخمسة حروف مثل (كهيعص).
- وتكررت منها حروف في سورٍ مثل ("ألم" في ست سور، و"حم" في سبع سور)؛ ومنها ما لم يتكرر مثل (ن، ق).
- وقد ورد بعدها في أكثر الأحيان ذكر القرآن إما على سبيل التحدي أو الوصف أو القسم به أو الإشارة لهداياته الكريمة. كَقَوْلِهِ تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ} {الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِل. انتهوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، {المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ

لِتَشْقَى} {طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} {يس وَالْقُرْآنِ} {ص وَالْقُرْآنِ} {حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ} {ق وَالْقُرْآنِ} إِلَّا ثَلَاثَ سُوَرٍ: الْعَنْكَبُوتِ، وَالرُّومِ، و"ن" لَيْسَ فِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

- جمع بعض العلماء هذه الحروف وحذف المكرر منها فوجدها ترتب جملة (نصٌ حكيمٌ قاطعٌ له سر)!

وقبل أن نبدأ النقاش حوله. ان هناك عدة حقائق تتصل بها يجب أن توضع في الحسبان ابتداءً:

١. هذه الحروف ليست عبثاً، وليست مما لا معنى له؛ بل لها في ذاتها معانٍ وحقائق.

والدليل على ذلك أن العرب الذين نزل فيهم القرآن وهم أفصح الخلق في لغة القرآن. وعلى حرصهم على محاربة هذا القرآن ورميه بكل نقيصة، لم يساورهم قط ولم ينقل عنهم أنهم اعترضوا على القرآن العظيم وشغبوا عليه بأن فيه طلاسم وغمغمات من الحروف لا معنى لها في ذاتها. بل إن سكوتهم عن هذا هو مما يدل على أنهم عرفوا أن لها معانٍ معجزةٍ في ذاتها وإن لم يعلموها. وفي هذا ردٌّ على الملحدين والعلمانيين الذين يشغبون على القرآن ولا يحسن أحدهم معرفة اسمه من لغة العرب..

٢. إن المتأمل المتدبر المدقِّق في خصائص وترتيب هذه الحروف ومواقعها وإحصائياتها العديدة ليواجه حقيقةً واحدةً أن هذه الحروف لها سرٌ عظيمٌ وإعجازٌ هائل علاوة على معانيها وإن خفيت علينا.

فالواقع أنها ليست عشوائية أبداً. وأضرب مثلاً واحداً فأقول: (إنه ليس في سور القرآن سورة كثر فيها حرف القاف كما في سورة "ق". حتى إن لفظ القرآن ليذكر في كل سوره " قوم لوط" إلا في سورة " ق" نجد اللفظ " إخوان لوط" عدولاً عن حرف القاف في وصفهم، وربما ذلك للحفاظ على تناسقٍ وإحصاءٍ معين لحرف القاف ليحافظ على سرٍ خاص لهذا الحرف في هذه السورة. وهذا من أعجب الاعجاز لمن تأمله).

ففي فصلٍ عجيبٍ جدا يتحدث الإمام الزركشي فِي الْبُرْهَانِ في مناسبة الحروف المقطعة في أوائل السور مع السور التي افتُتِحت بها يقول:

(ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعة، واختصاص كل واحدة بما بُدِئت به حتى لم يكن لترد "الم" في موضع "الر" ولا "حم" في موضع "طس".

قال: وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها؛ فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له.

فحُقَّ لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها فلو وضع "ق" موضع "ن" لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله. وسورة "ق" بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر (القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد والرقيب، والسائق،

والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، والقلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد... وغير ذلك).

وقد تكرر في سورة (يونس) من الكلم الواقع فيها "الراء" مائتا كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت ب " أ ل ر".

واشتملت سورة "ص" على (خصومات) متعددة فأولها خصومة النبي – ﷺ – مع الكفار وقولهم: {أجعل الآلهة إلها واحدا} ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم، ثم في شأن بنيه وإغوائهم...

و " أ ل م" جمعت المخارج الثلاثة الحلق، واللسان، والشفتين على ترتيبها، وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق، والنهاية التي هي بدء الميعاد، والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي. وكل سورةٍ افتُتِحت بها " أ ل م" فهي مشتملةٌ على الأمور الثلاثة.

وسورة الأعراف زيد فيها الصاد على " أ ل م" لما فيها من شرح القصص قصة آدم فمن بعده من الأنبياء، ولما فيها من ذكر {فلا يكن في صدرك حرج}، ولهذا قال بعضهم معنى " أ ل م ص" {ألم نشرح لك صدرك}، وزيد في الرعد راء لأجل قوله: {رفع السماوات} ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما). انتهى [(١)]

أقول– المحقق : قد لا أسلّم لجميع تلك اللطائف والنكت، ولكني لا أخالف الأصل الذي بناها عليه العلماء في بعض أسرار هذه الحروف، وأنها من اللُحمة بمكانها في سورها بحيث لا تكتمل البلاغة إذا بُدِّلت او أزيلت من أماكنها.

٣. أنَّ عدم معرفة معاني هذه الحروف لا يقدح في بيان وفصاحة وبلاغة القرآن أبداً عند التحقيق.

- أولاً: ذلك أنَّ القرآن العظيم هو كلام الله.

وكل مدعٍ أنه أحاط بكل معانيه هو كذَّاب مفضوح لأن البشر لا يجرؤون أن يدعي أحدهم إحاطته بكل معاني خطاب مثيله من الخلق، لما في النفوس من تباين المعلومات والثقافات والعقول، ولكن ما نفهمه من بعضنا البعض هو ما يعيننا على المعاملة وقضاء حوائجنا والتعبير عن ذواتنا. فكيف يدعي مدعٍ وجوب الإحاطة بكل معاني كلام الله العظيم العليم الحكيم القدير. وقد قال ابن عباس رضى الله عنه –كما نقل ابن كثير رحمه الله –: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ، فَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا،

(١) نقلا عن (الاتقان للسيوطي)

وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ منه فآمنوا به».

وإن للكاتبين والمتحدثين من البشر ما يستأثرون بسر معناه من جملة كلامهم؛ وإلا كان كلامهم ضعيفاً ركيكاً لا يدل على علو عقل المتكلم به. ولله المثل العلى " ليس كمثله شئ " أختص ذاته بمعانٍ من كلامه لم يطلع عليها أحداً من خلقه. واختص صفوةً من خلقه بمعانٍ لم يطلع عليها غيرهم. ولا يدل ذلك إلا على علو كلامه تعالى على كل كلام مع فصاحته وبيانه.

- ثانياً: أن القرآن كتاب الدين الإسلامي الحق، والدين في معناه ومغزاه يجب أن يشتمل على عنصرين رئيسين.

أحدهما: الغيب الذي يُبتلَى (يُختبَر) فيه المدعي ديناً ليُعرَف حقيقة إيمانه. فالإيمان في الحقيقة هو التصديق بالغيب وإلا فهو ادعاء كاذب، فما تراه وتعرفه وتدرك كل معانيه لا يقال له إيمان. ولا ينعقد عليه صحة الدين.

ومن هذا العنصر الحروف المقطعة في أوائل السور، وغيرها من المتشابهات التي وردت في القرن ولا يعلم حقيقة تأويلها إلا الله سبحانه فهي ابتلاء لمدعي الإيمان حتى يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)} (آل عمران: 7) فيثبت إيمانهم. وسيأتينا على هذا المعنى مزيد شرح وبيان في كلامنا على هذه الآية من سورة آل عمران بإذن الله تعالى.

ولذلك جاء في أول احتكاك مع هذه الحروف المقطعة الإشارة إلى هذا المعنى من الإيمان واليقين في الغيب {الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)} (البقرة: 1 – 3). فجعل أكثر الهدى والاهتداء بالقرآن للمؤمنين بالغيب، فهم أكمل الناس انتفاعا به ومن عداهم فله نصيب بإذن الله وهدايته..

والعنصر الآخر من عناصر الدين: هو المنهج ودستور السير والعمل في الحياة. وفي هذا العنصر يتحدث القرآن فيبين ويحكم آياته بلا لبس ولا غموض معنى. ليستنبط أولى العلم الأحكام والهدايات الربانية في السر في الحياة مفصلة وواضحة. وهذا القسم لا غبار عليه وهو الآيات المحكمات.

وإن المؤمنين وأولى العلم منهم خاصةً يردون المتشابه الذي لا يعلم حقيقة معناه إلا الله تعالى إلى المحكم الذي لا لبس في معانيه. وبذلك لا يضر القليل من المتشابه كالحروف المقطعة وغيرها في بيان ووضوح وفصاحة وبلاغة القرآن العظيم..

يقول العلامة صبحي الصالح:

على أنّ في مستهلّ السورة حروفاً ثلاثة مقطعة ((ألفْ – لامْ – ميمْ))، فما هي حقيقتها؟ وإن تكُ سراً استأثر الله بعلمه فما حكمة تنزيلها وعدّها هي ونظائرها في بعض السور آيات تتلى وترتّلُ ترتيلاً؟

ولقد مضى السلف الصالح يعتقدون بأنّ هذه الفواتحُ نظِمت في القرآن على هذا النمط منذ الأزل لتعجز البشر عن الإتيان بمثل هذا الكتاب المجيد لو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وآثروا – رغم خوضهم في حكمة ورودها – أن يحيطوها بِجوّ من التورع عن تفسيرها، والتخوّف من إبداء رأي صريح فيها، فهي من المتشابه الذي لا يعلم تأويلَه إلا الله، وهي سرّ هذا القرآن.

والاعتقاد بأزلية هذه الحروف قد أحاطها بالسرّية، وسرّيّتها قد أحاطتها بالتفسيرات الباطنية، وتفسيراتها الباطنية خلعت عليها ثوباً من الغموض لا داعي إليه، ولا معوّل عليه.

وأدخَلُ تلك الآراء معنى الغموض قولُ مَنْ عدّ هذه الحروف على حساب ((الجمل)) ليستنبط منها مدة بقاء هذه الأمة، أو التنبيه على كرامة شخص أو شيعة معينة: زعم بعضهم مثلاً أن عدد هذه الحروف – مع حذف المكرّر – للإشارة إلى بقاء هذه الأمة، وزعم آخرون أن بعض الأئمة استخرج من قوله تعالى (الم. غُلبت الروم) أنّ بيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، وأن الأمر وقع كما قال! وهذا الضرب من الاستخراج الحسابي يعرف باسم (عدّ أبي جاد)، وقد شدّد العلماء في إنكاره والزجر عنه، وأكدوا أنه من جملة السحر، وأنه لا أصل له في الشريعة، وللمتصوفة في هذا المجال آراء أبعد شطحاً، وأغرب لفظاً، وأغمض معنى، تستمدّ سرّيّتها من مصطلحاتهم وأسرارهم، وتنبئ عن مدى توغّلهم في الشطحات الغامضة البعيدة.

ورأى بعضهم أنّ هذه الفواتح حروف مقطّعة كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى، أو يكتفى به عن كلمة تؤلف مع سواها جُملاً يتصل معناها بما بعدها أو يشير إلى الغرض من السورة المفتتحة بها، كقولهم في (ألر): أنا الله أرى، وفي (طسم): طور سيناء وموسى، لأن السورتين اللتين تفتتحان بهذه الحروف تقصّان خبر صاحب التوراة في طور سيناء.

ولا يخفى على أحد ما في هذه الآراء كلها من التخرصات والظنون: فقد قيل في كل مما ذكرنا أقوال مختلفة يذهب فيها الباحثون مذاهب شتى. وأمثال هذه التأويلات لا تتناهى ولا تقف عند حدّ، وما هي إلا آراء شخصية مردّها هو كل مفسّر وميله.

وآثر قوم أن يقولوا: إن الفواتح برمّتها، وعلى اختلاف صيغها، اسم الله الأعظم، عُبّر عنه تعبيرات مختلفة تباين ما عهدناه في تأليف كلامنا.

وشبيه بهذا رأي من قال: إن أوائل السور قَسَم أقسم الله فيه بنفسه، لأن كل فاتحة منها اسم من أسماء الله، ولا يبعد عن هذا التأويل اعتبار هذه الحروف أسماءً علَمية للقرآن بوجه عام، أو لبعض سور القرآن المُفْتَتَحة بها بوجهٍ خاص.

ثم قال رحمه الله تعالى: ما الذي نختاره إذن لتفسير هذه الفواتح أو لتبيان الحكمة من إيرادها في بعض السور على الأقل؟

يخيّل إلينا – ونسأل الله ألا نكون مخطئين – أن رأي الإمام السيد رشيد رضا في هذه الفواتح هو أقربها إلى الصواب. ونرى لزاماً علينا أن ننقل عبارته بنصها من تفسير المنار: ((من حسن البيان وبلاغة التعبير، التي غايتها إفهام المراد مع الإقناع والتأثير، أن ينبّه المتكلمُ المخاطبَ إلى مهمّات كلامه والمقاصد الأولى بها، ويحرص على أن يحيط علمه بما يريده هو منها، ويجتهد في إنزالها من نفسه في أفضل منازلها. ومن ذلك التنبيه لها قبل البدء بها لكيلا يفوته شيء منها. وقد جعلت العرب منه هاء التنبيه وأداة الاستفتاح، فأيّ غرابة في أن يزيد عليها القرآن الذي بلغ حد الإعجاز في البلاغة وحسن البيان، ويجب أن يكون الإمام المقتدى، كما أنه هو الإمام في الإصلاح والهدى؟! ومنه ما يقع في أثناء الخطاب من رفع الصوت وتكييفه ما تقتضيه الحال من صيحة التخويف والزجر، أو غُنّة الاسترحام والعطف، أو رنّة النعي وإثارة الحزن، أو نغمة التشويق والشجو، أو هيعة الاستصراخ عند الفزع، أو صخب التهويش وقت الجدل، ومنه الاستعانة بالإشارات وتصوير المعاني بالحركات، ومنه كتابة بعض الكلمات أو الجمل بحروف كبيرة أو وضع خط فوقها أو تحتها...)) إلى آخر ما ذكره.

وإن انطباقَ هذه الحكمة على الواقع النفسي لمن كان القرآن موجهاً إليهم حين نزول الوحي، لا يزيدنا إلا استمساكاً بهذا الرأي. ولأمر ما افتتحت جميع السور التي في أولها حروف مقطّعة بذكر الكتاب، وهذا ينطبق

حتى على سور: مريم، والعنكبوت، والروم، و "ن"، لأنها – وإن لم تفتتح بذكر الكتاب – قد اشتملت على معان تتعلق بإثبات الوحي والنبوة.

ومن المعلوم أن هذه السور كلها مكية إلا البقرة التي نفسرها وآل عمران التي تليها. فأما المكية فلدعوة المشركين إلى إثبات النبوة والوحي، وأما الزَهْرَاوَان (أي البقرة وآل عمران) فلمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وتحريك دواعي النظر عندهم للإيمان بالدين الحنيف. ويزداد هذا الرأي وضوحاً إذا سلّمنا بأن الزَهْرَاوَيْن كانتا من أوائل السور نزولاً في المدينة كما هو المشهور، وبنزولهما مفتتحَتَيْن بهذه الحروف المقطّعة تمّت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجديدة وإثارة اهتمامهم بها، فلم يعد في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهرواوَيْن حكمة ظاهرة باهرة، ولذلك نزل الوحي بعدهما خالياً من تلك الفواتح.

فإذا استُهلّت سورة البقرة بهذه الحروف المقطّعة (الم) فالحكمة – والله أعلم وأحكم – إثارةُ أهل المدينة، ولا سيما اليهود وبعض العرب الذين لمَّا يعتنقوا الإسلام، إلى الاهتمام بما يوحيه الله إلى نبيّه في القرآن "ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين". انتهى [١]

وبعد نقل تلك الآراء ومنها ما قدمه الزمخشري من نقاش طويل حول تقسيم الحروف وما ذُكر منها في الحروف المقطعة وما لم يذكر يأتي تحقيق للشيخ الشوكاني يقول رادًّاً على تكلف الزمخشري:

(هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال، فهذا متيسر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتا وإلزاما يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضا مما لا يفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيئا منه، فضلا عن أن يكون تبكيتا له وإلزاما للحجة أيّاً كان، فإن ذلك هو أمرٌ وراء الفهم، مترتبٌ عليه ولم يفهم السامع هذا، ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ همه إلى بعض هذا فضلا عن كله.

ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمرٌ لا يتعلق به فائدةٌ لجاهلي ولا

---

١ من مقال بعنوان: أضواء على تفسير سورة البقرة للدكتور صبحي الصالح رحمه الله ، المصدر: مجلة الفكر الإسلامي–العدد2....

إسلامي، ولا مُقِر ولا مُنكِر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصح أن يكون مقصدا من مقاصد الرب سبحانه، الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به.

وهبْ أنَّ هذه صناعةٌ عجيبة ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحةٍ ولا بلاغة حتى يكون مفيدا أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر.

وأيضا لو فُرِض أنها كلماتٌ مركبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك، لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأنْ يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألغاز والتعمية، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في وِرْد ولا صدر، بل من عكسهما وضد رسمهما.

قال الشوكاني بعد نقاشه الحاد والرائع مع الزمخشري:

(وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازما بأن ذلك هو ما أراده الله –عز وجل، فقد غلط أقبح الغلط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعا إلى لغة العرب وعلومها فهو كذبٌ بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدودا عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه (قلتُ– المحقق: كمثل قول الشاعر: قلتُ لها قفي فقالت قاف ...؛ فقد تقدمه كلمة قفي التي تدل على أنّض المعنى المقصود هو : وقفتُ، والحروف المقطعة ليست كذلك، فلم يتقدمها ما يدل على معناها او يشير إليها فصارت من باب التعمية واللبس وهو محالٌ على كتاب الله تعالى).

وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين:

الأمر الأول: التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه، وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله –سبحانه– ملعبة لهم يتلاعبون به، ويضعون حماقات أنظارهم، وخزعبلات أفكارهم عليه.

الأمر الثاني: التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو الطريق الواضح، والسبيل القويم ، فمن وجد شيئا من هذا فغير مَلُوم أن يقول بمَلِء فَمِه، ويتكلم بما وصل إليه علمُه، ومَن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري، أو الله أعلم بمراده.

فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه (إلا بتوقيف علمٍ من الله ورسوله) ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغٌ، فكيف بما نحن بصدده؟

فإنه ينبغي أن يُقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلا، ولكلام العرب فيه مدخلا، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير.

وانظر كيف فهم اليهود عند سماع الم فإنهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها،

(ثم ذكر الشوكاني الأثر الضعيف السخيف في حساب أعداد الحروف على عادة اليهود لعنهم الله). [١]

ثم أكمل قائلا: فإن قلتَ: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟

قلتُ: لا أعلم أن رسول الله– ﷺ – تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه، والترمذي وصححه، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: "ا ل م" حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

فإن قلتَ: هل رُوِي عن الصحابة شيء من ذلك بإسنادٍ متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلي؟

(ثم ذكر الشوكاني ما رُوي عن بعض الصحابة من أن هذه الحروف هي أسماء للسور، أو رموز أسماء لله تعالى، أو قسم أقسم به الله تعالى)، ثم قال:

فإن قلتَ: هل يجوز الاقتداء بأحدٍ من الصحابة قال في تفسير شيءٍ من هذه الفواتح قولاً صَحَّ إسنادُه إليه؟

قلتُ: لا، لما قدمنا، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله ﷺ – أم من عند نفسه.

فإن قلتَ: هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا مدخل للغة العرب، فلم لا يكون له حكم الرفع؟

---

(١) ثم قال: فانظر ما بلغت إليه أفهامُهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيءٍ، وتأمل أي موضعٍ أحق بالبيان من رســول الله –   – من هذا الموضــع، فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع (ا ل م)– ذلك الكتاب من ذلك العدد موجبا للتثبيط عن الإجابة له والدخول في شريعته، فلو كان لذلك معنى يعُقَل ومدلولٌ يُفهَم، لدفع رسول الله – ﷺ – ما ظنوه بادئ بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاءوا به من التشكيك على من معهم.

قلتُ: تنزيلُ هذا منزلةَ المرفوع، وإنْ قال به طائفةٌ من أهل الأصول وغيرهم، فليس مما تنشرح له صدورُ المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام وهو التفسير لكلام الله سبحانه.

فإنه دخولٌ في أعظم الخطر بما لا برهانَ عليه صحيحٌ إلا مجرد قولِهم (إنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد)، وليس مجرد هذا الاستبعاد مُسَوِّغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد.

على أنه يمكن أن يذهب بعضُ الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيرا في تفاسيرهم المنقولة عنهم، ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه. وهاهنا مانعٌ آخر، وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلفٌ متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدُهم دون الآخر كان تحكُّماً لا وجه له، وإن عملنا بالجميع كان عملا بما هو مختلف متناقض ولا يجوز.

ثم هاهنا مانعٌ غير هذا المانع، وهو: أنه لو كان شيء مما قالوه مأخوذا عن النبي – ﷺ – لاتفقوا عليه ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه.

فلما اختلفوا في هذا علمنا أنه لم يكن مأخوذا عن النبي – ﷺ –، ثم لو كان عندهم شيء عن النبي – ﷺ – في هذا لما تركوا حكايته عنه ورفعه إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها).

قلتُ– المحقق: وأزيد على هذه النقطة الأخيرة ما حققه العلامة الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله) يقول ما مختصره:

(وقد اتصل تفسير القرآن، عند ابن عباس، بعناصرَ زائدةٍ على العنصرين اللذين قدمناهما في الحديث الماضي: وهما عنصر أسباب النزول، وعنصر مُبهَم القرآن.

فكان ابن عباس يضيف إليهما عنصراً لغوياً: في فهم معنى المفرد، أو فهم سر التركيب، ويتخذ مادة لذلك من الشعر الجاهلي. فكان كثيراً ما يقول عندما يُسأل عن معنى من تراكيب القرآن فيقرره: أما سمعتم الشاعر يقول كذا، وينشد البيت كما أثبت ذلك ابن سعد في "الطبقات"..

وعنصر آخر أضافه ابن عباس، على ما نُقل عنه في المصادر المعتمدة، إلى تفسير القرآن: هو عنصر الأخبار التي لم تجئ في حديث النبي ـ ﷺ ـ مما يرجع إلى بيان مبهمات القرآن: وذلك ما كان يرجع فيه إلى مصادر المعرفة المتوفرة لديهم يومئذ من التاريخ العام وأخبار الأمم، لا سيما الأمتين الكتابيتين: اليهود، والنصارى.

ومن الظاهر أن هذين العنصرين، وإن وجدا في بعض كلام ابن عباس، لا يصح اعتبارهما من التفسير بالمأثور، لأن مرجعهما إلى الفهم وإلى المعرفة العامة مما يجوز أن يكون محل خلافٍ مقبولٍ من طرف من يفهم فهماً غير الفهم الذي ارتضاه ابن عباس، اعتماداً على شاهدٍ مخالفٍ غير الذي اعتمد عليه، أو جنوحاً إلى تخريجٍ للتركيب على غيرِ ما خرَّجه عليه.

أو يكون محل خلافٍ معتبرٍ أيضاً من طرفِ الذي عنده معرفة أمرٍ من التواريخ أو أخبار الكتب السماوية القديمة يختلف عما عند ابن عباس، ويمكن توسيع المفاد القرآني به على خلاف ما رأى ابن عباس في توسيع المفاد القرآني بما لديه من المعرفة.

ومن هنالك بدأ التفسير بالمأثور، يختلط بلونٍ آخر من التفسير: يقبل اختلاف الأفهام، واختلاف التقادير، واختلاف الاجتهاد في استنباط المعنى، تبعاً لاختلاف ما يرجع إليه الاستنباط: من فهم لغوي، أو معرفة تاريخية لم تُؤْثَر عن السنة النبوية.

وكما كان التفسير بالمأثور يرِد هذا المورد الممزوج بغير المأثور عند ابن عباس، كان يرد كذلك عند غيره من الصحابة المختصين بالتفسير...) انتهى.

وبعد هذه المناقشة الرائعة والتحقيق الموفق يخلص الشوكاني لنتيجةٍ جيدة فيقول:

(والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله –عز وجل– لا تبلغها عقولُنا ولا تهتدي إليها أفهامُنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوزه، وسيأتي لنا عند تفسير قوله تعالى: {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} كلام طويل الذيول، وتحقيق تقبله صحيحاتُ الأفهام، وسليماتُ العقول). انتهى.[١]

ولقد آثرت ان أسترسل في هذا المبحث لما في ذلك من فوائد منهجية مهمة في التعامل مع كتاب الله ومحاولات التدبر والفهم لكلام الله تعالى. وليتأمل القارئ مشكورا ما رميتُ إليه بقراءةٍ متأنيةٍ لهذا المبحث..

في صفات المؤمنين (الآيات 2–5)

١ راجع فتح القدير للشوكاني (1/ 34–38) بتصرف واختصار يسير.

{الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) } (البقرة: 2 – 5)

في قوله { الم } يقول العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل {الم ذَلِكَ الكتاب} {المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ} (الأعراف: 1 – 2) {الم تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم} (لقمان: 1 – 2) {حم والكتاب المبين } (الدخان: 1 – 3) وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن. . انتهى

تقف هذه الحروف بالقرآن موقف المتحدي على عظمته ليس بالسورة، أو الآية، وليس بالكلمة. وإنما هوإعجاز وتحدي القرآن للدنيا كلها بالحرف.

{ذلك الكتاب} الذي نزل على محمد – صلوات الله عليه – هو الكتاب الكامل الحق الذي لا يدانيه كتاب. [١]

{لا ريب فيه} أى لا شكَ ولا تردد ولا جدال أنه من عند الله تعالى لمن تبصر وأعمل عقله وقلبه.

والمعنى: ليس هذا الكتاب محلا لأن يرتاب عاقل منصف في أنه منزل من عند الله، أو في هدايته للبشر، لأن معه من الدلائل ما لو تأمله لم يتطرق إلى نفسه أدنى شك في ذلك. والريب: الشك والظِنَّة والتهمة. مصدر رابه الأمر إذا حصل عنده فيه ريبة، وقال ابن الأثير: هو الشك مع التهمة. [٢]

{فيه هدى} وسر تنكير (هدى) أن كل أنواع الهداية والصلاح والرشاد فيه لمن يبحث عن الحق والخير.

{هدى للمتقين} جمع متقٍ، وهو المؤمن المطيع لأوامر الله. وأصلُ الاتقاء هو اتخاذ الوقاية التي تحجز عن الشر، فكأن المتقي يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزاً واقيا بينه وبين الغضب والعقاب الإلَهي، وللمتقين من الاختصاص بمزيد وعظيم الانتفاع به ما ليس لغيرهم لأنهم يقرأونه قراءة المؤمن المستبصر؛ أما الجاحدين المنكرين فهو عليهم عمىً.

---

(١)و الكتاب: مصدر كَتَبَ كالكَتْب. و أصل الكتب ضَمُّ أديم إلى أديم بالخياطة، واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط.

(٢)تفسير القرآن الكريم للشيخ حسنين مخلوف (ص: ٤، بترقيم الشاملة آليا)

ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال سبحانه: {الذين يؤمنون بالغيب} أى يُصَدِّقُونَ بِحَزمٍ وإذعَانٍ بما لاَ يَقَعُ تَحْتَ حَواسِّهِمْ، وعند التحقيق نجد أن للإيمان معنىً يزيد كثيرا على مجرد معنى التصديق حتى في اللغة العربية مجردةً، فلا يصح ان يُقال: أنا أؤمن أن صديقي ذهب إلى المدرسة، ويكون معناها تماما أنني أصدق ذلك.

وهم يؤمنون ب(الغَيْبِ) فَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ، وَبِمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَنَّتِهِ وَلِقَائِهِ، وَبِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ.

فأول أصول التقوى فيهم الإيمان بالغيب؛ ذلك الذي غاب عن ادراكهم ولكن رأوه بقلوبهم وعقولهم في كلام الله وكلام رسوله، فكان إيمانهم نوراً يسيرون به في الحياة ليشهدوا عظمة الله في الخلق والأمر.

وقال أهل المعاني : ربما يكون المقصود (بالغيب) الحال اى غائبين عما آمنوا به، أي أنهم يؤمنون إيمان الذي لم يرَ ما يؤمن به، وهذا الإيمان بالقلوب والعقول هو الأقوى.

رُوِيَ أَن أَصْحَاب عبد الله بن مَسْعُود ذكرُوا أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ وَإِيمَانهمْ فَقَالَ عبد الله بن مَسْعُود إِن أَمر مُحَمَّد كَانَ أمرا بَينا لمن رَآهُ وَالَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هوَ مَا آمن مُؤمن أفضل من إِيمَان بِغَيْب ثمَّ قَرَأَ: {الَّذين يُؤمنُونَ بِالْغَيْبِ} الْآيَة. [١]

وملاك التقوى هو الإيمان، فلا تقوى لمَن لا إيمان له، فإذا جاء الإيمان على تلك الصورة، كان داعيةً لأن يقيم الإنسان على طريق التقوى، وأن يؤهّله لتلك الصفات التي وصف الله سبحانه بها المتقين: الذين {يقيمون الصلاة} وهي أول الدين بعد الإيمان لأنها الصلة بين الخلق والخالق؛ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس: إقامتُها: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع.

{ومما رزقناهم} أى من أطيب رزق الله لهم وأحسنه، أو ينفقون بعضه مما لا يضر بهم وليس كله { ينفقون } في الزكاة والجهاد والصدقة وكل إنفاقٍ في سبيل الله؛ ليصير المجتمع ربانياً مترابطاً متكافلاً.

قال ابن كثير: كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكلٌ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة. . انتهى

١–رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن يزِيد قَالَ ذكرُوا عِنْد عبد الله بن مَسْعُود ... إِلَى آخِره سَوَاء وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ. انظر تخريج أحاديث الكشاف (1/ 43)

والمتقون في كل عصرٍ سواء كانوا من الأمم السابقة أو اللاحقة {يؤمنون بما أنزل إليك} أي يصدقونه بكل ما جئت به عن الله تعالى إيماناً مفصلاً يملك عليهم حياتهم ويصرّفها وفق نور الله سبحانه.

{وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ} أي ويؤمنون إيماناً مجملاً بما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله.. إيماناً يجعل النور الرباني والهداية حلقةً متصلةً عبر البشرية؛ وعلى لسان كل الرسل. وهذا الإيمان بالإله الواحد وبرسالةٍ واحدةٍ تأتي بثمرة التقوى وتحقيق انتقالها من الوجدان الإنساني إلى أرض الواقع والحياة، وهي الاستعداد ليوم الحساب بمراقبة الله في كل حركات المؤمن.

فأهل التقوى {وبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} باليوم الآخر، وما فيه من حساب، وثواب، وعقاب وجنة ونار. يقيناً يحرّك العزائم للعمل الصالح، ويباعد عن الرذائل والمعاصي والدنايا.

وهنا يختتم السياق وقد انتقل الحديث عن هذا الكتاب العظيم وإعجازه وكماله، وهدايته للمتقين، وصفات هؤلاء المتقين وصفات إيمانهم وأعمالهم إلى إثبات الفلاح والصلاح لهؤلاء الذين التمسوا الرشاد والسداد في هذا القرآن { أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

وهكذا تذوب خلجات النفس بين يدي كتاب الله تعالى، وتبدأ الروح في الصعود في ذلك المعراج الخفي ترى ذلك الينبوع النوراني المتدفق بين الآيات يُسْلِم الوجدان من آيةٍ لأختها بسلاسةٍ رائعةٍ وترابطٍ معنويٍ فريدٍ يصيح بأن هذا الكلام كلام الله.

دراسة الآيات.

إن المتدبر لكتاب الله– تعالى– ليجد في كل كلمةٍ؛ بل كل حرفٍ يأخذ بعنق أخيه ويتدفق معه المعنى تدفق الماء الزلال يسيل على مروجٍ من ذهبٍ لامعٍ وياقوتٍ بارعٍ . وعجيبٌ أمر هؤلاء الذين لا يتوقفون أمام روعة تدفق الإعجاز والجمال والدقة في الأداء النفسي والبلاغة في كتاب الله. {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)} (النساء: 82). {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)} (محمد: 24). نسأل الله تعالى أن يعيننا الوقوف على بعض أسرار جمال وروعة وجلال كلام الله تعالى.

- قوله تعالى: {ذلك الكتاب} قال بعض المفسرون:(ذلك) بمعنى: هذا.

قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين:«إن قلتَ»: إن القران قريب فلا يشار له بإشارة البعيد؟

أجاب المفسر (الجلال السيوطي- رحمه الله) بقوله: (والإشارة به للتعظيم)، أي والقرآن وإن كان قريبا مًنا إلّا أنه مرفوع الرتبة وعظيم القدر من حيث إنه منزهٌ عن كلام المخلوقين، وذلك كمناداة المولى سبحانه وتعالى ب(يا)التي ينادي بها البعيد مع كونه اقرب إلينا من حبل الوريد، لكونه سبحانه منزها عن صفات الحوادث، فنزل تنزهه عن الحوادث منزلة بعدنا عنه. انتهى

وقال الزمخشري في الكشاف: وقعت الإشارة إلى " الم " بعد سبق التكلم به وتقضَّيه، والمنقضي في حكم المتباعد، وهذا في كل كلامٍ؛ كما يحدّث الرجل بحديث ثم يقول: وذلك ما لا شك فيه، وكما قال اللَّه تعالى: {لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ}. وقال أيضا على لسان يوسف: {ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي}.

وقيل معناه: ذلك الكتاب الذي وَعد الله به الناس من قبلُ... ثم قال رحمه الله: (ومعناه: أنّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا، كما تقول: هذا هو الرجل، أى الكامل في الرجولة، الجامع لما يكون في الرجال من مَرْضِيَّات الخصال. وكما قال الشاعر: وإن الذي حانت بفلج دماؤهم... هُمّ الْقَوْمُ كلُّ الْقَوْمِ يا أُمَّ خَالِدِ. انتهى

قلتُ: وانظر إلى تلك المفارقات العجيبة التي تشهد بصدق نبوة محمد -ﷺ- فهو أُمِيٌّ، لا يقرأ ولا يكتب، يصطفيه الله للنبوة، ويختاره لرسالةٍ دستورُها القرآن الكريم، الذي يتلقاه وحيا من السماء على مدى نيف وعشرين سنة. ثم تكون «اقْرَأْ» أول كلمة تفتتح بها هذه الرسالة. ثم تتبعها جملة «عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» ويُسَمَّى دستوره {الكتاب} نسبةً إلى الكتابة، و{القرآن} نسبةً إلى القراءة؛ وهو الأمي الذي لا يقرا ولا يكتب {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت: ٤٧، ٤٨) فحين يأتي محمدٌ بأعظم كتابٍ تلقته البشرية علماً وبلاغةً وهدايةً؛ وهو الذي لم يتثقف على يد بشرٍ ولم يقرأ لأحدٍ قبله؛ هنا تكون أُمِيَّته- صلوات الله وسلامه عليه- هي أكبر دلالةٍ وآيةٍ على صدقه.

وفى هذا أيضا يُنبهنا الله- تعالى- لمحتوى جديد من محتويات رسالة نبيه الخاتمة، وهي الدعوة إلى القلم والقراءة والكتابة والعلم والثقافة. فذلك من النعم التي أنعم الله بها على عباده، إذ سرعان ما أقبل العرب الأميون على القراءة والكتابة، على أنها دعوةٌ من دعوةِ الدين نفسه، وفرضٌ من فروض الشريعة، فتعلَّموا وعلَّموا ما لم يكونوا يعلمون. ثم بنوا حضارة العلم والإيمان تجوب الدنيا كلها. هذا ليعلم الملحدون والمنافقون

الفاسقون أن العلم والإيمان هما قوام دين الله الحق {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)} (الأنفال: 42).

- قال الزمخشري [١]: والريب: مصدر راب، إذا حصلت الريبة.

وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها. ومنه ما روى الحسن بن على قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة، وإنّ الصدق طمأنينة» أى فإن كون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقرّ. وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن. ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من مصائبه. . انتهى

- وفي قوله تعالى: {لاَ رَيْبَ فِيهِ }. إن قيل: كيف يجوز أن يقال: لا شك فيه؟ وقد شك فيه كثير من الكفار والملاحدة والمنافقين؟

فيه ثلاثة أجوبة:

(أ) لا شك فيه عند المؤمنين به الذين يقرأونه عن إيمان ويقين؛ فينتفعون به وهو على الكافرين عمى لأنهم عموا عن الهداية فلا يبصرون نوره؛ كما قال البوصيرى في بردته:

قد تنكر العين ضوء الشمي من رمدٍ.. وينكر الفم طعم الماء من سقمِ.

(ب) وقيل: معناه لا شك فيه، أي لا ينبغي أن يشك فيه أحد؛ فهو أبعد ما يكون عن التهمة والريب.

لأن القرآن تحدي بإعجازه أرباب الفصاحة وحملة العلوم على مر العصور فلم يستطع محاكاته أو اظهار النقص فيه معاند مهما بلغ؛ فلا ينبغي أن يشك فيه أحد أنه من الله تعالى. قال الزمخشري: ما نُفى أنّه لا يرتاب فيه أحدٌ؛ وإنما المنفي كونه متعلقا للريب ومظِنَّة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه. ألا ترى إلى قوله تعالى:(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ). وقال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان: إن القران بالغٌ من وضوح الأدلة وظهور المعجزة ما ينفي تطرق أي ريب إليه، وريب الكفار فيه إنما هو لعمي أبصارهم كما بينه تعالى بقوله " أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى " {الرعد: 19}. فصرَّح بأن من لا يعلم أنه

١ في الكشاف (1/ 34-37).

الحق أن ذلك إنما جاءه من قبل عماه ومعلوم أن عدم رؤية الأعمى للشمس لا ينافي كونها لا ريب فيها لظهورها.

إذا لم يكن للمرء عينٌ صحيحةٌ... فلا غروَ أن يرتاب والصبحُ مُسْفِرُ . انتهى

وقال ابن الجوزي: ليس في الحق يا أمامه ريب ......إنما الريب ما يقول الكذوب. يشرحه صاحب تنوير الأذهان بقوله: إن هذا نفى الريب عن الكتاب لا عن الناس، والكتاب موصوف بأنه لا يتمكن فيه ريب فهو حقٌ صدقٌ معلومٌ ومفهوم. شك فيه الناس أولم يشكوا. كالصدق صدقٌ في نفسه وإن وصفه الناس بالكذب، والكذب كذب وإن وصفه الناس بالصدق، فكذا الكتاب ليس مما يلحقه ريب أو يتمكن فيه عيب. انتهى [١]

(ج) وقيل معنى " لا ريب فيه ": أي لا ترتابوا فيه فهو الصدق والحق والخير؛ كأنها جملة خبرٍ بمعنى الطلب كما قال تعالى في فريضة الحج : {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة:١٩٧] أي لا ترفثوا وتفسقوا. قلتُ: وهو أبعد الأقوال –عندي– لأن السياق سياقٌ خبري لا ينفك عن الخبر إلا بقرينةٍ واضحة. والآية في الحج السياق فيها سياق إنشائي لأنه جاء جواباً للشرط في قوله {فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ } وترتب عليه بحرف الفاء التي تفيد وجود أمرٍ بعدها، فتأمل.

- يقول العلامة الشنقيطي في تفسيره (أضواء البيان):

(فيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) {البقرة:2}. صرَّح في هذه الآية بأن هذا القرآن (هدى للمتقين)، ويفهم من مفهوم الآية – أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب – أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) {الإسراء:82}.

قال للتوفيق بين المعاني: ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، وليس المقصود الهدى العام، الذي هو إيضاح الحق. [٢]

وإلا فهدى القرآن أي دلالته على الله تعالى وطريقه هو للناس عامة، ولذلك فهو (الهدى العام) ومثاله قوله تعالى عن القرآن: {هدًى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان} (البقرة: ١٨٥) ، وقوله تعالى عن ثمود: {وأما

---

١ {تنوير الأذهان حـ1 صـ 18}

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٠)

ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} (فصلت: ١٧) أي هديناهم الهدى العام الذي هو الإرشاد إلى الله والدلالة على الحق، فاستحبوا العمى على الهدى الخاص الذي هو التوفيق للتوحيد والسير على منهج الله في عباده. فهذان هُدَيَان، وهو الذي يحل إشكالية مهمة في فهم نسبة الهدى إلى سيدنا محمد -ﷺ- تارةً ونفيه عنه تارةً أخرى كما في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى: ٥٢)، مع قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} (القصص: ٥٦). وعلى مثلها نفهم قوله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} (الأنفال: ١٧) فأثبت الرمي الذي هو فعل المكلف بالفعل، ونفى حقيقة وقوع النتيجة -إلا بإذن الله- وهو المالك المدبر لكل شيء. وفي ضوء هذا التحقيق يمكن حل إشكالات عدة في علم التفسير بجمع آيات القرآن النظائر بعضها مع بعض ومقارنتها لفهم ترابطها وافتراقها في معانيها، ويكون هذا تفسير القرآن بالقرآن وهو أعلى طرق التفسير كما صرح به المحققون. وهذه قاعدة من قواعد تفسير القرآن تُشد إليها الرحال.

- والمتقين: واحدهم متقٍ، والمتقى في اللغة اسم فاعل، من قولهم: وقاه فاتقى.

والوقاية: فرط الصيانة، من الاتقاء وهو الحجز بين الشيئين، ومنه يقال اتقى بترسه أي جعله حاجزا بين نفسه ومن يقصده. والمتقي في الشريعة الذي يجعل امتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه – حاجزا بينه وبين العقاب الإلهى.

فعن طلق بن حبيب ، قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله .

يقول العلامة البيضاوي: وللتقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: { وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى } أى التوحيد. كما قال تعالى في سورة الزمر:{ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}.

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثِم من فعلٍ أو تركٍ حتى الصغائر عند قومٍ، وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا".

الثالثة: أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق سبحانه ويتبتل إليه بقلبه وجوارحه، وهو معنى التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ ". انتهى [١]

(ورد أن عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى! قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى.

فذلك التقوى. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق. طريق الحياة. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً. وعشرات غيرها من الأشواك!)[٢]

يقول العلامة بن عاشور: والمتقون أي هم الذين تجردوا عن المكابرة، ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين، وخشوا العاقبة وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله. والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القرآن بقوةٍ وعزمٍ على العمل به. قال ابن العربي المالكي الفقيه: لم يتكرر لفظ في القرآن مثلما تكرر لفظ التقوى اهتماماً بشأنها. انتهى. [٣]

- إن المتأمل في براعة الأداء البلاغي القرآني يجد حسن الوقفات والتقطيع في الآيات إلى جملٍ مستقلة كلٌ منها يحمل بلاغته وفصاحته وأداءه المعنوي الرائع ثم يسلم القياد في تناسقٍ رائعٍ للجملة التي تليه بغير حروف ربط (عطف) فتجئ الجمل متآخية متعانقة متتابعة تنساب في خطٍ شعورى ومعنوي متصلٍ لا يتوقف وبلا رابطٍ سوى انسياب النظم والمعنى.

فيُقال إن قوله تعالى: (الم) جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. و (ذلِكَ الْكِتابُ) جملة ثانية. و (لا رَيْبَ فِيهِ) ثالثة. و (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) رابعة. فقد نبَّه أولا على أن الكلام المتحدَّى به من جنس حروفهم، ثم أشير إلى أن هذا الكلام هو الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريراً لجهة التحدي في هذه الحروف. ثم نفى عنه أن يتشبث بهذا الكتاب طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله، بدليل

---

١ – في أنوار التنزيل (1/ 36).

٢– راجع تفسير البغوي، وكتاب (في ظلال القرآن) (1/ 39)

٣ من {التحرير والتنوير حـ 1 ص 223. 225}

عجزهم عن معارضته بمثله وهو من جنس كلامهم. ثم أخبر عن هذا الكتاب الذي ثبت كماله عند ذوي العقول بأنه هدى للمتقين. وفي كل جملةٍ من هذه الجملة نكت من الفصاحة يدركها المتأملون. [١]

- قال ابن كثير – رحمه الله – في قوله تعالى {الذين يؤمنون بالغيب }:

قال ابن جرير وغيره: والأوْلى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقادا وعملا.

قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله والملائكة والقدر، وتصديق الإقرار بالفعل.

قال ابن كثير: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال إخوة يوسف لأبيهم: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} (يُوسُفَ: 17).

وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال؛ كقوله: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} (الِانْشِقَاقِ: 25، وَالتِّينِ: 6)، فأما إذا استعمل مطلقا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعا: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث في أول صحيح البخاري. انتهى. [٢]

قلتُ– جامعه–: كثيرا ما يستدلون على أنَّ معنى الإيمان في اللغة هو التصديق المحض بهذه الآية في سورة يوسف: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}. والحقيقة أنهم لم يتفطنوا لخصوصية الدلالة والبلاغة في القرآن العظيم واستعمالاته.

فالآية صريحة في نفي ما هو أعمق من مجرد التصديق عن سيدنا يعقوب الذي يمنعه الأدب الرباني من تكذيب أولاده وليس معه دليلٌ واضحٌ ضدهم سوى حدسه، فمجرد اظهار التصديق منه موجود، ولكنه ليس تصديق إقرارٍ ورسوخٍ يجعله لا يهم بالاستعانة بالله على ما وصفوا له، فلذلك قالوا: {وما أنت بمؤمنٍ لنا} ولم يقولوا: (وما أنت بمصدقٍ لنا) لإدراكهم الفرق، ولما بين المعنين من البوْن مما ذكرتُهُ. ويكون الاستدلال بأن الإيمان هو مرادف حرفي لمعنى التصديق المجرد استدلالا مشكوكا فيه. وهو ما رأيت شيخ الإسلام تكلم عن مثل معناه في كتابه (الإيمان).

(والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس– أو

---

١ مستفاد من تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 37).

٢ تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 165)

الأجهزة التي هي امتداد للحواس– وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الآثر في حياته على الأرض فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون قدرة الخالق العظيم.).انتهى [١]

- وفي قوله تعالى {وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)}

ذكر الصلاة والصدقة لأنّ هاتين أُصول العبادات البدنية والمالية، والأساس لغيرهما.

ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً، بأن استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين.

- قال الراغب: إقامة الصلاة توفية حدودها، وإدامتها.

وتخصيص الإقامة تنبيه على أنه لم يرد إيقاعها فقط. لهذا، لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة نحو قوله تعالى {أَقِمِ الصَّلاةَ} (هود: 114)، وقوله {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ} (الإسراء: 78)، {والَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ} (المائدة: 55). ولم يقل: المصلين، إلا في المنافقين: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ} (الماعون: 4– 5)، وذلك تنبيه على أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل– كما قال عمر رضي الله عنه: الحاجّ قليل والركب كثير– ولهذا قال عليه السلام «من صلى ركعتين مقبلا بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه». فذكر مع قوله «صلّى» الإقبال بقلبه على الله تنبيها على معنى الإقامة، وبذلك عظم ثوابه. وكثير من الأفعال التي حثَّ تعالى على توفية حقه، ذكره بلفظ الإقامة، نحو قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ} (المائدة: 66)، ونحو قوله: { وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ }(الرحمن: 9) تنبيها على المحافظة على ضبط الموازين والعدل. انتهى [٢]

- وإسناد الرزق إلى نفسه سبحانه {ومما رزقناهم} للإعلام بأنهم ينفقون من رزق الله لهم وماله الذي أعطاهم وليس من ملكهم.

---

١ في ظلال القرآن (1/ 39) بتصرف يسير.

٢ نقلا عن تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 244).

وأدخل (مِن) التبعيضية صيانةً لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهي عنه. كما قال عليه الصلاة والسلام: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وأبدأ بِمن تعول» [(١)]..

يقول صاحب أضواء البيان في قوله تعالى: (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) عبر في هذه الآية الكريمة «بِمِنْ» التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله. ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه، والذي ينبغي إمساكه. ولكنه بيَّن في مواضع أُخَر أن القدر الذي ينبغي إنفاقه: هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها، وذلك كقوله تعالى: {يسألونك ماذا ينفقون قل العفو} (البقرة – ٢١٩)، والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور.

ومنه قوله تعالى: {حتى عفوا}، أي: كثروا، وكثرت أموالهم وأولادهم.

وهذا القول راجح على ما ذكرنا، وبقية الأقوال ضعيفة.

وقوله تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} فنهاه عن البخل بقوله: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) ونهاه عن الإسراف بقوله: (ولا تبسطها كل البسط) ، فيتعين الوسط بين الأمرين، كما بينه بقوله: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (الفرقان \ ٦٧)

فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}.

فالظاهر في الجواب – والله تعالى أعلم – هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقامٍ مقالا، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا. وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقاتٌ واجبة، كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب، وترك الفرض لقوله ﷺ: «وابدأ بمن تعول» وكأنْ يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة وكان واثقا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال.

وأما على القول بأن قوله تعالى: (ومما رزقناهم ينفقون) يعني به الزكاة، فالأمر واضح، والعلم عند الله تعالى. انتهى [(٢)]

يقول ابن العربي:

---

١ رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم عَن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضى الله عنه.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٠) باختصار.

اختلف العلماء فيه على خمسة أقوال: الأول: أنه الزكاة المفروضة، عن ابن عباس.

الثاني: أنه نفقة الرجل على أهله قاله ابن مسعود.

الثالث: صدقة التطوع قاله الضحاك.

الرابع: أنه وفاء الحقوق الواجبة العارضة في المال باختلاف الأحوال ما عدا الزكاة.

الخامس: أن ذلك منسوخ بالزكاة.

التوجيه: أما وجه من قال: " إنه الزكاة " فنظر إلى أنه قرن بالصلاة، والنفقة المقترنة (في كتاب الله تعالى) بالصلاة هي الزكاة.

وأما من قال: إنه النفقة على عياله فلأنه أفضل النفقة.

روي «عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال له رجل: عندي دينار: قال: أنفقه على نفسك قال: عندي آخر، قال: أنفقه على أهلك» ، وذكر الحديث، فبدأ بالأهل بعد النفس.

وفي الصحيح «أن النبي – صلى الله عليه وسلم – جعل الصدقة على القرابة صدقة وصلة»

وأما من قال: إنه صدقة التطوع فنظر إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها، وهو الزكاة، فإذا جاءت بلفظ الصدقة احتملت الفرض والتطوع، وإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم يكن إلا التطوع.

وأما من قال: إنه في الحقوق العارضة في الأموال ما عدا الزكاة فنظر إلى أن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضا، ولما عدل عن لفظها كان فرضا سواها.

وأما من قال: إنه منسوخ فنظر إلى أنه لما كان بهذا الوجه فرضا سوى الزكاة، وجاءت الزكاة المفروضة فنسخت كل صدقة جاءت في القرآن، كما نسخ صومُ رمضان كلَّ صوم، ونسخت الصلاة كل صلاة.

ونحو هذا جاء في الأثر التنقيح: إذا تأمل اللبيب المنصف هذه التوجيهات تحقق أن الصحيح المراد بقوله: {يؤمنون بالغيب} (البقرة: ٣) : كل غيب أخبر به الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه كائن، وقوله: {ويقيمون الصلاة} (البقرة: ٣) : عام في كل صلاة فرضا كانت أو نفلا.

وقوله: {ومما رزقناهم ينفقون} (البقرة: ٣) عامٌ في كل نفقة، وليس في قوة هذا الكلام القضاء بفرضية ذلك كله، وإنما علمنا الفرضية في الإيمان والصلاة والنفقة من دليل آخر، وهذا القول بمطلقه يقتضي مدح ذلك كله خاصة كيفما كانت صفته. انتهى [١]

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ١٨)

يقصد رحمه الله: أن السياق هنا سياق مدح المؤمنين بتعداد صفاتهم التي اقترنت بإيمانهم وأكدته وليس سياق تشريعي يستفاد منه الوجوب والفرضية كما في قوله تعالى: { وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}.

ثم تأمل كيف وجَّه ابن العربي –رحمه الله– الأقوال في تفسير معنى الإنفاق في الآية، وهذه منهجية جيدة ومنضبطة في تناول علم التفسير.

- وقيل قدّم مفعول الفعل {ومما رزقناهم} على الفعل {ينفقون} دلالة على كون اختيار الطيب الحلال في الإنفاق أهم، كأنه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدّق به. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أمرَ بِهِ المرسَلينَ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلوا صَالحا)، وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)؛ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟ ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وكما قال الله تعالى {وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)} (المائدة: 88)، وقال: {فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)} (النحل: 114، 115) وشكر النعمة بإطاعة الله فيها وبها وعدم اتخذاها مطية معصيته. وقال تعالى ذامًّا الكافرين الذين لا ينفقون من رزق الله {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)} (يس: 47).

- ثم جاء بالفعل {ينفقون} على صورة المضارعة لبيان دوام واستمرار انفاقهم في سبيل الله تعالى. فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن خير العمل أدومه وإن قل»[١].

وحذف مُتعلَّقه(فلم يبيّن في ماذا ينفقون) لجعل الانفاق هنا عاماً في كل وجوه الخير المشروعة المفروضة والمندوبة.

- وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)} هل هم المتقون الموصوفون أولاً أم أنهم غيرهم؟

---

١ – (صحيح)...رواه ابن ماجة عن أبي هريرة. وأبو داود (صحيح أبي داود 1238).

قال الزمخشري: يُحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا، فاشتمل إيمانهم على كل وحيٍ أُنزِل من عند اللَّه، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأنّ النار لن تمسهم إلا أياما معدودات.

ويحتمل أن يراد وصف الأوّلين (المتقين). ووسط حرف العطف (الواو) على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه.

وفي تقديم (بِالْآخِرَةِ) وبناء (يُوقِنُونَ) على: (هُمْ) تعريضٌ بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأنّ قولهم ليس بصادرٍ عن إيقان، وأن اليقين هو ما كان عليه مَن آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه. انتهى [١]

قلتُ– جامعه: واليقين لا شك درجةٌ أعلى من درجات الإيمان، فاليقين هو العلم الجازم الذي لا يداخله أي شك أو تردد، وإضافة اليقين للآخرة مطلوبٌ في حياة المؤمن، بل هو واجبٌ، لأن من يعلم يقينا أن هناك آخرةٌ فيها الثواب والعقاب لا يجرؤ أن يظلم أو يسرق أو يأتي بالفواحش، ومَنْ يدعي الإيمان وهو يأتي ما يناقضه من الظلم والفواحش وعظائم الجُرْم في حق الناس فإنه كافرٌ بالآخرة، ولا ينفعه إيمانه لأنه ناقضَ أصله. ولذلك تجد الاقتران شبه الدائم في القرآن العظيم بين الإيمان بالله تعالى والإيمان بالآخرة إذ أنَّ الأخير هو الضابط للمعنى الحقيقي للإيمان بالله تعالى الذي نردد في اليوم سبع عشرة مرةً في أم الكتاب أنه مالك يوم الدين أي يوم الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} (التوبة: ٢٩) وهؤلاء الذين أوتوا الكتاب فما بالك بمن كان في الجاهلية لا كتاب له ولا عنوان.

- قوله تعالى: { أولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)}.

وذلك أنه لما قيل: (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) واختصّ المتقون بأنّ الكتاب لهم هدى، كان لسائلٍ أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع الجواب في قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) إلى آخر السياق كأنه قيل لأن المتقين هم الذين انتفعوا به فكان من صفاتهم كيت وكيت.. وجيء بصفة المتقين وخصائصهم التي استوجبوا بها من اللَّه أن يلطف بهم، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم، أى الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم، أحقاء بأن يهديهم اللَّه ويعطيهم الفلاح " أولئك على هدى من ربهم." الآية.

---

١ – تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 43)

وفي أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة رسول اللَّه ﷺ، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند اللَّه. وفي اسم الإشارة الذي هو (أولئك) إيذان بأن مقام الهدى والفلاح يتحدث عن المؤمنين بما أنزل على محمد وما أنزل من قبله والموقنين بالآخرة من المتقين ومن أهل الكتاب.

- ومعنى الاستعلاء في قوله: (عَلى هُدىً) مثل لتمكنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به. شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه.

يقول ابن القيم: وأتى بـ "على "في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ "في "كما في قوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفعٌ به، وصاحب الضلال منغمس فيه ذليلٌ محتَقَر. انتهى.

- ومعنى إضافة (من ربهم) في قوله تعالى: " هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ " هو أنَّ الهداية من الله وحده. فهو مصدر الهدى وحده سبحانه. والهدى هو اللطف والتوفيق إلى التوحيد وأعمال الخير، والترقي إلى الأفضل فالأفضل. والهداية نوعان: هداية دلالة وبيان وهذه من الله وجعلها للأنبياء والذين يدعون إلى طريقه، وهداية التوفيق والسداد كما بيناه آنفاً.
- وفي تنكير {هدى} لإفادة قيمة وجمال وجلال هذا الهدى، كما تقول: لو أبصرتَ فلانا لأبصرت رجلا.
- وفي تكرير {أُولئِكَ} تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم فضيلة الهدى، كذا ثبتت لهم قيمة وجلال الفلاح، ولو كان لهم إحداهما لكفته، فمن مِنَّة الله عليهم أن جمع لهم الهدى والفلاح.
- ثم في ذكر ضمير الفصل والشأن {هم} وتعريف {المفلحون} ليفيد الحصر والتأكيد كأنه قال: هم المفلحون لا غيرهم.

من التفسير الموضوعي: التقوى في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *) (آل عمران:102-103).

وقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) (آل عمران:102)

أمرٌ منه عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين بتقواه. وكأنه سبحانه قد جمع في التقوى جميع الخيرات العاجلة والآجلة، ثم أمر عباده المؤمنين بها ليفوزوا ويظفروا بما جعله فيها من الخير والصلاح، والسعادة والفلاح؛ رحمة بعباده المؤمنين. وكان بالمؤمنين رحيماً.

(والتقوى) وصية الله ربِّ العالمين للأولين والآخرين، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ)؛ فما من خير عاجل ولا آجل ظاهر ولا باطن، إلا والتقوى سبيلٌ موصل إليه، ووسيلة مبلِّغة له. و ما من شر عاجلٍ ولا آجلٍ، ظاهر ولا باطن إلا والتقوى حرز حريز، وحصن حصين للسلامة منه، والنجاة من ضرره.

وكم علَّق الله العظيم في كتابه العزيز على التقوى من خيرات عظيمة، وسعادات جسمية.

فمن ذلك: المعية الإلهية الحفظية اللطفية، قال الله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

ومن ذلك: العلم اللدني قال الله تعالى:(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)،

ومن ذلك: الفرقان عند الاشتباه ووقوع الإشكال، والكفارة للسيئات، والمغفرة للذنوب؛ قال الله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الأنفال: 8).

ومن ذلك: النجاة من النار، قال الله تعالى:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) (مريم:71-72).

وقال: (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَل. انتهمْ يَحْزَنُونَ)(الزمر:61).

ومن ذلك المخرج من الشدائد، والرزق من حيث لا يحتسب، واليسر وعظم الأجر قال الله تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا*وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)(الطلاق:2-3).

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)(الطلاق:4).(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) (الطلاق:5).

ومن ذلك: الوعد بالجنة، قال الله تعالى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)(مريم:63)، وقال الله تعالى:(مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)(الرعد:35)، (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)(الشعراء:26)، (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)(القلم:68)، (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

مُّقْتَدِرٍ)(القمر:54-55).

ومن ذلك الكرامة في الدنيا والاخرة، قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات:49).

فجعل الكرامة عنده بالتقوى، لا بالأنساب ولا بالأموال ولا بشيء آخر. وكم وعد الله ورسوله على التقوى من خيرات وسعادات، ودرجات وحسنات، وصلاح وفلاح، وغنائم وأرباح، يطول ذكرها، ويتعذر حصرها.

قال العلماء رضوان الله عليهم: التقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً، مع استشعار التعظيم لله، والهيبة والخشية والرهبة من الله.

وقال بعض المفسرين رحمهم الله في قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)(ال عمرن:102): هو أن يطاعَ فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. انتهى

ولن يستطع العبد ولو كان له ألف ألف نفس إلى نفسه، و ألف ألف عمر إلى عمره، أن يتقي الله حق تقاته ولو أنفق جميع ذلك في طاعة الله ومحابه، وذلك لعظم حق الله تعالى على عباده، ولجلال عظمة الله، و علو كبريائه، و ارتفاع مجده، و قد قال أفضل القائمين بحقِّ الله، وأكملهم، محمد –صلَّى الله عليه وآله وسلَّم– في دعائه، اعترافاً بالعجز عن القيام بإحصاء الثناء على الله:((أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)). وقد بلغنا أن لله ملائكة لم يزالوا منذ خلقهم الله في ركوع وسجود، وتسبيح وتقديس، لا يفترون عنه، ولا يشتغلون بغيره، فإذا كان يوم القيامة يقولون: ((سبحانك ولك الحمد. ما عرفناك حق معرفتك ولا عبدناك حقَّ عبادتك)).

وقد قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) (ال عمران:102)، منسوخ بقوله:(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)(التغابن:16).

وقال بعضهم: الآية الثانية مبيِّنةٌ للمراد من الآية الأولى لا ناسخةٌ لها، وهذا هوالصواب إن شاء الله تعالى، فإن الله تعالى – وله الحمد – لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإن كان له ذلك لو أراده وأمر به، لأن له أن يفعل في ملكه وسلطانه ما شاء؛ ولكنه سبحانه قد خفَّف ويسَّر، كما قال تعالى:(يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)(النساء:28).

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)(البقرة:185/2).

وقد ثبت في الصحيح –: لما نزل قوله تعالى: (لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ)(البقرة:284/2).

شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، فجاءوا إليه وقالوا: يا رسول الله، كُلِّفنا ما لا نطيق ! وفهموا من الآية المؤاخذة والمحاسبة حتى على حديث النفس، فقال لهم عليه لسلام:(أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا ! ولكن قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير).

فقالوا ذلك، فأنزل الله: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(البقرة:285).

فحكى ذلك عنهم وما بعده من دعائهم: بأن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ، ،أن لا يحمل عليهم الإصر، إلى آخر ما أخبر به عنهم. فاستجاب لهم وخفف ويسر ورفع الحرج، فله الحمد كثيراً.

وبيَّن ذلك عليه السلام بقوله: ((تجوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكبر هوا عليه، وما حدثوا به أنفسهم ما لم يقولوا أو يعلموا)) الحديث.

وقوله تعالى:(وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (ال عمران:102). أمر منه سبحانه بالموت على الإسلام، وهو دين الله الذي أخبر في كتاب أنه الدين عنده، وأنه لا يقبل من أحد سواه، وأنه الدين الذي رضيه لرسوله ولعباده المؤمنين، فقال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ)(ال عمران:19).

وقال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا)(المائدة:3)، وليس يقدر الإنسان على أن يميت نفسه على الإسلام، ولكن قد جعل الله له سبيلاً إلى ذلك، إذا أخذ به كان قد أتى بالذي هو عليه، وامتثل ما أمره به وهو أن يختار الموت على الإسلام، ويحبه ويتمناه، ويعزم عليه، ويكره الموت على غيره من الأديان، ولا يزال داعياً متضرعاً وسائلاً من الله أن يتوفاه مسلماً، وبذلك وصف الله الأنبياء والصالحين من عباده فقال مخبراً عن يوسف بن يعقوب عليهما السلام: (أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)(يوسف:101).

وعن السحرة حين آمنوا فتوعَّدهم فرعون بالعقوبة: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) (الأعراف: 126).

وحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام الوصية بالموت على الإسلام فقال تعالى: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (البقرة:132).

و على الإنسان الاجتهاد في حفظ إسلامه وتقويته بفعل ما أمر به من طاعة الله تعالى، فإن المضيع لأوامر الله متعرض للموت على غير الإسلام، فإن تركه لذلك دليل على استهانته بحق الدين وعلى الاستخفاف به،

فليحذر المسلم من ذلك غاية الحذر.

وعليه أيضاً أن يجانب المعاصي والآثام، فإنها تضعف الإسلام وتوهنه، وتزلزل قواعده وتعرضه للسب عند الموت، كما وقع ذلك –والعياذ بالله – لكثير من الملابسين لها، والمصرين عليه.

وفي قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون) (الروم:10) ما يدلُ على ذلك، فتأمَّله، وخذْ نفسَك بامتثال أوامر الله تعالى، و اجتناب محارمه. وإن وقعت في شيء منها فتب إلى الله تعالى منه، واحذر كل الحذر من الإصرار عليه.

ولا تزال سائلاً من الله حسن الخاتمة، وقد بلغنا أن الشيطان – لعنه الله – يقول: قصم ظهري الذي يسأل الله تعالى حسن الخاتمة. يقول اللعين: متى يعجب هذا بعمله؟ أخاف أن قد فطن؟.

وأكثر من الحمد والشكر لله على نعمة الإسلام، فإنها أعظم النعم وأكبرها، فإن الله لو أعطى الدنيا بحذافيرها عبداً ومنعه الإسلام لكان ذلك وبالاً عليه.

ولو أعطاه الإسلام ومنعه الدنيا لم يضرُّه ذلك، لأن الأول يموت فيصير إلى النار والعذاب في خلود دائم، وهذا الثاني يموت فيصير إلى الجنة والنعيم فب خلود دائم.

وعليه أن لا تزال خائفاً وجلاً من سوء الخاتمة، فإن الله مقلب القلوب، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

وفي الحديث الصحيح: (والذي لا إله غيره: إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، وحتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) الحديث.

وفيه غاية التخويف لأهل التقوى والاستقامة، فضلاً عن أهل التفريط والتخليط. وكان بعض السلف الصالح يقول: والله ما أمن أحد على دينه أن يُسلَب إلا سُلِب.

وقد كان السلف الصالح – رحمة الله عليهم– في غاية الخوف من خاتمة السوء مع صلاح أعمالهم وقلة ذنوبهم، حتى قال بعضهم: لو عُرِض عليَّ الموت على الإسلام بباب الحجرة، والشهادة بباب الدار، يعني الشهادة في سبيل الله، لاخترت الموت على الإسلام على باب الحجرة، على الشهادة على باب الدار، لأني لا أدري ما الذي يعرض لقلبي فيما بين الحجرة إلى باب الدار!

وقال آخر لبعض إخوانه: إذا حضرني الموت فاقعد عند رأسي وانظر، فإن رأيتني قد مِتُّ على الإسلام فخذ جميع ما معي فبِعْه، وخذْ به سكراً ولوزاً وفرِّقه على الصبيان. وإن رأيتني قد مِتُّ على غير ذلك فأعلم الناس ليصلي عليَّ من أراد أن يُصَلِّي، على بصيرة. وكان قد ذكر له علامة يعرف بها الفرق بين الأمرين. قال:

فرأيته قد مات على الإسلام وفعل ما أمره به من التصدق على الصبيان. وحكاياتهم في ذلك كثيرة مشهورة.

واعلم أنه كثيراً ما يختم بالسوء للذين يتهاونون بالصلاة المفروضة، والزكاة الواجبة، والذين يتتبعون عورات المسلمين، والذين ينقصون المكيال والميزان، والذين يخدعون المسلمين ويغشونهم ويلبسون عليهم في أمور الدين والدنيا، والذين يُكَذِّبون أولياء الله، وينكرون عليهم بغير حق، والذين يدَّعون أحوال الأولياء ومقاماتهم من غير صدق، وأشباه ذلك من الأمور الشنيعة.

ومن أخوف ما يخاف منه على صاحبه سوء الخاتمة، البدعة في الدين، وكذلك إضمار الشكِّ في الله ورسوله واليوم الآخر. فليحذر المسلم من ذلك غاية الحذر، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

اللَّهمَّ يا أرحم الرحمين، نسألك بنور وجهك الكريم، أن تتوفانا مسلمين، وأن تلحقنا بالصالحين في عافية يا رب العالمين.

وقد قال رسول الله –صلَّى الله عليه وآله وسلَّم–: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربَّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيَّاً).. انتهى [١]

---

١ نقلا عن كتاب (النصائح الإيمانية) للشيخ عبد الله بن علوي الحداد (1044–1132هـ) (ص 25–29) دار الحاوي ط. الثانية 1418هـ.

وقال تعالى في أهل الكفر والتكذيب: (الآيات 6-8)

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) } (البقرة: 6 – 8)

اعلم أن الله عزّ وجل صدر هذه السورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين، وبآيتين أنزلهما في الكافرين ، وبثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين.

فأما التي في الكفار لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم في معرض الجواب لسؤال من كأنه قال: هذا حال الكتاب مع المؤمنين به وهو لهم الهدى والنور؛ فما حاله مع الكافرين؟ قال سبحانه: {إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ}.

وهذا انتقال من الثناء على الكِتَاب الكريم والمهتدين به، ولما كان الشيء يظهر بضده انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء، وسجَّل أن حرمانهم من الاهتداء إنما كان من خبث أنفسهم، فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة أمورهم ويحذرون من سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين ولم يتلقوا الإنذار بالتأمل والتعقل، فكان الإنذار عندهم وعدمه سواء.

(قال صاحب الكشاف: {سَوَآء} اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله تعالى: {تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم} (آل عمران: 64) {فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لّلسَّائِلِينَ} (فصلت: 10) بمعنى مستوية، فكأنه قيل إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه.). معناه سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لهم بعد ذلك لأن القوم كانوا قد بلغوا في الإصرار واللجاج والإعراض عن الآيات والدلائل إلى حالةٍ ما بقي فيهم –البتة –رجاءُ القبولِ بوجه؛ فكان ذلك يفيد حصول اليأس وقطع الرجاء منهم.

وإنما قطعت هذه الجملة عن التي قبلها لأن بينهما كمال الانقطاع والمقابلة في المواقف؛ إذ الجمل السابقة لذكر الهدى والمهتدين، وهذه لذكر الضالين.. انتهى [١]

وإن الله تعالى قد يتكلم بالعام ويكون مراده الخاص، فالمقصودون هنا من حكم الله سبحانه وقضى بموتهم على الكفر والهلاك وذلك بقرينة الآية بعدها تبين خصوص معناها. وإنما أراد به بعض الكفار الذين ثبتوا على كفرهم، كما روي عن صفية بنت حيي بن أخطب قالت: رجع أبي وعمي من عند رسول الله ﷺ، فقال

١ راجع {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 244} و {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 38. 39} باختصار وتصرف

أحدهما لصاحبه: ما ترى في هذا الرجل؟ فقال: إنه نبي، فقال: ما رأيك في اتباعه؟ فقال: رأيي ألا أتبعه، وأن أظهر له العداوة إلى الموت.

قال الفخر الرازي:

اختلف أهل التفسير في المراد ههنا بقوله: {الذين كَفَرُواْ} فقال قائلون: إنهم رؤساء اليهود المعاندون الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقال آخرون: بل المراد قوم من المشركين، كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم، وهم الذين جحدوا بعد البينة، وأنكروا بعد المعرفة ونظيره ما قال الله تعالى: {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} (فصلت: 4، 5) وكان عليه السلام حريصاً على أن يؤمن قومه جميعاً حيث قال الله تعالى له: {فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً} (الكهف: 6) ، ثم إنه سبحانه وتعالى بين له عليه السلام أنهم لا يؤمنون ليقطع طمعه في إيمانهم ، ولئلا يتأذى بسبب ذلك، فإن اليأس إحدى الراحتين. انتهى [١]

وقوله تعالى: {خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة}.

هذه الجملة جاريةٌ مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: {سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} (البقرة: 6) وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله، فإذا عَلم أن على قلوبهم وعلى أسماعهم ختماً؛ وأن على أبصارهم غشاوة عَلِمَ سبب ذلك كله وبطل العجب.

فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام بعد ذكر أحوال الكافرين في مقابل موقع جملة المدح {أولئك على هدى من ربهم} (البقرة: 5) بعد ذكر أوصاف المتقين؛ فلهذه الجملة مكانة تبيّن ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المكانة في الثناء على أربابها.

وسبب الذم انهم لما لم ينتفعوا بأسماعهم في سماع الحق وأبصارهم في تبصر الحقيقة، وقلوبهم في التفكر فيها ختم الله عليها ختماً باتا فلا ينتفعون بها بعد.

والختم حقيقته السد على الإناء والغلقُ على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتَم ليمنع ذلك من فتح المختوم، فإذا فُتح علم صاحبه أنه فتح لفسادٍ يظهر في أثر النقش، وقد كانت العرب تختم

---

١ {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 37}

على قوارير الخمر. (قال القرطبي: ومنه: ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه. وقال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة، والانصراف والحَمِيّة والإنكار. انتهى).

والغِشاوة فِعالة من غشاه وتغشاه إذا حجبه. فغشاوة بمعنى حجاب.

(قال الفخر: الفائدة في تكرير الجار في قوله: {وعلى سَمْعِهِمْ} أنها لما أعيدت للأسماع كان أدل على شدة الختم في الموضعين؛ على القوب وعلى الأسماع. . انتهى)

قال صاحب أضواء البيان:

لا يخفى أن الواو في قوله: {وعلى سمعهم وعلى أبصارهم} محتملة في الحرفين أن تكون عاطفة على ما قبلها، وأن تكون استئنافية، ولم يبين ذلك هنا، ولكن بين في موضع آخر أن قوله {وعلى سمعهم} معطوف على قوله {على قلوبهم} ، وأن قوله {وعلى أبصارهم} استئناف، ... فتحصَّل أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار، وذلك في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} (٤٥ – ٢٣).انتهى [١]

وليس الختم على القلوب والأسماع ولا الغشاوة على الأبصار هنا حقيقةً كما توهمه بعض المفسرين؛ بل ذلك هو جارٍ على طريقة المجاز بأن جعل قلوبهم أي عقولهم في عدم نفوذ الإيمان والحق والإرشاد إليها، وجعل أسماعهم في استكاكها عن سماع الآيات والنذر، وجعل أعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل الكونية، كأنها مختوم عليها ومحجوبٌ دونها إما على طريقة الاستعارة أو التمثيل أو المجاز المرسل.

والختم في اصطلاح الشرع استمرار الضلالة في نفس الضال أو خلق الضلالة، ومثله الطبع في قوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) } (النساء: 155، 156)

وكذلك قوله: { أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108)} (النحل: 108)، والأكنة في قوله سبحانه: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)} (الكهف: 57). انتهى. [٢]

قال أبو حيان: شبَّه الله– تعالى– قلوبَهم برفضها الحقّ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٢) باختصار.

٢ راجع {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 250 . 251} ، {تفسير القرطبي حـ 1 صـ 185 . 186} ، {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 48} بتصرف.

يصلحه، وذلك لأنها كانت – مع صحتها وقوة إدراكها – ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمح نوره، وهذا بطريق الاستعارة. انتهى

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ} وعيد وبيان لما يستحقونه في الآخرة من العذاب العظيم؛ ووصفُ العذاب بكونه عظيماً لتأكيد ما يفيده التنكيرُ من التفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك.

فوائد دلالية وبلاغية.

١. قال ابن عطية في المحرر الوجيز:

معنى الكفر مأخوذ من قولهم كفر إذا غطى وستر، ومنه قول الشاعر لبيد بن ربيعة: في ليلة كفر النجومَ غمامُها... أي سترها ومنه سُمِي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده. ومنه قيل للزراع كفار، لأنهم يغطون الحب، ف "كفر " في الدين معناه غطى قلبه بالرّين عن الإيمان أو غطى الحق بأقواله وأفعاله. انتهى

(وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: كُفْرُ إِنْكَارٍ، وَكُفْرُ جحُودٍ، وَكُفْرُ عِنَادٍ، وَكُفْرُ نِفَاقٍ.

فَكُفْرُ الْإِنْكَارِ: أَنْ لَا يَعْرِفَ اللَّهَ أَصْلًا وَلَا يَعْتَرِفَ بِهِ (ككفر الملاحدة والماديين في عصرنا).

وَكُفْرُ الْجُحُودِ هُوَ: أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ تَعَالَى بِقَلْبِهِ وَلَا يُقِرُّ بِلِسَانِهِ كَكُفْرِ إِبْلِيسَ وَكُفْرِ الْيَهُودِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ" (89– الْبَقَرَة).

وَكُفْرُ الْعِنَادِ هُوَ: أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ وَيَعْتَرِفَ بِلِسَانِهِ وَلَا يَدِينُ بِهِ كَكُفْرِ أَبِي طَالِبٍ عم الرسول حَيْثُ يَقُولُ: وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ.. مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا.

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ.. لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينًا.

وَأَمَّا كُفْرُ النِّفَاقِ: فَهُوَ أَنَّ يُقِرَّ بِاللِّسَانِ وَلَا يَعْتَقِدَ بِالْقَلْبِ. وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ سَوَاءٌ فِي أَنَّ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى بِوَاحِدٍ مِنْهَا لَا يُغْفَرُ لَهُ) .[١]

(ويلحق بالكفر في إجراء أحكام الكفر عليه كل قولٍ أو فعلٍ لا يجترىء عليه مؤمنٌ مصدق بحيث يدل على قلة اكتراث فاعله بالإيمان والدين (كمستحل ما حرم الله تعالى وهو يعلم)، وعلى إضماره الطعن في الدين وشرائعه (كمن ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة أو يشكك فيه متعمداً)، وتوسله بذلك إلى نقض أصوله وإهانته بوجهٍ لا يقبل التأويل الظاهر؛ وفي هذا النوع الأخير مجال لاجتهاد الفقهاء وفتاوى

---

١ تفسير البغوي – طيبة (1/ 64)

أساطين العلماء إثباتاً ونفياً بحسب مبلغ دلالة القول والفعل المكفِّر على طعن أو شك في الدين وشرائعه والرسالة ومقتضياتها) [١].

قلتُ: وأحكام الايمان والكفر بابٌ كبيرٌ وخطير من أبواب العقيدة فيه من التحقيق بين طوائف الاسلام الكثير فراجعه مشكوراً في مظانه.

٢. الإنذار هو إعلام مع تخويف، فإن خلا من التخويف كان إعلاما فقط.

يقول القرطبي: الإنذار الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يتّسع زمانه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن إنذاراً؛ قال الشاعر:

أنذرتَ عَمراً وهو في مَهَلٍ.. قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو. انتهى

قال الفخر: وإنما ذكر في هذه الآية الإنذار دون البشارة لأن تأثير الإنذار في الفعل والترك أقوى من تأثير البشارة؛ لأن اشتغال الإنسان بدفع الضرر أشد من اشتغاله بجلب المنفعة، وهذا الموضع موضع المبالغة وكان ذكر الإنذار أولى. انتهى [٢]

٣. في قوله تعالى {خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم غشاوة} فائدة في اعتقاد أهل السنة ورد على المعتزلة (القدرية) الذين يدَّعون باطلاً أن من عدل الله ألا يقدر الهلاك والنجاة وإنما هى للعبد– وحده– إن شاء اهتدى وإن شاء ضل بعد البيان.

قال القرطبي: في هذه الآية أدَلّ دليلٌ وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين للكافرين الإيمان ولو جَهَدوا؛ وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم {وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الرعد: 33) وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقاً وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم.

فإن قالوا: إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون، لا الفعل.

---

١ ا هـ {التحرير والتنوير حـ 1 صـ 245. 246} بتصرف يسير

٢ {مفاتيح الغيب حـ 2 صـ 39}

قلنا: هذا فاسد، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعاً مختوماً؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم؛ ألا ترى أنه إذا قيل: فلان طبع الكتاب وختمه، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحكم.

هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم؛ كما قال تعالى: {بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} (النساء: 155).

وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك.

فثبت أن الختم والطبع هو معنىً غير التسمية والحكم؛ وإنما هو معنىً يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به؛ دليله قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} (الحجر: 12).

وقال: {وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ} (الأنعام: 25). أي لئلا يفقهوه، وما كان مثله). انتهى[١]

قال الشيخ الشنقيطي:

قوله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} الآية. هذه الآية تدل بظاهرها على أنهم مجبورون لأن من ختم على قلبه وجعلت الغشاوة على بصره سلبت منه القدرة على الإيمان. وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن كفرهم واقع بمشيئتهم وإرادتهم كقوله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} ، وكقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ} ، وكقوله: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} الآية، وكقوله: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُم} الآية، وكقوله: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُم} الآية.

والجواب: أن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، كل ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم، فعاقبهم الله بعدم التوفيق جزاء وفاقا. كما بينه تعالى بقوله: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} وبقوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقوله: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} وقوله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً} الآية وقوله: {بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى [٢]

---

١ {تفسير القرطبي حـ 1 صـ 187}

٢ {دفع إيهام الاضطراب صـ 6 . 7}

٤. قال القرطبي: إن قال قائل: لِمَ جمع الأبصار ووَحَّد السمع؟

قيل له: إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير؛ يقال: سمعت الشيء أسمعه سَمْعاً وسماعاً، فالسّمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضاً اسم للجارحة المسموع بها سُمّيت بالمصدر. وقيل: إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة.

وقال ابن عاشور: وقد تكون في إفراد السمع لطيفةٌ روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلة وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك، وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت.

وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يُلقى إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعاً واحداً.

٥. قال القرطبي: قوله تعالى: {على قُلُوبِهِمْ} فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح. فالقلب للإنسان وغيره هذا العضو الشريف، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه؛ فالقلب موضع الفكر.

وهو في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلِبه قلباً إذا رددته على بداءته. وقلبت الإناء: رددته على وجهه. ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان، لسرعة الخواطر إليه، ولترددها عليه؛ كما قيل: ما سُمِّيَ القلب إلاّ مِنْ تقلُّبِه. فاحذْر على القلب من قَلْبٍ وتحويل.

وقوله عليه السلام: " إن في الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ".

والجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب بأعمالها وإن كان رئيسها وملِكها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن؛ قال ﷺ: " إن الرجل ليصدُقُ فتُنْكت في قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه ".

وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة: " أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه " قال: وهو الرَّين الذي ذكره الله في القرآن في قوله: {كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} (المطففين: 14).

والقلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} (الفرقان:32).

وقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} (الشرح: 1) يعني في الموضعين قلبك.

وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} (ق: 37) أي عقل؛ لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين.

والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم [١].

٦. قال أبو حيان: الإشارة بكلمة (عليهم) في قوله: {سواء عليهم} إشارة إلى أن السواء الذي أضيف إليهم فإن وباله ونكاله عليهم لا على أحد سواهم؛ فعدل بالتعبير عن قوله (سواء عندهم) إلى (سواء عليهم). انتهى [٢]

---

١ راجع {تفسير القرطبي حـ 1 صـ 187 . 189} ،{التحرير والتنوير حـ 1 صـ 252 . 253}

٢ {البحر المحيط حـ 1 صـ 178 . 179} بتصرف يسير.

أما المنافقون (الآيات 8-16)

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وما هم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) }

المناسَبَة.

لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا «المنافقين» وهم الصنف الثالث، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يؤول إليه حالهم من الدمار والهلاك.

قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنهم موّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال.

قال ابن كثير: النفاق هو إظهار الخير، وإسرارُ الشر وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيتَه، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان إيمانٌ أو كفرٌ صريح.

التفسير.

هؤلاء هم الصنف الثالث من الناس، وهم المنافقون، الذين ليسوا بالمؤمنين ولا بالكافرين. والنفاق شر من الكفر الصّراح، لأن الكافر على بينة من أمره مع نفسه، وعلى حال يعرف الناس منها وجهه. أما المنافق فأمره مختلط، وشأنه مضطرب، فلا هو في الكافرين، ولا في المؤمنين. ولهذا توعد الله سبحانه المنافقين بما لم

يتوعد به الكافرين، من عذاب ونكال، حيث يقول سبحانه: « إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً » (145: النساء).

عن ابن جُرَيْج في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وما هم بِمُؤْمِنِينَ}، قال: هذا المنافقُ، يخالِفُ قولُه فعلَه، وسِرُّه علانِيَتَه، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه. [١]

إنهم يدّعون– كذباً– الإيمانَ بالله واليوم الآخر. وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين. إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم في مواجهة المؤمنين.

وفي هذه الآية ردٌ صريح على المرجئة الذين قالوا يصح الإيمان بمجرد القول، وعندهم حتى المنافق شديد النفاق يطلق عليه مؤمن بمجرد ادعائه، والقرآن يكذِّب هؤلاء، وفي الآية نجد الإمعان في التكذيب لهم في قوله تعالى: {وما هم بِمُؤْمِنِينَ}، وكان الأصل أن يقال: «وما آمنوا» ليطابق قولهم «آمنا»، ولكنه عدل عن استعمال الفعل إلى استعمال الاسم لأنه أبلغ في نفي الإيمان عنهم، فنفي اسم الإيمان عنهم أقوى وأثبتُ من نفي الفعل الذي يرتبط بزمانٍ دون زمان، فربما لم يؤمنوا ولكنهم سيؤمنون بعد، وإضافة " الباء" تفيد تضخيم النفي كذلك، لأنها زيادة في المبنى، ومعناها وليس عندهم أدنى ما يُقال له إيمان.

وهم يظنون في أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على خداع البسطاء من المؤمنين، ولكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم، فهم لا يخادعون المؤمنين، إنما يخادعون الله كذلك أو يحاولون:

«يُخادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا».

وقوله: {يُخَادِعُونَ} من الخِداع: وهو المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن، وأصله الإخفاء ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله، وسُمي المِخْدع مِخْدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه.

ولأن خداع الله– سبحانه– على الحقيقة لا يجوز فقد تكلم العلماء على المراد من هذا الخداع هنا، وكان أحسن ما قرأت فيها هو تقرير الكوراني في تفسيره الذي وافق فيه الزمخشري قبله في قوله تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } (النساء: ١٤٢).

فقوله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ} هذا جواب عن سؤال مقدر تقديره ما الحامل لهم على إظهار الإيمان وإخفاء الكفرة، وحقيقة المخادعة أن يظهر لصاحبه أنه موافق ومساعد له على مراده، والواقع أنه ساع في إبطال

١–موسوعة التفسير المأثور – مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام/ الشاطبي (1/ 90، بترقيم الشاملة آليا)

مراده، فإظهار خلاف ما يبطن إن كان في الدين سمي نفاقاً وخديعة ومكراً، وإن كان في الدنيا بأن يصانع أهل الدنيا لأجل حماية الدين ووقايته تسمى مداراة وهي ممدوحة. (١)

قال الزمخشري: {يُخادِعُونَ اللَّهَ} يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر {وَهُوَ خادِعُهُمْ} وهو فاعلٌ بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا؛ وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يُخَلِّهم في العاجل من فضيحةٍ، وإحلالِ بأسٍ، ونقمةٍ، ورعبٍ دائم.

وقيل: يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين، فينادون: {انظرونا نقتبس من نوركم}. انتهى (٢)

وفي هذا النص وأمثاله نقف أمام حقيقة كبيرة، وأمام تفضُّل من الله عظيم. تلك الحقيقة هي التي يؤكدها القرآن دائماً ويقررها، وهي حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين. إنه يجعل صفهم صفه، وأمرهم أمره. وشأنهم شأنه، ويجعل عدوَّهم عدوَّه سبحانه، وما يوجه إليهم من مكر موجهاً إليه– سبحانه– وهذا هو التفضل العلوي الكريم. وهو في ذات الوقت تهديد رعيب للذين يحاولون خداع المؤمنين والمكر بهم، وإيصال الأذى إليهم. تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هي مع الله القوي الجبار القهار.

ولذلك جاء التعبير الذي بيناه بأنهم يحاولون خداع الله تعالى، وعطف عليه (الذين آمنوا)، فكأنه جعل معركتهم مع المؤمنين معركةً معه سبحانه.

«وَما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَما يَشْعُرُونَ».

وفي قراءةٍ سبعيةٍ {وما يخادعون}. قال السيوطي ما فحواه : لأن وبال خداعهم وعاقبه أمره راجع إليهم؛ قال تعالى:{وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ} (فاطر: ٤٣)؛ فيفتضحون باطلاع الله نبيه عليهم وأمره بإخراجهم من المسجد وقد نزل فيهم: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم} الآيات، ثم هم يعاقبون في الآخرة بالعذاب الدائم المؤبد في الدرك الأسفل. انتهى

(إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم في غير شعور! إن الله بخداعهم عليم والمؤمنون في كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم. أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها. يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق، وهم في الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة. وينتهون بها إلى شر مصير!)

---

(١) انظر حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٥٧٩)

(١)

« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ».

المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة إلى الاعتلال، وقد يكون حسياً كمرض الجسم، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء. وهو لفظ عام جاء نكرةً ليعم كل الخلل النفسي الذي وقع فيه أولئك المنافقون.

وخصَّ القلوب هنا بالمرض في حين ذكر آفة الكفار في سمعهم وأباصرهم وقلوبهم لأن آفتهم في كفرهم موزعة بين أجهزة ثلاثة ، فقلوبهم مغلقة عن الخير، وأسماعهم نابية عن الحق، وأبصارهم كليلة عن الهدى؛ أما المنافقون فإن آفة نفاقهم في القلوب وحدها، حيث قد سمعوا الحق ووعوه، وأبصروا الهدى واستيقنوه، ولكن حين ينفذ هذا كله إلى موطن الإيمان من قلوبهم، يصادف قلوبا مريضة، لا تقبل الحق والخير، وإن قبلتهما فإنها سرعان ما تلفظهما، كما يلفظ المحموم طيب الطعام.

ومرض القلب على درجاتٍ؛ تبدأ من مرضه بالشهوات التي تجعله محاطا بالمعصية والخذلان حتى تزيد شهوته فيستحل معصية الله؛ كما قال– سبحانه–: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨١] وهنا يبدأ مرض الشبهات، وربما كان مريضا به منذ البداية. فهناك مرض الشبهات ومرض الشهوات، ولا يكون مرض الشهوة متمكنا في القلب إلا ومعه شبهةٌ لا محالة.

ومرضى الشبهات ربما خُذِلوا من جانب طلبهم للفهم والحق وقد أخطأوه، أما أشباه الأنعام من عابدي شهواتهم، فهم ركبوا شهواتهم حتى جعلوها إلاهاً يعبدونه؛ كما قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية: ٢٣] فهؤلاء لما أرادوا أن يتملصوا من تكاليف دين الله –تعالى– ويركبوا شهواتهم أوَّلوا الدين على هواهم فعموا عن الحق قصداً بعدما سمعوه. فهذا هو مرض الشبهات الذي قصد العلماء أنَّه أعظم من مرض الشهوات أي شهوة الجاهل الغافل الساهي ، ولا تكون شبهةٌ إلا بعد شهوةٍ تمكنت من صاحبها فركب هواه. هكذا نتدبر القرآن.

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم:

١ – في ظلال القرآن (1/ 42-3)

" تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا. فَأَيُّ قَلْبٍ أُشرِبَهَا نُكِتَتْ فِيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حَتَّ تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَد مُرْبَادًا كالكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْروفاً وَلا يُنْكِرُ مُنْكراً، إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَض لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ".

فهذه الفتن التي تتعرض لها القلوب هي ابتلاءاته بالشهوات، وكلما ارتكب معصيةً نُكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود، ويضيع تمييزه بين الحق والباطل، فلا يبقى فيه إلا هواه، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا.

وقد قسم الصحابة رضى الله تعالى عنهم القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان:

"الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ، فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَغْلفُ، فَذلِكَ قَلْبُ الكَافِرِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، فَذلِكَ قَلْبُ الْمُنافِقِ، عَرَف ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ، وَقَلْبُ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ: مَادَّةُ إِيمَانٍ، وَمَادَّةُ نِفَاقٍ، وَهُوَ لما غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا".

وفي هذه الآية يبيّن القرآن أن النفاق في حقيقته نوعٌ من المرض.

فالإنسان السالم كالقلب الأجرد (الشفاف كالبلور المصقول) له وجه واحد فقط، وفي ذاته انسجام تام بين الروح والجسد، لأن الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمِّل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمناً فالإيمان يتجلى في كل وجوده، وإذا كان منحرفاً منافقا فظاهره وباطنه يدلان على انحرافه، فهو قلب مخالفٌ للروح ولذلك فهو منكوسٌ واضح الانحراف عن حقيقته، ولانتكاسته لا يدرك علة نفسه. إنه نوع من التضاد والانفصال والاختلال في الشخصية الإنسانية: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ).

وقوله تعالى: «فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» له وجهان في التفسير:

الأول: أن تكون الفاء هنا للسببية، ويكون المعنى أنَّ ما أرسل الله من هدى على يد النبيّ – ﷺ– قد استقبلوه بتلك القلوب المريضة فهيّج علّتها، وأيقظ نائم دائها، فكان سبباً في زيادة مرضها إذ زاد الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } (فصلت: ٤٤) هم لا يسمعون بقلوبهم الحق، ولا يستجيبون.. بقوا في ظلمات الجحد والجهل «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا..

الوجه الثاني: أن تكون «الفاء» للتفريع، وتكون الجملة بعدها للدعاء عليهم، والمعنى أن هؤلاء المنافقين بما استبطنوا من نفاق لا يرجى شفاؤه استحقوا أن يُدعَى عليهم بما يزيد مرض قلوبهم مرضا.

قال تعالى: «وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)».

والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال وهو يعُمُّ كل ضارٍّ. والصلاح ضده وهو يعم كل نافعٍ.

إن الإنسان إذا تمادى في الغيّ والضلال يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، ويصبح الذنب والإثم جزءاً من طبيعته. والمنافقون أيضاً بإصرارهم على انحرافهم يتطبّعون بخط النفاق، وتتراءى لهم أعمالهم بالتدريج وكأنهم أعمال إصلاحية، وتغدو بصورةٍ طبيعةٍ لهم. إن الانتكاس والمرض والخلل انتشر في أرواحهم وجوارحهم وإدراكاتهم فصاروا لا يشعرون بفسادهم.

وما رُوِي عن سلمان –رضي الله عنه– أنَّ أهل هذه الآية لم يأتوا بعد؛ فلعله أراد به أنَّ أهلها ليس الذين كانوا فقط، بل وسيكون مِن بعدهم مَنْ حاله مثل حالهم في الفساد والمرض. إن النفاق مرضٌ لا ينتهي طالما أنَّ هناك حقاً قد بسط سلطانه، ولابد من وجود مثل هؤلاء الجبناء العملاء بين المسلمين، ولكن بهذه الطريقة القبيحة الفَجَّة من فقدان الإدراك وانقلاب الوعي، فهو ما استبعده سلمان– رضي الله عنه– في جيلهم مع ما بلغه النفاق من الفساد في عهدهم.

(قال ابن مسعود: الفسادُ في الأرض هو الكفرُ، والعملُ بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض).

وما قاله هو الصواب لأن إظهار المعاصي والإهانة بالدين والإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج ويخل بنظام العالم الذي جاءت الشرائع لإصلاحه.

هكذا ينافق المنافق ويكذب حتى مع نفسه، فيرى أنه على طريق الحق، على حين أنه غارقٌ في الضلال.

فلقد غلبت عليهم شِقوتُهم، ونظروا إلى أنفسهم في مرايا النفاق، فرأوا أنهم أحسن الناس حالاً، وأكملهم كمالاً!

(قال البيضاوي: تصوُّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سوء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً} (فاطر: 8).

ولذلك ردَّ الله عليهم أبلغ ردٍّ.

«أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ، ولكِنْ لا يَشْعُرُونَ (12)».

إنهم هم المنافقون! لقد فضح الله باطنهم الخبيث، وما انطوى عليه من سوء، فدمغهم بهذا الحكم القاطع المؤكد أوثق التوكيد « بجملةِ أدوات »: ألا (الاستفتاحية) وإنّ (المؤكدة) وهم (ضمير الفصل) و(ال) المعرّفة للخبر بما يدل على قصر وحصر الفساد عليهم وحدهم .

والمعنى: أَلاَ فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون، لأن المرض انتشر كالورم الخبيث من قلوبهم فعَمَّ كل جوارح استقبالهم، حتى فقدوا الإدراك والتمييز.

قال الله– تعالى: « وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (13) ».

(الهمزة في {أنؤمن} للإنكار مع السخرية والاستهزاء؛ أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء (السفهاء) الجهلة ناقصي العقل والتفكير؟! قال علماء اللغة: السَّفه أصل معناه الخفةٌ ويطلق على سخافة الرأي التي تقتضي نقصان العقل، ومضاده الحِلْمُ.

قال البيضاوي: وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال– رضي الله عنهم. انتهى.

هنا يستمر السياق القرآني في عرض هذا الانتكاس وفقدان حقائق الإدراك الذي وقع فيه المنافقون فمن ذلك اعتدادهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم ذووا عقلٍ وتدبير، وأن المؤمنين سفهاء وبسطاء. إنهم لا يفعلون ذلك متعمدين، فهم في الحقيقة يرون الصورة مقلوبةً مشوهةً تماما، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، إنهم مُغَيَّبون تماماً؛ وهكذا تنقلب المعايير لدى أولئك المنحرفين، فيرون الانصياع للحق وإتباع الدعوة الإلهية الحقة سفاهةً، بينما يرون إفسادهم وتذبذبهم وأمراضهم النفسية والقلبية تعقّلا ودرايةً !! غير أن الحقيقة عكس ما يرون. إن القرآن يتفنن في وصف تلك الحالة الإنسانية العجيبة التي تمرض فيها الروح والقلب وحتى العقل، فيفقد بوصلته واتجاهه تماما.

وفي إسناد القول إلى المجهول {قيل لهم }، ما يوحي بأن ضلالهم قد أصبح من الانكشاف والوضوح بحيث أنطق كلَّ موجودٍ في محيطهم، بدعوتهم إلى الاستقامة، والانتظام في موكب «الناس»، الذين صانوا إنسانيتهم عن هذا الانحراف السفيه، الذي يعيش فيه المنافقون.

ولهذا جاء قول الله تعالى: «كَما آمَنَ النَّاسُ» ولم يجئ ء: «كما آمن المؤمنون» وفيه ما يدل على أن الإيمان أقرب شئ إلى الفطرة التي فُطِر الناس عليها، وأنَّ من شأن الناس؛ حقَّ الناس أنْ يستجيبوا لدعوة الإيمان، وأنَّ مَن استجاب للرسول - ﷺ - هم الناس على الحقيقة، ولا اعتبار لغيرهم، كما قال الشاعر: همُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ....

والجواب القرآني بإحقاق الحقائق والرد على انطماس بصائرهم بقوله تعالى:

{أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ}

وهو رد قوي ينتصر به الله تعالى للمؤمنين بأدوات تأكيد كثيرة يبين أن السفاهة التي رَموا بها المؤمنين هي لهم وحدهم. كما تقول العربُ لِمَن يرمي غيره بداءٍ هو فيه : رَمَتْني بدائها وانسلت.

أليس من السفاهة ألا يضع الإنسان لحياته خطاً معيناً، ويبقى يتلوّن بألوان مختلفة؟! أليس من السفاهة أن يضيّع الإنسان وحدة شخصيته، ويتجه نحو ازدواجية الشخصية وتعدّد الشخصيات في ذاته، ويهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب والتآمر والتخريب، وهو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟!

والسؤال البلاغي هنا لماذا جاءت فاصلة الآية هنا: «لا يعلمون» في قوله تعالى: «هُمُ السُّفَهاءُ. ولكِنْ لا يَعْلَمُونَ» على حين أنها جاءت في الآية السابقة عليها: «لا يشعرون» في قوله: «هُمُ الْمُفْسِدُونَ. ولكِنْ لا يَشْعُرُونَ» ؟

والجواب أنَّ الإفساد في الأرض؛ مع أنه مما يواجه الحواس، ويقع في محيط إحساسها؛ لا يشعر به أولئك المنافقون، لكثرة ما ألحقوا هذه الحواس من خداع وتضليل، ولكثرة ما تعالوا معها بالتعمية والتمويه، فانتشر المرض من القلب إلى الحواس والإدراك، فلذلك جاء التعبير بنفي الشعور.

وفي حاشية الصاوي على الجلالين: هم ليس عندهم شعور بالإفساد لطمس بصيرتهم، وعبر بالشعور دون العلم، إشارة إلى أنهم لم يصلوا إلى رتبة البهائم تمتنع من المضار فلا تقربها لشعورها بخلاف هؤلاء.

وأما الآية الأخرى فلأنهم لما انطمست بصائرهم فلم تستطع أنْ تميز بين الحق والباطل، وهو من الأدلة بمكانٍ بحيث لا يجهله أحدٌ، صار نفي العلم عنهم في غاية التبكيت على انحطاط عمل عقولهم التي اتهمت أعقل الناس من المؤمنين بالسفه، والمنافقون أولى به «ولكِنْ لا يَعْلَمُونَ»، فهذه أليق بموضعها كما كانت الأولى أليق به.

****

«وإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وما كانُوا مُهْتَدِينَ (16)»

العلامة الثالثة للمنافقين، هي تلوّنهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين.

هذه حال المنافقين دائما. يلقون الناس بوجهين: وجه يظهر الحب والمودة، ووجه يضمر السوء والشر. إنهم مع أهوائهم الضالة، ونفوسهم المريضة، فحيث كان لهذه الأهواء مُنتجَع، وكان لتلك النفوس مُستراح ؛ فهم هناك. يتقلبون مع كل ريح، ويَطْعَمُون من كل مائدة!

و«شياطينهم» والشَّيْطان على وزن (فَيْعال) من الفعل (شَطَنَ) أي بَعُدَ، وهو البعيد عن كل خيرٍ وصلاحٍ، أو (فَعْلان) من الفعل (شاط) أي احترق، فهو المحترق في غيه وفساده.

وكلُّ من بعد عن طريق الله تعالى ودعا إلى النار فهو شيطان، سواء في ذلك الإنس والجن كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} (الأنعام: ١١٢)

والمقصود بشياطينهم في الآية هم رءوس النفاق فيهم، وأصحاب الأمر وتدبير الشر عندهم- كما قال قتادة، أو شياطين الجن الذين رافقوهم لإضلالهم. وهؤلاء هم (الطاغوت) الذين أمرنا الله بالكفر به {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا } (البقرة: ٢٥٦).

وقول تعالى عن المنافقين: {قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان. [(١)]

وبلهجة قويّة حاسمة يرد الحق – سبحانه- على هؤلاء ويقول: {الله يستهزئ بِهِمْ} أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال.

{يستهزئ بِهِمْ} بحقن دمائهم وأموالهم ليزدادوا نفاقا في الدنيا فيزدادوا عذابا في الآخرة (وَ) يدل عليه أنه (يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ).

١- روى الواحدي أثرا بسنده في كتاب أسباب النزول عن الكلبي (محمد بن السائب) عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال عبد الله بن أبي: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم؟ فذهب فأخذ بيد أبي بكر، فقال: مرحبا بالصديق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله؛ ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحبا بسيد بني عدي بن كعب، الفاروق القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله؛ ثم أخذ بيد علي فقال: مرحبا بابن عم رسول الله وختنه، سيد بني هاشم ما خلا رسول الله، ثم افترقوا؛ فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت، فأثنوا عليه خيرا، فرجع المسلمون إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخبروه بذلك، فأنزل الله هذه الآية. ومحمد بن السائب الكلبي متروك، وأبي صالح عن ابن عباس ضعيف، وهو بذلك أثر ضعيف جدا، ولكن يستأنس به في تصور حالة المنافقين وفكرهم.

قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم، ويُملي لهم كقوله:{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} (الأعراف: 183).[١]
أي أؤخرهم وأمد لهم في ضلالتهم حتى ينقطع عذرُهم وعملُهم ويموتوا على الضلال فيُجازَون نكالاً بقدر إجرامهم.

وقال ابن كثير: هذا إِخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف.

وهذا عند علماء البلاغة يسمى "المشاكلة"؛ وإِليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل {وجزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} (الشورى: 40) ومثل {فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ} (البقرة: 194) فالأول ظلم والثاني عدل. انتهى.

وقوله تعالى: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} أي ويزيدهم – بطريق الإمهال والترك – في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويتردّدون ويتحيرون. وقوله تعالى:{ ويمدهم} أي يمهلهم دفعاً لما يُتَوَهَّم من أن المجازاة واقعة حالاً، وحكمة الإمهال مذكورة في قوله تعالى: {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمَاً} (آل عمران: ١٧٨) إلى غير ذلك من الآيات.

والطغيان: هو مجاوزة الحد في كل شيء ومنه قوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَا الماءُ حملناكم في الجارية} (الحاقة: 11) أي ارتفع الماء وعلا وجاوز حده، والطاغية: الجبار العنيد الذي يجاوز الحد في الظلم. والطاغوت من ذلك الاشتقاق أيضا. لذلك قال العلماء أنَّ الطاغوت هو كلُّ مَن/ ما تجاوز حده وقدره فصار يطاعُ أو يُعبَد أو يُتَقَرَّب إليه في غير رضا الله تعالى.

و{يَعْمَهُونَ} من العَمَة: وهو التحير والتردُّد في الشيء يقال: عَمِه يَعْمَه فهو عَمِهٌ. قال الفخر الرازي: العَمَهُ مثل العمى، إِلا أَن العَمَى عامٌ في البصر والرأي، والعَمَه في الرأي خاصة، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه.

---

١ –قال أبو جعفر: معناه؛ وأُؤخر هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا. وأصل "الإملاء" من قولهم: "مضى عليه مِلاوَة ومُلاوَة ، ومَلاوة" (بالكسر والضم والفتح) من الدهر"، وهي الحين، ومنه قيل: انتظرتُك مليًّا. والله تعالى يؤخر الظالمين حينا من الدهر ليبلغوا بمعصيتهم ربهم، المقدارَ الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب ثم يقبضهم إليه (بلا عذرٍ لهم ولا توبة). والكيد: هو المكر. وقوله: (متين) ، يعني: قويٌّ شديدٌ.
يقول تعالى ذكره: وأنسئ في آجالهم ملاوة من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كفرهم وتمرّدهم على الله لتتكامل حجج الله عليهم (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) يقول: إن كيدي بأهل الكفر قويّ شديد. راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (13/ 288)

قلتُ: وهنا نكتة [١] التشابه اللفظي في اللغة وأثره في تشابه المعنى. مثل الفعلين (سَفَرَ ومنه أسفر الصبح) أي ظهر وبان، و(فَسَرَ ومنه التفسير) أي كشف وأظهر. ولذلك يجب على المفسر للقرآن أنْ يكون عميقاً في دراسة اللغة العربية كي لا يقع في التخليط والإسفاف.

قوله: {أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى}

أي استبدلوا الكفر بالإيمان. قال مجاهد: آمنوا ثم كفروا.

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى. وقد رجحه ابن جرير الطبري والقرطبي، وقالا: فليست الباء للمعاوضة أبداً، فهم لم يكن عندهم إيمان أصلا، وإنما هي لمعنى الاستبدال والاستحباب للضلال على الهدى، واستدلا– رحمهما الله– بقوله تعالى : {فاستحبوا العمى على الهدى }(فصلت17)، وهو تفسير القرآن بالقرآن، وهو أرقى أنواع التفسير. وحقيقة الاشتراء: الاستبدال، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه، قال الشاعر: فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم.. فإني اشتريتُ الحلمَ بعدِك بالجهلِ.

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، وكأنهم بذلوا الهدى ثمنا للضلالة، وسواء أكان مِنهم مَنْ حصل له الإيمانُ ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى: { ذلك بأنهم امنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم} (المنافقون 3)، أو أنهم استحبوا الكفر على الهدى ابتداءً؛ كما هو حال فريق منهم؛ فإنهم جميعا خاسرون.

ولذلك قال تعالى بعدها: { فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وما كانُوا مُهْتَدِينَ }

أى ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة وما كانوا راشدين في صنيعهم. قال قتادة: قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السُّنَّة إلى البدعة.

قال الصاوي: وقد أشار الجلال السيوطي –رحمه الله– أن المراد بالشراء مطلق الاستبدال والباء داخلة في الثمن. وكلامه يقتضي أن الهدى كان موجودا عندهم ثم دفعوه وأخذوا الضلالة وهو كذلك لقوله ﷺ : "

---

١ والنُّكْتَةُ في اللغة معناها: الأَثَرُ الحاصـــلُ من نَكْتِ الأَرض. والنُّكْتَةُ النُّقْطَةُ في الشـــيء تخالف لَوْنَه. والنُّكْتَةُ العلامةُ الخفيَّة. والنُّكْتَةُ الفكرةُ اللطيفة المؤثِّرَة في النفس. والنُّكْتَةُ المسأَلةُ العلميَّةُ الدَّقيقةُ يُتَوصَّلُ إليها بدقَّة وإنعامِ فِكْر. والنُّكْتَةُ شِبْهُ وسَخٍ في المِرآة أَو السَّيف. والنُّكْتَةُ شِبْهُ وَقْرَةٍ في قَرْنيَّةِ العين، يسميها العامة: نقطة. والجمع: نُكَتٌ، ونِكاتٌ. انتهى من المعجم الوسيط.

كل مولود يولد على الفطرة.... الحديث ". ولأنهم في العهد يوم قال ربنا: { ألست بربكم } أجابوا جميعا بالإيمان). انتهى[١]

وهذا جمعٌ حسنٌ بين التأويلين، والله أعلى وأعلم.

وفى قوله تعالى: «وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ» بعد قوله سبحانه «فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ» توكيد لخسرانهم وضلالهم، إذ قد لا يربح التاجر في تجارته، ولكن ذلك لا ينقص من ميزانه الخلقي مثقال ذرة، إذ قد يكون عدم ربحه، أو خسارته، لأسباب لا يد له فيها. ولكن هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى إنما هم مغبونون في تلك الصفقة التي عقدوها، ولو جرّت عليهم كثيرا من حطام الدنيا، لأنهم خسروا أنفسهم، وذلك هو الخسران المبين، فهو خسران محقق، وغبن فاحش، يملأ النفس حسرة وندما. عند من وعى وعقل!) [٢].

يقول سيد قطب:

لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجاً مكروراً في أجيال البشرية جميعاً. نجد هذا النوع من المنافقين من علية الناس الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح، أو يجدون في نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحق بالإنكار الصريح. وهم في الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس، وعلى تصورهم للأمور!

ومن ثم نميل إلى مواجهة هذه النصوص كما لو كانت مطلقة من مناسبتها التاريخية، مُوَجَّهةً إلى هذا الفريق من المنافقين في كل جيلٍ. وإلى صميم النفس الإنسانية الثابت في كل جيل.[٣]

لقد شبّه القرآن الكريم في مواضع عديدة عمل الإنسان في الحياة الدنيا بالتجارة.

ونحن في الحياة الدنيا تجار نأتي إلى هذا المتجر الكبير برأس مال وهبه لنا الله سبحانه، وعناصره العقل والفطرة والعواطف والطاقات الجسميّة المختلفة ومواهب عالم الطبيعة، ثم قيادة الأنبياء، جمع يربحون ويفوزون ويسعدون، وجمع لا يجنون ربحاً، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس مالهم، ويفلسون بكل ما لهذه الكلمة من معنى. المجاهدون في سبيل الله من أفراد الجمع الأول، ويقول عنهم الله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ تؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} (الصف، 10 و11).

---

١ – حاشية الصاوي على الجلالين ج1ص38دار الحديث مصر.

٢ – راجع التفسير القرآني للقرآن ، د/ عبد الكريم الخطيب ، ط دار دمشق ، ج 1 ، ص: 32.

٣ – انظر في ظلال القرآن (1/ 42)

والمنافقون من أبرز نماذج الجمع الثاني، فبعد أن يذكر القرآن أعمالهم التخريبية المتلبسة بظاهر الإصلاح والتعقّل يقول عنهم: {أولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَة بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَاكَانُوا مُهْتَدِينَ}.

كان بمقدور هؤلاء أن ينتخبوا أفضل طريق لحياتهم، لأنهم كانوا يعيشون إلى جانب ينبوع الوحي الصافي، وفي جوّ مفعم بالصدق والإخلاص والإيمان. لكنهم فوّتوا على أنفسهم هذه الفرصة الفريدة العظيمة، وأضاعوا ما وهبهم الله من هداية فطرية في ذواتهم، ومن هداية تشريعية في إطار نور الوحي، واشتروا الضلالة وسلكوا طريقاً خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوة ويصلوا إلى مآربهم الخبيثة.

وكان في هذه المقايضة الخاطئة خسارتان:

الأُولى: ضياع ثرواتهم المادية والمعنوية. والثانية: فشلهم في تحقيق أهدافهم المشؤومة. فالإسلام سرعان ما ضرب بجرانه في أرجاء الأرض فاضحاً خطط المنافقين.

أسباب ونشأة وتطور ظاهرة النفاق.

وفي هذه الآيات الكريمات نلاحظ هذا التدفق البلاغي الرائع الأداء للحوار في القرآن الكريم بين {قيل} و{ قالوا}؛ فنرى الآيات تصور الحالات النفسية والفكرية للمنافقين من خلال أسلوب حواري كاشف يفضح دخائل أولئك المارقين ويكشف ألاعيبهم في كل زمانٍ.

حوار يصور حالة التخبط والتحير والفساد في التصور والضبابية في الفهم والرؤية في نفوس هؤلاء.

هذه الآيات تبين– باختصار وعمق –الخصائص الروحية للمنافقين وأعمالهم.

فلقد واجه الإسلام في عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، ولا القدرة اللازمة للمعارضة.

هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصية توغّلت في أعماق المسلمين، وشكّلت خطراً كبيراً على الإسلام والمسلمين. كان تشخيصهم صعباً لأنهم متظاهرون بالإسلام، غير أن القرآن بيّن بدقة مواصفاتهم وأعطى للمسلمين في كل القرون والعصور معايير حيّة لمعرفتهم لأنهم أخطر على المجتمع الإسلامي من الكافر المبين الذي نستطيع أن نرى عداءه ونأخذ حذرنا منه.

وحين نغوص في عمق الاجتماع لنفهم كيف يتكون النفاق وكيف يتطور؛ نرى أنه حينما تقوم دعوة تصحيح وهداية في منطقة معينة فإنّ مصالح الفئة الظالمة الناهبة المستبدة تتعرض للخطر حتماً، خاصةً إذا كانت الدعوة مثل الإسلام تقوم على أساس الحقّ والعدالة.

هذه الفئة تسعى للإطاحة بالدعوة عن طريق السخريّة والاستهزاء أوّلا، ثُمّ بالاستفادة من القوة المسلحة والضغوط الاقتصادية، والتضليل الاجتماعي.

وحين تبدو في الأُفق علامات انتصار دعوة الحق تعمد فئة من المعارضين إلى تغيير موقفها، فتستسلم ظاهرياً، وتتحول في الواقع إلى مجموعة معارضة سريّة.

إنهم جماعة المنافقين الذين اندسوا في صفوف المسلمين باسم الإسلام، بعد أن غلب وظهر، فرأى هؤلاء أن حب السلامة، وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام، وأن يكيدوا له داخل الصفوف، بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف.

وهؤلاء يسمّون «منافقين» لانطوائهم على شخصيتين مختلفتين (المنافق مشتقة من النفق: وهو الطريق النافذ في الأرض المحفور فيها للاستتار أو الفرار)، وهم أخطر أعداء الحق، لأن مواقفهم غير واضحة، والأُمّة المؤمنة بالإصلاح لا تستطيع أن تعرفهم وتطردهم من صفوفها، لذلك يتغلغلون في صفوف النّاس المخلصين الطيبين، ويتسلمون أحياناً المناصب الحساسة في المجتمع.

إن الإسلام في عصره الأوّل واجه مثل هذه المجموعة. فبعد الهجرة المباركة وضعت أول لبنة للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وازداد الكيان الإسلامي الوليد قوة بعد انتصار المسلمين في غزوة «بدر». وهذه الانتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينة، وخاصة اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون في المدينة بمكانة ثقافية واقتصادية مرموقة. وهؤلاء أنفسهم كانوا يبشّرون قبل البعثة النّبوية المباركة بظهور النّبي.

كما كان في المدينة أفراد مرشحون للزعامة والملكية، لكن الهجرة النّبوية بدّدت آمال هؤلاء المتضررون من الدعوة رأوا أن الجماهير تندفع نحو الإسلام، وتنقاد إلى النّبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى عمّت الدعوة ذويهم وأقاربهم.

وبعد مدّة من الدين الجديد، لم يروا بدّاً من الاستسلام والتظاهر بالإسلام، تجنباً لمزيد من الأخطار الاقتصادية والاجتماعية وحذراً من الإبادة، خاصة وأن قوّة العربي تتمثل في قبيلته، والقبائل أسلمت للدين الجديد لكن هؤلاء راحوا يخططون خفية للإطاحة بالإسلام.

بعبارة موجزة، إن ظاهرة «النفاق» في المجتمع، تعود إلى عاملين: أحدهما، انتصار الإسلام، وسيطرة الرسالة الاصلاحية على المجتمع.

والآخر: انهزام المعارضين نفسياً، وفقدانهم للشجاعة الكافية لمواجهة المدّ الجديد، واضطرارهم إلى الاستسلام الظاهري أمام الدعوة انتظارا للوقت المناسب للانقضاض على الدعوة وأهلها حسب مناعة المجتمع المؤمن، فغن ضعفت مناعته أطل المنافقون برؤوسهم كما تطل الميكروبات في حال ضعف المناعة فتنقض على الجسد الهزيل.

إن ظاهرة النفاق والمنافقين لا تختص – دون شك– بعصر الرسالة الأول، بل هي ظاهرة عامة تظهر بشكل وآخر في كل المجتمعات. من هنا لابدّ للجماعة المسلمة أن تعرف أوصافهم كما جاء في القرآن، كي تحبط مؤامراتهم وتقف بوجههم. في الآيات السابقة وفي سورة المنافقين وهكذا في النصوص الإسلامية وردت للمنافقين أوصاف مختلفة منها:

1 . كثرة الضجيج والادعاءات الفارغة، أو بعبارة أخرى: كثرة القول وقلّة العمل المفيد المتزن.

2 . التلوّن والتذبذب، فمن المؤمنين يقولون «آمنا» ومع شياطينهم ورؤسائهم في الشر يقولون «إنّا معكم».

3 . الانفصال عن الأُمّة، وتشكيل الجمعيات السرية وفق خطط مبيّتة.

4 . المكر والخداع والكذب والتملق والنكول والخيانة.

5 . التعالي على النّاس، وتحقيرهم، واعتبارهم بلهاء سفهاء، إلى جانب الاعتداد بالنفس.

على أي حال، ازدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلي والسلوك الخارجي في وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة في أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم الفردي والاجتماعي.

وما أجمل تعبير القرآن في حقّ هؤلاء إذ يقول: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)، وأيّ مرض أسوأ من ازدواجية الظاهر والباطن، ومن التعالي على النّاس؟!!

هذا المرض مثل سائر الأمراض الخفية التي تصيب القلب لا يمكن اخفاؤه تماماً، بل تظهر علاماته بوضوح على جميع أعضاء الإنسان.

والنفاق في مفهومه الخاص– كما ذكرنا –صفة أُولئك الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، وهو ما يسميه علماء العقيدة (النفاق الأكبر) وهو مساوٍ للكفر المخرج من ملة الإسلام، ولكن لأن المنافق لا يظهر الكفر علانية فيعامل ظاهريا في الدنيا معاملة المسلم ثم يُرَدُّ يوم القيامة إلى الدرك الأسفل من النار.

لكن النفاق له معنىً عام (النفاق الأصغر) واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن، وكل افتراق بين القول والعمل. من هنا قد يوجد في قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففي الحديث النّبوي: «ثَلاَثٌ (وفي رواية: أربع) مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها، مَنْ إذَا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ (وزيد في الرواية الأخرى: من إذا خاصم فجر)».

والحديث لا يدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذي في قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة.

والمنافقون يشكّلون أخطر تجمع معارض، لا على الإسلام فحسب، بل على كلّ رسالة ثورية تقدمية، حيث ينفذون بين صفوف المسلمين، ويستغلّون كل فرصة للتآمر.

يتحدّث القرآن عن تآمر هؤلاء في صدر الإسلام ويذكر نماذج من أعمالهم.

يذكر مثلا استهانة هؤلاء بشخصية المؤمنين، وبما يقدمه المؤمنون على قدر طاقتهم من صدقات فيقول: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يجدون إلاّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التوبة، 79).

ويتخذون أحياناً في اجتماعاتهم السريّة قرارات بشأن قطع مساعدتهم المالية لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، كي يتفرقوا عن الرسالة والرّسول: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا على مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتى يَنْفَضُّوا، وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ} (المنافقون، 7).

كما يتخذون القرارات بإخراج المؤمنين من المدينة بعد انتهاء الحرب والعودة إلى المدينة: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} (المنافقون، 8).

وكانوا يتخلفون عن الجهاد بمبررات مختلفة من قبيل الانشغال بالحصاد مثلا، ويتركون الرّسول في ساعات الشدّة. وهم مع ذلك خائفين من انفضاح أمرهم وانكشاف سرّهم.

بسبب هذه المواقف العدائية التآمرية ركز القرآن على التنديد بالمنافقين في مواضع عديدة، واحتوت سورة المنافقين عرضاً مفصّلا لوضعهم. كما تضمنت سورة التوبة والحشر وسور أُخرى حملات شديدة على المنافقين، وتحدثت ثلاث عشرة آية من سورة البقرة عن صفاتهم وعواقب مكرهم.

كذلك فالمنافقون يشكلون مشكلة كبرى للمسلمين، ذلك لأن المسلمين مكلفون –من جهة– باحتضان كلّ من يظهر الإسلام وبالامتناع عن تفتيش عقائد الأفراد، ومسؤولون ـ من جهة أُخرى ـ عن الحذر من مؤامرات المنافقين وتحركاتهم المشبوهة التي يستهدفون منها الوقوف بوجه الرسالة، وإن اتخذت هذه التحركات صفة إسلامية ظاهرية.

المنافقون يظنون أنهم بعملهم هذا يستطيعون أن يخدعوا المسلمين ويمرروا عليهم مؤامراتهم، بينما هؤلاء يخدعون أنفسهم.

التعبير القرآني (يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) يوضّح مفهوماً دقيقاً، فكلمة يخادعون تعني الخداع المشترك من الطرفين، وتبين أن هؤلاء المنافقين كانوا يعتقدون ـ لعمى بصيرتهم ـ أنّ النّبي خدّاع توسّل بالدين والنبوّة وجمع حوله السذّج من النّاس ليكون له حكم وسلطان، ومن هنا راح المنافقون يتوسلون بخدعة لمقابلة خدعة النّبي! فالتعبير القرآني المذكور يوضّح إذن لجوء المنافقين إلى الخدعة، ويبين كذلك نظرة هؤلاء الخاطئة إلى النّبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم).

ثم تردّ الآية الكريمة على هؤلاء وتقول: (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)، فالفعل «يخدعون» يوضِّح أنّ الخداع من جانب المنافقين فقط، وتؤكد الآية أيضاً أنهم يخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، لأنهم يبددون بأفعالهم هذه طاقاتهم العظيمة على طريق الإنحراف، ويحرمون أنفسهم من السعادة التي رسم الله طريقها لهم، ويغادرون الدنيا وهم صفر اليدين من كل خير، مثقلون بأنواع الذنوب والآثام.

لا يمكن لأحد أن يخدع الله طبعاً لأنه سبحانه عالم بالجهر وما يخفى، وتعبير «يخادعون الله» إمّا أن يكون المقصود به يخادعون الرّسول والمؤمنين، لأن من يخدع الرّسول والمؤمنين فكأنه خدع الله (في القرآن مواضع كثيرة عظم فيها الله رسوله والمؤمنين إذ قرن اسمهم باسمه).وإمّاأن يكون نقص العقل وسوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حداً تصوروا معه أنهم قادرون على أن يخفوا على الله شيئاً من أعمالهم (شبيه ذلك ما ورد في آيات أُخرى من كتاب الله العزيز).

على أيّ حال، الآية المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضمير والوجدان، وأن الإنسان المنحرف الملوث كثيراً ما يعمد إلى خداع نفسه ووجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، ويصبح بالتدريج مقتنعاً بأن قبائحه ليست عملا إنحرافياً، بل هي أعمال إصلاحية (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)، وبذلك يخدعون أنفسهم، ويستمرون في غيّهم.

ذكر أنّ أحد القادة الأمريكيين وجّه إليه سؤال حول سبب إلقاء القنبلة الذرية على مدينتي (هيروشيما وناكازاكي) اليابانيتين ممّا أدّى إلى مقتل مائتي ألف إنسان بريء أو أصابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! ولو لم نفعل ذلك لطالت الحرب أكثر، ولذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى!!

المنافقون في كل عصر وفي عصرنا هذا يتشبثون بمثل هذه الأقاويل لخداع النّاس وخداع أنفسهم، فهذا الزعيم الأمريكي يضع أمامه طريقين فقط هما: استمرار الحرب أو القصف الذري للمدن الآمنة، متناسياً طريقاً ثالثاً واضحاً وهو الكف عن الاعتداء على الشعوب وترك النّاس أحراراً مع ثرواتهم! وممّا تقدم يتضح أن النفاق وسيلة لخداع الضمير وشلّ مفعوله، وما أخطر عملية شلّ الضمير الإنساني، الذي يعتبر الواعظ الداخلي والرقيب اليقظ الأمين والمندوب الإلهي في نفس الإنسان!

دقيقة في العقيدة، واحتجاج جيد للإمام الطبري.

قال أبو جعفر: اختُلف في صفة استهزاءِ الله جلّ جلاله، الذي ذَكر أنه فاعله بالمنافقين، الذين وَصَف صفتهم. فقال بعضهم: استهزاؤه بهم، كالذي أخبرنا تبارك اسمه أنه فاعلٌ بهم يوم القيامة في قوله تعالى: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى) (سورة الحديد: 13، 14) . الآية.

وكالذي أخبرنا أنّه فَعَل بالكفار بقوله: (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) (سورة آل عمران: 178) . فهذا وما أشبهه من استهزاء الله جلّ وعزّ وسخريتِه ومكرِه وخديعتِه للمنافقين وأهل الشرك به – عند قائلي هذا القول، ومتأوّلي هذا التأويل.

وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم، توبيخُه إياهم ولومه لهم على ما ركِبوا من معاصي الله والكفر به، كما يقال:"إن فلانًا لَيُهْزَأ منه منذ اليوم، ويُسخر منه"، يُراد به توبيخُ الناس إياه ولومهم له، أو إهلاكه إياهم وتدميرُه بهم ، كما قال عَبِيد بن الأبرص:

سَائِلْ بِنَا حُجْرَ ابْنَ أُمِّ قَطَامِ، إذْ ... ظَلَّتْ بِهِ السُّمْرُ النَّوَاهِلُ تَلْعَبُ . (١)

---

(١) [وحجر، أبو امرئ القيس، وكانت قتلته بنو أسد رهط عبيد بن الأبرص. وأم قطام، هي أم حجر ملك كندة. والنواهل جمع ناهل وناهلة: والناهل: العطشان، توصف به الرماح، كأنها تعطش إلى الدم، فإذا شرعت في الدم رويت].

فزعموا أن السُّمر –وهي القَنَا– لا لعب منها، ولكنها لما قتلتْهم وشرَّدتهم، جَعل ذلك مِنْ فعلها لعبًا بمن فعلت ذلك به. قالوا: فكذلك اسْتهزاءُ الله جل ثناؤه بمَن اسْتهزأ به من أهل النفاق والكفر به: إمّا إهلاكه إياهم وتدميرُه بهم، وإمّا إملاؤهُ لهم ليأخذهم في حال أمنهم عند أنفسهم بغتةً، أو توبيخه لهم ولأئمته إياهم. قالوا: وكذلك معنى المكر منه والخديعة والسُّخرية.

وقال آخرون قوله: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} (سورة النساء: 142) على الجواب، كقول الرجل لمن كان يَخْدَعه إذا ظفر به: "أنا الذي خدعتُك"، ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك وقد صار الأمر إليه. قالوا: وكذلك قوله: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (سورة آل عمران: 54) ، و"الله يستهزئ بهم"، على الجواب. والله لا يكونُ منه المكرُ ولا الهُزْء، والمعنى أن المكرَ والهُزْءَ حاق بهم على سبيل المشاكلة والمقابلة بين الفعلين.

وقال آخرون: قوله: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) ، وقوله: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) (سورة النساء: 142) ، وقوله: (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) (سورة التوبة: 79) ، (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) (سورة التوبة: 67) ، وما أشبه ذلك، إخبارٌ من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبةَ الخداع. فأخرج خبرَه عن جزائه إياهم وعقابه لهم، مُخْرَج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقُّوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان. كما قال جل ثناؤه: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (سورة الشورى: 40) ، ومعلومٌ أن الأولى من صاحبها سيئة، إذْ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية، وأن الأخرى عَدلٌ، لأنها من الله جزاءٌ لعاصي على المعصية، فهما –وإن اتفق لفظاهما– مختلفا المعنى. وكذلك قوله: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) (سورة البقرة: 194) ، فالعدوان الأول ظلم، والثاني جزاءٌ لا ظلم، بل هو عدل، لأنه عقوبة للظالم على ظلمه، وإن وافق لفظه لفظ الأول.

وإلى هذا المعنى وَجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك، مما هو خبرٌ عن مكر الله جل وعزّ بقومٍ، وما أشبه ذلك.

وقال آخرون: إنّ معنى ذلك: أن الله جل وعز أخبر عن المنافقين أنهم إذا خَلَوْا إلى مَرَدَتهم قالوا: إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما نُظهر لهم – من قولنا لهم: صدقنا بمحمد عليه السلام وما جاء به – مستهزئون. يعنون: إنا نُظهر لهم ما هو عندنا باطل لا حَقٌّ ولا هدًى. قالوا: وذلك هو

معنى من معاني الاستهزاء، فأخبر الله أنه "يستهزئ بهم"، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلافَ الذي لهم عنده في الآخرة، كما أظهروا للنبي ﷺ والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم.

قال الإمام الطبري: والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهارُ المستهزِئ للمستهزَأ به من القول والفعل ما يُرضيه ظاهرًا، وهو بذلك من قِيله وفِعْله به مُورِثه مَساءة باطنًا. وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر.

فإذا كان ذلك كذلك؛ وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق في الدنيا من الأحكام – بما أظهروا بألسنتهم– الذي يدْخِلهم في عداد من يشمله اسمُ الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين – معَ علم الله عز وجل بكذبهم، واطلاعِه على خُبث اعتقادهم، وشكِّهم فيما ادَّعوا بألسنتهم، حتى ظنُّوا في الآخرة إذا حشروا في عِداد المسلمين في الدنيا، أنَّهم وارِدُون موْرِدَهم، وداخلون مدخلهم.

والله جل جلاله – مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام في الدنيا معدٌّ لهم من أليم عقابه ونَكال عذابه، ما أعدّ منه لأعدى أعدائه وشر عباده، حتى ميز بينهم وبين أوليائه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدَّرك الأسفل. فكان هذا معنى أن يكون الله تعالى مستهزئًا، ساخرًا بهم، ولهم خادعًا، وبهم ماكرًا. وهذا في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره. (١)

ثم يقول رحمه الله:

وبنحو ما قلنا فيه رُوي الخبر عن ابن عباس – رضي الله عنه–في قوله: "اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ"، قال: يسخر بهم للنقمة منهم. انتهى.

قال: وأما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره: الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ"، إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكرٌ ولا خديعة، فنافُون على الله عز وجل ما قد أثبته الله عز وجل لنفسه، وأوجبه لها.

(قلتُ: يقصد الطبري رحمه الله فرقة المعتزلة والأشاعرة الذين يدَّعون أنهم ينزهون الله عما لا يليق به فينفون كل الأفعال الموهمة التي تتصل بالله تبارك وتعالى ويقولون هي مجازٌ على وجه الجواب والمقابلة وليست على أي معنى حقيقي لها، فيرد عليهم ابن جرير ويقول:)

وسواءٌ قال قائل: لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخريةٌ، أو قال: لم يخسف الله بمن أخبر أنه خَسَف به من الأمم، ولم يُغرق من أخبر أنه أغرقه منهم.

١–تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 302 وما بعدها)

ويُقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكرَ بقوم مضَوْا قبلنا لم نَرَهُم، وأخبر عن آخرين أنه خَسَف بهم، وعن آخرين أنه أغرقهم، فصدَّقْنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك، ولم نُفَرِّق بين شيء منه. فما بُرهانُك على تفريقك – ما فَرَّقت بينه بزعمك– أنه قد أغرقَ وخَسف بمن أخبر أنه أغرق وخسف به، ولم يمكُرْ بمن أخبر أنه قد مكر به؟

ثم نعكس القول عليه في ذلك، فلن يقول في أحدهما شيئًا إلا ألزِمَ في الآخَر مثله.

وللكلام في هذا النوع موضع غير هذا، كرهنا إطالة الكتاب باستقصائه. وفيما ذكرنا كفاية لمن وُفق لفهمه. انتهى [١]

والقصد أن حمل كلام الله تعالى وأفعاله على المجاز يمكن أن يفتح باب الزندقة في تصور كل الذي أخبر به في القرآن على الحقيقة أنه من باب المجاز فبطل بذلك العمل بالقرآن وبطلت سائر حقائق الدين.

الأمثال القرآنية مقدمة قصيرة.

في هذه الآيات تبدأ معنا سمةٌ جديدةٌ من سمات البلاغة القرآنية.

فاللغة القرآنية لا تكتفي بأن تبين المعنى في أبهى صوره، وأزهى حلله حتى تغوص في عمق الوجدان الإنساني لترسم المعنى صورةً حيةً تذوب في النفس والشعور فتجعل القارئ التالي لكتاب الله تعالى يعيش مع مشاهد واقعية، ليس فقط بصفته متلقٍ ينظر إلى المشهد من خارجٍ؛ وإنما بوصفه جزءاً من المشهد ومنفعلاً في داخل المشهد نفسه.

إنه التعبير التصويري القرآني الذي أسميه دائما " ما فوق البلاغة".

هنا يستعمل القرآن " الأمثال" ليرسم فكرته ومعانيه في الوجدان والشعور مشاهدَ حيةً نابضةً في لغة رقراقة يخرج منها بحقائقه في أبلغ ما يمكن أن تصل إليه جمالية اللغة والتصوير وجلال المعاني.

وفي اللغة العربية يُطلق المثل ويُقصَد أحد أمور:

١–أن المَثَل، والمِثْل (بفتح الميم والثاء المثلثة، وبكسر الميم وسكون الثاء) والمثيل بصيغة التصغير يأتي بمعنى المشابهة بين شيئين من ناحيةٍ واحدةٍ أو أكثر، يقال: " هذا مثل ذلك " أي شبهه، ومنه

١–تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 304)

"الأمثل" من الناس وهو الأفضل، لأن معناه الأشبه بالأفضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم خيارهم. قال تعالى: {إذْ يقولُ أمْثَلُهم طريقةً...} الآية والمعنى أشبههم طريقةً بالحق والعقل.

وفي التنزيل أيضاً على لسان فرعون وقومه مدعيا كاذباً على موسى وهارون عليهما السلام: { قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} (طه: 63) يدعي أنه طريقة قومه أشبه بالحق، وهي حجة كل ديكتاتور فاسد يهيج قومه بنعرات القومية والوطنية الكاذبة؛ وكما كان يقول صموئيل جونسون الأديب البريطاني: (الوطنية هي الملاذ الأخير للأوغاد) ، والمثلى هي تأنيث أمثل .

وتقول: مثَّلت الشيء بالشيء إذا شبهته به تمثيلا وتَمْثالا بفتح التاء، كالتَّسْيار والتطواف.

وتماثل الشيئان: تشابها. ومِثْل الشيء: مقداره. (١)

قال الراغب الأصفهاني– رحمه الله:

معنى المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أنّ النّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمّيّة فقط، والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمِثْلَ عامّ في جميع ذلك.

ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفي التّشبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} (الشورى/ 11)، وأما الجمع بين الكاف والمِثْل فقد قيل: ذلك لتأكيد النّفي تنبيها على أنه لا يصحّ استعمال المثل ولا الكاف، فنفى ب (ليس) الأمرين جميعا.

وقيل: المِثْلُ هاهنا هو بمعنى الصّفة، ومعناه: ليس كصفته صفةٌ، تنبيها على أنه– سبحانه– وإن وُصِفَ بكثيرٍ ممّا يوصف به البشر فليس تلك الصّفات له على حسب ما يُستعمَل في البشر.

قال: وقد منع الله تعالى عن ضرب الأمثال بقوله: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ }(النحل/ 74) ثم نبّه أنه قد يضرب لنفسه المثل، ولا يجوز لنا أن نقتدي به، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} (النحل/ 74) ثمّ ضرب لنفسه مثلا فقال: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً الآية} (النحل/ 75) ، وفي هذا تنبيه أنه لا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف به البشر إلا بما وصف به نفسه (٢)

قلتُ: وهى لمسةٌ بلاغية ودلالية وعقدية رائعة في تدبر القرآن فعَضَّ عليها، وتضيف المعنى الآخر للمثل.

١– راجع مشكورا الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1816) دار العلم للملايين – بيروت ، لسان العرب (11/ 610) دار صادر – بيروت.

٢–المفردات في غريب القرآن (ص: 759)

٢-ويستعمل المثل بمعنى الصفة والوصف، وهو أكثر الاستعمال القرآني له.

ومنه قوله تعالى: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى} (النحل/ 60) أي: لهم الصّفات الذّميمة وله سبحانه الصّفات العلى.

وقوله: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ الآية} (الجمعة/ 5) ، أي: هم في جهلهم بمضمون حقائق التّوراة كالحمار في جهله بما على ظهره من الأسفار، وقوله: {وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} (الأعراف/ 176) فإنه شبّهه بملازمته واتّباعه هواه وقلّة مزايلته له بالكلب الذي لا يزايل اللهث على جميع الأحوال.

فالآيات هنا تصف شيئاً أو حتى معنىً بشيءٍ أو معنى آخر، ليتضح المراد بالشيء أو المعنى. وسنبينه بالتفصيل بإذن الله.

قال الراغب: وعلى هذا النحو ما جاء من أمثال القرآن. والمِثَالُ: مقابلة شيء بشيء هو نظيره، أو وضع شيء مّا ليُحتَذَى به فيما يفعل. انتهى

٣-ومن معاني المثل عند العرب ويسمى "المثل والقول السائر" هو قول له مورد (أي قصة) ومضرب (أي معنى يُذكَر فيه) لاختصار الكلام وبلاغته ويكون بينهما مناسبة في الغالب. وهو مأخوذ من التمثل أي: الإنشاد. قال جرير الشاعر:

والتغلبيّ إذا تنحنح للقرى.... حكَّ استَه وتمثَّل الأمثالا.

ومن هذه الأمثال: نحو قولهم "الصيفَ ضَيَّعتِ اللبن" (ضيعتِ) بكسر التاء وإن خاطبت به مذكراً، لأن الأمثال تحكى، فلا تغير عن صيغتها التي تمثل بها أول مرة. ويضرب هذا المثل لمن يضيع الأمر ثم يريد استدراكه. وله قصة ليس هنا موضعها [١]

إن الصورة القرآنية من أهم عوامل التفرد والإعجاز في اللغة القرآنية؛ لما لها من سحر البيان الذي يأخذك في عالمٍ من التفاصيل النورانية، فإذا أنت شاخصٌ فيه بروحك وعقلك وقلبك وشعورك.

وإذا كانت أمثال القران هى في الحقيقة نوع من أنواع التصوير القرآني المعجز؛

١-انظر: جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، (1/575) المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1384هـ.

(والقرآن الكريم حين خاطب العقل والشعور والعاطفة والوجدان، والروح والقلب جميعًا، خاطبها بأجل الوسائل في التعبير، فبهرها بـ "التصوير القرآني"، التي تلتقي فيه كل روافد الإعجاز، ليكشف عنها أروع كشف، في جلاءٍ ووضوحٍ، وتأثيرٍ وإقناع.

فالتصوير القرآني هو قمة الإعجاز، لأنه بمعناه الواسع العميق والشامل الثري بقيمه الكثيرة، يفيض بكل ذلك، فهو جسد وروح معًا، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، ولا نقصد بالتصوير الصور التقليدية والجزئية التي اقتصرت على ألوان البيان، كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، أو اقتصرت على اللفظ والعبارة، أو اقتصرت على النظم في علاقة الكلمات بمعانيها وترابطها، دون الأبعاد النفسية والشعورية، التي يعلمها خالق النفس والشعور سبحانه وتعالى، بل إنه الأمر الأعمق من كل ما سبق، والأرحب أفقًا.

وهذا الارتباط الحى بين الشكل والمضمون هو من مقومات التصوير وعناصره، التي تملك زمام التأثير على النفس وتدفع صاحبها إلى الاقتناع العقلي على سبيل الاعتقاد الصادق، والإيمان الراسخ، والتأثير والإقناع هما الغاية من الإعجاز في التصوير القرآني [١].

وإذا كان التصوير البليغ والفريد هو الأداة المفضلة والأثيرة للتعبير القرآني، وما ذلك إلا لأن التصوير ينقل المعنى من دائرة العقل واللوازم العقلية إلى بؤرة الوجدان وعميق الروح؛ لتفرز ذلك التفرد العجيب لفعل القرآن في النفس.

وكذلك إذا كان ضرب المثل أسلوب تصويري بليغ، وهو أسلوب من أساليب الخطاب يرتقي لمخاطبة الوجدان والشعور؛ ليرسم فيهما معنىً عميقاً لا تحيط به الكلمات المباشرة، وهو خطاب راقٍ يحترم ذكاء المتلقي ويرضى نزعته في استخلاص المعاني، عن طريق استعمال العقل المخيل والعقل التحليلي في ربط الصورة الممثَّلة بالمعنى الأصلي فتتضح فيه أبعاد جديدة؛ قد لا تبين إلا بالإحساس بهذا المعنى عن عمقٍ وملابسته عن قربٍ.

والمثل القرآني – بتصويره الموحي–ينتقل بالمتلقي مباشرةً من المعنى العقلي إلى أثر ذلك المعنى في النفس

---

١ وبهما تحول الوليد بن المغيرة من معاندٍ مجادلٍ إلى مهزومٍ ضعيفٍ ، يسترحم محمدًا صلى الله عليه وسلم، ويضع كفه على فمه الشريف فزعًا مذعورًا ويقول: "أمسك عليك يا ابن أخي"، ثم يذهب إلى صناديد الكفر، الذين كانوا ينتظرون منه الفتك به والقضاء عليه؛ فإذا بالحق ينطق به قلبه وعقله، وينطلق على لسانه، ليجري مجرى المثل والحكمة – وإن كان المثل من الكافر ، فذلك هاهنا أبلغ – فيصف التصوير القرآني بقوله: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه"، وصدق الله العظيم إذ يقول تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21]. انتهى من كتاب التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية ، علي علي صبح ، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث ، ج1ص59 بتصرف يسير .

نقل ابن كثير في تفسيره عن أحد السلف قوله : (إذا سمعت المثل في كتاب الله لا أفهمه ؛ بكيت على نفس ؛ كيف لا وقد قال الله:{ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون } (العنكبوت43) .

قال الزمخشري [١] :

(ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العرب المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيَّات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ؛ حتى تريك المُتخيَّل في صورة المُتحقَّق ، والمُتوهَّم في معرض المتيقَّن ، والغائب كأنه مشاهَد . وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي.

ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين ، وفى سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام الرسول (ﷺ) ، وفى كلام الأنبياء و الحكماء. قال الله تعالى " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " ، ومن سور الإنجيل سورة الأمثال .

والسيوطي في (الإتقان) يقول:

(وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس. فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص؛ لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالمشاهد. وتأتى أمثال القرءان مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله . قال تعالى " وضربنا لكم الأمثال "(إبراهيم 45) فامتن علينا بذلك لما تضمنه من الفوائد.).

وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ: حَلَالٍ، وَحَرَامٍ، وَمُحْكَمٍ، وَمُتَشَابِهٍ، وَأَمْثَالٍ؛ فَاعْمَلُوا بِالْحَلَالِ، وَاجْتَنِبُوا الْحَرَامَ، وَاتَّبِعُوا الْمُحْكَمَ، وَآمِنُوا بِالْمُتَشَابِهِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْأَمْثَالِ". وهو للأمانة حديث ضعيف. [٢]

وَقَدْ عَدَّه الشَّافِعِيُّ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ أمثاله فَقَالَ: (ثُمَّ مَعْرِفَةُ مَا ضَرَبَ الله فِيهِ (أي القرآن العظيم) مِنَ الْأَمْثَالِ التي تدل عَلَى طاعته ، المعينة على اجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ (أي حفظ العقل والقلب عن الهوى)، والازدياد من نوافل الفضل(أي الأمور الفاضلة الشريفة التي ترقِّي المؤمن)...

---

١ في الكشاف (ج1ص101).

٢ (والحديث ضعيف جدا ضعفه الالباني في المشكاة)

قال بعض العلماء:

(يعد ضرب المثل في أيامنا هذه من أنجح وسائل التربية ، وضرب المثل قد يكون عمليا بالقدوة الصالحة وقد يكون قوليا . فأما القدوة ؛ فقد أدب الله تعالى نبيه فأحسن تأديبه ، ووهبه الخلق العظيم ، فأصبحت أعماله وسلوكه سنة عملية مأثورة ، وهكذا كان محمد المثل العلى للمؤمنين مثلا عمليا ساقه الله لعباده لمن شاء منهم أن يستقيم .(قلت : وكذا ما ساقه الله تعالى في طيات كتابه من قصص الرسل والأنبياء والحكماء والصالحين وغيرهم من أهل الضلال والبغي المفسدين فهو من باب الأمثال الفعلية الحية الناطقة بالعبر والتربية لوجدان المؤمنين . وبهذا المعنى نجد أن الأمثال القرآنية تحتل جزءا كبيرا في الخريطة القرآنية ؛ لو تم ضم القصص القرآني لمنطقتها، أما الأمثال القولية فقد امتدت على مدى القرءان بأروع بيانٍ ولها صور شتى ...). (١)

١- لي -بحول الله وقوته- كتاب كبير -يسر الله إظهاره- بعنوان (الأمثال القرآنية) توسعت فيه في دراسة المثل في القرآن الكريم.

المثل الأول في فضح النفاق وأهله.

قال تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (18) } (سورة البقرة)

(مَثَلُهُمْ) أي المنافقون في صفتهم عجيبة الشأنِ في اشتراء الضلالة المظلمة بالهدى المنير.

(كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً) أي أوقد ناراً أو طلب الوقود [١] ليرتفع لهب النار ليزيد الإنارة، إذا ادعوا لأنفسهم قوّة الإيمان الذي هو في الإنارة المعنوية مثل إنارة النار في الحس أو أشد.

(فَلَمَّا أَضاءَتْ) النار (ما حَوْلَهُ) أي حول المستوقد فأبصر ما فيه، أطفأ النار على ظن أنه لم يبقَ له إليها حاجة .

وكذلك إطفاء أولئك المنافقين مصباحَ وسراجَ الإيمانِ من باطنهم على ظن أنه لا يُحتاج إليه إلا في حقن الأموال والدماء بادعائهم أنهم من أهل النور.

فلما ماتوا (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) أي بفائدته في الدنيا من حقن الدماء والأموال (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ) ظلمة الكفر وظلمة أهوال يوم القيامة وظلمة غضب الله وعقابه بحيث لا يعقبها نورٌ إذ (لا يُبْصِرُونَ) خلاصهم عن هذه الظلمة، وهو معنى استهزاء الله بهم بعد أن ظنوا بسفه عقولهم أنهم يخادعون الله والذين آمنوا. [٢]

قال البغوي رحمه الله تعالى:

(مثلهم في نفاقهم كمثل رجلٍ أوقد نارا في ليلةٍ مظلمة في صحراء مقفرةٍ، فاستدفأ ورأى ما حوله، فاتقى مما يخاف؛ فبينما هو كذلك إذا طُفئت ناره، فبقي في ظلمةٍ خائفاً متحيراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم فذلك نورهم؛ فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل: ذهاب نورهم في القبر. وقيل: يوم القيامة حيث يقولون للذين آمنوا " انظرونا نقتبس

---

(١) واستوقد: استفعل، وهي بمعنى أفعل. حكى أبو زيد: أوقد واستوقد بمعنى، ومثله أجاب واستجاب، وأخلف لأهله واستخلف أي خلف الماء، أو للطلب، جوز المفسرون فيها هذين الوجهين من غير ترجيح، وكونها بمعنى أوقد، قول الأخفش، وهو أرجح لأن جعلها للطلب يقتضي حذف جملة حتى يصح المعنى، وجعلها بمعنى أوقد لا يقتضيه. ألا ترى أنه يكون المعنى في الطلب استدعوا نارا فأوقدوها (فلما أضاءت ما حوله)، لأن الإضاءة لا تتسبب عن الطلب، إنما تتسبب عن الاتقاد، فلذلك كان حملها على غير الطلب أرجح. انظر البحر المحيط في التفسير (١/ ١٢٧)

٢-تفسير المهايمي المسمى تبصير الرحمن وتيسير المنان (1/ 35)

من نوركم "كما في الآية. وقيل: ذهاب نورهم بإظهار عقيدتهم وفضحهم على لسان النبي ﷺ. فضرب النار مثلا ثم لم يقل أطفأ الله نارهم لكن عبَّر بإذهاب النور عنه لأن الضياء نور وحرارة فيذهب نورهم وتبقى الحرارة عليهم. وقال مجاهد: إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة. وقال عطاء ومحمد بن كعب: نزلت في اليهود. وانتظارهم خروج النبي ﷺ واستفتاحهم به على مشركي العرب فلما خرج كفروا به ثم وصفهم الله فقال:

{ صُمٌّ } أي هم صم عن الحق لا يقبلونه وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا { بُكْم } أى خرس عن الحق لا يقولونه أو أنهم لما أبطنوا خلاف ما أظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق { عُمْيٌ } أي لا بصائر لهم ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له { فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ } عن الضلالة إلى الحق) [١].

يقول العلامة الشنقيطي: ظاهر هذه الآية أن المنافقين متصفون بالصمم، والبكم، والعمى. ولكنه تعالى بَيَّن في موضعٍ آخر أن معنى صممهم، وبكمهم، وعماهم، هو عدم انتفاعهم بأسماعهم، وقلوبهم، وأبصارهم وذلك في قوله جلّ وعلا: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (الأحقاف:26) انتهى

وعلى استقراء لغة القرآن يتبين لنا أن استخدام أفعال الحواس في كتاب الله يدل على معنيين:

- الاستعمال الحسي المعروف للحاسة، فمثلاً يستعمل البصر للشوف وتحديد المُبصَر.
- الاستعمال المعنوي لفائدة الحاسة في الادراك والعقل، فيستعمل البصر ويُقصد به البصيرة التي ينتفع بها الإنسان في عقله. وَقَدْ سُمِعَ عَنِ الْعَرَبِ لِهَذَا نَظَائِرُ، أَنْشَدَ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ ذَلِكَ أَبْيَاتًا، وَأَنْشَدَ غَيْرُهُ من أخلاق العرب الكريمة:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِدْرُ.

وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا .... أُذُنِي وَمَا فِي سَمْعِهَا وَقْرُ.

فالسمع سمعان سمع حاسة وسمع قبول وانتفاع ولذلك جاء في القرآن: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ } (فاطر: ٢٢) والمعنى أنه لا يستوي من حيي قلبه بالإيمان ومن قلبه بالكفر، والله وحده هو الذي يهدي الناس فيسمعهم الحق سماع اهتداءٍ وتعقل، ولستَ –يا محمد– تستطيع أن تسمع الموتى بأجسادهم، فكذلك من مات قلبه لا يسمع صوت الهداية.

---

١ تفسير البغوي 1/69.

إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداءً، ولم يصموا آذانهم عن السماع، وعيونهم عن الرؤية، وقلوبهم عن الإدراك ، كما صنع الذين كفروا. ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد ما استوضحوا الأمر وتبينوه.

قال أبو حيان:

والإخبار عنهم بالصمم والبكم والعمى هو كما ذكرناه من باب المجاز، وذلك لعدم قبولهم الحق. وقيل: وصفهم الله بذلك لأنهم كانوا يتعاطون التصامم والتباكم والتعامي من غير أن يكونوا متصفين بشيء من ذلك، فنبه على سوء اعتمادهم وفساد اعتقادهم. والعرب إذا سمعت ما لا تحب، أو رأت ما لا يعجب، طرحوا ذلك كأنهم ما سمعوه ولا رأوه. قال تعالى: {كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً} ، وقوله عنهم: {وَقَالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ } الْآيَةَ.

قيل: ويجوز أن يكون أريد بذلك المبالغة في ذمهم، وأنهم من الجهل والبلادة أسوأ حالا من البهائم وأشبه حالا من الجمادات التي لا تسمع ولا تتكلم ولا تبصر. فمن عدم هذه المدارك الثلاثة كان من الذم في الرتبة القصوى، ولذلك لما أراد إبراهيم، على نبينا وعليه السلام، المبالغة في ذم آلهة أبيه قال: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً}. (١)

وههنا يتضح معنى شرائهم الكفر والضلالة وبيعهم الإيمان والنور، وهو ما عبرت عنه الآيات السابقة بأنه استبدال، ثم جاء المثل هنا ليجلِّي صورة هذا الاستبدال والصفقة الخاسرة.

ورُوِي عن سعيد ابن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب، أنها في اليهود، ولا يتسق هذا مع سياق الآيات إذ يعود الكلام على غير مذكورٍ في السباق قبله، وإنما الحديث في التئامٍ تام مع وصف المنافقين وهم الصنف الثالث من مستقبلي دعوة الحق بعد المؤمنين الخُلَّص والكافرين الخالصين. فالسياق هنا من أقوى طرق الترجيح في بيان مقصود الخطاب، فتأمله.

من درر البلاغة.

(أكثر المفسرين على أن الكاف في « كمثلهم » زائدة، باعتبار أن كلمة « مثل » أداة للتشبيه، والكاف أداة للتشبيه، ولا تجتمع الأداتان على مُشبَّه به واحد، وعلى هذا تكون الصورة هكذا: « مَثَلُهُمْ مَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً » أو « مثلهم كالذي استوقد نارا ».

(١)البحر المحيط في التفسير (١/ ١٣٣)

وبلاغة القرآن أعظم وأسمى من أن تخضع لمقاييس النحو وتخريج النحاة!

فليس في كلمات الله ما يحتاج إلى علل النحاة، ومماحكاتهم ليستقيم على علمهم، ولينضبط مع قواعدهم.

وحَسْبُ القرآنُ أن يقول قولاً، أو ينهج أسلوبا، فيكون قولُه الحق، وأسلوبُه الفصل!

والأمر هنا – فيما يتعلق بالكاف في «كمثل»– يجرى على أسلوب القرآن كله، في إعجازه، واستيلائه على أعنّة البلاغة وأزمّتها. فقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً» هو تشبيه حال بحال، وشأن بشأن. بمعنى أن شأن وصفة هؤلاء المنافقين وحالهم، كشأن وصفة وحال من استوقد ناراً.... إلخ.

فهؤلاء المنافقون مثلٌ، وذاك الذي استوقد نارا مثلٌ. وبين المثلين تشابه وتطابق، فصَحَّ أن يكون كل منهما طرفا في تشبيهٍ واحد، وكاف التشبيه أداته. فكأنه قيل: هذا المثل كهذا المثل! [١]

وننظر فيما بين المثلين من وجه شبه، فنرى في المشبه، وهم المنافقون. كانوا في زمرة الكافرين، ثم إنهم أعلنوا إيمانهم، واتخذوا هذا الإيمان وقايةً يتقون بها قوةَ المؤمنين وبأسهم، وذريعةً يتوصلون بها إلى ما قد يفى ء الله على المؤمنين من خير! فكان أن فضح اللهُ نفاقَهم، وجاءت آياتُه تنزع عنهم هذا الثوب الذي ستروا به هذا النفاق، فأصبحوا عراةً لا يستطيعون أن يظهروا في الناس، إلا كما تظهر الحيات برؤوسها من وراء جحورها!

وفى المشبه به– وهو هذا الذي استوقد نارا– هذا الإنسان، كان في ظلمة الليل، وفى لفح زمهريره القارس، فاستوقد نارا، كى يجد فيها الدف ء والنور!

ثم جاء هؤلاء المنافقون فيمن جاء إلى هذا الضوء، ليجدوا عنده الأمن، والدف ء. ولكنّ هؤلاء المنافقين، وإن اختلطوا بالمجتمعين على هذا الضوء، فإن الله سبحانه حجز عنهم النور، وأخذ على أبصارهم، فلم يروا ما حولهم، ولم يعرفوا وجه الطريق الذي يسلكون، فركبتهم الحيرة، وقيدهم العمى والضلال!

ونقرأ الآية الكريمة: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً، فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ، وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ »، فنجد لمحة من لمحات الإعجاز القرآني، في هذا التخالف بين أجزاء الصورة في المشبه به، حيث كان الظاهر أن يقال: « ذهب الله بنوره وتركه في ظلمات لا يبصر »، ولكن هذا يفسد المعنى،

---

(١) قال أبو حيان: والتشبيه وقع بين قصة وقصة، فلا يحتاج في نحو هذا التشبيه إلى مقابلة جماعة بجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا «١» ، وعلى أنه في قوله: كمثل الذي استوقد نارا، هو من قبيل المقابلة أيضا؟ ألا ترى أن المعنى هو كمثل الجمع؟ أو الفوج الذي استوقد، فهو من المفرد اللفظ المجموع المعنى. على أن من المفسرين من تخيل أنه مفرد ورام مقابلة الجمع بالجمع، فادعى أن ذلك هو على حذف مضاف التقدير، كمثل أصحاب الذي استوقد، ولا حاجة إلى هذا الذي قدره لأنه لو فرضناه مفردا لفظا ومعنى لما احتيج إلى ذلك، لأن التشبيه إنما جرى في قصة بقصة، وإذا كان كذلك فلا تشترط المقابلة، كما قدمنا. البحر المحيط في التفسير (١/ ١٢٧)

حيث يقضي بهذا الحكم على موقد النار، فيذهب بنوره الذي رفعه لهداية الناس، وحيث يقع هذا الحكم على غير المنافقين، من طالبي الهدى عنده.

والصورة التي رسمتها الآية الكريمة –على ما جاءت عليه– تأخذ المنافقين وحدهم بجرمهم، فتحرمهم الإفادة من هذا النور الذي يملأ الوجود من حولهم. ثم لا تحرم المهتدين ما أفادوا من هدى.) انتهى[١]

قلت– متأمله: جرى كلام الشيخ على أن المستوقد للنار هو الرسول الذي أتى بنار الإسلام ونوره ؛ تحرق الكافرين وتنير للمؤمنين، فلما نكص المنافقين على عقبهم، وكفروا بقلوبهم ذهب الله بنورهم، وأبقى النار لهم، وتركهم في ظلمات الدنيا والآخرة؛ لا يبصرون. صم عن سماع الحق وعقله، بكم عن النطق به، عمى عن رؤية نوره؛ فقدوا أثر الحواس المعنوي في العلم والعمل والنجاة؛ ولم يفقدوا الحواس حقيقةً، فهم كالأنعام بل هم أشد ضلالا، وهذه من قبيل الاستعارة الرائعة (حيث شبههم بالصم والبكم والعمى فاقدي الحواس حقيقةً؛ وذلك لعدم انتفاعهم بحواسهم في إدراك الحق).

لطيفة لغوية:

قلتُ: ولعله تخلُّصٌ طريف للدكتور الخطيب مما استشكله العلماء في الالتفات الكائن في تحول اسم الصلة " الذي " في قوله تعالى "كمثل الذي استوقد نارا" من الحكاية عن الفرد " استوقد نارا" إلى الجمع " ذهب الله بنورهم"، وللقرطبي وغيره رأى آخر، أن "الذي " عند العرب تقال للواحد والجمع [٢]، وهو أفصح في كلامهم واستشهدوا بقول الشاعر: (وإن الذي حانت بفلج دماؤهم.. هم الوم كل القوم يا أم خالد)

---

١ انظر التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب1\39.

٢ ويقول الطبري في جامع البيان ت شاكر (1/ 318–321):

(في الموضع الذي مثَّل ربُّنا جل ثناؤه جماعةً من المنافقين، بالواحد الذي جعله لأفعالهم مثلا فجائز حسنٌ، وفي نظائره (جائز حسن أيضًا) كما قال جل ثناؤه في نظير ذلك: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) [سورة الأحزاب: 19] ، يعني كدَوَرَان عيْن الذي يُغشى عليه من الموت – وكقوله: (مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) [سورة لقمان: 28] بمعنى: إلا كبَعْث نفسٍ واحدة.

وإنما جاز، لأن المرادَ من " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا.. الآية" الخبرُ عن مَثَل استضاءتهم... والاستضاءَةُ – وإن اختلفت أشخاص أهلها – معنًى واحد، لا معانٍ مختلفة. فالمثل لها في جمع المنافقين في معنى المثَل للشخص الواحد.

وتأويل ذلك: مَثَلُ استضاءة المنافقين بما أظهروه من الإقرار بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به قولا باللسان ؛ وهُم به مكذبون بقلوبهم اعتقادًا، كمثَل استضاءة المُوقِد نارًا. ثم أضيف المثَلُ إليهم...

قلتُ: (ربما يقصد الشيخ أن المراد الأصلي هو مثل الإستضاءة وفقد النور بعد ذلك؛ وليس أعيان المستضيئين، فحسنت بذلك الاشارة إلى فعلهم بفعل أياً منهم وكل مشترك معه في صفته ثم رد المصير إلى كل من يفعل فعلهم.. وأراه تعميما في غاية الموعظة والبلاغة ، ولو أنه قصد أعيان الأشخاص لوجب الاتساق بين المشبه والمشبه به جمعا وإفراداً) ا.هـ. بتصرف وحذف.

فهنا (الذي) بمعنى (الذين)، ومثله قوله تعالى: " وخضتم كالذي خاضوا"، وقوله " والذي جاء بالصدق وصدق به"..

أقولُ: إن قول القرطبي وغيره الذي أيَّده يجعل الأمر في جواز الاستعمال اللغوي لتعبيرين، ولكن للبلاغة القرآنية سبيلٌ آخر، فهي بلاغةٌ دلالية، لا تعدل عن استعمال تعبير إلى مساويه إلا لنكتةٍ معنويةٍ دلالية جليلة، فمثلا: قوله تعالى " وخضتم كالذي خاضوا" حملت في طياتها ايجازا بليغا لوصف الخائضين ووصف الخوض نفسه بضربةٍ واحدة، فالمعنى يكون: (وخضتم كالذين خاضوا)، وكذلك تحتمل معنى (وخضتم كالخوض الذي خاضوه،) وبذلك تكون أعمق دلالةً من مجرد قصرها على مساواة معنى " الذي" ل" الذين". وما قرره الدكتور الخطيب في مراعاة تفصيل مفردات المثل وعود اسم الوصل على المنافقين دون المستوقد وهو الرسول جيدٌ ويتجه بالبلاغة القرآنية منحاها.

ولعله يشهد له ما في (مسند الإمام أحمد) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:(مَثَلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها. قال: فذلكم مثلي ومثلكم. أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلمّ عن النار! فتغلبوني فتتقحّمون فيها)... وأخرجاه في (الصحيحين) أيضا.

قال في المنار: (وَقَدْ رُوعِيَ فِي قَوْلِهِ " اسْتَوْقَدَ " لَفْظُهُ، وَفِي قَوْلِهِ: (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) مَعْنَاهُ، وَالْفَصِيحُ فِيهِ مُرَاعَاةُ اللَّفْظِ أَوَّلًا، وَمُرَاعَاةُ الْمَعْنَى آخِرًا. وَالتَّفَنُّنُ فِي إِرْجَاعِ الضَّمَائِرِ مُتَفَرِّعَةً ضَرْبٌ مِن اسْتِعْمَالِ الْبُلَغَاءِ يُقَرِّرُ الْمَعْنَى فِي الذِّهْنِ وَيَهَبُهُ فَضْلَ تَمَكُّنٍ وَتَأْكِيدٍ بِمَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنَ الرَّوِيَّةِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْإِحَاطَةِ بِمَعَانِي الْمُخْتَلِفَاتِ.).

قلتُ: وفى هذا المثل تقرير لأسلوب خاص من الجماليات تستخدمه البلاغة القرآنية؛ وهو التمكن الرائع في إرجاع الضمائر وأدوات الوصل، والتوقيع المنقطع النظير للمفردات في تناسق عبقري ينتقل بالمتلقي من حالة المشاهد للصورة إلى حالة المعايشة التامة التي تأخذه في عالم الصورة ينفعل ويتفاعل ويشارك حتى يكون لها النصيب الأوفى في وجدانه. وتأمل هذا الانتقال بين المستوقد نارا ـ وهى له الإضاءة والإبصار والأمن والنجاة، لتشعر بهذا الدفء وهذا النور، ثم فجأة ينتقل النص بك إلى هؤلاء المنافقين والذي حدث معهم نفس ما يحدث لك؛ إلا أن الله ذهب بنورهم. فكيف يكون حالك لو كنت مكانهم ذهب النور والإشراق، وبقيت النار والظلمات والعمى والإحراق؟

هذا ما رسمه القرآن في الشعور دون أن تدرى ليجعلك تفر من فعل هؤلاء الضائعين. فأى إيجازٍ، وأى إعجازٍ، وأى تأثيرٍ؟! إنه القرآن العظيم !!!

فائدة في علم التفسير.

ملحوظة: يقول القاسمي رحمه الله:

(وقد قيل في هذا المثل: أنَّ هذه هي نار الفتن التي يوقدها المنافقون بين أهل الإسلام، كما قال تعالى: {كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله }(المائدة64)، ويكون ذهب الله بنورهم مطابقا ل{أطفأها الله }، ويكون تخييبهم وإبطال ما قصدوه هو تركهم في الظلمات والحيرة.

قلت: ولكن ابن قيم الجوزية– رحمه الله– يرد هذا التأويل يقول: (هذا التقدير وإن كان حقا، لكن في كونه مراد الآية نظر. فإن السياق إنما قصد لغيره، ويأباه قوله تعالى {فلما أضاءت ما حوله} ونار الموقد للحرب لا تضيء حوله. وقوله تعالى {ذهب الله بنورهم} والموقد للحرب لا نور له ، بل هي نارٌ فقط. انتهى [١]

وهنا درسٌ هام في حكاية أقوال أهل المعاني (معاني القرآن ويسمونهم أهل التأويل)، ليس من باب أن كل المعاني التي ذكروها تصح تأويلاً للآيات، ولكن من باب ذكر الاختلاف ثم رده إلى التحقيق اللازم من سياق الآيات الترتيبي سباقاً ولحاقاً، وسياقها البنيوي في تركيب جملها، وسياقها التاريخي المتعلق بنزول الآيات، وسياقها المعنوي الذي يقصد إلى أغراضها من جملة الخطاب. فإن علم التفسير يحتاج إلى التحقيق والترجيح كغيره من العلوم الفقهية والأصولية وليس مجرد حكاية الخلاف. ويعد العلامة ابن جرير الطبري من أساتذة الترجيح في علم التفسير، فعَضَ على هذا المعنى.

وأسوق كلام ابن كثير في مقدمة تفسيره:

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضا. فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا

---

(١)(محاسن التأويل ج١ص٢٥٧، ٢٥٦)

فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور، والله الموفق للصواب. (١)

ومن المُلَح (٢) واللطائف في هذا المثل

الأولى:

قال أبو حيان:

ونكَّر لفظ (نار) وأفردها، لأن مقابلها من وصف المنافق إنما هو نزرٌ يسير من التقييد بالإسلام، وجوانحه منطويةٌ على الكفر والنفاق مملوءةٌ به، فشبه حاله بحال الذي استوقد نارا ما إذ لا يدل إلا على مطلق وجود نور الإسلام، ويدل على قلته كذلك . (٣)

الثانية:

تأمل قوله تعالى " ذهب الله بنورهم "، ولم يقل (ذهب نورُهم)، فأسند ذهاب نورهم إلى الله تعالى الذي تولى ذلك وفيه سر بديع وهو انقطاع معية الله –سبحانه– الخاصة عنهم التي هى للمؤمنين، فإن الله تعالى مع المؤمنين كما قال تعالى: " إن الله مع الصابرين "، وقال: " إن الله مع الذين اتقوا ".

فذهاب الله بنورهم هو انقطاع لمعيته الخاصة بأوليائه؛ قطعها بينه وبين المنافقين، فخلَّى بينهم وبين أنفسهم التي تورد المهالك؛ تركهم في ظلماتهم تلعب بهم شياطينهم كما قال سبحانه: "نسوا الله فنسيهم "، وقال: " نسوا الله فأنساهم أنفسهم ".

ولذلك يكون من دعاء المؤمن يردد خلف سيدنا رسول الله– ﷺ–: " ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين".

الثالثة:

تأمل قوله تعالى " أضاءت ما حوله " انظر كيف جعل ضوئها خارجا منفصلا عنه؟ فالنور لم يكن في قلبه وإنما كان حوله، ولو كان متصلا بذلك المنافق ملابسا له لم يذهب. النور في قلب المنافق عارضٌ كلما أضاء

---

(١)تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٩)

(٢) المُلَح جمع مُلْحة وهي ما يُستحسن من الحديث، وتقاربها النُكَت وهي جمع نكتة وهي المعنى اللطيف الذي يُدرَك بدقة الفهم. ومنها قولنا في العامية نكتة لما كان طريفا من الحديث وفيه معنى دقيق مضحك. وليس هو استخدامها الفصيح بالطبع، ولكن قاربه من حيث الطرافة لطافة المأخذ.

(٣)البحر المحيط في التفسير (١/ ١٢٧)

له مشى فيه –كما يأتي في المثل التالي– والظلمة أصلية تملأ روحه المريض، فذهبت بقايا النور وبقيت الظلمة، وقد رجع كلٌ إلى أصله.

الرابعة:

تأمل قوله تعالى " بنورهم " ولم يقل (بضوئهم) مع قوله "فلما أضاءت ما حوله " لأن الضوء هو زيادة في النور وهو مجموع الحرارة والنور، فإن ذهب النور وهو القليل فلا يتصور بقاء أى ضوء وهو الزيادة، وهذا أبلغ في النفي والذهاب، كما أن ذهاب النور يبقي الحرارة وهي لهيب جهنم ينتظر أهل النفاق.

الخامسة:

تأمل كيف قال الله " ذهب الله بنورهم " فوحد النور، ثم قال " وتركهم في ظلمات " فعدد الظلمة لأن الحق واحد؛ وهو صراط الله المستقيم الذي لا يقبل من أحد طريقا سواه، وهو عبادة الله وحده بما شرعه على لسان رسوله، لا بالأهواء والبدع. أما طرق الضلال فمتشعبة متعددة. قال الله: " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتضل بكم عن سبيله ".

السادسة:

تأمل " ذهب الله بنورهم" ولم يقل "نارهم " لأن النار فيها الإحراق والإشراق، فذهب بما فيها من الإضاءة والإشراق، وترك ما فيها من الإهلاك والإحراق.

وكذلك حال المنافقين ذهب نور إيماهم بالنفاق، وبقيت حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم؛ وقلوبهم قد صليت بحَرِّها وأذاها فأصلاها الله يوم القيامة نارا مؤصدة.) [١].

قال الزجاج: معناه والله أعلم إطلاع الله المؤمنين على كفرهم، فقد ذهب منهم نور الإسلام بما أظهر الله عز وجل من كفرهم، ويجوز أن يكون ذهب الله بنورهم في الآخرة، لأن الله عز وجل قد جعل للمؤمنين في الآخرة نورا، وسلب الكافرين ذلك النور، وهو قوله: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} (الحديد: ١٣). [٢]

وإنما يُلتَمس النور من هذه الدنيا، إنه نور المنهج الذي جعله الله للناس، فمن نبذ هذا المنهج في هذه الحياة الدنيا حرمه الله النور يوم الظلمة يوم القيامة.

---

١ بعضه من كلام العلامة ابن القيم رحمه الله في اجتماع الجيوش الإسلامية بتصرف.

(٢)انظر التفسير البسيط للواحدي.

وهكذا يطالعنا القرآن بغرة أمثاله عن طائفةٍ هي الأخطر على الإسلام وأهله، ولا ننفك نجدها تكشف عن وجهها القبيح على مدى تاريخه. ولا يتصور متأملٌ للقرآن أن القرآن أطال في وصفهم وكشفهم وهو يقصد الذين كانوا على عهد الرسول –صلى الله عليه وآله – وإنما هم في كل زمان ومكان؛ يتجددون ويجددون ولاءهم لمرض قلوبهم وتلاعب الشيطان بهم.

وقد ذكرهم القرآن بالوصف الكاشف في كثير من آياته لخطورتهم على مسار الدعوة الإسلامية وللتحذير من طرقهم.

وهم في عصرنا هذا ربما يلبسون مسوح العلماء وناصحي الأمة ولا هَمَّ لهم إلا زعزعة ثوابتها، وتثبيط وتخذيل المؤمنين عن نصرة دينهم.

يخرجون علينا كل يوم بألاعيب جديدة بدعوى العقل والفهم عن الله، أو بدعوى حب آل البيت والدفاع عنهم، أو بدعوى فساد تاريخ الإسلام ورموزه، أو بدعوى تجديد الدين لمواكبة العصر، أو بدعوى تخليص الدين من الشوائب والبحث العلمي النزيه فيه، أو بدعوى مواكبة الدين للسياسة، أو بدعوى تصفية القلوب بالتصوف والوصول إلى المعرفة المباشرة عن الله... إلى غير ذلك من الدعاوى التي يراد بها هدم ما جاء عن الله وعن رسوله. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال البخاري – رضوان الله عليه – في صحيحه:(بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: «مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا» .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: " أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ "، وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: " مَا خَافَهُ (أى النفاق) إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ. (قال يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: 135)) .

المثل الثاني في المنافقين.

قوله تعالى: " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)"

سياق الآيات:

بعد أن ساق القرآن مثلاً –ولا أروعَ منه– لهذه الفرقة المارقة عن الإسلام، وهو صورةٌ حيةٌ ناطقةٌ بفساد حياتهم وعدم استقبالهم لأى خيرٍ أو حق؛ جاء القرآن بمثلٍ آخر لهؤلاء المنافقين؛ ضرب الله، سبحانه، لهم مثلاً مائيا، بعد المثل الناري تمثيلاً لحالهم إثر تمثيل، ليعمّ البيان من حالهم كلّ دقيقٍ وجليل، ويُوَفِّي حقَّها من التفظيع والتهويل.

فإنه تفنّنهم في فنون الكفر والضلال حقيقٌ بأن يُضرَب في شأنه الأمثال.

وكما يجب على البليغ– في مظانّ الإجمال والإيجاز– أن يجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه– في موارد التفصيل والإشباع– أن يفصّل ويشبع، ولا أبلغَ من كلام الله تعالى لفظاً ومعنى...

أنشد الجاحظ: يُوحُونَ بالخُطَبِ الطِّوَالِ وتَارَةً.. وَحْىَ الْمَلَاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ.

ومما أُشْبِع وفُصِّل مرةً بعد مرةٍ من التمثيل في التنزيل العزيز قوله تعالى: {وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ}..

فائدة:

قال القاشانيّ: «إنّما بولغ في ذكر فريق المنافقين، وذمّهم، وتعييرهم، وتقبيح صورة حالهم، وتهديدهم، وإيعادهم، وتهجين سيرهم وعاداتهم: لإمكان قبولهم للهداية، وزوال مرضهم العارض. عسى التقريع يكسر أعواد شكائمهم، والتوبيخ يقلع أصول رذائلهم، فتتزكّى بواطنُهم، وتتنوّر قلوبهم، فيسلكوا طريق الحقّ. ولعلّ موادعة المؤمنين، وملاطفتهم إيّاهم، ومجالستهم معهم– تستميل طباعهم، فتهيج فيهم محبّةً ما للإيمان، وشوقا تلين به قلوبهم إلى ذكر الله، وتنقاد به نفوسهم لأمر الله، فيتوبوا ويصلحوا، كما قال تعالى:

{إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً} (النساء: 145- 146). انتهى [١]

حقا إنه القرآن العظيم الذي أنزله الرحمن الرحيم لهداية الناس وشفاء ما في الصدور، تكلم به الخلاق العليم وجعله نوراً وصراطا مستقيما لمن أراد الفلاح والفوز العظيم.

التفسير والمعاني.

"أو" منسوقةٌ على المثل السابق الذكر بجملته، فكأن المعنى إن شئتَ مثَّلت للمنافقين بمثل الذي استوقد.... أو إن شئتَ مثَّلتَ لهم بمثل الصيب من السماء.... أو مثلتَ لهم بكلا المَثَلَيْن. مثل قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىَ} (الإسراء: ١١٠). فالمعنى فيها للمساواة في دعاء الله بأسمائه الحسنى وليس للتخيير. [٢]

و " الصيّب" [٣] هو المطر. وقد شبّه به هدى السماء، الذي تلقاه الرسول من ربّه، ليحيى به موات القلوب، كما يحي المطر جديب الأرض. وقد ضرب الله في هذه الآية مثلا لما جاء به محمد – ﷺ – من الهدى، والعلم بالمطر ; لأن بالعلم والهدى حياة الأرواح، كما أن بالمطر حياة الأجسام.

---

١ (نقلا عن محاسن التأويل ج1ص264).

(٢)وهذا كلام الزجاج. انظر "معاني القران" ١/ ٦٢، ١٢٩.

وحرف النسق (العطف): (أو) في اللغة العربية لها خمسة معان: الشك، والإبهام، والتخيير، والإباحة، والتفصيل.

وزاد الكوفيون أن تكون بمعنى (الواو) وبمعنى: (بل).

وكان شيخنا أبو الحسن بن الصائغ يقول: أو لأحد الشيئين أو الأشياء. وقال السهيلي: أو للدلالة على أحد الشيئين من غير تعيين، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه من حيث إن الشك هو ترددٌ بين أمرين من غير ترجيح، لا أنها وضعت للشك، فقد تكون في الخبر، ولا شك فيه إذا أبهمت على المخاطب.

وأما التي للتخيير فعلى أصلها لأن المخبر إنما يريد أحد الشيئين.

وأما التي زعموا أنها للإباحة فلم تؤخذ الإباحة من لفظ (أو) ولا من معناها الذي هو هو لأحد الشيئين بلا تعيين، إنما أخذت من صيغة الأمر مع قرائن الأحوال، وإنما دخلت لغلبة العادة في أن المشتغل بالفعل الواحد لا يشتغل بغيره، ولو جمع بين المباحين لم يعصِ. انظر البحر المحيط في التفسير (١/ ١٣٥).

قال الفخر الرازي: وهذه الوجوه مطردة في قوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة: ٧٤] .

(٣)و (الصيب) من المطر: الشديد، من قولهم: صاب يصوب، إذا نزل من علو إلى أسفل، ومنه: صوَّب رأسه: إذا خفضه. وقيل: إنه من صَابَ يَصُوب: إذا قصد، ولا يقال: صَيّب إلا للمطر الجَوَاد، كان – عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ – يقول: «اللهم اجعله صَيّباً هَنِيئاً» أي: مطراً جواداً، ويقال أيضاً للسحاب: صَيّب.

وأشار إلى وجه ضرب هذا المثل بقوله جل وعلا: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا}. وقد أوضح ﷺ هذا المثل المشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسى المتفق عليه، حيث قال ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا. فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ؛ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

" فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ "وفى القرآن وعد ووعيد، وتكاليف وأعباء، كالعبادات، والجهاد في سبيل الله، ومجاهدة النفس في اجتناب المحرمات. ثم هو مع هذا رحمة وشفاء!

وفى الغيث الذي ينزل من السماء ظلمات من السحب المتراكمة، ورعد وبرق. ثم هو مع هذا نعمة وحياة! كذلك كانت آيات القرآن حين تتنزل، تنخلع لها قلوب المنافقين، وتنفطر منها أفئدتهم، لما يتوقعون فيها من صواعق تدمدم عليهم، وتفضح مكنون صدورهم، بما يبيتون ما لا يرضى من القول، وما لا يحمد من العمل.

قال الشنقيطي: ضرب الله تعالى في هذه الآية المثل لما يعتري الكفار والمنافقين من الشبه والشكوك في القرآن، بظلمات المطر المضروب مثلا للقرآن، وبين بعض المواضع التي هي كالظلمة عليهم ؛ لأنها تزيدهم عمى في آيات أخر لقوله: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) (البقرة – ١٤٣) ؛ لِأَنَّ نَسْخَ الْقِبْلَةِ يَظُنُّ بِسَبَبِهِ ضِعَافُ الْيَقِينِ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – لَيْسَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِ حَيْثُ يَسْتَقْبِلُ يَوْمًا جِهَةً، وَيَوْمًا آخَرَ جِهَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا).

وَصَرَّحَ تَعَالَى بِأَنَّ نَسْخَ الْقِبْلَةِ كَبِيرٌ عَلَى غَيْرِ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ، وَقَوَّى يَقِينَهُ بِقَوْلِهِ: (وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ) وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) ؛ لِأَنَّ مَا رَآهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مِنَ الْغَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ، كَانَ سَبَبًا لِاعْتِقَادِ الْكُفَّارِ أَنَّهُ ﷺ كَاذِبٌ ؛ لِزَعْمِهِمْ

فإن قيل: ما الفائدة في قوله تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ) [البقرة: ١٩] ومعلوم أنّ الصيّب لا يكون إلّا من السماء؟

قلنا: فائدته أنه ذكر السـماء مُعَرَّفة وأضـافه إليها ليدلّ على أنّه من جميع آفاقها، لا من أفقٍ واحد، إذ كلّ أفقٍ يعلوك يسـمّى سماء. واللام للاستغراق أي كل ما يطلق عليه سماء.

وتنكير «صيب» يدلّ على نوع زائد من المطر شديد هائلٍ كما نُكِّرت «النّار» في التمثيل الأول.

أَنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ لَا يُمْكِنُ وُقُوعُهُ. فَهُوَ سَبَبٌ لِزِيَادَةِ الضَّالِّينَ ضَلَالًا. وَكَذَلِكَ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ الَّتِي هِيَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ فَهِيَ سَبَبٌ أَيْضًا لِزِيَادَةِ ضَلَالِ الضَّالِّينَ مِنْهُمْ ; لِأَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – لَمَّا قَرَأَ: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) قَالُوا: ظَهَرَ كَذِبُهُ ; لِأَنَّ الشَّجَرَ لَا يَنْبُتُ فِي الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ فَكَيْفَ يَنْبُتُ فِي أَصْلِ النَّارِ؟!

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) ; لِأَنَّهُ ﷺ لَمَّا قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ). قال بعض رجال قريش: هذا عدد قليل فنحن قادرون على قتلهم، واحتلال الجنة بالقوة ; لقلة القائمين على النار التي يزعم محمد – ﷺ – أنا سندخلها. والله تعالى إنما يفعل ذلك اختبارا وابتلاء، وله الحكمة البالغة في ذلك كله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

قوله تعالى: (ورعد) ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تقرع الآذان، وتزعج القلوب.

وذكر بعضا منها في آيات أخر كقوله: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة) الآية (٤١ \ ١٣) ، وكقوله: (من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) الآية (٤ \ ٤٧) ، وكقوله: (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد).

وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير سورة الطور من حديث جبير بن مطعم – رضي الله عنه – أنه قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) إلى قوله (المسيطرون) كاد قلبي أن يطير، إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجره التي خوفت المنافقين حتى قال الله تعالى فيهم: (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو)، والآية التي نحن بصددها وإن كانت في المنافقين، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

قوله تعالى: (وبرق) ضرب تعالى المثل بالبرق ; لما في القرآن من نور الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

وقد صرح بأن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل والشك والشرك، كما تكشف بالنور الحسي ظلمات الدجى كقوله: (وأنزلنا إليكم نورا مبينا)، وقوله: (ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) وقوله: (واتبعوا النور الذي أنزل معه). انتهى [1]

" فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ " التنوين في الكلّ للتفخيم والتهويل– كأنّه قيل: فيه ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٤)

ومنه يقال: برَّق الرجل ورعَّد، إذا تهدد وأوعد. وأبرق وأرعد – أيضا في قول أبي عبيدة، وأنكره الأصمعي. [١]

فإذا تلقى الرسول وحيا من ربّه، وأعلنه في أصحابه، اصطكت به أسماع المنافقين، ووجفت قلوبهم هلعا وفزعا!

" يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حذر الموت وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ " علماً وقدرةً فلا يفوتونه كما لا يفوته مخلوق يسمع دبيب النملة الصماء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء..

والجملة اعتراضية منبّهة على أنّ ما صنعوا – من سدّ الآذان بالأصابع– لا يغني عنهم شيئا، فإنّ القدر لا يدافعه الحذر، والحيلة لا تردّ بأس الله عزّ وجلّ.

قال الواحدي: وشبهه بالمطر لما فيه من حياة القلوب، وعنى بالظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك وبيان الفتن والأهوال، فشبهها بما في المطر من الظلمات، وشبه ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار بما في المطر من الرعد، وشبه حجج القرآن وما فيه من البيان والنور والشفاء والهدى بما في المطر من البرق. وشبه جعل المنافقين أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوا القرآن مخافة ميل القلب إلى القرآن فيؤدي ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ وذلك عندهم كفر، والكفر موت، أو لكيلا يسمعوا ما ينزل من القرآن بما فيه افتضاحهم بجعل الذي في هذا المطر أصابعه في أذنه. وتلخيص معناه: أن أصحاب الصيب إذا اشتد عليهم وقع الصاعقة وصوت الرعد خافوا على أنفسهم الهلاك، فسدّوا آذانهم بأصابعهم، كذلك هؤلاء المنافقين يسدّون آذانهم للمعنيين اللذين ذكرنا. [٢]

ورجح ابن جرير الطبري أن المراد بجعل أصابعهم في آذانهم مثلا لاتقائهم رسول الله ﷺ والمؤمنين، بالإقرار بما جاء به محمد ﷺ مخافة على أنفسهم من الهلاك ونزول النقمات فيتقون بما يبدون بألسنتهم من ظاهر الإقرار، كما يتقي الخائف أصوات الرعد بتصيير أصابعه في أذنيه.

وفي قوله تعالى: «واللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ» فائدة وضع الكافرين موضع الضمير– الراجع إلى أصحاب الصيّب (فلم يقل: والله محيط بهم)– فائدته الإيذان بأنّ ما وقع بهم– من الأمور الهائلة المحكيّة– بسبب كفرهم، فيظهر استحقاقهم ما يجريه الله عليهم من الخوف والهلاك.

---

(١)ذكره الأزهري عن الأصمعي. "التهذيب" (برق) ، وانظر "مقاييس اللغة" (برق)

(٢)التفسير البسيط (٢/ ٢٠٧)

قوله تعالى: (واللهُ مُحِيطٌ بالكافرين) قال بعض العلماء: (محيط بالكافرين) أي: مهلكهم، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: (لتأتنني به إلا أن يحاط بكم) (١٢ \ ٦٦) أي: تهلكوا عن آخركم. وقيل: تغلبوا. والمعنى متقارب ; لأن الهالك لا يهلك حتى يحاط به من جميع الجوانب، ولم يبق له منفذ للسلامة ينفذ منه وكذلك المغلوب، ومنه قول الشاعر: (الطويل)

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا ... بما قد رأوا مالوا جميعا إلى السلم.

ومنه أيضا: بمعنى الهلاك. قوله تعالى: {وأحيط بثمره} الآية (الكهف \ ٤٢) . وقوله تعالى: {وظنوا أنهم أحيط بهم} الآية. [١]

وفى قوله تعالى: «واللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ» إشارة إلى دورةٍ من دورات المنافقين، حيث انتهى بهم ترددهم بين الإيمان والكفر، إلى الكفر الغليظ.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا، ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا» (137: النساء). فالمنافقون هم كفار، وأكثر من كفار. هم كفار ومنافقون معا!

هذا هو حظهم من كتاب الله، وذلك مبلغ ما ينالهم من هذا الخير العظيم. ينالهم –فقط–اضطراب، وذعر، وهمّ مقيم. يتملكهم حذر الخزي والفضيحة! وذلك شأنهم تماما مع الغيث. فالناس، والحيوان، والنبات، وحتى الجماد يحيون بهذا الغيث، ويترقبون في شوق ولهف مواقيت نزوله، دون أن يتأدّى إليهم خوفٌ أو قلقٌ، مما يصحبه من ظلام ورعود! لأنهم يعلمون ما وراء هذه الرعود والبروق من رِي وحياة!!

أما المنافقون، فشأنهم مع هذا الغيث كشأنهم مع كل خير؛ يلتوون به، ويستقبلونه بنفوسهم المريضة، فلا يصيبهم منه إلا الشرّ، الذي يكمن في كل خيرٍ تستقبله النفوس المريضة، وفى كل نعمةٍ تقع في يد السفهاء من الناس!..

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٥).

يقال: أُحِيط بفلان، إذا دنا هلاكه، وهو محاطٌ به، قال الله تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} [الكهف: ٤٢]، أي: أصابه ما أهلكه وأفسده. والإحاطة تستعمل بمعنى العلم كقوله: {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢] أي: لم يشذ عن علمه شيء. ويستعمل بمعنى القدرة، كأن قدرته أحاطت بهم، فلا محيص لهم عنه.

وجاء في التفسير أن معناه: والله مهلكهم وجامعهم في النار. دليله قوله: {إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} [يوسف: ٦٦] أي تهلكوا جميعاً. التفسير البسيط (٢/ ٢٠٩)

هؤلاء وإن ذهب الله بالنور الذي دخل عليهم من القرآن، حين خادعوا الله ورسوله . فإنهم لا يزالون على صلة بالإسلام والمسلمين، لم يتحولوا إلى الكفر تحولا صريحا، ولهذا فإن لمعات من ضوء الإسلام تطلع عليهم بين الحين والحين فتمسك بهم على طريق الإسلام وفى جماعة المسلمين، ثم تهجم عليهم ضلالاتهم، فتعمّى عليهم السبل، وتتقطع بينهم وبين الإسلام المسالك، فإذا هم في حيرةٍ واضطراب. وهكذا تترد أحوالهم بين الإيمان والكفر، إلى أن يموتوا على هذا النفاق.

وهذا معنى قوله تعالى: «يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا ».

وهو استئنافٌ آخرُ وقع جوابا عن سؤالٍ مقدّر– كأنه قيل: فكيف حالهم مع ذلك البرق؟

فقيل: " يكاد البرق يخطف أبصارهم "، أي: يأخذها بسرعة. ومعنى الآية: يكاد ما في القرآن من الحجج تخطف قلوبهم من شدة إزعاجها إلى النظر في أمر دينهم.

" كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ " أي: مشوا في ضوئه، فحقنوا دماءهم وساروا مع المسلمين في نور الإيمان.

" وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا" أي: وقفوا، وثبتوا في مكانهم فلم يدروا ما يصنعون دلالةً على حيرتهم وتخبطهم وعدم استلهامهم لجميع معاني النور الإيماني.. وهذا تمثيل لشدّة الأمر على المنافقين، وما هم فيه من غاية التحيّر والجهل.

قال ابن عباس: يقول: إذا قرئ عليهم شيء من القرآن مما يحبون صدقوا، وإذا سمعوا شيئاً من شرائع النبي ﷺ مما يكرهون وقفوا عنه، وذلك قوله تعالى: {وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا}. [١]

وقال قتادة: هو المنافق إذا كثر ماله وأصاب رخاء وعافية قال للمسلمين: أنا معكم وعلى دينكم، وإذا أصابته النوائب قام متحيرا؛ لأنه لا يحتسب أجرها . كأصحاب الصيب إذا أضاء لهم البرق فأبصروا الطريق مشوا، فإذا عادت الظلمة وقفوا متحيرين. ومثله قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} (الحج:١١).

وقيل: شبه الغنيمة بالبرق، يقول: الطمع في الغنيمة يزعج قلوبهم، {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ}: أي كثرت الغنائم وأصابوا الخير، {مَشَوْا فِيهِ}: أي رضوا به، {وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِم}: قلت الغنيمة وكانت بدلها الهزيمة، (قاموا): اعتلوا وقعدوا عن نصرة الرسول . [٢]

---

(١)ذكره ابن الجوزي عن ابن عباس والسدي، "زاد المسير" ١/ ٤٦، وأبو حيان في "البحر" ١/ ٩١، وذكر ابن عطية عن ابن عباس نحوه ١/ ١٩٥، وكذا "القرطبي" ١/ ١٩٣.

(٢)التفسير البسيط للواحدي (٢/ ٢١٤)

قال الله تعالى: " وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ " أى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها. لأنهم لم ينتفعوا بها أصلاً حين كانوا أحوج الناس لها في رؤية النور وسماع الحق.

" إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " تعليل للجملة قبلها، وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم وحواسهم بالفعل والتي فقدت قدرتها عندهم على الدلالة والهداية. (١)

وفي قوله تعالى: {كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا} ضرب الله في هذه الآية المثل للمنافقين بأصحاب هذا المطر إذا أضاء لهم مشوا في ضوئه، وإذا أظلم وقفوا، كما أن المنافقين إذا كان القرآن موافقا لهواهم ورغبتهم عملوا به، كمناكحتهم للمسلمين، وإرثهم لهم، والقسم لهم من غنائم المسلمين، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم في الباطن، وإذا كان غير موافق لهواهم كبذل الأنفس، والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا. وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ}.

وقال بعض العلماء: (كلما أضاء لهم مشوا فيه) أي: إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدين حق، ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير (وإذا أظلم عليهم قاموا) أي: وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور قالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه. وهذا الوجه يدل له قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}. وقال بعض العلماء: إضاءته لهم معرفتهم بعض الحق منه، وإظلامه عليهم ما يعرض لهم من الشك فيه. (٢)

(في هذه الآيات شُبِّه نصيب المنافقين – مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ– من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره. وبقي في الظلمات حائرا، تائها، لا يهتدي سبيلا، ولا يعرف طريقا.

وكذا شُبِّه بنصيب أصحاب الصيّب – وهو المطر؛ فشبّه الهدى– الذي هدى به عباده – بالصيّب، لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر. ونصيب المنافقين من هذا الهدى، بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيّب إلّا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له – فيما وراء ذلك – مما هو المقصود بالصيّب – من حياة

---

١ راجع (التفسير القرآني للقرآن ، الدكتور عبد الكريم الخطيب ج 1 ، ص 39،40)و (محاسن التأويل ج1ص259،260).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ١٦)

البلاد، والعباد، والشجر، والدوابّ، وأن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد، والبرق، مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيّب.

فالجاهل– لفرط جهله– يقتصر على الإحساس بما في الصيّب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل المسافر عن سفره، وصانع عن صنعته ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيّب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كلّ قاصر النظر، ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كلّ محبوب.

وهذه حال أكثر الخلق، إلّا من صحت بصيرته– فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب، والمشاقّ، والتعرّض لإتلاف المهجة، والجراحات الشديدة، وملامة اللوّام، ومعاداة من يخاف معاداته– لم يقدم عليه، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام، فلم يعلم– من سفره ذلك– إلا مشقّة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر هذا السفر، ومآله، وعاقبته– فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء، حال الضعيف البصيرة والإيمان، الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات– والفطام على الصبيّ أصعب شيء، وأشقّه– والناس كلهم صبيان العقول [١] ، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحقّ علما، وعملا، ومعرفةً، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيّب، وما فيه– من الرعد والبرق والصواعق– ويعلم أنّه حياة الوجود.) انتهى [٢]

(إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة ، مشوب بالاضطراب. فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء. صيب من السماء هاطل غزير (فيه ظلمات ورعد وبرق).

---

(١) وكما قال البوصيري– شاعر البردة :

والنفس كالطفل إن لم تتركه شبَّ على.... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ.

٢ –انظر ابن قيم الجوزية– اجتماع الجيوش الإسلامية ج2ص68 مطابع الفرزدق بالرياض .

(كلما أضاء لهم مشوا فيه). (وإذا أظلم عليهم قاموا). أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون. وهم مفزعون: (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت. إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيب الهاطل ، إلى الظلمات والرعد والبرق ، إلى الحائرين المفزعين فيه ، إلى الخطوات المروعة الوجلة ، التي تقف عندما يخيم الظلام. إن هذه الحركة في المشهد لترسم – عن طريق التأثر الإيحائي – حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون. بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة. بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ; ويجسم صورة شعورية. وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس) .[١]

لمحات بلاغية دلالية.

١. الأولى في بلاغة التصوير والتمثيل القرآني العجيب في كلا المثلين الرائعين المائي والناري.

لقد شبهت الآيات في بلاغتها المنافق في التمثيل الأوّل بالمستوقد ناراً، وصورت الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاع المنافق وخسرانه بإنطفاء النار وبقائه في الظلمة والحيرة والخوف، فما وجه التشبيه في التمثيل الثاني بالصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق؟

لقائلٍ أن يقول: لقد شُبِّه دين الإسلام بالصيب، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق بالإسلام من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل ذوى صيب. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا.

فإن قلت: هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبَّهات؟

والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه: أنّ هذين التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة؛ وليست من نوع المفرّقة التي يظهر فيها المشبه والمشبه به، كما تأخذ أشياء فرادى، معزولا بعضها من بعض، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها، كما جاء في القرآن في قوله تعالى:" وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا

١ (في الظلال ج1ص46دار الشروق بيروت القاهرة).

أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ" (فاطر: 19–22)، فكأن أهل الإيمان هم أهل البصر والنور والظل والحياة؛ واهل الكفران هم أهل العمى والظلمات والحرور والموات. فشبه كل نظيرٍ بنظيره في تصوير (تمثيل) (مُفرَّق).

وأما تشبيه كيفيةٍ حاصلةٍ من مجموعِ أشياء قد تضامّت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا، بأخرى مثلها؛ أى تصوير حالة بحالة؛ وموقف بموقف آخر ولكل منهما تفاصيله التي تكمل صورته فهو التشبيه التمثيلي (المُركَّب). كقوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (5 الجمعة).

والغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار، لا يشعر من ذلك إلا بما يمرّ فيه من الكدّ والتعب. فهذا (تمثيل مركب) = (تشبيه حالة بحالة).

وكقوله سبحانه: {إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون} (24يونس).

قال فيه العلامة ابن كثير: ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام " حتى إذا أخذت الأرض زخرفها " أي: زينتها الفانية، " وازينت " أي: حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، " وظن أهلها "الذين زرعوها وغرسوها " أنهم قادرون عليها "أي: على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى" أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا " أي: يبسا بعد تلك الخضرة والنضارة، "كأن لم تغن بالأمس " أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ثم قال تعالى: (كذلك نفصل الآيات) أي: نبين الحجج والأدلة، (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعا مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها. انتهى.

فهذا من التمثيل المركب الذي تتضافر فيه التفاصيل لتصنع صوراً متكاملةً ثم تقارن صورة بصورة فتجلي المعنى في الوجدان على أدق وأعمق ما يكون وهذا من إعجاز البلاغة القرآنية..

فكذلك في هذين المثلين الرائعين لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق. على تفاصيل الصورتين والحالتين في كل مثلٍ.
ولهذا دور فعال وراقي في رسم نفسية المنافق وتصوير حيرته وضلالته أبلغ تصوير.

كل ذلك فضلاً عن هذا التداخل والتماذج بين الصور والاستعارات في كل مثل بحيث يطلق المتلقي يعيش في خضم وعمق الصورة بكل تفاصيلها وأبعادها ليكون وجداناً متفاعلا معها؛ وتكون عمقا فاعلا في وجدانه وانفعالاته. وهذا ما تستطيع أن تفعله بتلك البراعة سوى الصورة والمثل القرآني فتأمل ذلك؛ فإن هذا ملمح خطير ولطيف لا يلحظه سوى من يعيش مع الآيات بقلبه وروحه ووجدانه..

٢. فإن قلت: أى التمثيلين أبلغ؟

قلت: في كلٍ من البلاغة ما فيه، ولكن الثاني أبلغ (في رأى الزمخشري؛ ويقول: لأنه أدل على فرط الحيرة وشدّة الأمر وفظاعته، ولذلك أُخِّر مجيئه بعد المثل الناري، وهم (أى العرب في بلاغتهم)يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ (ومن الأدنى إلى الأعلى لزيادة المعنى إيضاحا والتفنن في إيصاله للمخاطب).

قلتُ – جامعه: والحق أن كلا المثلين في بلاغته ما ليس في المثل الآخر، ولذلك جاء حرف (أو) الذي يدل على تساوي المثلين في بلاغة تصوير حالة المنافقين، فكأنه قيل: بأى المثلين مثلتَ لهم فهو واضح وبليغٌ، وإن تمثلت بهما جميعا فكذلك..

فإن (أو) في أصلها لتساوى شيئين فصاعدا ، في الشك أو في غير الشك، وذلك قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، تريد أنهما سيان في استحسان أن يُجالسا، ومنه قوله تعالى: {وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً}، أى الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما، وقيل (أو) بمعنى الواو وهو للتنويع في التشبيه والبيان..

٣. رأس الأصبع (الأنملة) هو الذي يُجعَل في الأذن فلم عدلت البلاغة القرآنية عن أن تقول (جعلوا أناملهم في آذانهم) بدلا من قوله تعالى { جعلوا أصابعهم في آذانهم}؟

قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها، وقصدها المبالغة في تصوير خوفهم وتأثير هذا الخوف عليهم وهو تعبير موحي.

فإن قلت: فالأصبع التي تسدّ بها الأذن أصبع خاصة (هى السبابة)، فلم ذكر الاسم العام (الأصبع) دون الخاص (السبابة التي توضع في الأذن)؟

قلت: لأن السبابة فعَّالة من السب، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن فلا يليق بالقرآن أن يقول: جعلوا الأصبع السبابة في آذانهم. ألا ترى أن العرب قد استبشعوها فكنوا عنها بالمُسبِّحة والسبَّاحة والمُهلِّلة والدّعاءة.

وهذا دأب القرآن في تعليم الخلق الجميل ومنه التكنية عما لا يليق الإفصاح عنه؛ كمثل قوله تعالى " هن لباس لكم وأنتم لباس لهن " قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكني عن الجماع. وهذا من لطيف الإشارات والفوائد في القرآن العظيم.

وقوله سبحانه: "كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مشوا فيه." استئناف ثالث للكلام كأنه جواب لمن يقول: كيف يصنعون في حالات خفق البرق وخفوته؟

وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصةً فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة، ولو شاء اللَّه لزاد في قصيف الرعد فأصمهم، أو في ضوء البرق فأعماهم.

(قلت – جامعه: فتأمل معي عبقرية الصورة القرآنية في تجديد المشهد القرآني؛ من خلال تلك الاستئنافات المتعددة. التي تخطو بالصورة شيئا فشيئا ناحية الوضوح. وكأنها ومضات تضئ المشهد الكلى رويدا رويدا في عبقريةٍ وجمالٍ وأناةٍ حتى يكتمل في الروح والشعور.).

٤. فإن قلتَ: كيف قيل مع الإضاءة: "كلما " أضاء لهم مشوا فيه "، ومع الإظلام: " وإذا " أظلم عليهم قاموا "؟

قلتُ: لأنهم في حرص شديد على وجود ما يهمهم من إمكان المشي ومجئ النور، فكلما صادفوا منه فرصةً انتهزوها؛ فأتى اللفظ الملائم تماما لحالة الانتظار والترقب (كلما)، وليس كذلك حين الاظلام والتوقف (الذي يباغتهم فجأة على غير انتظار ولا ترحيب به؛ فهنا جاء اللفظ المناسب لحالة المباغتة والمفاجئة (إذا) [١].

---

١ راجعت كثيراً من هذه النكت البلاغية ونقلت منها في تفسير الكشاف ج 1من ص 85إلى 88. دار الكتاب العربى . بيروت .

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ."

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) } (البقرة: 21 – 25)

المنَاسَبَة:

في المقطع السابق (الآيات العشرين الأولى في سورة البقرة)، الذي يكوّن افتتاح السورة الكبيرة، نجد الملامح الأساسية للطوائف التي واجهتها الدعوة في المدينة باستثناء طائفة اليهود التي ترد إشارة صغيرة لها، ولكنها كافية، فإن تسميتهم بشياطين المنافقين تشير إلى الكثير من صفاتهم، ومن حقيقة دورهم، حتى يرد التفصيل الكامل بعد قليل.

وفي رسم هذه الملامح نجد خصائص التعبير القرآنية، التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الخط واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة.

وهنا وفي عدد قليل من الكلمات والعبارات في أول السورة ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس (المؤمنين والكافرين والمنافقين).

كل نمطٍ منها هو نموذج حي لمجموعات ضخمة من البشر؛ نموذجٌ أصيلٌ عميق متكرر في كل زمان ومكان. حتى ما تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة. وهذا هو الإعجاز. في تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة، نابضة بالحياة، دقيقة السمات، مميزة الصفات. حتى ما يبلغ الوصف المُطوَّل والإطناب المفصَّل شيئاً وراء هذه اللمسات السريعة المبينة، الجميلة النسق، الموسيقية الإيقاع. [١]

---

١ في ظلال القرآن (1/ 37) باختصار وتصرف يسير.

ثم إنه لما ذكر الله تعالى الأصناف الثلاثة «المؤمنين، والكافرين، والمنافقين» وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضَّح طرق الضلال؛ أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين، وعَرَّف الناس بنعمة الله –تعالى– ليشكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب {يَا أَيُّهَا الناس} وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان، وأوضح برهان ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب.[١]

أقبل سبحانه على الناس بالخطاب وهو من جملة الالتفات الذي يورث الكلام رونقا وبهاء ويزيد السامع هزة ونشاطا.

" يا أيها الناس". عالمية الإسلام في نداءات الرحمن.

في عشرين آية في كتاب الله يأتي الخطاب الإلهي العام للناس جميعاً ليؤكد عالمية هذا الدين وكونه النور الرباني الأخير لهذا العالم الحائر..

تأتي في نداءاتٍ ربانيةٍ حانيةٌ عظيمة يكتنفها الجلال لبني آدم ترشدهم للحقيقة العليا التي لا مناص منها؛ تأتي حقيقةُ وجود هذه الحياة وهذا الإنسان، وأنه أعز مخلوق عند ربه تعالى الذي خلقه فسوَّاه فعدله، ثم سخر له الكون وعلَّمَه أسماءَ كلِّ شيء، وأسجد له ملائكته، ثم شرفه غاية التشريف حيث أمره بعبادته ليكون في كنفه في الدنيا وفي مستقر رحمته وثوابه في الاخرة.

ولكنَّ الشيطان اللعين ما يزال يتربص لآدم وذريته بعدما رفض السجود له استكبارا وجحودا لقيمته في الحياة، وقد أقسم ليغوين بني آدم ويهلكهم كما هلك هو من قبل بفعله.

وهنا يأتينا النور الرباني العظيم ليبين لنا تلك الحقائق الجوهرية ويبعث برسائل عامة وقوية لبني الإنسان جميعاً:

أعبدوا ربكم الذي خلقكم وكرَّمكم وهداكم واصطفاكم على خلقه؛ الذي خلقكم من تراب وخلقكم نطفة هينة ضعيفة فعلقة فمضغةٍ وارتقى بكم اطواراً من ضعف لضعفٍ يرعاكم بعلمه وحكمته وقدره ورزقه الذي يحوطكم به.

فكلوا مما في الأرض التي سخرها لكم الحلال ولا تتبعوا الحرام والباطل.

اتقوا ربكم في نسائكم وأرحامكم وعلاقاتكم البشرية فأنتم مخلوقين جميعا من نفسٍ واحدة؛ ومن نسبٍ واحدٍ خلقكم الله شعوبا وقبائل لتتعارفوا وتتكاملوا لا (لصراع الحضارات) والتنابذ والموت والعداوات.

---

١ صفوة التفاسير (1/ 34).

فلا يهلكنكم الشيطان فهو عدوكم اللدود والذي لا تتغير عداوته أبدا وهو ينتظركم بكل طريق فلا تتبعوا خطواته.

لقد جاءكم الرسول الخاتم – وهو رسول الله إليكم جميعا – بالدين الخاتم والشريعة الكاملة والنور المبين من كلام الله سبحانه فآمنوا بالله ورسله وكلماته لأن ذلك نجاتكم.

لقد جاءتكم البراهين والبينات والمعجزات والدلالات على دين الله وصدق أنبيائه وشمولية دين محمد عليه الصلاة والسلام. فمن كفر بعد ذلك فإن الله غنى عن العالمين.

لا يغركم الشيطان بكيده، وتغركم الدنيا بزخرفها الزائل، أو تغركم قوتكم الزائفة وأنفسكم الحائرة. فسيكون بغيكم وفسادكم واتباعكم الشيطان يرجع على أنفسكم وعليها فقط، وإن ركبت حضاراتكم عنان السحاب؛ فبدون نور الله تعالى فإن الجميع في عمى ضارب.

لقد ضرب الله لكم مَثَل أضعف شيءٍ في خلقه؛ الذبابة فهى على صغرها لا يستطيع علمكم الذي تتشدقون به أن يصنع مثلها تماما ولو اجتمع علم الأرض على ذلك، وإذا ما أخذت منكم شيئا فلن تستطيعوا رده.

فيا مَن كفرتم بالله وظننتم أنكم ملكتم الأرض والعلوم مثلكم كمثل الذبابة مخلوق ضعيف. وهذه السيطرة والتكبر والطغيان زائف.

أنتم دائما وأبدا الفقراء المحتاجين إلى الله والله هو الغنى الحميد. من ضل فإنما يضل على نفسه ويهلكها ومن اهتدي يهتدي لنفسه فيصلحها وينقذها.

ذلك لأن هناك يومٌ عظيم مهول ينتهي فيه هذا العالم ويزلزل كل ما فيه في زلزلةٍ عظيمةٍ تذهل فيها المراضع عن أبنائها، ولا يستطيع أن ينفع ولد والده ولا والد ولده. فاجعلوا بينكم وبين هذا اليوم العظيم المهول وقاية. اتقوا الله واعبدوه ولا تتبعوا خطوات الشيطان.

١. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)} (البقرة: 21)

٢. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168)} (البقرة: 168)

٣. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) } (النساء: 1، 2)

٤. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170) } (النساء: 170)

٥. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) } (النساء: 174، 175)

٦. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّ. انتهوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)} (الأعراف: 158)

٧. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)} (يونس: 23)

٨. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)} (يونس: 57)

٩. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)} (يونس: 104)

١٠. { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)} (يونس: 108)

١١. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)} (الحج: 1)

١٢. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) } (الحج: 5)

١٣. {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49)} (الحج: 49)

١٤. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)} (الحج: 73)

١٥. {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)} (النمل: 16)

١٦. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)} (لقمان: 33)

١٧. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّ. انتهوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)} (فاطر: 3)

١٨. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)} (فاطر: 5)

١٩. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15)} (فاطر: 15)

٢٠. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)} (الحجرات: 13)

كانت هذه رسائل ونداءات ربانية عظيمة تنتظم النور الرباني للناس جميعا. ولكل الأمم في كل العصور. ترسم معالم الدين والحياة بالحقائق الكبرى عن هذا الوجود. والأسئلة الوجودية التي لا تجد جوابا مقنعا لها إلا في كتاب الله:

مَن خلق الوجود والكون وخلقنا؟ وكيف خلقنا؟

وكيف هى منزلتنا في هذا الوجود؟

ومَن الذي اعترض وحسد وتربص وهو عدو لبني آدم ؟

وكيف نفلت من كيده، وكيف النجاة؟

وماذا يأمرنا الله تعالى؟

وما هى الأدلة والبراهين التي تبين لنا صحة هذه الحقائق؟

وكيف تكون علاقات البشر بين بعضهم البعض؟

وكيف نعمر الأرض؟

وكيف نستعد ليوم الحساب؟

لقد كانت هذه النداءات الربانية العظيمة تجيب على الأسئلة الأكبر في الحياة، والتي حيرت الفلاسفة وكبار العقول. وتطرح المفاهيم الأكبر في الدين والوجود: الله. الخلق. الشيطان. الإنسان. الهداية. الرسل والكتب السماوية والبراهين. واليوم الآخر والحساب والجزاء.

وهذه النداءات الربانية العظيمة لكل الناس بتلك المعاني الأكبر التي تنادي بعالمية هذا الإسلام وأحقيته الأولي بقيادة العالم والناس على أمواج الحياة العالية نحو بر الأمان.

قال الإمام البيضاوي في تفسيره: وإنما كثر النداء في القرآن ب {يَا أَيُّهَا} لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ. انتهى.

حقيقة التوحيد الذي دعا الله إليه.

{يا أيها} [(١)] { الناس} الخطاب فيها عامٌ لجميع المكلفين لأن جمعٌ مُعَرَّف باللام، ولأن السياق سبق ببيان حال المُكلَّفين على اختلاف تلقيهم لمنهج الله بين مؤمنٍ وكافرٍ ومنافقٍ، فجاء هنا التعقيب بالخطاب للجميع بما هو واجبُ على الجميع من توحيد الله تعالى وطاعته. [(٢)]

قال الله تعالى: {يا أيها الناسُ اعبدُوا رَبكم}، فإذا علمنا أنَّ معنى العبادة هو الخضوعُ لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة؛ يكون معنى الآية هو: أفردُوا ربكم بالطاعة والعبادة دون سائر خلقه. وكذا أمر سائر خلقه المكلَّفين – بالاستكانة، والخضوع لله–سبحانه– بالطاعة، وإفراده بالربوبية والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة وسائر ما يُعبَد من دونه. [(٣)]

قلتُ: وكل طاعةٍ فيها نوعُ تعظيمٍ تسمى (عبادة)، كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١).

قال ابن جرير: يعني: سادةً لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلُّوه لهم مما قد حرَّمه الله عليهم، ويحرِّمون ما يحرّمونه عليهم مما قد أحلَّه الله لهم.

وقد روى الترمذي وابن جرير الطبري من طرقٍ – وهو حديث أقل حكمه الحسن– عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسولَ الله –ﷺ– وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال: يا عديّ، اطرح هذا الوثنَ من عنقك! قال: فطرحتُه، وانتهيتُ إليه وهو يقرأ في "سورة براءة"، فقرأ هذه الآية: {اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون

---

(١) «يا» وضع في أصله لنداء ما ليس بقريب حقيقة أو تقديرا لكونه ساهيا أو غافلا أو نائما، أو لتبعيد المنادي نفسه عن ساحة عزة المنادى هضما واستقصارا كقول الداعي في جؤاره: يا رب يا الله. مع أنه أقرب إليه من حبل الوريد، ليتحقق الإجابة بمقتضى قوله في الحديث القدسي: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

وقد ينادي القريب في غير هذه الصورة ب "يا" ويكون المراد به أن الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جدا نحو: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ١٨٣] {يا عِبادِيَ} [الزمر: ٥٣]، { يا أَيُّهَا النَّبِيُّ } [الأحزاب: ٤٥] لأن ما يعقبها أمور عظام وخطوب جسام من الأوامر والنواهي والعظات، عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها.

و{أيُّ} في { أيُّها} وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، وهو اسم مبهم يوصف –بعده– باسم جنس ليصح المقصود بالنداء، فلا يصح أن يُقال (يا الناس) وإنما تتوسط هنا (أيها) للوصل بين (يا) و(الناس)، مع ضربٍ من التأكيد المستفاد من الإبهام ثم التوضيح.

وفي حرف التنبيه (ها) المضاف إليها فائدتان: معاضدة حرف النداء بتأكيد معناه من القصد إلى تنبيه المخاطَب لأمرٍ ما، ووقوعها عوضا مما يستحقه (أي) من الإضافة. انتهى من تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ١٧٩) بتصرف يسير.

(٢) وترجيح المعنيّ بالخطاب هنا يأتي بقرينة السياق وترتيب الكلام، والنظر إلى مقصود الخطاب وغرضه. وهذه قاعدة هامة من قواعد الترجيح في التفسير.

(٣)راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٣٦٥).

الله}، قال قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم! فقال: أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟ قال: قلت: بلى! قال: "فتلك عبادتهم!". [١]

فقد تضمنت الأمر الصريح {اعبدوا ربكم...} (بالالتزام ودلالة الفحوى) معنى النهي عن طاعة غير الله – تعالى– كائنا من كان– إذا كان في معصية الله [٢]. ويأتي هذا مصرَّحا به في آية سورة التوبة {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١). وهو تحقيق معنى "الطاغوت" في قوله سبحانه {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: 36).

قال المفسرون: الطاغوت هو الشيطان والكاهن والصنم وكل مَن يدعو إلى ضلالة. وقال المحققون: الطاغوت هو لفظٌ اشتُقَّ من الطغيان وهو تجاوز الحد، فكل مَنْ تجاوز قدره فرضي أو دعى إلى طاعته في غير طاعة الله تعالى، فهو الطاغوت. وعبادته هي طاعته. ولا يصح التوحيد بغير الكفر به.

فالمقصود هنا هو توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة دون كلِّ مَن سواه، وخصوصا الطاغوت، ويؤيد هذا المعنى أن المقصود هو إفراد الله بالطاعة أنه لم يقل سبحانه (يا أيها الناس وحِّدوا ربكم)، فربما عرف الناس أن ربهم الذي خلقهم واحد ثم عبدوا وأطاعوا غيره.

ويؤيده كذلك سياق الآية نفسها الذي غاير في اللفظ والتعبير بين { أعبدوا} و{ ربكم} فالأولى تدل على أن الواجب هو توحيد الله –تعالى– بالطاعة والتقرب والتذلل والاستغاثة ويسميه العلماء – من باب التفصيل والبيان؛ وليس التقسيم والمفاصلة [٣] –(توحيد الطلب والإرادة) وهو ما يغاير ما هو مُقَرَّرٌ لدى الجميع– سواء أعلنوا ذلك أو ادعوا انكاره– بقوله { ربكم} وهو ما يسميه العلماء (توحيد المعرفة والإثبات؛ او توحيد الربوبية) لأنه لا يختلف أحدٌ في قرارة نفسه على أنَّ الله – تعالى– هو خالق الكون والسماوات والأرض وخالقهم، ولكنَّ نقطة الخلاف وموضع إرسال الرسل وإنزال الكتب هو دعوتهم إلى عبادة الله وحده وعدم إشراك أحداً معه.

يقول شارح العقيدة الطحاوية ابن أبي العز– رحمه الله: التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له؛ فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد كما أخبر تعالى عنهم بقوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

---

(١) راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٤/ ٢٠٩)

(٢) لأن طاعة غير الله حين يأمر بطاعة الله تعالى هي طاعةٌ لله بالأساس.

(٣) يأتي بيان هذه النقطة قريبا.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} (لقمان:٢٥) ، {قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} (المؤمنون:٨٤-٨٥). انتهى.

فإذا كانوا معترفين بهذا النوع الذي هو توحيد الربوبية وأن الرب هو الخالق وحده فهذا يدل على أن الرسل إنما دعت إلى التوحيد القصدي الإرادي الذي هو توحيد الإلهية أو توحيد العبودية.

وهنا نقطةٌ مهمةٌ؛ فقد ادعى بعض قصار النظر أنَّ كلام علماء التوحيد على توحيد الألوهية (توحيد العبودية)، وتوحيد الربوبية (توحيد الخلق والتدبير)، وتوحيد الأسماء والصفات (أي توحيد الله في أسمائه صفاته)؛ ادعوا أنه تقسيم مبتدع، وكأنه توحيد لثلاثة أشخاص لا توحيد لواحد، وفيه شبه من تثليث النصارى؟!! وهذا لضعف بصيرتهم. إذ أن هذا ليس (تقسيما) يجعل من كل معنى للتوحيد (قسيما) و(نديدا) للمعاني الأخرى، وإنما هو تفصيل وبيان لدرجات فهم التوحيد أو قل تجزئة لمعناه على سبيل البيان والتفصيل من أجل إدراك أبعاده وفهم حقيقة المراد به من حيث كونه أول واجبٍ على المُكلَّفين، ومن حيث كونه مقصود بعثة الأنبياء وإنزال الكتب. فلما ضلَّ قومٌ عن معنى التوحيد المراد بالرسالة وظنوا انه توحيد الله بمعنى معرفته خالقا رازقا مدبرا وفقط، رد عليهم علماء التوحيد والاعتقاد فبينوا أن ذلك يستوي فيه المشركون والمؤنون، فلا أحد ينكر هذه الحقائق حتى وغن ادعى خلاف ذلك. ورسول الله ﷺ ما جاء ليدعو المشركين إلى هذا المعنى في التوحيد (= توحيد الربوبية)، فهم مقرون ابداءً بأن الله هو الخالق الرازق المدبر، وهذا المعنى تجده جلياً في حوارٍ شائقٍ رواه قصته الإمام الترمذي عن عمران بن حصين قال: قال النبي – ﷺ– لأبي :يا حصين؛ كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبي: سبعة، ستة في الأرض، وواحداً في السماء، قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء. إلخ الحديث [(١)] .

والشاهد أنهم كانوا يؤمنون بوجود إلهٍ خالقٍ رازقٍ مُدبر واحدٍ، وكانوا يطوفون حول الكعبة ويقولون: (لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك) [(٢)] ، ولكنهم كانوا يشركون معه غيره في العبادة

---

(١) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه. (يشير إلى تحسينه بمجموع طرقه).

(٢) رواه الإمام مسلم في الصحيح عن ابن عباس. ومُرادُهم بذلك الشَّريكِ أصْنامُهم، ويَحتمِلُ مَعنيَيْنِ: الأَوَّلُ: أنتَ تَمْلِكُه وما في مُلكِه، والثَّاني: أنتَ تَملِكُه وهوَ لا يَملِكُ، فهُم يَعترِفونَ بأنَّه لا يستحِقُّ شيئًا منَ العِبادةِ؛ لأنَّه لا يملِكُ شيئًا لنفْسِه، ولا لغَيرِه، وإنَّما المالِكُ هو اللهُ، ومعَ ذلك يُشرِكونَ معَه في العِبادةِ، جهلًا أو عِنادًا وعُتوًّا واستكبارًا! قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} [الفرقان: ٣].

ويُخبِرُ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما أنَّهم يَقولونَ ذلك وهُمْ يَطُوفونَ ببَيتِ اللهِ الحَرامِ تَقرُّبًا إلى اللهِ تعالى بالكَلِمةِ الباطِلةِ وهي مَرْدودةٌ عليهم.

والتقرب، وكانوا لا يؤمنون أن هذا الإله الواحد له تكاليف وأوامر ومنهج أنزله لضبط الحياة، فجاء الرسول- ﷺ- ليؤكد دعوة الرسل والكتب من قبله بمنهجٍ جامع لضبط الحياة، وكان محور رسالته هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالطاعة والعبادة والتزام منهجه الذي أرسله في كتبه وأشملها وآخرها القرآن الكريم، وهو ما اشتد على المشركين حينها، فلم يكونوا يريدون أن يلتزموا بالمنهج والتكليف، ولو علموا أن قولهم (لا إله إلا الله) ليس فيه إلى مجرد اعترافهم بالله خالقا ورازقا لما رفضوا ذلك وكانوا يقولون به، ولكنهم أرادوا إلهة بلا تكاليف يعبدون هواهم فكلما هووا شيئا ركبوه بلا حسابٍ ولا عقابٍ، يقتلون، ويسرقون، وينهبون، ويزنون، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويسربون الخمر، ويأتون المنكر. فهذا عندهم دينٌ سهلٌ لذيذٌ يروق لهم. أما الدعوة إلى طاعة وعبادة إلهٍ يأمرهم بالعدل والإحسان والرحمة وترك الفواحش والخمر والنهب والظلم فهذا يشق عليهم.

فدعوة التوحيد الحقيقية قد فهمها المشركون وفهموا متطلباتها وشروطها والمترتب عليها الذي لا ينفك أبداً عنها؛ قد فهموها أكثر مما يفهمها كثيرٌ من المسلمين أو مَن يدعي الإسلام هذه الأيام؛ وهو يريد أنْ يحيا في غاية الانفلات بعيدا عن رقابة أي منهج أو أي التزامٍ بطاعة الله تعالى؛ بل طاغوته هواه، وطاغوته المال، وطاغوته المنصب، وطاغوته سيده الذي يهيئ له المال والمنصب والشهوات...

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (البينة: ٥).

والمعنى: وما أمر الله هؤلاء اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب، وإذا كان الخطاب لهم وهم أهل الكتاب والعلم، فما بالك بالجاهل الذي يعبد هواه؟! أو المدعي للإسلام ولا يأتمر بأمر الله تعالى؟!

أُمِروا جميعهم أمرا واحداً أن يعبدوا الله مخلصين له الدين؛ أي مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك أنفسهم يطيعونها في معصية الله أو شرك غير الله يطيعونه في غير طاعة الله تعالى. [(١)]

ويقول الله تعالى مبينا حقيقة الإسلام والإيمان: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (غافر: ١٤) أي ادعوه مُفْرِدين الله- تعالى- وحده بالطاعة بكل أنواعها؛ { هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر: ٦٥) فالحياة الكاملة التي تشوبها ضعفٌ أو يعتريها نقص هي لله تعالى، ومنه يستمد كل حيٍ وجوده وحياته، ولأن غيره يموت وحياته ووجوده ناقص فلا تصح عبادته من دون

(١) راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٤١)

الله –تعالى– وعابده يتوكل على ناقص الحياة، ومحتمل الموت والتلاشي، أما من يعبد الله ويتوكل عليه فهو يسأل مَن يملك الحياة والأحياء ولا يلحقه ضعف أو يموت. ويؤكد معنى إخلاص الدين لله قوله تعالى بعدها : {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر: ٦٦)

قل– يا محمد– إنى نهانى ربي –تعالى– عن عبادة ما تدعون من دون الله؛ أي أمرت بالتبرّى عمّا عبدتم، والإعراض عمّا به اشتغلتم، والاستسلام للذي خلقني، وبالنبوة اصطفاني. [١]

والإسلام هنا واضحٌ جدا معناه، إنه الاستسلام لرب العالمين في حكمه وأمره، فيكون الرضا بحكمه والامتثال لأمره، ولا معنى له غير ذلك، وهو (الدين) أي الطاعة لله تعالى وحده. ولا معنى لادعاء وجود الدين أساسا إذا كان من يدعيه لا يمتثل أمر الله تعالى ولا يذل له بالطاعة، ويرى هواه وفكرته هي التي يجب أن تُطاع وتُخدَم وشهواتها هي التي يجب ان يذل لها وهو ما جاءت به الآية صريحة في قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} (الفرقان: ٤٣).

يعني تعالى ذكره: (أَرَأَيْتَ) يا محمد (مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ) شهوته التي يهواها وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبده، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه، فلذلك قال جلّ ثناؤه: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا)؛ يقول تعالى ذكره: أفأنت تكون يا محمد على هذا حفيظا في أفعاله مع عظيم جهله؟ (أَمْ تَحْسَبُ) يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين (يَسْمَعُونَ) ما يتلى عليهم، فيعون (أَوْ يَعْقِلُونَ) ما يعاينون من حجج الله، فيفهمون (إِنْ هُمْ إِلا كَالأنْعَامِ) يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها، ولا تفقه، بل هم من البهائم أضلّ سبيلا لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم، بل يكفرونها، ويعصون من خلقهم وبرأهم. انتهى [٢]

يقول الامام الغزالي في كتابه "الاحياء –كتاب العلم– بيان ما بدل من ألفاظ العلوم":

وهذا مقام شريف، فالتوحيد جوهر نفيس، له قشران: أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، وهو أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله، وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث، الذي تصرح به النصارى. لكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره. وأما القشر الثاني فأن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل

(١) انظر لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ٣١٥)

(٢) انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٢٧٤)

يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة، فخصص الناس الاسم بهذين القشرين، وتركوا لبابهما وأهملوه بالكلية. واللباب هو التوحيد المحض، وهو أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، وأن تعبده عبادة تفرده بها فلا تعبد غيره واتباع الهوى يخرج عن هذا التوحيد؛ فكلُّ متبعٍ هواه، قد اتخذ هواه معبوده. قال الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}

. روى أبو أمامة، عن النبي ﷺ إنّه، قال: «ما عُبِد تحت السّماء إلهٌ أبغض إلى الله من هوىً».

وعلى التحقيق من تأمل عرف أنَّ عابد الصنم ليس يعبد الصنم إنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه، فيتبع ذلك الميل. وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم. فإن من يرى الكل، من الله تعالى، كيف يسخط على غيره، فالتوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو من مقامات الصديقين. فانظر إلى ماذا حول وبأي قشر قنع فالموحّد هو الذي لا يرى إلّا الواحد، ولا يتوجّه وجهه إلا إليه، أي يكون قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص. اهـ.

واتلُ معي قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (الجاثية: ٢٣، ٢٤)

فكل مَن كان مَتبوعُه ومطاعه هو هواه فهو إلهه الذي يعبده، وهو ضالٌّ مع علمه أنَّ الذي خلقه سبحانه هو وحده الذي يستحق الطاعة والعبادة، ولكنه نبذ هذا العلم وهذا العهد وهبط إلى اتخاذ إلهٍ لذيذٍ من عند نفسه يزين له الشهوات والانفلات والظلم والنهب والقتل والفواحش فيعيش حياته كلها وهو يدعي أنه موحِّدٌ لله تعالى لكنه يعبد نفسه وكأنه لا موت ولا حساب ولا عقاب يعتقد على الحقيقة أنه سوف يموت ولا يُبعَث يقول: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} إنها عقيدة (الدهرية) ولكنهم يغلفون ذلك بادعاء أنهم مؤمنون، يحيون حياتهم كأنهم بعدما أن يموتوا ويهلكوا يصيروا ترابا ولا يُبعَثون ولا يُحاسَبون. وما أكثر أولئك بيننا!!

بحث في معنى (لعل).

قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (21)

استدل السياق على وجوب طاعة الله وعبادته وحده يقول لهم: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادَكم وسائرَ الخلق غيرَكم، وهو يقدرُ على ضرّكم ونفعكم – أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نَفعٍ ولا ضرٍّ.. وإفراد الله تعالى بالعبادة {لعلكم تتقون} أى من أجل تتقوا سَخَطه وغضَبه أن يَحلّ عليكم، وتكونُوا من المتقين الذين رضي الله عنهم.

قال العلامة أحمد شاكر: يريد الطبري أن العرب تستعمل "لعل" أحيانا بغير معنى الشك، وتكون بمعنى لام الغاية =كي، كما هو عند ابن الشجري في أماليه.

أقول– متأمله: فكان الاستدلال في غاية النصاعة والبيان إذ استدل على توحيد الله بالعبادة والطاعة والتقرب (= توحيد الألوهية)؛ استدل عليه بربوبيته تعالى لكل المخلوقين، فمَن عرف أنه الرب الخالق البارئ الرازق الحافظ كان لزاما عليه أن يعرف أن الطاعة والعبادة والاستغاثة والتقرب لا تكون إلا له سبحانه. وهذا مسلك القرآن في تقرير العقيدة تراه نقيا واضحا لا ينكره إلا ضالٌّ.

وفي قوله تعالى: { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} قال صاحب (غرائب القرآن ورغائب الفرقان):

كلمة «لعل» للترجي أو الإشفاق، ولا يحصلان إلا عند الجهل بالعاقبة، وهو على الله محال.

والجواب أن الترجي راجعٌ إلى العباد لا إلى الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى في ارسال موسى وهارون– عليهما السلام– إلى فرعون: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى} أي اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في إيمانه، ثم الله عالمٌ بما يؤول إليه أمره.

وأيضا فمن ديدن الملوك أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم لإنجازها على أن يقولوا «عسى» و «لعل»، وحينئذ لا يبقى لطالبٍ ما عندهم شك في الفوز والنجاح بالمطلوب.

أو جاء على طريق الأطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد مثل: {تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ} (التحريم:٨).

وقع «لعل» موقع المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركَّب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلة في إقدارهم وتمكينهم، وهداهم النجدين وأراد منهم الخير والتقوى، فهم في صورة المَرْجُوُّ منهم أن يتقوا لترجح أمرهم، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان، وهذا كما ترجحت حال المترجي بين أن يفعل وبين أن لا يفعل، فكان التعبير ب"لعل" للترجيح لأنهم في حالةٍ يستوي فيها اختيارهم بين التقوى وعدمه.

وهذا الجواب مبني على أن قوله «لعلكم» متعلق بالفعل في الآية {خلقكم} مثل قوله سبحانه وتعالى: {وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات: ٥٦) فكان المعنى أن الله خلقكم ومنحكم الاختيار فلعلكم (ترجحوا) جانب العبادة والتقوي الذي لأجله خلقكم.

وقيل: «لعل» بمعنى «كي»، ووجهه أنه للأطماع، والكريم الرحيم إذا أطمع فعل، فجرى إطماعه مجرى الوعد المحتوم. ولهذا رُوي عن ابن عباس – رضي الله عنه – وغيره من السلف: إن "لعل" في القرآن تفيد الجزم.

فلهذا قيل: إنها بمعنى «كي» .

قال القفال: في «لعل» معنى التكرير والتأكيد إذ اللام للإبتداء نحو «لقد» ، ولقولهم علَّك (بدون اللام) أن تفعل كذا و «علّ» يفيد التكرير ومنه العَلَل بعد النَّهَل. (قال الفيروز آبادي في القاموس: العَلُّ وعَلَلُ: الشَّرْبَةُ الثانيةُ، أو الشُّرْبُ بَعْدَ الشُّرْبِ تِباعاً. عَلَّ يَعِلُّ ويَعُلُّ وعَلَّهُ يَعِلُّه ويعُلُّهُ عَلاًّ وعَلَلاً وأعَلَّهُ).

فقول القائل «افعل كذا لعلك تظفر بحاجتك» معناه افعله فإن فعلك له يؤكد طلبك له ويقويك عليه.

انتهى بتصرف وزيادة [١]

حِجاج القرآن.

وقوله تعالى: {الذي جَعل لكم الأرض فِرَاشًا} تعود على {الذي} الأولى في قوله {اعبدُوا ربكم الذي خَلقَكم}، وهما جميعًا وصف {ربكم}، فكأنّه قال: اعبدُوا ربكم الخالق والجاعلَ لكم الأرض فراشًا؛ يعني مهادًا مُوَطَّأً وقرارًا يستقرّ الخلق عليها.

وهنا يُذَكِّرُ ربّنا –جلّ وعلا– عبادَهُ بنعمه عندهم وآلاءه عليهم ليذْكروه، فينيبوا إلى طاعته عطفًا، ورأفةً، ورحمةً لهم، وليُتم نعمته عليهم من غير ما حاجةٍ منه سبحانه إلى عبادتهم كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }.

وقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} سُميت سماءً لعلوها وإشرافها على الأرض. عن قتادة قال: جعل السماء سَقفًا لكم.

(١) راجع تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ١٨١)

وإنما ذكر الله تعالى السماءَ والأرض لأن منهما أقوات الناس ومعايشهم، وبهما تقومُ دُنياهم. فأعلمهم أن الذي خَلقهما وكل ما فيهما وما هم فيه من النعم، هو المستحقّ عليهم الطاعة، والمستوجبُ منهم الشكرَ والعبادةَ، دون الأصنام والأوثان والآلهة، التي لا تضرُّ ولا تنفع.

قال الله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}

يعني تعالى ذكره بذلك أنه أنزل من السماء مطرًا، فأخرج بذلك المطر مما تنبت الأرض من زرعهم وغَرْسهم ثمراتٍ غذاءً لهم وقوتًا. فنبههم بذلك على قدرته وسُلطانه، وذكَّرهم بآلاءه، وأنه هو الخالق الرزاق القيوم، دون من جعلوه له نِدًّا وعِدْلا من الأوثان والآلهة.

ثم زَجَرهم عن أن يجعلوا له ندًّا، مع علمهم بكل ذلك. يقول تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)}

والأنداد جمع نِدّ، والنِّدّ: العِدْلُ والمِثل.

وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: "فلا تجعلوا لله أندادًا"، قال: أكفاءً من الرجال تطيعونهم في معصية الله.

فلا طاعة لمخلوقٍ –مهما كان– في معصية الخالق عز وجل، بل إن طاعة شخصٍ وتعظيمه هي بمثابة عبادة له من دون الله.

وفي حديث عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: " يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} (التوبة: ٣١) حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» [١]

وفي الحديث: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت! قال: أجعلتني لله ندًّا؟! " [٢].

وهذا أبلغ ما يكون من رسول الله ﷺ في حماية جناب التوحيد.

وقوله تعالى: {وأنتم تعلمون} أي مع علمكم أن الله خلقكم ورزقكم وهو ربكم، والخطاب بذلك عامٌّ للناس كافةً، يعني بذلك كلَّ مكلف، عالمٍ بوحدانية الله تعالى، وأنه لا شريكَ له في خلقه، ألّا يُشرِك معه في عبادته

(١) رواه الترمذي بسند حسن، وكذا الطبراني في الكبير، وروى عن حذيفة بن اليمان موقوفا بسند حسن .

٢ قال العلامة أحمد شاكر في تحقيقه تفسير الطبري: والحديث الذي يشير إليه ابن كثير، رواه أحمد في المسند بأسانيد صحاح، عن ابن عباس: 1839، 1964، 2561، 3247. وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد ص: 116 ونسبه الحافظ ابن حجر في الفتح 11: 470 للنسائي وابن ماجه.

غيره، كائنًا مَن كان من الناس، إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانيَّة الله، وأنه مُبدعُ الخلق وخالقهم ورازقهم، نظيرَ الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين (اليهود والنصارى)، والله جلّ ثناؤه قد أخبرَ في كتابه عنها أنها كانت تُقر بوحدانيته، غير أنها كانت تُشرك في عبادته ما كانت تُشرك فيها، فقال جل ثناؤه: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} (سورة الزخرف: ٨٧) ، وقال: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ} (سورة يونس: ٣١) .

فإن قيل: كيف قال: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٢٢)، مع أنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ له أندادا وشركاء؟

قلنا: معناه وأنتم تعلمون أنّ الأنداد لا يقدرون على شيء ممّا سبق ذكره في الآية. والآية على طريقة استدلال القرآن، جاءت بمقدمةٍ لا جدال فيها وهي علمهم اليقين بأن الله وحده هو خالقهم لا شريك له في ذلك، ثم بنت عليها أنه لا يستحق العبادة والتقرب سواه.

وَيؤيده ما روى عَن عمرانَ بنِ حُصينٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأبي: «يَا حُصَيْن كم تعبد الْيَوْم إِلَهًا؟» قَالَ أَبِي: سَبْعَةً: سِتًّا فِي الأَرْضِ وواحداً فِي السَّماءِ قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ قَالَ: «يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ» قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصينٌ ، قَالَ: يَا رسولَ الله علِّمني الكلمتينِ اللَّتينِ وَعَدتني فَقَالَ: «قل اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي» . رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ.

****

في هذه الآيات تتبين لنا طريقة القرآن في إثباته أهم أسس العقيدة الحقة بطريقةٍ تتميز: بالسهولة والانسيابية في البرهان، والاستدلال الواضح البسيط الذي يفهمه العامي قبل العالم، ووضوح المقدمات ورسوخها ومن ثَمّ ترتُّب النتائج عليها في يسرٍ وعمق يخترق الشعور والوجدان من أقرب طريقٍ. بعكس الفلسفة والتعقيد والجدل المتضارب الذي تراه في علم الكلام.

لقد كان هذا الاستدلال الجلي الرصين بوحدانيته –تعالى– في الربوبية (خلقا وحفظا ورزقا) على استحقاق الله وحده دون سواه لتوحيده بالعبادة وكل ما يتصل بها ويقترب من معناها.

استدل القرآن: (١) بنعمة الإيجاد (= الخلق والإبداع)

(٢) وكذا استدل بنعمة الإعداد (تهيئة السماء والأرض بما يصلح للحياة)

(٣) ثم بنعمة الإمداد (رزق الخلائق وتربيتهم في خيره وآلائه).

(٤) ثم بالفطرة التي تدرك وجود الخالق الرازق القيوم في قوله {وأنتم تعلمون}. استدل بذلك كله على وجوب توحيده وحده سبحانه بالعبادة، وصرف الحب والخوف والرجاء والاستعانة والإنابة وكل عبادةٍ له وحده سبحانه. (١)

---

١ يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره:

[وهذه الآية (الآيات 22،21 البقرة) دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده، فإنَّ من تأمل هذه الموجودات عَلِم قدرةَ خالقها وحكمته، وعلمه وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج! ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات، والأصوات، والنغمات. وعن أبي حنيفة أن (بعض الزنادقة) سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمرٍ قد أُخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها – وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل! فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمُه واحدٌ تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم (و الإبريسم هو الحرير.) وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد..

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصنٌ حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب والإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكلٍ حسن وصوت مليح ؛ يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.. وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأملْ في نبات الأرض وانظر * إلى آثار ما صنع المليك

عيونٌ من لُجَيْن شاخصاتٌ * بأحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات * بأنَّ الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجبا كيف يعصى (الإله)* أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آيةٌ * تدل على أنه واحدُ

وقال آخرون: من تأمّل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارات ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها، وانظَر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال تعالى: {ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمر مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سود}، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، ولطفه بهم وإحسانه إليهم، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

روى الإمام أحمد في ذلك مثلاً عجيبا اوحى الله به إلى يحيي بن زكريا عليه السلام فقال يحيي: " إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن.

أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً فإن مَثَل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بَوَرِق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده،، فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.. ثم سرد باقي الحديث" رواه الإمام أحمد

(والحاصل أنه تعالى عدد في هذا المقام عليهم خمسة دلائل:

اثنين من الأنفس وهما خلقهم وخلق أصولهم، وثلاثة من الآفاق وهي جعل الأرض فراشا، والسماء بناء، والأمور الحاصلة من مجموعهما؛ وهي إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات بسببه. وسبب هذا الترتيب ظاهر لأن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، ثم ما منه منشؤه وأصله، ثم الأرض التي هي مكانه ومستقره، يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه، ثم السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المبّنية على هذا القرار، ثم ما يحصل من شبه الازدواج بين المقلة والمظلة من إنزال الماء عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الحيوان من ألوان الغذاء وأنواع الثمار رزقا لبني آدم. وأيضا خلق المكلفين أحياء قادرين، أصل لجميع النعم.

وأما خلق الأرض والسماء فذاك إنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة، وذكر الأصول مقدم على ذكر الفروع. وأيضا كل ما في السماء والأرض من الدلائل على وجود الصانع فهو حاصل في الإنسان بزيادة الحياة والقدرة والشهوة والعقل، ولما كانت وجوه الدلالة فيه أتم كان تقديمه في الذِّكر أهم.) [١]

وهذا من بديع ترتيب الأدلة، وإحكام حجاج القرآن، وعظيم برهانه وطريقته البسيطة العميقة التي يفهمها العامي ولا يستقلها المتبحر؛ بل يجد من وضوحها ووجازتها ما يُعجَب كل ذي عقلٍ صحيح. فإنه استدل بما لا ينكره المعاندون من ربوبيته للخلق جميعا وفقر الخلائق إليه وغناه عنها على ما يجب لله سبحانه من توحيد العبادة والإنابة والاستعانة.

وهنا يعلمنا القرآن كيف نستدل على اعتقادنا من كلام الله تعالى، وليس بالترهات الفارغة والسفسطة الكلامية الفلسفية المنطقية العقيمة. ولقد اختلط علم الكلام عند المعتزلة بالفلسفة اليونانية وصار الدليل الشرعي خادما او تابعاً لها، وهو انعكاس للعلم والبصيرة، فأهل العلم والحق يقولون بالدليل من الشرع ثم يحللونه ليصلوا إلى برهانهم وليس العكس.

وقد كثرت مصطلحات الكلام وتعقيداته واعتماده على المنطق الصوري الفاشل عند المعتزلة والأشاعرة وأشباههم حتى ترى لكل جزئية معارضةٌ وللمعارضة ردٌ، وللرد إشكالٌ، وتظل بين معارضةٍ واستشكال يضيع

بسنده عن الحارث الأشعري، وهو حديث صحيح جليل رواه الترمذي في كتاب الأمثال عن البخاري وابن حبان والنسائي بعضه وابن خزيمة والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة...

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ١٨٢)

معهما يقين العقيدة ويصير شكاً، و الأشد على نفوس المؤمنين أنْ صار الدليل الشرعي معضداً لا أساساً، وخادماً لا مخدوماً، وفرعاً لا أصلاً حتى قال قائلهم: إن خالفت النصوصُ الشرعية عقولَنا أوَّلنا النصوص ولا نخالف العقل، ثم هم بأي عقلٍ من عقولهم يتخيرون والعقول كثير، وبأي فهمٍ من فهومهم يجعلونه الأساس لرد وتأويل النصوص؟!. فلله الأمر من قبل ومن بعد.

يؤكد العلامة الزركشي أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ بطريقته الواضحة وحجته الناصعة التي فهمها العالم والعامي لموافقتها للفطرة والبديهة، وَمَا مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ –العَقْلِيَّةِ منها وَالسَّمْعِيَّةِ – إِلَّا وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ نطَقَ بِهِ لَكِنْ أَوْرَدَهُ تَعَالَى عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ (في البلاغة والفصاحة والوضوح) دُونَ دَقَائِقِ طُرُقِ الْمُتَكَلِّمِينَ (والمتفلسفة)، ويرجع ذلك لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أن الله تعالى يقول: "وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ليبين لهم". الْآيَةَ. فإذا كان القرآن بلسان العرب ويخاطب عقولهم ابتداءً فهو على طريقتهم ويناسب فهمهم بغير دقائق الفلسفة التي غزت عقول المتعالمين جرَّاء احتكاكهم بثقافة العجم والفرس، ولم تجر عليهم سوى الفُرْقة والأهواء المُضلِّلة.

والأمر الثَّانِي: أَنَّ الذي يميل إِلَى الدَقِيقِ (والمُعقَّد) من وسائل الْمُحَاجَّةِ (الجدل) والإقناع هُوَ الْعَاجِزُ عَنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ بالواضح البيّن مِنَ الْكَلَامِ.

فَإِنَّ مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُفْهِمَ ويوصل فكرته والمعنى الذي يريد بِالْأَوْضَحِ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْأَكْثَرُونَ من العوام والعلماء لَمْ يَتَخَطَّ ذلك إِلَى الأغمض الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْأَقَلُّونَ (المتفلسفون المتحذلقون)، وَلَمْ يَكُنْ يصنع الألغاز والأحاجي والمعقَّد من القول والفكر.

فَأَخْرَجَ سبحانه وتَعَالَى مُخَاطَبَاتِهِ فِي مُحَاجَّةِ خَلْقِهِ فِي أَجَلِّ صُورَةٍ وأوضحها، ومع ذلك تَشْتَمِلُ عَلَى أَدَقِّ دَقِيقٍ. لِتَفْهَمَ الْعَامَّةُ مِنْ جَلِيلِهَا وواضحها مَا يُقْنِعُهُمْ وَيُلْزِمهُمُ الْحُجَّةَ، وَتَفْهَمُ الْخَوَاصُّ من العلماء والمتأملين المتدبرين مِنْ دقائق فقهها مَا يرضي علمهم ويزيدهم يقينا. [١]

---

١ راجع البرهان في علوم القرآن (2/ 24–27) الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه. بتصرف وشرح.

قوله تعالى: "وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ...".

يقول صاحب الكشاف – عفا الله عنا وعنه –: لما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويحققها، ويبطل الإشراك ويهدمه، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه– عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوّة محمد ﷺ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعى، أم هو من عند نفسه كما يدعون. بإرشادهم إلى أن يحزروا (يقدروا) أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته. . انتهى[١]

- قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23)}.

قمة التحدي الرباني للناس جميعا. تحدي الناس مرتين. مرةً لأساطين اللغة والبلاغة والفصاحة من العرب على عهد رسول الله ﷺ ان يأتوا بمثل هذا القرآن؛ بل بسورة مثله.

ثم تحدي للناس إلى يوم القيامة أن يأتوا مثله أو مثل هداياته وإعجازاته الخالدة.

وهو احتجاجٌ وبرهانٌ على صدق الرسالة كما احتج قبلها على التوحيد لتكتمل أركان العقيدة في براهينَ وحججٍ دامغةٍ بسيطةٍ عميقةٍ ومعجزة. لترسم معالم العقيدة على طريقة القرآن.

وهذا من الله عز وجل احتجاجٌ لنبيه على مشركي العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب، وأمثالهم في كل عصر، يقول لهم: وإن كنتم في شكٍّ وترددٍ وتحيرٍ مما نزّلنا على عبدنا محمد –ﷺ– من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي، فلم تُؤمنوا برسولي ولم تصدّقوه، فأتوا بحجةٍ أو برهانٍ تدفع حُجته، وبُرْهانه على حقيقة نبوته، وقد عَجزُ جميعُكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تَأتوا بسورةٍ من مثل ما أنزلتُ عليه.

وإذا عَجزتم عن ذلك –وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة – فقد علمتم أن غيركم عن ذلك أكثر عجزاً.

فيتأكد لذوي الألباب أنّ محمدًا لم يتقوَّله ولم يختلقْه.

وعن قتادة السدوسي في قوله: "فأتوا بسورة من مثله"، يعني: من مثل هذا القرآن حقًّا وصدْقًا، لا باطل فيه ولا كذب. وقال بعض أهل المعاني: إن معنى قوله: " من مثله"، هو مِن مثل محمد– صلى الله عليه وآله

---

١ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 96)

وسلم– من البشر، لأن محمدًا بشر مثلكم. ولم يكن محمداً ممن عُرف بنظم الشعر وسبك النثر في قومه، فإذا تكلم بكلام أعجزهم فيه بلاغته وفصاحته علم اللبيب أنه ليس من عنده، وإنما من عند الله –تعالى– كما قال سبحانه: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت: ٤٨) والمعنى: وَما كُنْتَ تَتْلُوا يا محمد مِنْ قَبْلِهِ أي من قبل هذا الكتاب الذي أنزلنا عليك مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ تكتبه بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ يعني: لو كنت تكتب أو تقرأ الكتب قبل الوحي إذا لشك المبطلون– أي المشركون– من أهل مكة وقالوا: هذا شيء تعلّمه محمد وكتبه، قاله قتادة. [١]

ولقد جاء هذا التحدي في القرآن العظيم على درجات: –

الأولى: حين تحداهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } (الإسراء 88).

الثانية: لما عجزوا تحداهم بعشر سور: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (هود13).

الثالثة: وفيها ارتقى التحدي ليصبح بسورة واحدةٍ ولو أقصر سورة. وفي كل يزداد التحدي إثارةً حين يتحداهم وهم جميعٌ –إنسٌ وجن– عربي وأعجمي– على مدى الزمان– وفي كل الأمم– في أشد ما يكون من التحدي الجالب للحقيقة الكبرى والبرهان الرباني الأعظم على صدق الرسالة، تحداهم أن ياتوا بمثل أقصر سوره فصاحةً وبلاغةً.

لقد تحداهم الله –تعالى– بالقرآن جميع البشرية تحديا كبيراً بكل صراحةٍ وقوة، وفي هذه الصراحة والقوّة دلالةٌ حيّة على حقّانيته. ولم يكتف في تحدّيه بدعوة النّاس إلى أن يأتوا بمثله، بل حفّزهم وشجعهم على ذلك، وعبارات التحفيز نجدها في قوله تعالى:

(إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ... قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ... وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دون اللهِ ... قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ ... لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ... فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ...).

هذا التحفيز والحثّ والإثارة لم يصدر ضمن إطار معركة أدبية أو عقائدية، بل في إطار معركة «سياسية» «اقتصادية» «اجتماعية»، ضمن إطار معركة حياةٍ أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. فلو

(١)تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧/ ٢٨٥)

كان عند العرب الذين برعوا في اللغة والبلاغة وجعلوا لها سوقاً نافقاً ومكانةً لا تُبارَى؛ لو كان لهم أدنى قدرةٍ على أن يأتوا بمثل أقصر سورةٍ في القرآن العظيم لَمَا اختاروا الحرب والقتال والموت والخراب في مواجهة محمد- ﷺ- ودعوته –كان يكفيهم أن يعارضوا القرآن بمثل أقل شيءٍ فيه ويكسبوا التحدي وتموت دعوة النبي.

فلما عجز المعارضون جميعاً؛ وفي كل العصور؛ أمام هذا التحدّي المستفز الصارخ تبيّن بشكل لا يقبل الجدال أن القرآن من عند الله- تعالى- وأنَّ محمداً رسول الله حقا.

****

وبهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كي يكون عجزهم دليلا واضحاً على أصالة هذا الوحي السماوي وعلى الجانب الإلهي للرسالة والدعوة.

ولأجل أن يؤكد هذا التحدي دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

كلمة «شهداء» تشير إلى الفئة التي كانت تساعدهم في رفض رسالة النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو هي عامةٌ في كل مَن شهِد هذا التحدي؛ وهي دعوةٌ ليكونوا جميعا طرفا في هذا التحدي الكبير.

وعبارة {مِنْ دُونِ اللهِ} إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإلى قدرة الله وحده على ذلك.

وعبارة {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} تستهدف حثّهم على قبول هذا التحدي، ومفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليلُ كذبِكم، فانهضوا–إذنْ- لإثبات ادعائكم.

إن طبيعة التحدي تقتضي أن يكون صارخاً إلى أبعد حدّ ممكن، وأن يكون محفّزاً للعدو مهما أمكن، وبعبارة أُخرى أن يثير الحميّة فيه، كي يجنّد كل طاقاته لعملية المجابهة، حتى إذا فشل وأيقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة إلهية لا بشرية.

****

وأما وصف الآية محمداً – صلوات الله وسلامه عليه- بكلمة: {عبدنا} ففيه هذا الإيماء الشريف بالمنزلة والتكريم والتشريف في وصف محمد – ﷺ – بالعبودية التي هى أشرف مقامات المحسنين وأرقى درجات للمؤمنين.

فَذكره سُبْحَانَهُ باسم عبوديته فِي أشرف مقاماته: فِي مقَام الاسراء، ومقام الدعْوَة، ومقام التحدي. فَقَالَ سبحانه فِي مقَام الاسراء: {سُبْحَانَ الَّذِي أسرى بِعَبْدِهِ}؛ وَلم يقل (بِرَسُولِهِ، وَلَا نبيه) إِشَارَةً الى أنه قَامَ هَذَا الْمقَام الأعظم بِكَمَال عبوديته لرَبه سبحانه.

وَقَالَ تعالى فِي مقَام الدعْوَة: {وَأَنه لما قَامَ عبد الله يَدعُوهُ }.

وَقَالَ تعالى فِي مقَام التحدي: { وَإِن كُنْتُم فِي ريب مِمَّا نزلنَا على عَبدنَا فَأتوا بِسُورَة من مثله}.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي حَدِيث الشَّفَاعَة وتراجع الانبياء فِيهَا وَقَول الْمَسِيح – عليه السلام: " اذْهَبُوا الى مُحَمَّد عبدٌ غفر الله لَهُ مَا تقدم من ذَنبه وَمَا تَأَخّر ".

فَدلَّ ذَلِك على أنه نَالَ ذَلِك الْمقَام الأعظم بِكَمَال عبوديته لله، وَكَمَال مغْفرَة الله لَهُ.[١]

وَقد ثَبت فِي مسند أحمد وغيره: أن الله سُبْحَانَهُ أرسل جِبْرِيل إلى النَّبِي – ﷺ – يخيّره بَين أن يكون ملكا نَبيا، أَوْ عبداً نَبياً، فَنظر إلى جِبْرِيل كالمستشير لَهُ؛ فأشار إليه أن تواضع، فَقَالَ – ﷺ –: (بل أكون عبداً نَبياً).

****

يقول ربنا تبارك وتعالى: {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} فإن لم تفعلوا يعني فيما مضى، ولن تفعلوا أي تطيقوا ذلك فيما يأتي. وهنا يخترق التحدي حدود الزمان ليتحدى الجميع إلى يوم القيامة، فإن عجزوا يقول لهم : اتقوا النار بتصديق النبي ﷺ وطاعة الله تعالى وترك العناد الرَّدِى المُردي.

وفي قوله: {ولن تفعلوا } إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها، ومن إعجاز القرآن وإيراده التحدي بعد التحدي، والبرهان بعد البرهان.

قال الزمخشري ما حاصله:

معنى الآية: إذا تبينتم من أنفسكم جميعاً العجز عن الاتيان بسورة من مثله فاتركوا العناد والمكابرة. ووضع "فاتقوا النار" موضع جواب الشرط، لأن اتقاء النار يلاصقه ويلازمه هنا ترك العناد، حيث إنه من نتائجه.

لأن من اتقى النار ترك المعاندة والمكابرة في وجه الحق.

ونظيره أن يقول الملك لحشمه: "إن أردتم الكرامة عندي، فاحذروا سخطي". يريد: فأطيعوني واتبعوا أمري، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط. وهو كثير في كلام العرب البليغ أن يضع النتيجة النهائية مكان السبب الذي أتى بها.

١ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (1/ 5)

وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته: الإيجاز، الذي هو حلية القرآن، وتهويل شأن العناد، بوضع اتقاء النار مكانه، وإبرازه في صورته، وأتى بعد ذلك بتهويل صفة النار وتفظيع أمرها. انتهى.

******

ثم إن من دلائل الإعجاز في لفظة {نزَّلنا} في الآية الكريمة.

يقول صاحب الكشاف [١]:

فان قلتَ: لم قيل: (مِمَّا نَزَّلْنا) على لفظ التنزيل (بالتضعيف) دون (أنزلنا) التي هى من الإنزال؟

قلتُ: لأن المراد نزول القرآن على سبيل التدريج والتنجيم (= نزوله منجما على وِفق الحوادث ومستجدات الدعوة النبوية)، وهو في مكانه العظيم من قضية التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند اللَّه مخالفاً لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجوما سورةً بعد سورةٍ وآياتٍ تلو آياتٍ، على حسب النوازل وتوارد الحوادث، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرَّقا حيناً فحيناً، وشيئاً فشيئا حسب ما يظهر لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة، لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعةً واحدة، ولا يرمى الخطيب بمجموع خطبه أو رسائله ضربةً واحدة، فلو أنزله اللَّه لأنزله خلاف هذه العادة، وأنزله جملةً واحدة كما قال اللَّه تعالى يصف خاطرهم هذا: {وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً}.

فقيل لهم: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهلٍ وتدريج، فهاتوا أنتم نوْبةً واحدة من نُوَبِه، وهاتوا نجماً فرداً من نجومه أو سورة من أقصر السور، أو آيات شتى مفتريات. وهذه هى الغاية في التبكيت، ومنتهى إزاحة العلل ورد العناد. انتهى بتصرف.

قلتُ: وهو تحدٍ بعد تحدٍ لمن كان له عقلٌ وأعمل فكره ونسى هواه لحظةً واحدة.

فإن تنجيم القرآن (= نزوله مُفرَّقاً) أدعى لتشتت مذاهبه، وضعف بنيته وعدم اتساق مبانيه فضلا عن معانيه. ولكن الإعجاز التام كان في التئامه لُحْمةً واحدةً ونسيجاً متسقاً رغم تنزّله على مدى بضع وعشرين سنة منجماً على الحوادث. وهذا منحى من الإعجاز فريد لا يدركه إلا المتأملون والمتدبرون. [٢]

****

---

١ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 96) بتصرف يسير.

٢ راجع كتاب (النبأ العظيم) للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز فإن فيه تفصيل رائع لهذه النقطة وغيرها من إعجازات القرآن الكريم.

إن القرآن كتابٌ يسمو على أفكار البشر، ولم يستطع أحدٌ حتى اليوم أن يأتي بمثله، وهو معجزة سماوية كبرى.

هذا الكتاب الكريم يعتبر ـ بين معجزات النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أقوى سند حيّ على نبوة الرّسول الخاتم، لأنه معجزة «ناطقة» و«خالدة» و«عالمية» و«معنوية».

أمّا أنّه معجزة «ناطقة» فإنّ معجزات الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أي أنها كانت بحاجة إلى وجود النّبي لكي يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعجزات النّبي الخاتم ـ عدا القرآن ـ هي من هذا اللون. أما القرآن فمعجزة ناطقة. لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج منتصراً من ساحة التحدي. وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم في عصر الرسالة. إنه دين ومعجزة، إنه قانون، ووثيقة تثبت الهية القانون.

أما الخلود والعالمية: فإنّ القرآن حطم سدود «الزمان والمكان» وتعالى عليهما، لأن معجزات الأنبياء السابقين ـ وحتى معجزات النّبي الخاتم غير القرآن ـ مسجلة على شريط معين من الزمان، وواقعة في مساحة معينة من المكان، وأمام جمع معدود من النّاس، مثل معجزات عيسى (عليه السلام) كحديثه في المهد وإحيائه الموتى. وواضح أن الأحداث المقيّدة بزمان ومكان معينين تمسي صورتها باهتة كلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانية والمكانية. وهذا من خصائص الأمور الزمنية.

لكن القرآن لا يرتبط بالزمان والمكان، فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشرية قدرة في العلم والإمكانات لتستفيد منه أكثر من ذي قبل، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فانه يحوي عناصر الدوام والخلود وسعة دائرته العالمية، وبديهي أن الدين العالمي الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أمّا الصّفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معجزات الأنبياء السابقين، ونرى أنها كانت غالباً «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، وتحدث الطفل في المهد ... وكانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أما القرآن، فيسخر القلوب والنفوس، ويبعث فيها الإعجاب والإكبار. إنه يتعامل مع الأرواح والأفكار والعقول البشرية، وواضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعجزات الجسمية.

(ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفيه، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال تعالى: {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير} فأُحكمَت ألفاظه، وفُصِّلت معانيه، فكلٌّ من لفظه ومعناه فصيح لا يُحاذَى ولا يُدانى..

فقد أخبر عن مغيباتٍ ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواءً بسواء، وأمر بكل خيرٍ ونهى عن كل شرٍ كما قال تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا} أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأحكام، فكلُّه حقٌ وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفةٌ ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل في الشعر (إن أعذبه أكذبه) وتجد في القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخصٍ معينٍ أو فرس أو ناقة أو حرب، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً ، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذرٌ لا طائل تحته..

وأما القرآن فجميعه فصيحٌ في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وأجمالاً، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملتَ أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرَّر حلا وعلا، لا يخلُق عن كثرة الرد، ولا يَملُّ منه العلماء..

وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟

وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، وشوّق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}، وقال: {وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون}..

وقال في الترهيب: {أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر}، {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير}، وقال في الزجر: {فلا أخذنا بذنبه}، وقال في الوعظ: {أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون} إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروفٍ حسنٍ نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيحٍ رذيل دنِيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: يا أيها الذين آمنوا فأرْعها سمعك فإنها خيرٌ يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: {يأمرهم

بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم} الآية..

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهّدت في الدنيا ورغّبت في الأُخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة (رواه الشيخان عن أبي هريرة واللفظ لمسلم) "، وقوله ﷺ: "وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً" أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة. انتهى مُختصراً [1].

---

(١) نقلا عن تفسير العلامة ابن كثير.

ونقول هل جيء بمثل القرآن او حاول أحدٌ ذلك؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف والملابسات التي عاصرت نزول القرآن، وعلى تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن.

غير خفيّ أن الرسالة في عصر النّزول وما بعده، واجهت خصوماً ألدّاء من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين. وهؤلاء توسّلوا بكل ما لديهم من قوة وحيلة للوقوف بوجه الدعوة. (حتى إن بعض المنافقين مثل (أبو عامر) الراهب ومن وافقه من المنافقين اتّصلوا بإمبراطور الرّوم للتآمر على الإسلام، وبلغ الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيّدوا «مسجد ضرار» في المدينة، وحدثت على أثر ذلك وقائع عجيبة أشار اليها القرآن في سورة التوبة).

من الطبيعي أن هؤلاء الأعداء الألدّاء من المنافقين وغيرهم كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتحينون كل فرصة للإضرار بالمسلمين. ولو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجيب على تحدي القرآن، لتهافتوا عليه ونشروه وطبّلوا له وزمّروا، أو لسعوا في حفظه على الأقل.

ولذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالا ضعيفاً أنهم عارضوا القرآن، مثل:

«عبد الله بن المقفع»، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرّة اليتيمة» بينما لا نعثر في هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة إلى هذه المعارضة، ولا نعرف لماذا وجهت التهمة إلى ابن المقفع بهذا الكتاب؟

والمتنبي، أحمد بن الحسين الكوفي الشاعر، ذكر في زمرة المعارضين وأصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتنبي وأدبه، أنه كان ينطلق في شعره غالباً من روح الخيبة في بلوغ المناصب الرفيعة، ومن الحرمان العائلي.

وأبو العلاء المعرّي، اتهم بهذا أيضاً، ونقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوماً بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات في عظمة كتاب الله العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، وأتى بآيات!! أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، ومن ذلك.

١ . ما قاله معارضاً سورة «الذاريات»: «والمبذرات بذراً. والحاصدات حصداً. والذاريات قمحاً. والطاحنات طحناً. والعاجنات عجناً. والخابزات خبزاً. والثاردات ثرداً. واللاقمات لقماً. اهالة وسمناً».

٢ . من النماذج الأُخرى لآياته: «يا ضفدع نقّي فإنّك نعم ما تنقين، لا وارداً تنفرين، ولا ماء تكدرين».

(راجع مشكورا كتاب (إعجاز القرآن) الرافعي، وكتاب «إعجاز القرآن» للخطيب، ج ١، ص ٤٨٣..

ويجدر بنا أن ننقل جملا من أقوال المشاهير بشأن القرآن بمن فيهم أولئك الذين اتهموا بمعارضة القرآن.

١ . أبو العلاء المعري (المتهم بمعارضة القرآن) يقول:

«وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمّد كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوه بالإرجاز، ما حذا على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ... ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة، وجاء كالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، وأن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق، والظهرة البادية في جدوب »(من رسالة الغفران للمعري).

٢ ــ الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو رجل عرف بين عرب الجاهلية بكياسته وحسن تدبيره، ولذلك سمي «ريحانة قريش»، سمع آيات من سورة «غافر» فرجع إلى قوم من بني مخزوم فقال لهم:

«والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه» (من سيرة ابن هشام وغيره).

٣ . العالم المؤرخ البريطاني «كارليل» يقول حول القرآن:

«لو ألقينا نظرة على هذا الكتاب المقدس (أي القرآن) لرأينا الحقائق الكبيرة، وخصائص أسرار الوجود، مطروحة بشكل ناضج في مضامينه، ممّا يبين بوضوح عظمة القرآن. وهذه الميزة الكبرى خاصة بالقرآن، ولا توجد في أي كتاب علميّ وسياسي وإقتصادي آخر. نعم، قراءة بعض الكتب تترك تأثيراً عميقاً في ذهن الإنسان، ولكن هذا التأثير لا يمكن مقارنته بتأثير القرآن. من هنا ينبغي أن نقول: المزايا الأساسية للقرآن، ترتبط بما فيه من حقائق وعواطف طاهرة، ومسائل كبيرة، ومضامين هامة لا يعتريها شك وترديد. وينطوي هذا الكتاب على كل الفضائل اللازمة لتحقيق تكامل البشرية وسعادتها» (من كتابه الأبطال وتعظيم البطولة)

٤ . جان ديفن بورت مؤلف كتاب: «الاعتذار إلى محمّد والقرآن». يقول:

«القرآن بعيد للغاية عن كل نقص، بحيث لا يحتاج إلى أدنى إصلاح أو تصحيح، وقد يقرؤه شخص من أوّله إلى آخره دون أن يحسّ بأي ملل» (من مقدمة كتاب «التنظيمات الحضارية في الإمبراطورية الإسلامية»).

ويقول: «لا خلاف في أن القرآن نزل بأبلغ لسان وأفصحه، وبلهجة قريش أكثر العرب أصالة وأدباً ... ومليء بأبلغ التشبيهات وأروعها».

٥ ــ غوته الشاعر الألماني يقول: «قد يحسّ قرّاء القرآن للوهلة الأُولى بثقل في العبارات القرآنية، لكنه ما أن يتدرج حتى يشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغّل فيه ينجذب . دون إختيار . إلى جماله الساحر».

وفي موضع آخر يقول: «لسنين طويلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمة النّبي محمّد، ولكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشرية»!

ويقول كذلك: «كنا معرضين عن القرآن، ولكن هذا الكتاب ألفت أنظارنا، وحيّرنا، حتى جعلنا نخضع لما قدمه من مبادىء وقوانين علمية كبرى»!

٦ . «ويل ديورانت» المؤرخ المعروف يقول: «القرآن أوجد في المسلمين عزّة نفس وعدالة وتقوى لا نرى لها نظيراً في أية بقعة من بقاع العالم».

٧ ــ المفكر الفرنسي «جول لابوم» في كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر في العالم على يد المسلمين، والمسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) وهو بحر العلم، وفرّعوا منه أنهاراً جرت مياهها في العالم ...».

٨ . المستشرق البريطاني دينورت يقول:

«يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعية والفلكية والفلسفة والرياضيّات التي شاعت في أوربا، هي بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، ونحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن أوربا من هذه الناحية من بلاد الإسلام» (نقول من كتاب المعجزة الخالدة).

٩ . الدكتورة لورا واكسيا واغليري أستاذة جامعة نابولي في كتاب «تقدم الإسلام السريع» تقول:

****

وقوله تعالى: {فاتقوا النار} يقول: فاتقوا أن تَصْلَوُا النار بتكذيبكم رسولي بما جاءكم به من عندي.

ثم وصف جل ثناؤه النارَ التي حَذرهم صِلِيَّها فأخبرهم أنّ الناس وَقودها، وأن الحجارة وَقُودها كذلك، فقال: {التي وَقودها الناس والحجارة}.

قال العلامة الألوسي: وذكر (الناس والحجارة) تعظيما لشأن جهنم وتنبيها على شدة وقودها ليقع ذلك من النفوس أعظمَ موقعٍ، ويحصل به من التخويف ما لا يحصل بغيره، وليس الاقتصار على هذين الجنسين أن لا يكون في النار غيرهما بدليل ما ذُكِر في غير موضعٍ من كون الجن والشياطين فيها أيضا.... وبدأ سبحانه بالناس لأنهم الذين يدركون الآلام أو لكونهم أكثر إيقادا من الجماد لما فيهم من الجلود واللحوم والشحوم ولأن في ذلك مزيد التخويف. انتهى.

قال القرطبي [١]: والوقود (فتح الواو): الحطب. وبالضم: هو التوقد.

والناس هنا عموم، ومعناه الخصوص، والمقصود الذين سبق عليه القضاء أنه يكون حطبا للنار بكفره، أجارنا الله منها. (خصَّصها قرينة الحال والجمع بين الأدلة).

والحجارة هي حجارة الكبريت الأسود –كما روى عن ابن مسعود – وخُصَّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، نتن الرائحة، كثرة الدخان، شدة الالتصاق بالأبدان، قوة حرها إذا حميت.

(قلتُ: وحملها على العموم أولى لأن ذلك غيبٌ لا يُقال فيه بالرأي، وربما يكون ابن مسعود –رضي الله عنه– سمع فيها قولاً لرسول الله –ﷺ– فذكره. والله أعلم).

وقيل: المراد بالحجارة الأصنام، لقوله تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} أي حطب جهنم. وعليه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار، وذُكِر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

«كتاب الإسلام السماوي نموذج الإعجاز ...(القرآن) كتاب لا يمكن تقليده،وأسلوبه لا نظير له في الآداب، والتأثير الذي يتركه هذا الإسلوب في روح الإنسان ناشىء عن إمتيازاته وسموّه ... كيف يمكن لهذا الكتاب الإعجازي أن يكون من صنع محمّد، وهو رجل أميّ؟! ... .
نحن نرى في هذا الكتاب كنوزاً من العلوم تفوق كفاءة أكثر النّاس ذكاء وأكبر الفلاسفة وأقوى رجال السياسة والقانون.
من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلّم عالم» (من كتاب تقدم الإسلام السريع «نقلا عن محمّد والقرآن ...»).

[١] في تفسيره الجامع لأحكام القرآن 1/227 بتصرف يسير.

قال القرطبي: وعلى التأويل الأول يكونون معذبين بالنار والحجارة. (وعلى الثاني أنَّ الناس وأصنامهم يصلون السعير)

(قلتُ: وكأن المعنى: فاتقوا النار التي وقودها الناس، والحجارة أُعِدَّت للكافرين يُعَذَّبون بها في النار. ويكون الوقف جائز على الناس؛ ولعله وجهٌ جيدٌ ولكنه بعيد ويحتاج لتمحيص وتحقيق من علم القراءات).

ومن عجيب تدبر أهل المعاني جوابهم لسؤالٍ بلاغي مقدَّر في نظائر هذه الآية وهو: لماذا قال تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ التي وقودها الناس والحجارة} (البقرة: ٢٤)، فعرّف النار هنا، ونكّرها في سورة التّحريم في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} (التحريم-٦)؟

قلنا: لأنّ الخطاب في سورة البقرة مع المنافقين، وهم في أسفل النار المحيطة بهم، فعُرِّفت بلام الاستغراق أو العهد الذّهني، وفي آية سورة التحريم مع المؤمنين، والذي يُعذَّب مِن عصاتهم بالنّار يكون في جزء من أعلاها، فناسب تنكيرها لتقللها وتهوين شأنها بجانب نار المنافقين.

وقيل: لأنّ تلك الآية في سورة التحريم نزلت بمكّة، قبل الآية في سورة البقرة، فلم تكن النار التي وقودها الناس والحجارة معروفة، فنكّرها. ثم، نزلت هذه الآية بالمدينة، فعُرِّفت؛ إشارةً بها إلى ما عرفوه أوّلا. [١]

قلتُ: والجواب الأول ألصق بسياق الآية وأوجه.

وقوله تعالى: {أعدت للكافرين} أعدّت هذه النارُ للجاحدين أنّ الله رَبُّهم، المشركينَ معه في عبادته الأندادَ والآلهة، وهو المتفرد لهم بالإنشاء، والمتوحِّد بالأقوات والأرزاق.

وقوله تعالى:{ أعدت للكافرين} ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك، بدليل ما ذكره في غير موضع من الوعيد للمذنبين من الموحدين أنهم يدخلون النار ولكن لا يخلدون فيها ودليله الأحاديث الثابتة في الشفاعة، على ما يأتي.

وفيه دليلٌ على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودةٌ مخلوقةٌ، خلافا للمبتدعة في قولهم إنها لم تخلق حتى الآن. فقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله إذ سمع وَجْبَة (صوتاً شديدا)، فقال النبي ﷺ: " تدرون ما هذا؟ " قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا (أي سبعين سنة)، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها".

---

(١)أسئلة القرآن وأجوبتها- محمد بن أبي بكر الرازي- المكتبة العصرية - بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "احتجت النار والجنة فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين. فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها". وأخرجه مسلم بمعناه. وهو دليلٌ على وجودهما واحتجاجهما بلفظ الفعل الماضي.

ولأن النبي ﷺ قد أريهما– أي الجنة والنار– في صلاة الكسوف، ورآهما أيضا في إسرائه ودخل الجنة، فلا معنى لما خالف ذلك. وبالله التوفيق. (١)

١ تفسير القرطبي جامع أحكام القرآن: ج1/ص228 بتصرف يسير.

قوله تعالى: "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...".

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}

لما ذكر الله عز وجل جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا؛ وهذه عادة القرآن [١] في مقارنة البشارة بالنذارة، والترغيب بالترهيب لتجلية المعاني وترسيخها في الشعور والوجدان. فإن اجتماع الضدين في الكلام يجلِّي الفهم ويقوي المعنى المقصود، ويحدث تلك الحالة من التوازن اللائقة بمعاني القرآن.

{وبشِّر}، يعني: أخبرهم بما يسرهم. والبشارة أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المرء، إذا كان أول مَا يُخبَر به. فلا يقال بشَّرته إلا إذا كنت أول من يخبره بما يسره ويفرحه [٢]. [٣]

ونعود للآية وفيها أمرٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ بإبلاغ بشارته لخلقه الذين آمنوا به وبرسوله وبما جاء به من عند ربه، وصدّقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصالحة، فقال له: يا محمد، بشِّرْ هؤلاء أن لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار، خاصةً لهم وليست لَمن عاند وكفر.

والجنات: جمع جنة، والجنة: البستان، والمقصود بها هنا ما أعد الله لعباده مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمع ولا خطر على قلب بشرٍ مِن النعيم.

وهنا نقطة مهمة في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} هي وجوب اقتران الإيمان بالعمل الصالح حتى يكون إيمانا نافعا، فلا تجد آيةً في كتاب الله فيها تبشير للمؤمنين بالجنة إلا جعلت إيمانهم مقرونا بالعمل

---

(١) إن دراسة عادات القرآن –كما سماها الشيخ العلامة الطاهر بن عاشور في مقدمات تفسيره– هي ضرورة ملحة لفهم أسلوبية التعبير القرآني ومن ثَمَّ فهم اللغة القرآنية. وفي ضوء فهم الأسلوبية اللغوية القرآنية يستطيع المفسر والمتدبر لكتاب الله تعالى مقارنة المعاني والترجيح بينها بدلالة وقرينة اللغة القرآنية عينها. فتأمل ذلك فإنها قاعدة مهمة من قواعد التفسير.

(٢) نكتة بلاغية ذكرها القرطبي في تفسيره 1/228: أجمع العلماء على أن المكلف إذا قال: من بشرني من عبيدي بكذا فهو حر ، فبشره واحد من عبيده فأكثر فإن أولهم يكون حرا دون الثاني. واختلفوا إذا قال: من أخبرني من عبيدي بكذا فهو حر فهل يكون الثاني مثل الأول ، فقال أصحاب الشافعي: نعم ; لأن كل واحد منهم مخبر. وقال علماؤنا: لا ; لأن المكلف إنما قصد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأول ، وهذا معلوم عرفا فوجب صرف القول إليه. وفرق محمد بن الحسن بين قوله: أخبرني ، أو حدثني ، فقال: إذا قال الرجل أي غلام لي أخبرني بكذا ، أو أعلمني بكذا وكذا فهو حر – ولا نية له – فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يعتق ; لأن هذا خبر. وإن أخبره بعد ذلك غلام له عتق ; لأنه قال: أي غلام أخبرني فهو حر. ولو أخبروه كلهم عتقوا ، وإن كان عنى – حين حلف – بالخبر كلام مشافهة لم يعتق واحد منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر. قال: وإذا قال أي غلام لي حدثني ، فهذا على المشافهة لا يعتق واحد منهم.

(٣) وسُميت بشارةً لأنها تؤثر في بَشْرة الوجه لانفعال المرء بها. والمشهور عند أهل اللغة ألَّا تستعمل البشارة في الإخبار بالشر وما يسوء المرء إلا تهكماً وتبكيتا كما قال تعالى في الكافرين {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الانشقاق: ٢٤] .

ويتم توجيه معنى الكلام إلى التهكم هنا بدلالة مفهوم الخطاب، فالبشارة لا تكون إلا بخير ولكنَّ الخطاب للكافرين فصارت البشارة في حقهم بمعنى النذارة تهكماً وتبكيتاً. وهذه قاعدة أخرى في التفسير، وهي أن الخطاب وملابساته يكون موجها للمعنى وبعض العلماء يسميه القرينة الحالية " قرينة الحال" .

الصالح، وكأنه لا معنى للإيمان بدون العمل، وبذلك يكون هذا الاقتران دليلا على عدم انتفاع المؤمن ما لم يصحب إيمانه عملٌ، ويكون عملاً صالحا أي على مقتضى الشرع والسنة.

وعلى يكون بهذا المعنى وهذه الحقيقة الخروجُ من خلافٍ عقيم بين المشتغلين بعلم العقيدة في كون العمل من الإيمان، أو لا؟! وكون الإيمان لغةً يعني التصديق وهو يختلف عن الإيمان الشرعي الذي يشمل العمل عند أهل السنة، أو لا؟!

فإن القرآن العظيم لا يقر الجزاء الأخروي بالنعيم إلا لمن قرن إيمانَه عملُه الصالح، ولا عِبرةَ بعد ذلك للجدليات العقيمة التي ملأت بطون الكتب وشككت البعض في قيمة ومحل العمل من الإيمان؛ فضلا عن أنْ يدعي جاهلٌ أن الإيمان الذي يُدخِل صاحبه الجنةَ هو مجرد النطق أو الإقرار وفقط وإنْ صنع صاحبُهُ كل منكرٍ ، وخالف كلَّ أمرٍ أمَرَه اللهُ– تعالى– به، فبحق الله كيف يدعي مدعٍ أنه مؤمنٌ بالله وقد تجرأ فجعل أوامرَه أهونَ عليه من كل أمر؟!

وقوله تعالى: {تجري من تحتها الأنهار} أي ماء الأنهار، فنسب الجري إلى الأنهار توسعا (مجازا)، كما قال تعالى: {واسأل القرية} أي أهلها.

وإنما أراد جلَّ ثناؤه الخبرَ عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. ولذلك جاء التعبير {تجري من تحتها} بدلا من {تجري تحتها}.

{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}

{كلما رُزقوا منها}: يعني من الجنات، والهاء راجعةٌ على الجنات، وإنما المعنيّ أشجارها، فكأنه قال: كلما رُزقوا – من أشجار البساتين التي أعدّها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات في جناته – من ثمرة من ثمارها رزقًا قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل. وتأمل إيجاز التعبير القرآني وبلاغته البديعة.

قال القرطبي: ومعنى: {من قبل} يعني في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أنهم قالوا هذا الذي وعدنا به في الدنيا. والثاني: هذا الذي رزقنا في الدنيا ; لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك.

وقيل: من قبل يعني في الجنة لأنهم يُرزَقون ثم يُرزَقون، فإذا أُتُوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها في آخر النهار قالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قبل، يعني أُطْعِمنا في أول النهار ؛ لأن لونه يشبه ذلك، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول. (١)

قلتُ: وهذا المعنى والذي قبله حسن يلتئم مع عظمة نعيم الجنة، وكذلك مع قوله تعالى بعدها {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} والهاء في " به " عائدة على الرزق، فتأويله: وأتوا بالذي رُزقوا من ثمارها متشابهًا. قال بعضهم: تشابه أنّ كله حسنٌ لا رَذْلَ فيه. قال قتادة: وإن ثمار الدنيا يُنقَّى منها ويُرْذَل منها، وثمار الجنة حسنٌ كله، لا يُرْذَل منه شيء. وقال بعضهم: متشابها في اللَّوْن والمرْأى، وليس يُشبه الطعمَ. وعن ابن عباس قال: هذا على وجه التعجب، وليس في الدنيا شيء مما في الجنة سوى الأسماء، فكأنهم تعجبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها.

{وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ} أى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، {فيها} أي في الجنات. {أزواج} جمع زَوْج، وهي امرأة الرجل. يقالُ في فصيح اللغة: فلانة زَوْجُ فلان وزوجته. فالمرأة زوج الرجل، والرجل زوج المرأة؛ قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول زوجة.

وأما قوله:{مطهَّرة} فإن تأويله أنهن طُهِّرن من كل أذًى وقَذًى وريبةٍ، مما يكون في نساء أهل الدنيا، من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبُصاق والمنيّ، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والرِّيَب والمكاره، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: {إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً} (الواقعة: 35 – 37) أى خلقناهن خلقا جديدا يكن فيه على أحسن ما يكون متحببات لأزواجهن مُطَهَّراتٍ متساوياتٍ في السن لا يكبرن ولا يفارقن بكارتهن.

{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)} يعني: الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنات خالدون. وخلودهم فيها دوام بقائهم فيها أبداً على ما أعطاهم الله فيها من السرور والنعيم المقيم. (٢).

---

١ ورجح الطبري القول الأول أنهم كلما رزقوا من ثمارها رزقا قالوا: هذا كما رزق الدنيا وثمارها ؛ وإنما اشتبه عليهم ، لأن الله أجرى لهم ما يعرفون شكله ، ولكن طعم ثمار الجنة فوق الوصوف حلاوةً..

قال: وذلك لكون الكلام لا يستقيم أن يقولوا ذلك عن ثمار الجنة وتشابهها شكلا ولونا مرةً بعد مرةً في أول دخولهم فيها ولم يذوقوا من ثمارها شئ.. هكذا وجه الطبري رأيه وهو أيضاً حسن في باب النظر في وجوه الكلام.

قلتُ: ويؤيد ما ذهب إليه القرطبي ورود لفظة (كلما) التي تدل على تكرار هذه العملية وهذه المحاورة مراراً، فناسب أن ذلك في ثمر الجنة يتشابه شكلا مرةً بعد مرةٍ ويختلف في حلاوته وروعته.

٢ راجعت في تفسير هذه الآيات ابن جرير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 362– 369) ، وتفسير القرطبي ج1 ص 125–129، وتفسير الكشاف للزمخشري ج1 / ص95–104.

(فتأمل جلالة المُبَشِّر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة مَنْ أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بَشَّرَكَ به، وضَمِنَه لك، وجعله أسهل شيءٍ عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب، وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم انقطاعه) [١].

روى الإمام البغوي (في تفسيره) بالسند عن أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: "ألا هل من مُشَمِّرٍ للجنة، وإن الجنة لا خطر لها وهي ورب الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصرٌ مَشِيد ونهر مُطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَلٌ كثيرة ، ومقام أُبِدٍ في دار سليمة، وفاكهة خضِرة، وحَبْرة (أي سرور)، ونعمة في مَحِلَّةٍ عالية بهية" قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها. قال: "قولوا إن شاء الله" قال القوم: إن شاء الله.

ورُوِي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "أهل الجنة جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم"
.

وعن النعمان بن سعيد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لسوقا ليس فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها، إن فيها لمجتمع الحور العين ينادين، بصوت لم يسمع الخلائق مثله: نحن الخالدات فلا نبيد أبدا، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا، ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا، فطوبى لمن كان لنا وكنا له أو نحن له".

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلهم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا". انتهى مختصرا.

١ التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: 132)

مثلٌ في بـعوضة.

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)}.

المثل والإعجاز

إن الحديث هنا ليس– فقط– عن سطحية الجهلاء ومحاربتهم ما لا يعلمون، وإنما هو أيضاً عن تماديهم في الاستهزاء بمَن يعلم. بل جرأتهم العجيبة في التعليق على العلم المحيط الشامل لكل الخلق ما كان منه وما لم يكن، وجاء المَثَل هنا لتعريتهم، وإظهار سفاهتهم وضعفهم، إذ لا يستطيعون حرب العلم والعظمة إلا بالاستهزاء والسخرية. وهذه سِمة كل جاهلٍ جَهُولٍ في كل عصرٍ من العصور.

هنا تعجز الكلمات عن وصف أولئك الأغبياء الخاسرين الذين يستهزئون بكلام الخلاق العليم... إنهم يتندرون ويتضاحكون لما ضرب الله المثل بالذباب فيقولون: ما بالُ ربُّ محمد –ﷺ– يضرب الأمثال بالشيء الحقير. وليس – والله– في الخليقة أحقر منهم أخلاقا وأسفه منهم عقولا. [(١)]

---

(١) ذكر جمع من المفسرين عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثلة في الآيات السابقة (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ... أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ...)، وقالوا إن الله أسمى من أن يضرب مِثلَ هذه الأمثال، وبذلك راحوا يشككون في الرسالة وفي القرآن. وفي هذه الظروف نزلت الآية الكريمة المذكورة.

قال آخرون: عند نزول الآيات التي تضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون ويسخرون. ويأتي ذلك مفصلا بإذن الله.

وعن سبب نزول الآية (روى الواحديُّ في أسباب النزول، عن ابن عباس أن الله – تعالى – لما أنزل قوله – تعالى:

{إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ } وقوله – تعالى –: { مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً... الآية }؛ قال المشركون: أرأيتم أي شيءٍ يصنعُ بهذا؟! فأنزل الله تعالى: { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...الآية }.

ورُوى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل الله هذه الآية: {إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً...}. الآية.

وقال السُّدِّيُّ: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً...}، وقوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السماء...}؛ قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال! فأنزل الله هذه الآية.

ويبدوا أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة، فقد قرر العلماء أن لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات). راجع التفسير الوسيط لسيد طنطاوي ج١ص ٤٧. وراجع مفصلاً تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٣٩٩).

فيجيء القرآن العظيم ليضرب المثل بالبعوضة. وكي يكون المثل سامقا إلى أفق السماء، فإنه لا يتم فهمه فهما دقيقا إلا بعد أن تبلغ البشرية أعلى أطوارها في العلم والتقنية والتحليل وأدوات العلم لترى عظمة الخلق في البعوضة، فكيف– إذن– هي عظمة القرآن الذي ضرب المثل بالبعوضة؟ وكيف الحديث عن عظمة الرب الخلاق العليم الذين أنزل القرآن هاديا ومعجزةً لنبيه تبقى على مر الدهور خالدةً شامخة.

(ينتمي البعوض إلى رتبة الحشرات ذات الجناحين، التي تشتمل على أكثر من 3000 نوع من البعوض. وينقل البعوض العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان. حيث تقوم أنثى بعوضة (الأنوفيلس) دون الذكر بنقل مرض الملاريا للإنسان في مناطق كثيرة من العالم وخاصة في إفريقيا، وهو مرض خطير يسبب حمى وتكسر في الدم قاتل.

كما تقوم بعوضة (الكيولكس) بنقل العديد من الأمراض للإنسان مثل: الفيلاريا، وحمى غرب النيل، والتهاب الدماغ، كما تقوم بنقل مرض حمى الوادي المتصدع للحيوان ومنه للإنسان وأيضاً مرض اللسان الأزرق للحيوان. وتنقل بعوضة (الأيدس) مرض الحمى الصفراء خاصة في إفريقيا.

وتتضمن دورة حياة البعوض أربعة اطوار: البيضة، ثم اليرقة، ثم العذراء والحشرة الكاملة. تلعب الأنثى الدور الرئيسي في نقل المرض للإنسان والحيوان دون الذكر (ولعل هذا سر ذكر البعوضة بتاء التأنيث في هذه الآية). وتستطيع البعوضة الوصول لعوائلها من الإنسان والحيوان عن طريق شعيرات حسية دقيقة توجد على أرجلها ورأسها، وتستخدم تقنية عالية جدا في تخدير موضع الجلد الذي تلتصق به ثم شقه بلطف وغرس مجس لمص الدم منه عن طريق آلات متمكنة في جسمها غايةً في الصغر والدقة. وترتبط البعوضة مع كثير من الكائنات الأكبر أو الصغر منها بعلاقات متميزة أهلتها للتواجد على الأرض منذ اكثر من 150 مليون سنة.

وأما وجه الإعجاز في قوله تعالى: {بعوضة فما فوقها}: –

إذا أخذنا معنى كلمتي {فما فوقها} بأنه ما أدناها في الحجم أو ما أصغر منها، كما جاء في تفسير الطبري، فلقد وُجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات التي أصغر منها والتي تعيش داخل معدة البعوضة

أقول: احتمال الكل هاهنا قَائِمٌ لِأَنَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودَ كَانُوا مُتَوَافِقِينَ فِي إِيذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ مَضَى مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ذِكْرُ الْيَهُودِ، وَذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ، وَذِكْرُ الْمُشْرِكِينَ. وَكُلُّهُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وفي تفسير الفخر: قَالَ الْقَفَّالُ: وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَنْزِلَ ذَلِكَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ لِأَنَّ مَعْنَاهُ فِي نَفْسِهِ مُفِيدٌ. (تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢/ ٣٦١) أي لا يحتاج إلى سببٍ معين في النزول. والأصل أن الحكمة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

مثل: البكتريا، الفطريات الفيروسات والأوليات، وبعض الكائنات المجهرية الدقيقة جداً التي تعيش فوق سطحها (الحلم).

وُجد أن بعض هذه الكائنات مفيدة وضرورية لحياة البعوضة، وبعضها ضارٍ بها.

وتساعد البكتريا الموجودة في معي (مفرد أمعاء) البعوضة في تصنيع مضادات للفيروسات التي تهاجم البعوضة.

إن السبب في قدرة البعوضة على نقل الأمراض تكمن في سر {فما فوقها} أي ما أصغر منها من كائنات، وهي البكتريا التي تعيش في معدة البعوضة. إن هذه البكتريا تدافع عن البعوضة ضد المسببات المرضية المختلفة التي تدخل مع وجبة الدم التي تأخذها من إنسان أو حيوان مصاب بالمرض. تحاول البكتريا قتل المسببات المرضية، ولكن إذا نجحت تلك المسببات في القضاء على البكتريا المتعايشة مع البعوضة أو إضعافها، فإن تلك المسببات تتكاثر في العدد وتسبب الأمراض.

ولعل نتائج البحث قد كشفت عن بعض السر المعجز في التعبير القرآني {فما فوقها}. إن هذه الكائنات تحمى البعوضة. والشيء المعجز أنها تحمى الإنسان أيضاً عن طريق قتل المسببات المرضية التي تنتقل إليه إذا تغذت على البعوضة على دمه.

أما إذا أخذنا معنى {فما فوقها} على أنه فما فوق جسم البعوضة، فلقد وُجدت كائنات دقيقة أصغر من البعوضة تعيش فوق جسمها من الخارج، تفترس البعوضة وتقتلها مثل: الحلم والفطريات.

وإذا أخذنا معنى {فما فوقها} بأنه ما أكبر منها في الحجم، فإننا سنجد أن البعوضة ترتبط بعلاقات معقدة مع الكائنات الأكبر منها وخاصة الإنسان والحيوان. فلقد وُجد أن البعوضة تصيب الإنسان والحيوان بالعديد من الأمراض. ولكن كل المسببات المرضية التي تسبب هذه الأمراض تقع تحت التفسير الأول لمعنى {بعوضة فما فوقها} أى الكائنات الأصغر منها والتي سبق ذكرها. أيضاً نجد أن البعوضة ترتبط مع معظم أفراد المملكة الحيوانية بعلاقات كثيرة. مثل الاسماك، الزواحف، البرمائيات والثدييات. ولقد عبر القرآن الكريم عن كل تلك العلاقات سواء التي بين الكائنات الأكبر من البعوضة أو الكائنات الأصغر منها (المسببات المرضية) في تعبير معجز {بعوضة فما فوقها}. وفي نهاية هذا البحث لا أستطيع إلا أن أقف عاجزاً عن التعليق عن تأويل {فما فوقها} في الآية الكريمة، فهى تستطيع أن تحتوي أقوال كل المفسرين سواء

المخلوقات الأدنى منها في الحجم أو الأكبر أو الأعظم منها في الخلق، أو بمعنى المخلوقات التي فوق جسم البعوضة نفسها. انتهى. [١]

وهكذا يكشف لنا العلم الحديث لماذا ضرب الله تعالى المثل بالبعوضة فما فوقها. ويثبت لنا أن الأمر ليس بلاغةً عربيةً فحسب وإنما إعجاز سماوي يفوق الوصف يتجدد في كل زمان وحسب تقدم الإنسان في كل عصرٍ ليضع الحقيقة الأولى والأهم في الوجود أمام الجميع أنه " لا إله إلا الله " وإن القرآن كلامه ورسالته التي جاء بها رسوله محمد ﷺ لهداية البشرية الحائرة.

المناسبة بين الآيات.

بعد الحديث الوافي في الآيات قبلها عن هدايات القرآن وموقف طوائف الناس من الصراط المستقيم، وضرب الأمثال للمنافقين، والصيحة السماوية العامة لكل الناس بتنزيه أرواحهم عن أدناس الشرك واتباع نور التوحيد؛ ثم النذارة لمن أبى إلا الهلاك والبشارة لأهل النجاة والفوز. بعد هذا كله يجيء الحديث عن الأمثال التي يضربها الله تعالى في القرآن. وهذه الآيات تشي بأن المنافقين الذين ضَرب الله لهم الأمثال – وأيضاً اليهود والمشركون – قد اتخذوا من ورود هذه الأمثال في القرآن منفذا للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغيرٍ لهم وسخريةٍ منهم لا تصدر عن الله– سبحانه، وأن الله حُقَّ له ألّا يذكر مثل هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه وهداياته! وكان هذا طرفا من الحملة الإعلامية للتشكيك والبلبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة، كما كان يقوم بها المشركون في مكة. فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدسّ والكذب الرخيص، وبيانا لحكمة وعظمة الله في ضرب الأمثال وإعجازاتها السماوية الكثيرة، وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وتطمينا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانا إلى إيمانهم.

١راجع أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة تركيا 1432هـ – 2011م.. بحث للأستاذ الدكتور/ مصطفى إبراهيم حسن/ أستاذ علم الحشرات الطبية ومدير أبحاث ناقلات الأمراض كلية العلوم – جامعة الأزهر. وكذلك الموقع الالكتروني على الشبكة العنكبوتية http://www.eajaz.org/index.php/Encyclopedias/Research-Scientific-Miracles-Encyclopedia/Medicine-and-Life-Sciences/146-بعوضة-فما-فوقه

التفسير والمعاني.

({إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما، بعوضة فما فوقها}.

الله– سبحانه– ربُّ الصغيرِ والكبير، وخالق البعوضة والفيل. والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل. إنها معجزة الحياة. معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله. على أن العِبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير.

إن الكائنات كلها ـ صغيرها وكبيرها ـ صنعة الله، خلقها بحكمته، وأبدعها بقدرته. فهى في معرض ملكه سواء في الإعلان عن تلك الحكمة وهذه القدرة، ففي كل ذرةٍ من ذرات هذا الكون العظيم آيةٌ تحدِّث عن جلال الله وعظمته!

وليس في ضرب الأمثال ما يُعاب، وما من شأنه الاستحياء من ذكره. فللّه ـ سبحانه ـ أن يضرب المثل بأيٍّ من مخلوقاته، وأن يقيم منه شاهدا لما يريد.

جاء في تفسير الطبري:

عن الرّبيع بن أنس، في قوله تعالى: {إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضةً فما فوقها}. قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا، إن البعوضة تحيا ما جاعتْ، فإذا سمنت ماتتْ.

وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن: إذا امتلأوا من الدنيا رِيًّا أخذَهم الله عند ذلك. قال: ثم تلا {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (سورة الأنعام: ٤٤).

وعنه قال: مثل الْبَعُوضَة مثل صَاحب الدُّنْيَا؛ لِأَن دأب الْبَعُوضَة أَنَّهَا إِذا شبعت هَلَكت، وَإِذا جاعت عاشت؛ كَذَلِك صَاحب الدُّنْيَا إِذا استكثر من الدُّنْيَا هلك، وَإِذا تقلل مِنْهَا فَازَ وَنَجَا. انتهى باختصار [١]

والحق أنَّ هذا من باب التوسع في تدبر السلف للقرآن المجيد وليس من باب التفسير المباشر.

يقول الزمخشري ما ملخصه:

(سيقت هذه الآية لبيان أنَّ ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه؛ من أن تكون المحقّرات من الأشياء مضروباً بها المثل، وليس بموضع للاستنكار والاستغراب، من حيث أنّ التمثيل إنما

---

١ انظر جامع البيان ت شاكر (1/ 399)

يُصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء ما في الوهم من المشاهدة. فإن كان المُتمثَّل له عظيمًا كان المُتمثَّل به مثله في العظمة، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك حقيراً. فليس العِظَم والحقارة في المضروب به المثل إذاً؛ إلاَّ أمراً تستدعيه حال ما ضُرِب له المثل، ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلج، كيف جاء التمثيل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟ كما في قوله تعالى {مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً. الآيات}.

ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ولا حال أحقر منها وأقلّ، جعل الله تعالى بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن في قوله تعالى {كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً..}، وجُعِلَت أقلّ من الذباب وأخس قدراً، وضُرِبَ لها – مثلاً – البعوضة فالذي دونها مثلاً؛ فليس هناك إذن إلا مثل الحق الذي يؤمن به ذووا القلوب والألباب ويكفر به ذووا الكفر والجهل والهلاك، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين، وانهماك الفاسقين في غيّهم وضلالهم.

والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم تسير في حواضرهم وبواديهم قد تمثّلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد. وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة. وآكل من السوس. وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض.

ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالنخالة وحبة الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزنابير. والتمثيل بهذه الأشياء وأحقر منها مما تغني – عند مَن عنده قليل عقل – استقامته وصحته ووقوعه على مقامه بكل حكمة وبلاغة، ولكنه طبع المعاند الجاهل المبهوت الذي لا يبقى له تمسُّكٌ بدليلٍ ولا تشبثٌ بأمارة ولا إقناع يعول على المكابرة والمغالطة؛ إذا لم يجد سواها نصير كذبٍ وضلال.) انتهى [١]

والله – جلَّت حكمته – يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس، فأما الذين آمنوا، فيجدون في هذا المثل هدىً إلى هدىً، ونوراً إلى نورٍ، فيرون كل ما يصدر عن الله سبحانه يليق بجلاله؛ إنهم يزدادون إيماناً إذا جاءهم ما يفهمون، فإذا جاءهم ما لا يعلمون لم يزدهم إلا تسليما؛ لأنهم يؤمنون بالحكمة الإلهية في كل الأمور، ويلخص ذلك كله قول الصديق أبي بكر لما قالوا له تشكيكا: (إن صاحبك يزعم أنه أُسري به في ليلةٍ ونحن نضرب إليها بطون الإبل شهرا ذهابا وشهرا إيابا) فقال: " إن كان قال ذلك فقد صدق" [٢] .

---

١ – تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 111)

(٢) تثبيت دلائل النبوة القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي (المتوفى: ٤١٥هـ) (١/ ٤٧).

فالعِبرة عند أبي بكر فقط في إثبات القول أو الفعل لله– سبحانه– ورسوله، فإذا ثبت فالمضي على صراط الطاعة والتسليم، ولذلك كان أول الصديقين رضي الله عنه. (١)

وأما الذين كفروا فلا تزيدهم الأمثال الكاشفة إلا ضلالاً إلى ضلالٍ، وعمىً إلى عمى.

{فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلا}؛ وكما في سورة المدثر – من قول الله: { وليقولَ الذينَ في قلوبهِمْ مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أرَاد الله بهذا مثلا. كذلك يُضلّ اللهُ مَن يشاءُ ويهدي من يشاء}. وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلة بسُنَّة الله وتدبيره. ثم هو سؤال مَنْ لا يرجو لله وقارا، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد الفقير أمام تصرفات الرب القدير. يقولونها في جهلٍ وقصورٍ في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله تعالى!

هنا يجيئهم الجواب بما وراء المثل من تقديرٍ وتدبير فكلام الله تعالى والأمثال في القرآن ليست في ذاتها محل القبول والرفض وإنما هي حسب أجهزة الاستقبال ونقاوة الفطرة في تلقي هدايات الله تعالى، ف{يضل به كثيرا، ويهدي به كثيرا، وما يضل به إلا الفاسقين}.

يتلقاها عباده، كل وِفق طبيعته واستعداده، وكل حسب طريقه ومنهجه الذي اتخذه لنفسه. والابتلاء واحد. ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق.

الشدة تُسلَّط على شتى النفوس، فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتزيده الشدة التجاءً إلى الله وتضرعا وخشية. وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعدا، وتخرجه من الصف إخراجا.

والرخاء يُسلَّط على شتى النفوس، فأما المؤمن التقي فيزيده الرخاء يقظةً وحساسيةً وشكرا. وأما الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ويضله الابتلاء كما قال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء: ٣٥). وهكذا الأمثال يضربها الله للناس {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (العنكبوت: ٤٣)، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الحشر: ٢١).

---

(١) إن ديدن الكافرين والمنافقين الاعتراض على حكم الله، وعلى حكمة الله؛ لقوله تعالى: {وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا}؛ وكل من اعترض ولو على جزء من الشـريعة ففيه شـبه بالكفار؛ لأن هذا اعتراض عل حكم الله عزّ وجلّ؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عزّ وجلّ. إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

{وما يضل به إلا الفاسقين} فالله لا يضل مَن كان حريصا على الهداية، ولا يهلك من سلك مخلصا طريق النجاة، إنما يضل الله تعالى الذي فسقوا؛ أي خرجوا على طريق الحق بالقصد والفعل، ببساطة إنهم أصلا فسقين ولذلك أضلهم الله سبحانه {وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيد}.

ثم يفصِّل السياق صفات الفاسقين، كما فصَّل في أول السورة صفات المتقين؛ فالمجال ما يزال – في السورة – هو مجال الحديث عن المنهج الإسلامي وتلقيه وتقسيم دقيق للطوائف بالنسبة لذلك المنهج الحق، تلك الطوائف التي تمثل فيها البشرية في شتى العصور.

فتأتي الإجابة على السؤال: مَن هم هؤلاء الفاسقين؟

هم {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض. أولئك هم الخاسرون}. فأي عهدٍ من عهود الله هو الذي ينقضون؟ وأي أمرٍ مما أمر الله به أن يُوصَل هو الذي يقطعون؟ وأي لونٍ من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون؟

إنهم ينقضون كل عهود الحق، ويقطعون كل ما أمر الله بوصله، ويفسدون كل أنواع الإفساد. [١]

(لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال لأن المجال مجال تشخيص طبيعةٍ، وتصوير نماذجٍ، لا مجال تسجيل حادثةٍ بعينها ، أو تفصيل واقعةٍ محدَّدة. وكي يشمل كل صنوف الفسق على مَرّ العصور.

إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها. إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة، وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهدٍ ولا تستمسك بعروةٍ ولا تتورع عن فساد.

إنهم كالثمرة الفجة التي انفصلت من شجرة الحياة، فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة.

---

١ جاء في بحر العلوم: وصف الله تعالى الفاسقين الذين يشككون في حكمة آيات الله بسبب عماهم؛ فقال تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ}، أي يتركون أمر الله ووصيته من بعد ميثاقه، أي من بعد تغليظه وتأكيده، وذلك أن الله تعالى أمر موسى في التوراة بأن يأمر قومه ليقروا بمحمد– صلى الله عليه وسلم– ويصدقوه إذا خرج. وكان موسى عليه السلام عاهدهم على ذلك، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كذَّبوه ولم يصدِّقوه ونقضوا العهد. ويقال: إنه أراد به العهد الذي أخذه من بني آدم من ظهورهم، حيث قال تعالى: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى} (الأعراف: 172) فنقضوا ذلك العهد والميثاق. ويقال: الميثاق الذي يعرف كل واحد ربه إذا تفكر في نفسه، فكان ذلك بمنزلة أخذ الميثاق عليه، وجميع ما في القرآن من ذكر الميثاق فهو على هذه الأوجه الثلاثة.

وقوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}، عن ابن عباس قال: إنهم أمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء فآمنوا ببعضهم ولم يؤمنوا ببعضهم، فهذا معنى قوله: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}. ويقال: أمروا بصلة القرابات فقطعوا الأرحام فيما بينهم.

وقوله تعالى: {وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}، لأنهم يكفرون ويأمرون غيرهم بالكفر، فذلك فسادهم في الأرض { أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ} أي المغبونون في العقوبة، كما قال في آية أخرى {قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ} (الزمر: 15). انتهى بتصرف يسير من تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 38)

ونظر في الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر الذي كانت الدعوة تواجهه في المدينة في صورة اليهود والمنافقين والمشركين ; والذي ظلت تواجهه وما تزال تواجهه اليوم في الأرض مع اختلافٍ سطحي في الأسماء والعناوين!). [١]

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى. مع تصرف.

ومن نـكت المعاني ودقيقها.

- {إن الله لا يستحيي}

ذكر ابن جرير كلام بعض اهل اللغة أن معناه: إن الله لا يخشى أن يضرب مثلا ويستشهدُ على ذلك من قوله بقول الله تعالى: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} (سورة الأحزاب: ٣٧)، ويزعم أن معنى ذلك: وتستحيي الناسَ والله أحقُّ أن تستحيه – فيقول: الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء. [١]

وكأن الطبري لم يستسيغ هذا التأويل.

وقيل معناه: أي أن الله تعالى لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها. ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل [٢].

وهو أليق بالمقصود عندي، والله أعلم.

والحياء إذا ذُكِر صفةً لمخلوق فمعناه تَغَيَّرَ وانكسارٌ يعتري الإنسانَ من خوفِ ما يُعَابُ بِهِ ويُذَم، واستعماله هُنَا في حَقِّ الله – تعالى– مَجَازٌ عن التَّرْكِ والامتناع؛ لأن من يستحيي من شيءٍ يترك فعله فكان التعبير والتأويل – في هذا الموضع وأمثاله – بلازم الحياء وثمرته وهو الامتناع، (قال القاضي البيضاوي: وإنما عدل به عن الترك، لما فيه من التمثيل والمبالغة. انتهى)، وفي «صحيح مسلم» عن أم سلمة قالت: «جاءت أم سليم إلى النَّبِيّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله إنَّ اللهَ لا يَسْتَحي من الحَقِّ» المعنى لا يأمر بالحَيَاء فيه، ولا يمتنع من ذكره.

قال فخر الدين الرازي جريا على مذهب الأشاعرة:

(وَهُوَ الْقَانُونُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ ثَبَتَتْ لِلْعَبْدِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْأَجْسَامِ فَإِذَا وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فَذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى نِهَايَاتِ الْأَعْرَاضِ لَا عَلَى بِدَايَاتِ الْأَعْرَاضِ مِثَالُهُ أَنَّ الْحَيَاءَ حَالَةٌ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ لَكِنَّ لَهَا مَبْدَأً وَمُنْتَهًى، أَمَّا الْمَبْدَأُ فَهُوَ التَّغَيُّرُ الْجُسْمَانِيُّ الَّذِي يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْقَبِيحِ، وَأَمَّا النِّهَايَةُ فَهُوَ أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ الْفِعْلَ، فَإِذَا وَرَدَ الْحَيَاءُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ ذَلِكَ الْخَوْفُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ الْحَيَاءِ وَمُقَدَّمَتُهُ، بَلْ تَرْكُ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَاهُ وَغَايَتُهُ، وَكَذَلِكَ الْغَضَبُ لَهُ، عَلَامَةٌ وَمُقَدَّمَةٌ وَهِيَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، وَشَهْوَةُ الِانْتِقَامِ وَلَهُ غَايَةٌ وَهُوَ إِنْزَالُ الْعِقَابِ بِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، فَإِذَا

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٤٠٢)

٢تفسير البغوي – إحياء التراث (١/ ١٠٠)، تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 36-38).

وَصَفْنَا اللَّهَ تَعَالَى بِالْغَضَبِ فَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ الْمَبْدَأَ أَعْنِي شَهْوَةَ الِانْتِقَامِ وَغَلَيَانَ دَمِ الْقَلْبِ، بَلِ الْمُرَادُ تِلْكَ النِّهَايَةُ وَهُوَ إِنْزَالُ الْعِقَابِ، فَهَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْكُلِّيُّ فِي هَذَا الْبَابِ. ». انتهى [١].

وهذا كلامٌ مرجوحٌ يجعل من كلمات الحق التي جاءت في كتاب الله مجازات ولا حقيقةَ لها، وما يصلح أن يقوله هؤلاء المتأولين في بعضها يفتح الباب للزنادقة فيقولونه في كلها. وفيه جرأةٌ على الله تعالى بغير علمٍ، ونفيٌ مُقنَّعٌ لما وصف الله تعالى به نفسه. وكما قال أحد الباحثين في الفلسفة الإسلامية: إن الأشاعرة أرادوا أن يوفِّقوا بين المعتزلة وأهل الحديث والسنة فلفَّقوا.

فقد جعل الزمخشريُّ (الاستحياء) هنا من باب المُقَابلةِ، يعني كأنَّ الكُفَّارَ لَمَّا قالوا: أَمَا يَسْتَحي رَبُّ محمد أن يضرب المثَلَ بالمُحْقَّرَات، « قُوبِلَ » قولهم ذلك بقوله تعالى: { إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً}؛ كما قال تعالى: { ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} فكان المكر من الله مجازا لا حقيقةً في مقابل مكرهم من باب المشاكلة والمشابهة اللفظية مع الاختلاف في المعنى المراد؛ فهم يمكرون؛ والله تعالى يرد مكرهم عليهم إلى نحورهم؛ سمى كلاهما مكراً من باب (المشاكلة) عند علماء البلاغة. إلخ كلامه [٢]..

. أقول: وعلى الرغم من تمكن الزمخشري في استنباط اللمحات البلاغية واللغوية الممتعة في القرآن؛ إلا أن تفسيره امتلأ بمفاهيم المعتزلة التي يصوغها بطريقةٍ خفيةٍ لا تكاد تقدر خطرها، حتى قال فيها البُلْقَيْني– رحمه الله: استخرجتُ من كشافه اعتزاليات بالمناقيش (لخفائها)، فوجب الحذر من ذلك، أو قراءته مع حواشي العلماء المدركين لخطره كابن المنير السكندري وحاشيته "الانتصاف" على الكشاف، مع اتقان عقيدة السلف الصالح...

ومنهج السلف في إمرار مثل هذه الصفات المتشابهة كما جاءت بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف؛ وهو الحق الذي لا محيد عنه وإلا لانجر ذلك بنا إلى التأويل المذموم الذي يفتح أبوابا لا تنسد وتفسد علينا الدين..

وهذه عقيدة أهل الحديث نثبت لله صفاته على الوجه الذي يليق به سبحانه، ونفوض الكيفية فلا يعلمه إلا الله تعالى، مع وضح المعنى اللغوي المُساق لأجله الكلام، ولا يعني هذا حملها على الظاهر، وإنما إدراك مساق الكلام على الإجمال، وهذا في سائر صفاته كالغضب والفرح والاستحياء وغيره [٣].

---

١ من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (2/ 361).

٢ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 112).

٣ راجع العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وشروحها. أقول: وعلى الرغم من عبقرية الزمخشري في استنباط اللمحات البلاغية واللغوية الممتعة في القرآن؛ إلا أن تفسيره امتلأ بمفاهيم المعتزلة ، فوجب الحذر من ذلك ، أو قراءته مع حواشي العلماء المدركين لخطره كإبن المنير السكندري وحاشيته الانتصاف على الكشاف جزاه الله خيرا...

يقول الأستاذ محمد عبده كما نقل عنه في "تفسير المنار": أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله – تعالى – منزه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلي والبرهان النقلي على هذه العقيدة، فكانت هي الأصل المُحكَم في الاعتقاد الذي يجب أن يُرَد إليه غيره وهو التنزيه، فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافي ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان:

(إحداهما) طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله – تعالى –: { ليس كمثله شيء } ، وقوله – عز وجل –: { سبحان ربك رب العزة عما يصفون } وتفويض الأمر إلى الله – تعالى – في فهم حقيقة ذلك، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا، ويأتينا في ذلك بما يقرِّب المعاني من عقولنا ويصورها لمخيلاتنا.

(والثانية) طريقة الخلف وهي التأويل، يقولون: إن قواعد الدين الإسلامي وُضِعَت على أساس العقل، فلا يخرج شيء منها عن المعقول، فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل.

(قال الأستاذ بعد ذلك): وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله – تعالى – وصفاته وعالم الغيب، وأننا نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين؛ لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها؛ لأن الله – عز وجل – لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى.

(يقول العلامة رشيد رضا معلقاً): وينبغي أن تعلم أيها القارئ المؤمن: أن من الخير لك أن تطمئن قلبا بمذهب السلف ولا تحفل بغيره، فإن لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعد الظواهر كما فعل الإمام أحمد وغيره في آيات المعية، وآخرون في غيرها، والذي عليك – قبل كل شيء – أن توقن بأن كلام الله كله حقٌ، وألا تؤوِّل شيئا منه بسوء القصد، وكذا ما صح عن رسوله – ﷺ – من أمر الدين بغير شبهة. والتفسير الموافق للغة العرب لا يسمى تأويلا وإنما يجب معه تنزيه الخالق وعدم تشبيه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه. انتهى [١]

وإنما أطلنا النفس في هذا الموضع كي نفهم منهج تناول أهل العلم بالتفسير لهذه القضايا فيكون إشارةً لما يأتي على نمطه، والله الهادي إلى الصواب.

---

١ [تفسير المنار ص: 212]

****

- في قوله تعالى: {مثلاً ما بعوضةً}.

لبعض المفسرين في حروف القرآن رأيٌ تكذِّبه بلاغة القرآن وفصاحة كلام الله– تعالى– ودقة أدائه لمعانيه.
يرون أن بعض هذه الحروف زيادة لتأكيد المعنى ويقولون عنها تأدباً (صلةٌ للكلام) وهذا ما سنرده بعون الله على مدى تدبرنا لكتاب الله تعالى.

فههنا نرى معنى {ما} في قوله تعالى {يضرب مثلاً ما بعوضة}. وفيها أقوال نلخصها:

الأول: انها صلة الكلام (= زائدة)، وهو كما سنبين لا يتفق مع إعجاز القرآن وبلاغته. ويكون معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضربَ بعوضةً مثلا فما فوقها. [١]؛ وهي– عندهم– ك{ما} كالتي في قوله: {فبما نقضهم ميثاقهم} (النساء: 155) بمعنى: (فبنقضهم ميثاقهم).

القول الثاني: أن تكون "ما" بمعنى "الذي" الموصولة، كأن معنى الكلام: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً الذي هو بعوضةً في الصغر والقِلة فما فوقها. فحذف صدر الجملة (هو) كما حذف في قوله تعالى: {تَمَامًا عَلَى الذي أَحْسَنَ} (الأنعام: 154) (أى تماما على الذي هو أحسن)..[٢]

القول الثالث: ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف: أن تكون {ما} هذه إبهامية = للإبهام؛ وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته عموماً في المعنى، كقولك: أعطني كتاباً مّا، تريد: أعطني أيّ كتاب كان.

القول الرابع: فأن تجعل المعنى بتقدير: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى ما فوقها. قال الطبري: ثم حذف ذكر "بين" و"إلى"، إذ كان في نصب البعوضة ودخول الفاء في "ما" الثانية، دلالة عليهما، كما قالت العرب: "له عشرون ما ناقةً فجملا". وكذلك يقولون في كل ما فيه حسنٌ وبلاغة من الكلام [٣].

أقول: ولا يخفى تكلف هذا الرأي، وليِّه عنق المعنى واللفظ ليوافقه.

القول الخامس: قاله الزمخشري من باب تتبع فقه لغة العرب يقول: ووجه آخر حسن جميل، وهو أن تكون (ما) التي فيها معنى الاستفهام، لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال: إنّ الله لا يستحيي أن

---

١ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 405)

٢ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 404) وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 113)

٣ وانظر معاني القرآن للفراء (1/ 22)

يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقّرة مثلاً، بله البعوضة فما فوقها، كأنه يقال: لا يستحيي ان يضرب مثلا بأي شيء فما بال البعوضة ليستحيي من ضرب المثل بها.

قلتُ: وهو كلام متكلفٌ أيضا كما لا يخفى. والأقرب هو ان تكون "ما" المُبهمة التي تحمل معنى إضافي يقتضيه سياق الكلام وتقلبه في معاني الخطاب.

ولنتأمل النظم القرآني، فإن الكلام لا يستقيم بغيرها وتهوي فصاحته وتهن بلاغته من دونها، كأنه قيل لك عن الفرق بين قولك: لا يستحي ان يضرب مثلاً بعوضةً، وبين قولك: لا يستحيي أن يضرب مثلاً حقاً أو مثلا عظيما بعوضةً. ولا يشك متأملٌ أن الثاني أبلغ، وهو ما أضافته "ما" للآية.

ف {ما} في هذه الآية ليست زائدةً بحال. ومثلها في قوله تعالى: {فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم} (أى فبرحمةٍ عظيمةٍ من الله لنت لهم)، وفي الآية التي ضربوها مثالاً {فبما نقضهم ميثاقهم} يمكن ان يقال فبنقضهم – وهو عظيم في الجُرْم– ميثاقهم؛ فأفادت (ما) هنا ما لم يفيده الكلام بدونها.

وهكذا نعلم ما في لفظة {ما} هنا من البلاغة والدقة في التعبير ما لا يدركه إلا من عرف لغة العرب وبلاغتها وعظمة لغة القرآن وتصرفاتها، وحفظها لأصول اللغة وفصاحتها وبيانها. اللهم زدنا فهما في كلامك وتدبرا لكتابك.

****

- قوله تعالى: {فَمَا فَوْقَهَا}.

وأما تأويل قوله "فما فوقها": معناه فما هو أعظم منها. وهذا على تأويل الإمام بن جرير الطبري وجماعة من المفسرين يقول: لما ذكرنا قبل من قول قتادة وابن جُريج: أن البعوضة أضعف خلق الله، فإذْ كانت أضعف خلق الله فهي نهايةٌ في القلة والضعف. وإذ كانت كذلك، فلا شك أن ما فوق أضعف الأشياء، لا يكون إلا أقوى منه. فقد يجب أن يكون المعنى –على ما قالاه– فما فوقها في العظم والكبر، إذ كانت البعوضة نهايةً في الضعف والقلة.

وقيل في تأويل قوله "فما فوقها": أي في الصغر والقلة. كما يُقال في الرجل يذكرُه الذاكرُ فيصفه باللؤم والشحّ، فيقول السامع: "نعم، وفوقَ ذاك"، يعني فوقَ الذي وصف في الشحّ واللؤم. قال ابن جرير: وهذا قولٌ خلافُ تأويل أهل العلم الذين تُرْتَضى معرفتهم بتأويل القرآن. [1]

---

(١)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٤٠٥) قلتُ: وقد اقترحه الفراء في (معاني القرآن) وقال: يجوز، ولكني لا أستحبه.

- ويقول "الزمخشري" تأويل قوله تعالى: "فما فوقها" فيه معنيان:

أحدهما: فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضُرِبت فيه مثلاً، وهو القلّة والحقارة، نحو قولك لمن يقول: فلان أسفل الناس وأنذلهم؛ هو فوق ذاك، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والنذالة.

والمعنى الثاني: فما زاد عليها في الحجم، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك وقد ذمّ مَن تعرفه؛ يبخل بأدنى شيء فقال: فلان بخل بالدرهم والدرهمين، فتقول: هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه؛ تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان كأنك قلت: فضلاً عن الدرهم والدرهمين.

ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم عن الأسود قال:(دخل شباب من قريش على عائشة رضي الله عنها وهي بمِنَى وهم يضحكون. فقالت: ما يضحككم؟ قالوا: فلان سقط على طُنُب فُسْطاط (= وتد خيمة) فكادت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت: لا تضحكوا. إني سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلمٍ يُشاك شوكةً فما فوقها إلا كُتِبت له بها درجةٌ ومُحِيَت بها عنه خطيئةٌ» يُحتَمل فما عدا الشوكة وتجاوزها في القلة وهي نحو نُخْبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام: " ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة " وهي عضتها. ويحتمل ما هو أشد من الشوكة وأوجع كالسقوط على طنب الفسطاط.

فإن قلتَ: كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟

قلتُ: ليس كذلك، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات، وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلاً للدنيا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» (رواه الترمذي وصححه وهو كما قال) [(١)]، وأنشدتُ لبعضهم:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَها.. في ظُلْمَة اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ

وَيَرَى عُرُوقَ نِيَاطِها في نَحرِها.. والمُخَّ في تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ

اغْفِرْ لِعَبْدٍ تابَ مِنْ فَرَطاتِه.. ما كانَ مِنْهُ في الزَّمانِ الاوَّلِ). انتهى [(٢)]

---

(١) وروى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، {فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥].

٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 113-114) بتصرف يسير.

قلتُ- متأمله: وتأويل الزمخشري أليق بمفاتيح البلاغة، ويؤيده لغة الحديث الشريف وهي أفصح الأساليب بعد القرآن العظيم، وكثيرا ما تكون مفتاحا لفهمه. وهذه قاعدةٌ مهمة في تدبر وتفسير كتاب الله تعالى.

****

- في قوله تعالى: {فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم}

قال الشيخ العثيمين رحمه الله: فيه إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: { من ربهم }؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: {قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون} (الأعراف: ١٢١، ١٢٢). {إنْ كلُّ مَن في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً} (مريم: ٩٣)؛ وخاصة كما في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} (الفرقان: ١)؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة، والخاصة.انتهى.

****

- في قوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}، قال المعتزلة [(١)]: معنى قوله {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}، أي يسميه ضالاً، كما يقال: فسّقت فلاناً، أي سميته فاسقاً، لأن الله تعالى لا يضل به أحداً، وهذه عقيدة المعتزلة في نفي

---

(١) المعتزلة فرقةٌ من فرق المسلمين غالت في اعتماد العقل أصلا في فهم العقائد، وساعدهم في ذلك نزعة كثير منهم إلى دراسة المنطق الارسطي وفلسفة اليونان، و بحسب دراسة بعنوان "المعتزلة" للدكتور مصطفى حلمي، تكاد تجمع المصادر التاريخية وكتب الفرق على أن نشأة مذهب الاعتزال ترجع إلى اختلاف واصل بن عطاء مع شيخه الحسن البصرى (١١٠هـ) في الحكم على مرتكب الكبيرة، وأنه ليس بمؤمن ولا كافر بل هو (فاسق) في منزلة بين المنزلتين ويخلد في النار، حيث قال الحسن البصرى تعليقًا على انفصال ابن عطاء عن حلقته "اعتزل عنا واصل"، وهنا بحسب هذا القول جاء اسم المعتزلة. وابتلوا الناس بعقائدهم وعذبوهم كي يعتنقوها بقوة السلطان (في عهد المأمون والمعتصم في الدولة العباسية) فضلُّوا وأضلوا.

ومن أسمائها: القدرية (لنفيها سلطة القدر او لإثباتها التحكم في القدر للبشر)، والعدلية (يمتدحون أنفسهم لقولهم بنظرية العدل الإلهي ونفي سلطة القدر)، والوعيدية. وإن المعتزلة بفرقها المتعددة تجمع على أمور يسمونها الأصول الخمسة.

وهي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين وإنفاذ الوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعندهم ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة.

أقول: وكذلك لا أحد يستحق اسم الخوارج حتى يجمع القول بأصولهم فيكون مفترقا كليا عن سبيل المؤمنين، فتأمل.

أولها (التوحيد) ويقصدون به تنزيه الرب تعالى عن صفات المخلوقين يرون أنَّ الله عالمٌ بلا علم وإنما هي صفة ذاتها وتساوي في المعنى قادر، ولكن بلا قدرة، لأن العلم والقدر يتعلق بالمخلوق... وهكذا حتى نفوا عنه كل الصفات كلها عن الله وأوَّلوها إلى معاني المجازات واختلفوا حتى- في تأويلهم حسب عقولهم.

القدر وحكمه في حياة البشر، وهو خلاف جميع أقاويل المفسرين، وهو غير مستعمل في اللغة أيضاً، فهو تدليسٌ بغيض، لأنه يقال: ضلَّله إذا سمَّاه ضالاً ولا يُقال: أضله إذا سماه ضالاً. والآية جاءت بصيغة {يضل} من أضَلَّ.

- ولكن معنى قوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}، ما ذكره المفسرون أنه يخذُل به كثيراً من الناس مجازاةً لكفرهم. وهو مثل قوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (الصف: ٥)

****

- ثم قال تعالى: {وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ} أي وما يهلك به وأصل الضلالة الهلاك؛ ففي اللغة يقال: ضلّ الماء في اللبن إذا صار ذاب فيه وهلك. والمعنى: وما يُهلَك بمثل هذا المثل، وما يُخذَل به، إلا الفاسقين. [١].

قال أبو جعفر: وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت الرُّطَبة إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُمّيت الفأرةُ فُوَيْسِقة، لخروجها عن جُحرها، فكذلك المنافق والكافر سُمّيا فاسقيْن،

وثانيها (العدل) ويقصدون به نفي القدر أن يكون سببا في شقاء أحد أو سعادته، بل هو عمل الإنسان لا غير، وكان الإنسان خالق قدره وفعله كي يكون حساب الله له عليه عدلا بزعمهم...

والثالثة (الوعيد)، فقالوا: إذا أوعد الله بعض عبيده وعيدا فلا يجوز أن يغفر لهم ويخلف وعيده، لأنه لا يخلف الميعاد، وبذلك جعلوا صاحب الكبيرة مخلدا في النار مثل اعتقاد الخوارج إلا أن الخوارج كفروا صاحب الكبيرة ابتداءً!

والرابعة (المنزلة بين المنزلتين)، فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، ولكنه يخلد في الجحيم!

والخامسة في أصولهم (الأمر بالمعروف)، فهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به، وأن نلزمه بما يلزمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا!

وقد رد عليهم أهل السنة والجماعة بالحق في كل ذلك وأفردوا المصنفات وعقدوا المناظرات لرد شبههم. إلا أنَّ الخلفاء في صدر الدولة العباسية بدءا من المأمون قد اعتنقوا عقيدتهم وقتلوا جمعا من العلماء السنة في سبيل نشر مذهبهم المبتدع، وقد ضُرب فيها الإمام أحمد بن حنبل وسُجن في واقعةٍ مشهورةٍ في التاريخ الإسلامي لينتصر وينتشر مذهب أهل السنة ويضمحل مذهبهم اضمحلالا شديدا إلى أن نبت زرعٌ شيطاني في العصر الحديث يستخدم شبهاتهم القديمة –المردودة عليهم بأبلغ رد– في قصف أهل السنة ومنهجها بالفكر العلماني والالحادي – أو على أقل تقدير – المُشوَّش الضال.

والمعتزلة على ضلالهم فقد كانت لهم حسنات سجلها التاريخ في مواجهة الزنادقة والملاحدة بذكاء عقولهم، وهم على أي تقدير أحسن وادين لله من العقلانيين والمنتقدين للتراث في عصرنا الحالي. فلله وحده الشكوى وإليه المصير....

١ تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 37-38)

لخروجهما عن طاعة ربهما. ولذلك قال جل ذكره في صفة إبليس: {إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (سورة الكهف: ٥٠)، يعني به خرج عن طاعته واتباع أمره. انتهى [١]

والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب كبائر ما نهاه الله عنه.

قال الإمام البيضاوي: وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبحاً إياها (قلتُ: وهذا عاصٍ يُرجى له التوبة، وإن دخل النار بمعصيته نرجو الله له الخروج منها أو يعفو الله تعالى عنه بكرمه علمه).

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها (قلتُ: وهذا الفاسق الذي قارب الكفر وهو على خطر عدم التوفيق للتوبة، وهو إلى حيز الوعيد أقرب منه إلى العفو الإلهي لاستهانته بأمر الله تعالى).

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها (ومستحلا لها)، فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربقة الإيمان من عنقه، ولابس الكفر (فهو كافرٌ خارج من الملة باستحلال الكبائر والعياذ بالله).

والمعتزلة لما قالوا: الإيمان: عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل، والكفر تكذيب الحق وجحوده. جعلوه قسماً ثالثاً نازلاً بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام. [٢]

وحين النظر إلى العدول عن وصفهم في هذه الآية بالكافرين، والتعبير عنهم بالفاسقين.

فقد كان المتوقع أن يكون الجواب هكذا: «وما يضلّ به إلّا الكافرين». ولكن لكلام الله حساب غير هذا الحساب، وتقدير فوق هذا التقدير، فجاءت فاصلة الآية هكذا: {وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ}. والفسق معناه في اللغة: الخروج، يقال: فسق وانفسق الرّطب عن قشره: أي خرج. والكافر فاسق وكذلك المنافق والمشرك، لأنه خرج عن طريق الهدى والإيمان، وركب طريق الضّلال والكفر، وإنه من الدقة الراقية في الأداء القرآني هذا الوصف بأنهم فاسقين. خصوصا في مثل هذا الموضع الذي يتعانق فيه المعنى اللغوي والشرعي للكلمة؛ وقد روعى فيها قصد الكافرين، والمشركين، وكذلك المنافقين المرتابين في كتاب الله تعالى. فكان المقصود هنا هو المعنى للفسوق وهو من دقة أداء اللغة القرآنية. [٣]

---

(١)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٤٠٩)

٢ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 64) بتصرف وشرح.

(٣)كما قال أبو جعفر الطبري: وقوله "وأما الذين كفرُوا"، يعني الذين جحدوا آيات الله، وأنكرُوا ما عرفوا، وســتروا ما علموا أنه حق، وذلك صفةُ المنافقين، وإياهم عَنَى الله جلّ وعز – ومن كان من نظرائهم وشركائهم من المشركين من أهل الكتاب وغيرهم – بهذه الآية.

قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا} إن قلت: لم وُصف المهديون بالكثرة وهم القلة في هذه الدنيا، {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور} (سبأ: 13)، { وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } (ص: 24).

وقوله –ﷺ–: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة» (متفق عليه)

قلتُ: أهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال. وأيضاً فإنّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة وإن قلّوا في الصورة، فسمّوا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً؛ وهذا كما قال الشاعر: إنَّ الكِرَام كثيرٌ في البِلادِ وإنْ.. قَلُّوا، كَمَ غَيْرُهُمْ قَلٌّ وإنّ كَثُروا). انتهى [١]

قلتُ: والأولى منه في الجواب أنّ يكون هذا التعبير مراعاةً لمبدأ تكافأ الفرص بين استقبل القرآن فتدبرها وعظّمه ليهتدي به، وبين مَن استقبله ليبحث فيه عما يضله ويبلبل عقله.

الإيمان بين أهل السنة والمبتدعة.

أجمع علماء السنة والجماعة أن الإيمان اعتقادٌ وتصديقٌ وإقرارٌ بالقلب؛ وقولٌ باللسان؛ وعملٌ بالقلب والجوارح.

ومن هنا كان أصل الايمان عند اهل السنة والجماعة هو اعتقاد القلب وتصديق العمل لهذا الاعتقاد. فإذا ما ترك مسلمٌ العمل بالكلية واعتقد عدم قيمته خرج من الايمان بالكلية حتى يتوب ويعمل، لأن ترك العمل (بالكلية) مضادٌ لفكرة التصديق ومكذِّبٌ لها بالأساس.

وإن اعتقد بقلبه أن العمل من الدين وعصى بجوارحه وفعل الذنوب والكبائر. فالذنوب في حاله نوعان: نوع من الذنوب المُكفِّرة تقدح في أصول الايمان فيكْفُر المرء بها؛ مثل سب الدين، أو سب الله –تعالى– أو الرسول– ﷺ– أو الاستهزاء بهما أو الاستهزاء بالدين والقرآن أو تولي الكفار ومساعدتهم على المسلمين؛ أو استحلال الكبائر بقلبه معتقدا حلها كمَن يستحل الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ويرى الحكم الوضعي البشري أكمل أو مساوٍ لحكم الله ورسوله.. وما إلى ذلك؛ فهذه كلها ذنوبٌ تجحد أصل ادعاء الايمان وتخرج لدائرة الكفر؛ وإن اختلفنا في تكفير الشخص المعين بها إلا بعد انتفاء الموانع التي تمنع إطلاق اسم الكفر عليه من الجهل، والتأويل بعد البيان، والخطأ، والنسيان والإكراه..

١ (راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 111-114)؛ واحذر من اعتزالياته في تفسيره لمعنى الفاسقين وأحكامهم)

وأما النوع الآخر من الذنوب هى الذنوب غير المُكفِّرَة وهى التي لا تقدح في أصول الايمان ولا يصر عليها صاحبها؛ فهو على قدرٍ من الايمان بقدر فعله لأمر الله وقدر تركه لما نهى الله عنه. وهذا إيمانه يزيد وينقص؛ فإن لقى الله بكبيرة لم يتب منها فهو في ذمة الله ومشيئته إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، فإن مات على التوحيد مع ذنوبه وإن كثرت ولم يكن فيها ما يضاد عقد الإيمان؛ فقد صحت الأحاديث في إخراجه من النار إنْ دخلها لتنقيته من الذنوب ثم دخوله الجنة. وفي هذا يكون الجمع بين الأدلة والآيات والآثار؛ وهو منهج أهل الوسطية في الدين والحق من سلف المؤمنين.

وهنا يكون أهل السنة وسط بين (المرجئة) الذين يجعلون الايمان مجرد التصديق لا ينقص منه ذنب مهما عظُم، ولا تضر معه الكبائر مادام القلب مسلما (كما يزعمون) فلا زيادة فيه ولا نقصان. ولازم هذا أن يكون إيمان أشد الناس فسقاً ومعصيةً كإيمان أبي بكر الصديق وعمر رضى الله عنهما، بل كإيمان الملائكة وهذا لا يسيغه عاقلٌ ولم يأت به دينٌ.

ويكون اعتقاد أهل السنة أيضاً غير المتنطعين من الخوارج والمعتزلة الذين يجعلون الإيمان هو العمل، بل يجب فعل كل أعمال الإيمان حتى يوجد معناه، ففاعل الكبيرة عندهم ليس بمؤمنٍ (على الإطلاق) وهو مخلد في النار إلا أن الخوارج قالوا: هو كافر عليه في الدنيا والآخرة أحكام الكفار، والمعتزلة قالوا: هو فاسق ومنزلةٌ بين المؤمن والكافر في الدنيا. وهو في الآخرة مُخَلَّد في النار.

وعودةٌ للتوحيد (الآيات ٢٨، ٢٩)

قال الله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)}

المناسبة والسياق.

ما زال الْكَلَامُ مُتَّصِلاً بِمَا قَبْلَهُ وَمُرْتَبِطاً بِهِ ارْتِبَاطًا مُحْكَمًا، وَ الْخِطَابُ لِلْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَضِلُّونَ بذلك الْمَثَلِ المضروب من قبلُ (مثل البعوضة)؛ فَإِنَّهُ وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِنَقْضِ الْعَهْدِ الْإِلَهِيِّ الْمُوَثَّقِ وأوثق العهود بين الله تعالى والبشر هو عهد التوحيد، وَ قَطْعِ ما أمر بِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوصَلَ وأهم شيءٍ فيه وشيجة الرحم بين البشرية، والإفساد في الأرض وقد أمروا أن يعمروها، وهذه الثلاث في مجموعها تمثل جحودا لنعمة الله على البشرية والتي قوبلت بأشد أنواع الكُفْران؛ إنه الكفر والجحود الذي ينتج كل هذه الشرور والافسادات ، فجَاءَ السياق بِهَذَا الِاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ عَنْ سبب كُفْرِهِمْ مُقْتَرِنًا بِالْبُرْهَانِ النَّاصِعِ عَلَى أَنَّهُ لا وجه لَهُ وَلَا شُبْهَةَ تُسَوِّغُ الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ.

إن الكفر بالله في مواجهة هذه الأدلة الدامغة والنعم التي لا تحصى لأمر يدعو إلى العجب والدهشة، إن القرآن يواجه البشر بما لا محيص لهم من الاعتراف به، لقد كانوا أمواتا فأحياهم، فمن الذي أنشأ لهم هذه الحياة؟ !من أين جاءت هذه الحياة التي تموج بها الأرض والتي تتميز بها عما عداها من الموات؟

لقد جاءت من عند الله، هذا هي الإجابة التي يرتضيها العقل، وتتماشى معها الفطرة السليمة، وإلا فنقول لمن يأبى التسليم بهذه الحقيقة: أين الجواب؟ إن القرآن الكريم في هذه الكلمات الموجزات يفتح سجل الحياة كله ويطويه: من همود هو كالموت– تقريبا– أول الأمر، إلى الحياة في الأرض ثم الموت مرة أخرى، ثم الحياة كرةً أخرى للحساب والجزاء {وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

ثم يمضي بنا السياق القرآني متحدثا عن غاية الوجود الإنساني وعن دوره العظيم في الأرض: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً}. إن كلمة {لكم} ذات دلالةٍ عميقةٍ على أن الإنسان خُلِق لأمرٍ عظيم، وهُيِيء له الوجود تهييئاً، وسُخِّرت موارد الحياة تسخيرا؛ لأجل هذا الأمر.. خُلِق ليكون مستخلفا في الأرض، ليكون المؤيَّد من خالقه لتعمير هذا الميراث الواسع، وكل قيمةٍ من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان ولا أن تذله وتخضعه، فإن الإنسان خُلِقَ مُكرَّماً باتصاله بربه أولا، واستعلاء الإنسان يجيء من وقوفه موقف

العبودية والتلقي من الله العلي الكبير، ثم تجيء القيم المادية تابعةً مُسَخَّرَةً لإعمار الكون بقيمة العبودية لهذا الرب العظيم.

يقول العلامة السعدي: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا} أي: خلق لكم، بِرًّا بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار. انتهى.

المعاني.

{كيف تكفرون بالله} الاستفهام هنا للتعجب مع التقريع والتوبيخ. لعدم وجود مقتضٍ للكفر. [١]

{وكنتم أمواتاً فأحياكم} هذا برهانٌ على بطلان كفرهم، إذ كيف يكفر العبدُ ربَّه وهو الذى خلقه بعد أن لم يكن شيئا.. قال ابن كثير: أي: قد كنتم عَدَماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: { أم خُلِقُوا مِنْ غيرِ شَيءٍ أمْ همُ الخالقون، أمْ خَلَقُوا السماواتِ والأرضَ بلْ لا يُوقِنُون } (الطور: ٣٥، ٣٦)، والآيات في هذا كثيرة.. عن ابن عباس قال: {كنتم أمواتا فأحياكم} أى أمواتا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئا حتى خلقكم، {ثم يميتكم} موتة الحق، {ثم يحييكم} حين يبعثكم للجزاء والحساب... فإن إماتة الحى واحياء الميت كلاهما دالٌ على وجود الرب تعالى وقدرته.

وعبَّر عن الحال قبل الوجود وهو العدم بالموت لما يشتركان فيه من عدم الإحساس وعدم الفعل، فالعدم كالميت، كما قال في الأصنام: {أمواتٌ غيرُ أحياء} (النحل: ٢١)، وقال:{وآيةٌ لهمُ الأرضُ المَيْتَة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون } (يس: ٣٣)، وربما كان المعنى على المشاكلة فقد ذكر دورة الإحياء والموت ثم الإحياء للبعث فعبر عما قبل ذلك من العدم بما يفهمون من معنى الموت على سبيل المشاكلة في النظم. [٢]

---

(١) قوله تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله}.. في التعبير ب {كيف} قولان:

أحدهما: أنه استفهام في معنى التعجب، وهذا التعجب للمؤمنين، أي: اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون، وقد ثبتت حجة اللــه عليهم، قالــه ابن قتيبة والزجاج.

والثاني: أنه استفهام خارج مخرج التقرير والتوبيخ. تقديره: ويحكم كيف تكفرون بالله؟ قاله ابن الانباري.

وهو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور، وهو ضرب من ضروب البلاغة وتنويع الخطاب دفعاً للرتابة. أى: كيف تكفرون بِاللَّه بعد نصب الدَّلَائِلِ ووضوح الْبَرَاهِين؟!

قال الزمخشري: ومثله في قولك: أتكفرون باللَّه ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان؟!

(٢) والحياة: يستعمل على أوجه:

يقال للقوة النامية في النبات والحيوان حياة: ومنه قيل نبات حي إذا كان نامياً، وعلى ذلك قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، وقوله عز وجل: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا}.

والثاني: للقوة الحساسة الحاسة، وبه سمي الحيوان حيواناً.

قال الإمام الراغب في تفسيره: ومعنى الآية: قبل "كنتم أمواتاً " أي: تراباً ونطفة، فأحياكم، بأن أنشأكم وخلقكم ثم يميتكم الموت المعروف، ثم يحييكم يوم ينفخ في الصور، " ثم إليه ترجعون أي تردون إلى دار الثواب والعقاب، وذلك نحو قوله: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} ونبَّه– سبحانه– بمثل هذه الآيات على أنَّ القادر على الابداء، قادرٌ على الإعادة، كما قال في الآية الأخرى: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. [١] أي فيما يُقاس على عقولكم، وإلا فكل شيءٍ في قدرة الله تعالى هينٌ ولا يعزب عن قدرته شيءٌ سبحانه.

قال ابن جُزَيٍّ الأندلسي: هذه الآية في مَعْرِض الردّ على الكفار، وإقامة البرهان على بطلان قولهم، فإن قيل: إنما يصح الاحتجاج عليهم بما يعترفون به، فكيف يحتج عليهم بالبعث وهم منكرون له؟ فالجواب أنه أُلْزِموا من ثبوت ما اعترفوا به من الحياة والموت ثبوتَ البعث، لأن القدرة صالحةٌ لذلك كله. [٢]

قال ابن القيم: فهذا استدلالٌ قاطعٌ على أن الإيمان بالله أمرٌ مستقرٌ في الفِطَر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور، ثلاثةٌ منها مشهودةٌ في هذا العالم، والرابع مُنتَظَرٌ موعودٌ به وعدَ الحق: الأول: كونهم كانوا أمواتاً لا أرواحَ فيهم بل نطفاً وعلقاً ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأُوَل، ويكذِّب بالرابع، وهل الرابع إلا طَوْرٌ من أطوار التخليق...

قلتُ– المصنفُ: فجاء البرهان مترابطا تأخذ كلُّ حقيقةٍ فيه بعُنِق الأخرى وتزرعها نبتاً قويا في الوجدان والشعور. ومن براعة الأداء البلاغي في هذه الآية الكريمة أنْ عَبَّرت الآية الكريمة بحرف العطف الفاء في قوله

والثالث: للقوة المختصة بالإنسان من العقل والعلم والإيمان، وذلك لكونها سبباً للحياة الأبدية، وعلى ذلك قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا} وقوله: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} وعلى نحو قول الشاعر:

وقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي.

والموت: يستعمل في فقد كل واحدٍ مما تقدم، وأما وصف الباري – جل ثناؤه – بالحي، فليس يتصور منه مقابله الموت، فإنه تعالى الدائم الباقي الذي به حياة كل حي. انظر تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٣٤)

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٣٤)

٢تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٧٨)

تعالى: {وكنتم أمواتاً فأحياكم} لأن قبل الإحياء في وقت العدم أو الموات لم يكن هنالك شعور بالزمن فجاء حرف (الفاء) المفيد للتعقيب بلا زمن.

ولكن في قوله تعالى: "ثُم يُمِيْتَكم" جاءت البلاغة الحكيمة بحرف "ثم" المفيد لوجود مدة زمنيةٍ (= المفيد التراخي كما يسميه علماء الأصول)، وذلك لتخلل مدة العمر بين نفخ الروح والإماتة ..وفي قوله تعالى: "ثُم يُحيَكم" جاء الحرف "ثم" أيضاً لتخلل مدة البرزخ، وهي فترةٌ محسوبةٌ، وعذاب القبر ونعيمه وانتظار البعث والجزاء يجعل فيها عنصر الزمن، وإنْ لم يكن كما هو مُدْرَك في فترة الحياة الدنيا.

وفي قوله تعالى: " ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" يأتي " ثم" لتخلل مدة الحشر والحساب. فجاء حرفا العطف "الفاء وثمَّ" متناسبين مع المقام في أداء بلاغي رائع لحروف الربط (أو النَّسق أو العطف كما يسمونها) في الآية..

****

- وفي قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خلق لكم مَا فِي الأَرْض جَمِيعًا}.

قال الخازن: لتنتفعوا به في مصالح الدين والدنيا؛ أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته، وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها.

قال ابن عطية: و{لَكُمْ}: معناه للاعتبار والفكر في قدرة الله تعالى، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من بيان العبرة والاحتجاج بالخلق على التوحيد : الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء إلى السماء وتسويتها..

قلتُ: يشير إلى قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (العنكبوت: ٢٠)

واستدل بالآية بعض علماء أصول الفقه أن كل ما في الأرض من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب مباحٌ، وأنَّ الأصل فيه الإباحة إلا ما حرَّمه الدليلُ الحاصر من الكتاب أو السنة لقوله: {خلق لكم ما في الأرض جميعا}.. وللأمانة العلمية فإن في هذا الاستدلال خلاف مشهور. وكذلك فإن سياق الآيات المنطقي بعيدٌ عن هذا الاستدلال، فالحديث عن التوحيد ودلائله، ولذلك كان كلام ابن عطية أشبه فيه.

- قوله تعالى: {ثمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}

قَالَ ابْن عَبَّاس وَأكْثر الْمُفَسّرين من السّلف: أَي ارْتَفع وَعلا إِلَى السَّمَاء. وَقَالَ الْفراء وَابْن كيسَان وَجَمَاعَة من النَّحْوِيين مَعْنَاهُ: أقبل على خلق السَّمَاء؛ لِأَنَّهُ خلق الأَرْض أَولا، ثمَّ أقبل على خلق السَّمَاء، كَمَا ذكر فِي " حم السَّجْدَة ". وهذا السياق ليس له علاقة بصفة استواء الله تعالى على عرشه فوجهة الكلام هنا مختلفةٌ

تماما. ولذلك فرَّق أهل السنة بين (استوى على) التي على معنى الاستواء للرب العلي كما أراد بلا كيفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيل، و (استوى إلى) بمعنى قصد وأقبل إلى. [١].

{فسواهن سبع سماوات} أي: هيأهن وخلقهن ودبرهن وقومهن، والتسوية في كلام العرب التقويم والإصلاح والتوطئة، وهذا يدل على كمال خلق السماوات كما قال تعالى {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً}.

هذه الآية تدل على أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء بدليل لفظة " ثم" التي هي للترتيب والانفصال؛ وكذلك آية حم السجدة تدل أيضا على خلق الأرض قبل خلق السماء لأنه قال فيها {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) } (فصلت: ٩ – ١١)

---

١ وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

{اسْتَوَى} ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها، الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} (أى كمل وتم خلقه وعقله)..

وتارة تكون بمعنى "علا "و "ارتفع "وذلك إذا عديت بـ "على "كما في قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}، وقوله{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وقوله {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}..

وتارة تكون بمعنى "قصد "كما إذا عديت بـ "إلى "كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات {فسواهن سبع سماوات} فخلقها وأحكمها، وأتقنها، {وهو بكل شيء عليم} فـ {يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها} و {يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} يعلم السر وأخفى.

وكثيرا ما يقرن سبحانه بين خلقه الخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} لأن خلقه للمخلوقات، أدل دليل على علمه، وحكمته، وقدرته] انتهى من تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٨-٤٩) باختصار..

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: كنا عند النبي الله صلى الله عليه وسلم فقال:

(هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، وكِثَف كل سماء خمسمائة عام، وفوق السماء السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيءٌ) رواه الخمسة وحسَّنه الترمذي..

وعن ابن عباس قال: "الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقْدِر أحدٌ قدره" رواه الفريابي وابن المنذر والحاكم وصححه.. وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء"..

فما الجواب عن قوله تعالى {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}؟ دحاها: يعني بسطها ومهدها وهذا قول أكثر المفسرين وهو معناها في اللغة [(١)].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله:

" اعلم أن ابن عباس –رضي الله عنهما– سُئِل عن الجمع بين آية سورة فصلت وآية النازعات، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولا قبل السماء غير مدحُوَّة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك. فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء. ويدل لهذا أنه قال: {والأرض بعد ذلك دحاها} ولم يقل: خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: {أخرج منها ماءها ومرعاها} وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه. مفهوم من ظاهر القرآن العظيم " انتهى. [(٢)]

******

---

(١) وإن أهل العلم بالفيزياء النووية رأوا في هذا اللفظ (دحاها) دليلا معجزا على عظمة ومصدرية القرآن، فإن اللفظ مأخوذ من الدحية وهي البيضة وخصوا بها بيضة النعام لعظمها وانبعاجها، وقد كشف العلم الحديث أن شكل الأرض بيضاوي مثل الدحية منبعج عند خط الاستواء وغير متساوي الأطراف، وليس كروي منضبط الشكل، وهو ما كان متداولا لدى العلماء حتى وقتٍ قريب، ولكن الصور الدقيقة تدل على بيضاوية الأرض وانبعاجها نتيجة فعل الجاذبية والدوران ومكوناتها من صخور وجبال وماء، وهو نفس التعبير القرآني المذكور في دقةٍ عالية لم يتوصل إليها العلم إلا في عهوده الحديثة جدا.

(٢) "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، مطبوع مع تفسيره "أضواء البيان. (18 –10/16) "

قصة الخليقة.. والصراع القديم (الآيات ٣٠-٣٩)

يقول ربنا تبارك وتعالى:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) } (البقرة: ٣٠-٣٩)

دلالات السياق القرآني.

إن الآيات في سورة البقرة لتتصل اتصالا بديعا منتقلةً من معنىً إلى معنى في سلاسة وبلاغة منطقيةٍ مذهلةٍ. ففي هذه الآيات يمتنُّ الله سبحانه على خَلْقِهِ بذكر نعمة كبيرةٍ عطفا على نعمه المذكورة آنفاً [١]؛ فبعد أنْ ذكَّرهم الله تعالى بدلائل وحدانيته ونعمته في أن خَلَقَهم؛ ذكَّرهم بعظيم فضله وبِرّه بهم في خلق السماوات والأرض وإعدادهما وتسخيرهما لمسيرة حياتهم؛ ثم بعد ذلك ذكر تتمة نعمه سبحانه عليهم بذكر خلق الإنسان الأول أبيهم وتكريمه وبيان كيد أعدى أعدائه. كل ذلك هو بيانٌ تفصيلي بمعنى قوله –تعالى– في سورة "الحمد" عن نفسه أنه " ربُّ العالمين" ، وقلنا ساعتها أن الرب هو الخالق والمربي والمصلِح والسيد القائم بشئون مربوبه؛ فكانت الآيات بدئاً من قوله تعالى: {ياءيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم...} ومرورا بكل المحطات التي ذكرها هي بيان تفصيلي بمعنى الربوبية الذي يستوجب أن تكون العبادة والطاعة لله

---

١ قال البيضــاوي: هذه الآية تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضــيله على ملائكته بأن أمرهم بالســجود له، إنعامٌ يشمل ذريته من بعده. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٦٧) دار إحياء التراث العربي – بيروت

وحده " رب العالمين" ولا يكون " الحمد" حقيقةً إلا له على نعمة "الربوبية" التي تجمع تحت معناها كل نعمةٍ.

وصدق الشاعر القائل:

ومما زادني شرفاً وتِيهاً ... وكدتُ بأخمصي أطأُ الثُرَيَّا.

دخولي تحت قولِكَ يا عبادي... وأن صيَّرتَ أحمدَ لي نبيا.

وكان الشيخ محمد الشعراوي يقول: إن العبودية لأى أحدٍ سوى الله، يأخذ فيها المعبودُ من قوتك وعملك ومالك وخيرك له، أما العبودية لله –سبحانه–فأنت تتلقى من الله تعالى القوة والخير والمعونة والثواب على العمل منه ولا ينفع الله تعالى منك شيء. وهو المذكور نصاً في الحديث القدسي الجليل:

"يا عبادي! كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُ فاستطعِموني أُطعِمْكم.

يا عبادي! لم يبلُغْ ضُرُّكم أن تضُرُّوني ولم يبلُغْ نفعُكم أن تنفعوني.

يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمعوا وكانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم لم يُنقِصْ ذلك من مُلكي مثقالَ ذرَّةٍ.

ويا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني جميعًا فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَه لم يُنقِصْ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنقِصِ المَخيطُ إذا غُمِس في البحرِ.

يا عبادي! إنَّما هي أعمالُكم تُرَدُّ إليكم، فمن وجد خيرًا فليحمَدْني ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلَّا نفسَه". [١]

هنا تتكامل حلقاتُ فلسفة الإسلام في الإجابة على الأسئلة الأكثر جدلا في تاريخ الفكر الإنساني حول وجود البشرية والهدف منه؛ ولتتضح قيمة الإنسان بين المخلوقات.

يخبر الله تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى في السماوات قبل إيجادهم. فإن الآية خرجت مخرج التنويه بالأمر العظيم قبل حصوله.

وكأن هذا الكائن الضعيف الذي يذكره الله تعالى بوصف الخلافة في الأرض قبل خلقه من المكانة عند الله تعالى أن يطالعنا في كتابه الخالد بقصة الحوار الذي حدث حول طبيعته وطبيعة مهمته قبل وجوده.

بعد ذلك أيليق بهذا الإنسان أن يرمي بكل هذا التكريم في مستنقعات الشرك وعبادة غير الله؟! وصدق الله القائل: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ؟!

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: ٥/١٤٤ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وهو حديث صحيح ثابت. وهو عند مسلم في الصحيح من حديث أبي ذر بلفظ أوفى من هذا.

لقد خلق الله – تعالى – (آدم)؛ وكان أول جنس الإنسانية الفريد؛ وُجد آدمُ وقد حَفَّتْه أصابعُ الاتهام (الملائكي) بالإفساد والتخريب دون كامل درايةٍ بقلبه وعقله والحقيقة العظيمة التي خلقه الله لأجلها. وُجد وقد قسا عليه– كذلك– قلبُ الحقد والحسد والتكبر (الإبليسي الشيطاني) دون جنايةٍ منه إلا أنَّ الله تعالى أحبَّه وأكرمه وخلقه بيديه.

لقد كان آدمُ –عليه السلام– الوحيد من جنسه روحاً، وفكراً، وتركيباً، وسِماتاً.

هذا المخلوق العجيب الذي خلقه الله تعالى– بيديه تعظيماً لأمره؛ خلقه {في أَحْسنِ تقويم} وخلق له {ما في الأرض جميعا} فسخَّر له كل شيءٍ؛ ليسير على نور الله تعالى فيعمر هذه الأرض ويرفع راية التوحيد ويزرع الحياةَ بالخير والجمال.. لقد عرَّفه ربه أنما خلقه لأمر عظيم فيقول له: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}..{.. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (٣٨–البقرة)..

هذا الإنسان الذي أقسم الشيطان الرجيم على تتبع عثراته وإثبات أنه ليس جديرا بالتكريم، وأخذ رجليه خطوة فخطوة إلى سبيل الغي والضلال والفواحش والفساد...

وهنا تأتي هذه القصة التي تمثل قصة الإنسانية منذ بدايتها، وقصة صراعها مع الشر إلى آخر الدهر..

فالله الذي خلق الناس وخلق لهم ما في الأرض جميعا للانتفاع به والاعتبار؛ هو سبحانه الذي يقص عليهم قصة خلق أبيهم على ما فيها من مراقي التكريم والتشريف لآدم وذريته من أجل أن يتذكروا عظمة خالقهم لعلهم يعرفون الله تعالى ويعبدونه، ويتقونه حق التقوى، ولقد حذَّرهم الله من غواية الشر والحسد الإبليسي؛ قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } (الأعراف ٢٧)، وهذا كقوله تعالى : أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } (الكهف : ٥٠) . [١]

هذا وليزداد تشريف هذا النبي الأمي الكريم بتعليم الله إياه وأمته من كل العلوم في هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله حافظاً خالدا لتاريخ الهداية والنعم الربانية عبر الأمم؛ وليكون دليل صدقٍ أمام الذين يدعون العلم من أهل الكتب السماوية –في سفر التكوين وغيره– قبل محمد –صلوات الله عليه– كما قال تعالى

---

(١)يقول تعالى محذرا بني آدم من إبليس وقبيله ، ومبينا لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم ، عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم ، إلى دار التعب والعناء – والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة. انظر تفسير ابن كثير.

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى٥٢).

قال العلامة ابن عاشور: (وَإِذا قَدْ كَانَتِ الْعِبْرَةُ بِخَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا أُدْمِجَتْ فِيهَا مِنَّةٌ وَهِيَ قَوْله: لَكُمْ (الْبَقَرَة: ٢٩) الْمُقْتَضِيَةُ أَنَّ خَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِهِمْ تَهَيَّأَتْ أَنْفُسُهُمْ لِسَمَاعِ قِصَّةِ إِيجَادِ مَنْشَأِ النَّاسِ الَّذِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ لِأَجْلِهِمْ لِيُحَاطَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ مَعَ عَظِيمِ الْمِنَّةِ وَهِيَ مِنَّةُ الْخَلْقِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا فَضَائِلُ جَمَّةٌ وَمِنَّةُ التَّفْضِيلِ وَمِنَّةُ خِلَافَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَكَانَ خَلْقُ أَصْلِنَا هُوَ أَبْدَعَ مَظَاهِرِ إِحْيَائِنَا الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ فِي خَلْقِ مَا فِي الْأَرْضِ لَنَا، فَكَانَتِ الْمُنَاسَبَةُ فِي الِانْتِقَالِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِهِ وَاضِحَةً مَعَ حُسْنِ التَّخَلُّصِ إِلَى ذكر خَبَرُهُ الْعَجِيبَ، فَإِيرَادُ وَاوِ الْعَطْفِ هُنَا لِأَجْلِ إِظْهَارِ اسْتِقْلَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا فِي عِظَمِ شَأْنِهَا). [(١)]

فَإِيرَادُ حرف الوَاوِ – هنا – جاء مناسبا تماماً لموضعه من بدء واستئناف كلامٍ جديدٍ، وقصةٍ عظيمةِ الشأن في مسار البشرية وصراعها مع الشر الشيطاني عبر العصور، وكذلك ربط السياق في هذا الموضع بسياق الآيات قبله والسياق العام لسورة البقرة وسورة "الحمد" قبلها.

وهكذا ترى الآيات تنتقل بين أنواع الخطاب وطرق الاستدلالات وتنوع الأساليب في جمالٍ منطقي وروحي متصلٍ يأخذ بتلابيب العقل والنفس والشعور.

تحليل الآيات والعِبر والمعاني والدلالات.

(إذ) اسم مبني وهو ظرف زمان، واختلف اهل اللغة والتفسير فيه، فقال بعضهم هو زائد؛ والمعنى (وقال ربك)، وهو رأيٌ يجافي البلاغة القرآنية، وقد رددناه مراراً.

وقال آخرون هو متعلق بكلامٍ محذوف على سبيل الإيجاز، والتأويل فيه: (واذكر إذ قال...) وهو المشهور عن جماعة من أهل التفسير، وقال آخرون هو متعلق بأول الكلام يُرَد إليه، والتأويل: (اعبدوا ربكم....إذ قال...) وهذا مُتَكَلَّف وبعيد .[(٢)]

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٩٥)

٢ كان أبو عبيدة يقول: «إذ» ملغاة، وتقدير الكلام: وقال ربك، وتابعه ابن قتيبة، وعاب ذلك عليهما الزجاج وابن القاســم، وقالوا: : «هذا اجتراء من أبي عبيدة». وقال الزمخشــري: وهذا تقصــيرٌ منه في النظر. قال الزجاج: إذ: معناها: الوقت، فكأنه قال: ابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة. انظر زاد المسير في علم التفسير (١/ ٤٩) وتفسير الكشـاف (١/٢٤). وراجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١١٦،١٧). وتفسير القرطبي (١/ ٢٦١).

وأقول: لقد اتفق علماء اللغة أن (إذ) هي ظرف زماني، ولكننا هنا نتحدث عن " بلاغة الدلالة" في المفردات القرآنية، حينئذٍ نرى أن (إذ) جاءت في مواضع من القرآن العظيم تدل كلها على انتقال زمني تقصده الآيات لرسم مشهدٍ حدث أو سيحدث بالتفصيل، والمراد هو الانتباه لتفاصيل هذا المشهد والعيش فيها لما لها من أثرٍ توجيهي بليغٍ في الهداية الربانية. نستطيع أن نقول أن (إذ) تدل على قفزة زمنية بالمتلقي ليعاين حدثاً بعين قلبه وبصيرته بتفاصيلَ مقصودةٍ.

وتخيل معي في هذا الموضع من سورة البقرة في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (٢٩–البقرة) لو أنا أخذنا بقول أبي عبيدة أن (إذ) زائدة والمعنى (وقال ربك للملائكة) لجاءت معطوفةً على الآية (٢٩) الآنفة الذكر فجعلت خلق الإنسان موازي ومقارن لخلق السماوات والأرض وهو ما لا يصح أبداً، فجاءت (إذ) هنا لتؤدي دور الانتقال بالزمن لمشهدٍ جديدٍ له زمانه البعيد تماما عن حدث خلق السماوات والأرض، ولتختصر تفصيل يقتضي أن يقال فيه (وبعد ذلك بزمنٍ بعيدٍ قال ربك للملائكة....) لتغني مكانه بكل بلاغةٍ؛ بل تنبه إلى تفاصيل الحدث لمعايشته كلمة من حرفين هي (إذ). ولنعلم أن عظمة القرآن تأبى وجود ما لا دلالة له في آياته.

- يقول تعالى: {قالَ رَبُّكَ} الآية.

(وإضافة {رب} إلى محمد – ﷺ – ومخاطبته بالكاف تشريف منه سبحانه له، وإظهار لاختصاصه بهذا الذكر الحكيم، وليؤكد ان القرآن هو معجزة محمد– صلوات الله عليه – الكبرى، ودليل نبوته الصادقة [(١)]..

- {للملائكة}.

الملائكة كما يقول أهل اللغة جمع (مَلْأَك) وتُخفَّف إلى (مَلَاك ومَلَك) . قال الكسائي: وهي مقلوب من (مَأْلَك) وقد جاءت لغةً من لفظ (الأَلُوكة) ومعناها الرسالة. فالملائكة هم المرسولون بالرسائل الإلهية للخَلق وللحياة. والملائكة– في العقيدة الإسلامية– خلقٌ خفي على البشر خلقه الله تعالى من النور، مجبولين على طاعة الله –تعالى– غير ممتَحَنين في الدنيا كالبشر والجن، ولهم وظائف محدَّدة –وردت في نصوص الشرع– من

---

١ عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من الأنبياء نبيٌ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "رواه البخاري كتاب فضائل القرآن: باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل..

العبادة والحفظ وتسيير الرياح والمطر والرزق –بأمر الله– وتعذيب الكفار والإيعاذ بالخير لابن آدم وغير ذلك.

- وفي قوله تعالى: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً».

جاء في لطائف الإشارات للقشيري: إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شيءٍ منه ما قال في حديث آدم حيث قال: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة لو كان الأمر من المخلوقين. والحق –سبحانه وتعالى– خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل إني خالقٌ عرشا أو جنة أو ملكا، وإنما قال ذلك تشريفا وتخصيصا لآدم عليه السلام، ولكل جنس البشر من بعده. [١]

قال أهل التأويل: وقوله تعالى {إني جاعل} من الفعل "جعل " الذي له مفعولان وهما {فِي الْأَرْضِ} مفعول غير مباشر ظرفي، و{خَلِيفَةً }، ويجوز أن يكون " جاعل " بمعنى خالق، وقد استدل المعتزلة بكون (جعل) بمعنى (خلق) على قولهم الباطل بخلق القرآن في جدل عقيم طويل. والتحقيق أن الفعل (جعل) لا يعني أبدا الخلق الذي هو إيجاد شيءٍ من العدم، وإنما معناه تحويل حقيقة أو صورة شيءٍ إلى حقيقة أو صورة شيءٍ آخر أي هو مرادف للتصيير وليس الخلق والبرء أبدا؛ وهذا من الفروق الدقيقة في لغة القرآن.

فمعنى {جاعلٌ في الأرض خليفة} أي سيصير فيها خليفة بعد خلقهم، وهو ما حدث فآدم عليه السلام خُلِق في السماء وليس في الأرض بدلالة أنه أُهبِط إلى الأرض بنص الآيات، ثم بعدما خُلِق في السماء جُعِل خليفةً في الأرض.

و "الخليفة " مَنْ يَخْلُف غيرَه وينوب منابه. [٢] والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبيٍ وكل إنسانٍ مصلح هو خليفةٌ استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل

---

١ راجع لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ٧٤– ٨٣) بتصرف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط. الثالثة.

٢ قال ابن عطية: وخَلِيفَةً معناه من يُخْلَف أو مَن يَخْلُف.

قال ابن عباس: «كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم قبيلا من الملائكة قتلهم وألحق فلّهم بجزائر البحار ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة».

وقال الحسن: «إنما سمى الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل».

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ففي هذا القول، يحتمل أن تكون بمعنى خالفة وبمعنى مخلوفة.

وقال ابن مسعود: «إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري» يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته. انتهى. راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١١٦،١٧) دار الكتب العلمية – بيروت، ط. الأولى ١٤٢٢هـ.

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١/ ٣٩٨):

نفوسهم وتنفيذ أمر الله فيهم، لا لحاجةٍ به –سبحانه– إلى مَنْ ينوبه، بل لقصور المُسْتَخْلَف عليهم مِن عوام الناس عن قبول حكمه وفيضه سبحانه مباشرةً، وتلقي أمره بغير واسطة مِمَّن رزقهم الله كمال العقل والدين ، ولذلك لم يستنبئ مَلَكاً كما قال الله تعالى: { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا }؛ وإنما جعل الأنبياء والرسل من البشر ليكونوا أقرب إلى فهمهم وتوجيههم. (١) فهذا معنى الخليفة على حقيقته.

أو على معنى أنه خليفةٌ يخلف مَن سكن الأرض قبله. (٢)

أو هو وذريته خلفاءُ لأنهم يخلف بعضهم بعضاً.

قلتُ: وهذا المعنى الأخير رجَّحهُ الطبري وابن تيمية وابن كثير في تفسيره حيث قال:

والخليفة في الأصل الذي يخلف غيره أو يكون بدلا عنه في عمل يعمله، فهو فعيل بمعنى فاعل والتاء فيه للمبالغة في الوصف كالعلَّامة. والمراد مِن الخليفة هنا إما المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملا يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي، أي جاعل في الأرض مدبرا يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة لأن الله تعالى لم يكن حالا في الأرض ولا عاملا فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السلطنة على موجودات الأرض.

ولأن الله تعالى لم يترك عملا كان يعمله فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان...

ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل، فالخليفة آدم وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم.

فكانت الآية من هذا الوجه إيماء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك، وقد بعث الله الرسل وبين الشرائع فربما اجتمعت الرسالة والخلافة وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخطتين. انتهى.

(١) ألا ترى أن الأنبياء لما اختارهم ربهم على خلقه لهم في حدود الكمال البشري أرسل إليهم الملائكة.. ومَنْ كان منهم أعلى رتبة كلَّمه بلا واسطة، كما كلم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمدا صلّى الله عليه وسلّم ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك.

(٢) قال العلامة ابن عاشور: وإما أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات يسمون الحن والبن– بحاء مهملة مكسورة ونون في الأول، وبموحدة مكسورة ونون في الثاني– وقيل اسمهم الطم والرم– بفتح أولهما–، وأحسبه من المزاعم، وأن وضع هذين الاسمين من باب قول الناس: هيان بن بيان إشارة إلى غير موجود أو غير معروف. ولعل هذا أُنجِز لأهل القصص من خرافات الفرس أو اليونان فإن الفرس زعموا أنه كان قبل الإنسان في الأرض جنس اسمه الطم والرم كان اليونان يعتقدون أن الأرض كانت معمورة بمخلوقات تدعى التيتان وأن زفس وهو المشتري كبير الأرباب في اعتقادهم جلاهم من الأرض لفسادهم.

وكل هذا ينافيه سياق الآية فإن تعقيب ذكر خلق الأرض ثم السماوات بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته.

انظر التحرير والتنوير (١/ ٣٩٨).

{إني جاعل في الأرض خليفة} أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ } (الأنعام: ١٦٥) ، وقال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} (النمل: ٦٢) ، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء}، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، أو أنهم قاسوهم على من سبقهم في الأرض. [١]

قال البيضاوي في تفسيره: قصد آدم وذريته ولم يقل " خلائف "، وإفراد اللفظ: إما للاستغناء بذكره عن ذكر أولاده كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مضر وهاشم؛ يقصد أبناء قبيلة مضر وهاشم. أو أن " خليفة " على تأويل مَن يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم. انتهى.

- وأما قوله تعالى: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

قال العلماء: قالوا ذلك ربما لأن الملائكة فهموا معنى جعل (تصيير) خليفة في الأرض أنه اتهامٌ لهم بالتقصير {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}.

ولكنهم أيضا اتهموا الخليفة بالإفساد وسفك الدماء، ربما لأنهم عاينوا فعل خليفةٍ في الأرض سابقٌ على الإنسان من الجن أو غيرهم، أو لأنهم تكهنوا بذلك لأنهم يفهمون من معنى الاستخلاف أنه لمخلوقٍ حُر الإرادة في الطاعة والمعصية، فسألوا عن حكمة جعل خليفة في الأرض يحتمل منه المعصية والإفساد، وهل قصَّروا هم في طاعة الله تعالى فجعل غيرهم خليفةً.

وفي مفردات الآية الإفساد: ضد الإصلاح، وسفك الدم: هو صَبُّه، قاله ابن فارس والجوهري: ولا يستعمل السفك إلا في الدم، فلا يُقال سفك الماء؛ ولكن يقال صبه وأراقه.

ومعنى: {نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} أى ننزِّهك عما لا يليق بصفاتك متلبسين بحمدك على أنْ شرَّفتنا وهديتنا لتسبيحك. والتسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم ، وقال ابن عبَّاس وابن مسعود: تسبيحُ الملائكةِ صلاتهم للّه سبحانه، وقال قتادةُ: تسبيحهم قولهم: «سبحانَ اللَّهِ» على عُرْفِه في اللغة، و{ بِحَمْدِكَ }: معناه نَصِلُ التسبيح بالحمدِ، ويحتمل أن يكون قولهم:{ بِحَمْدِكَ } اعتراضا بين

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢١٦).

الكلامين؛ كأنهم قالوا: ونحن نسبّح ونقدّس، وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك، وخرَّج مسلم في صحيحه عن أبي ذَرٍّ قال: قال لي رسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ تعالى؟ إِنَّ أَحَبَّ الكَلاَمِ إِلَى اللَّهِ تعالى: «سبحان الله وَبِحَمْدِهِ»، وفي رواية: «سُئِلَ ﷺ، أَيُّ الكَلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَا اصطفى اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ».. وفي صحيحَي البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العظيم»، وهذا الحديث به ختم البخاريُّ رحمه اللَّه صحيحه..

وقولهم: {وَنُقَدِّسُ لَكَ} قال الضَّحَّاك وغيره: معناه: نُطَهِّرُ أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، والتقديسُ: التطهير بلا خلافٍ، ومنه الأرض المقدَّسة، أي: المطهَّرة، وقال آخرون: {وَنُقَدِّسُ لَكَ}: معناه: نقدِّسك، أي: نعظِّمك ونطهِّر ذكرك ممَّا لا يليقُ به، قاله مجاهد وغيره. فقابل الفساد الذي أكبره الشرك بالتسبيح، وقابلوا سفك الدم بتطهير النفس من المعاصي. [١]

قال القاضي البيضاوي – رحمه الله:

هذا تَعَجُبٌ من الملائكة أن يستخلف الله سبحانه لعمارة الأرض وإصلاحها مَن يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة (الملائكة) أهل المعصية (من البشر الحمقى الضالين)، واستكشافٌ عما خفي عليهم من الحكمة التي تخطت تلك المفاسد وألغتها، واستخبارٌ عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس – أبداً – باعتراضٍ على الله تعالى جلت قدرته، ولا طعناً في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى مِن أنْ يُظَنُّ بهم ذلك لقوله تعالى: { بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }.. وإنما عرفوا أنه سيكون من بني آدم المفسدين وسافكي الدماء إما بإخبارٍ من الله تعالى، أو بتلقي من اللوح المحفوظ، أو باستنباطٍ عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم والبشر ليس لهم عصمة وفيهم الشهوات والغضب، أو بقياس لما رأوه من خلقٍ سكن الأرض قبلهم فأفسد وسفك الدماء فقاسوا السابق على الآتي.

وكأنهم علموا أن المجعول خليفةً ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: الشهوة والغضب وهما قوتان تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وقوة العقل تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إلى تلك القوى مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار هاتين القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار

١راجع تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١/ ٢٠٧،٢٠٨) مع تصرف وزيادات من المتدبر.

القوة العقلية فنحن – أى الملائكة – نقيم ما يُتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد الحادثة من هذا الجنس الجديد.

وغفلوا عن فضيلة كل واحدةٍ من القوتين (الشهوة والغضب) إذا صارت مُهذَّبةً مِطْوَاعةً للعقل، متمرنةً على الخير كالعفة، والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف. ولم يعلموا أن وجود هذه الصفات مجتمعة مع تهذيبها يفيد ما يقصر عنه آحادها، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات الذي هو المقصود من استخلاف آدم وذريته، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله: {قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} انتهى بتصرف يسير[1].

فقصة آدم واستخلافه في الأرض هى فلسفة الارتقاء والتهذيب والرجوع إلى أصل التكريم الرباني في البشرية. قصة آدم قصة الخطأ والتوبة. قصة الذنب والاستغفار. قصة الترقي من السيء إلى الحسن، ومن الحسن للأحسن. فليس مَن جُبِل على الطاعة في أصل خِلْقَتِهِ كمن رُكِّبَت فيه الشهوات والنقص وهو يجاهد نفسه ليرضي ربَّه تبارك وتعالى؛ كما قال تعالى: {ونفسٍ وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها}.

هذا هو بيت القصيد الذي لم يدركه ولم يعلمه الملائكة في خضم استعلامهم وتعجبهم الذي قابلهم الله تعالى فيه بإعلامهم بإحاطة ولطيف علمه وأنهم ينبغي لهم التسليم لحكمته تعالى.

يقول العلامة ابن القيم [2]:

أظهر سُبْحَانَهُ علمه لِعِبَادِهِ ولملائكته بِمَا جعله فِي الارض من خَواص خلقه وَرُسُله وأنبيائه وأوليائه، وَمن يتقرَّب إليه ويبذل نَفسه فِي محبته ومرضاته مَعَ مجاهدة شَهْوَته وهواه فَيتْرك محبوباته تقربا إليه سبحانه، وَيتْرك شهواته ابْتِغَاء مرضاته، ويبذل دَمه وَنَفسه فِي محبته، ويخصه بِعلم لَا تعلمه الملائكة يسبح بِحَمد ربه آنَاء اللَّيْل وأطراف النَّهَار، ويعبده مَعَ معارضات الْهوى والشهوة وَالنَّفس والعدو. إِذْ تعبد الملائكة من غير معَارض يعارضهم وَلَا شَهْوَة تعتريهم وَلَا عَدو يسلطه الله عَلَيْهِم بل عبادتهم لله تعالى بِمَنْزِلَة النَّفس لأحدهم). انتهى

ويقول العلامة ابن كثير:

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق

---

١ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٦٨)

٢ في كتابه مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٤)

هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبّح بحمدك ونقدِّس لك أي نصلّي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك؟

قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: {إني أعلم ما لا تعلمون}، أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعُبَّاد والزهاد، والأولياء والأبرار، والمقربون، والعلماء العاملون، والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقيل: معنى ذلك: إنَّ لي حكمةً مُفَصَّلةً في خلق هؤلاء لا تعلمونها.. أو {ما لا تعلمون} من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: {أتجعل فيها من يفسد فيها.. الآية} طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى ذلك: {إني أعلم ما لا تعلمون} من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة والله أعلم [١]

وقال العلامة ابن القيم: فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة. فلما أمرهم بالسجود لآدم ظهر ما في قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة، والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه إبليس من الكبر والغش والحسد. فأبى واستكبر وكان من الكافرين. والله أعلم.

(ولما كان سؤالهم واقعا على صفةٍ تستلزم إثبات شيءٍ من العلم لأنفسهم.. أجاب الله سبحانه عليهم بقوله: {إني أعلم ما لا تعلمون}. وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، لأن مَنْ عَلِم ما لا يعْلَم مُخاطِبُه كان حقيقاً بأن يُسَلِّم له ذلك المخاطِب ما يصدر عنه، وعلى مَنْ لا يعلم أن يعترف لمن يعلم – سبحانه – بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة.

ولم يذكر مُتَعَلَّق قوله تعالى: {تعلمون}– (فلم يحدد ما هو الذي يعلمه ولا يعلمونه) – ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويُقِرُّ بالقصور أمام علم الله تعالى وحكمته.) [٢].

لم يقل لهم الحق –سبحانه– أنهم لا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء؛ بل قال: «إِنّيَ أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ»، من الحكمة وراء خلق من ترونه يفسد ويسفك الدماء، فما ترونه ليس فيه خيرٌ ربما كان الخير كله، كما قال

---

١ تفسير ابن كثير– دار طيبة – سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م – ج١/ص،٢١٨،٢١٧.

٢ العلامة: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. .، دار المعرفة ، سنة النشر: ١٤٢٣هـــ / ٢٠٠٤م ، ج١ص٤٥.

تعالى للمؤمنين: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٢١٦).

وهذا درس هام نتعلمه من هذه المحاورة الربانية الشريفة. فإن التسليم لله تعالى عند المسلم نابعٌ من معرفته بالله سبحانه، وأنه العليم الخبير القدير الحكيم {عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (سبأ: ٣)، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} (آل عمران: ٥، ٦). فعلم ربنا المحيط بكل شيء هو الذي يجعل كل فعله حكمةً ورحمةً فيدور بين العدل والفضل.. وبهذا الدرس الراقي يخرج المؤمن المتدبر لآيات الله منشرحَ القلبِ واثقَ اليقين.

قال العلامة ابن عاشور: وقول الله سبحانه {إني جاعل في الأرض خليفة} هذا مُوَجَّهٌ إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجهٍ يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالاستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليما في قالب تكريمٍ مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ في صورة سؤال وجواب..

قلتُ: هذه الطريقة يسمونها في نظم التعليم الحديثة (العصف الذهني) وهذا من عظمة القرآن فتأمل. قال ابن عاشور: وهذا من الله ليسُنَّ الاستشارة في الأمور كلها ومن كل الناس فلا يستغني عن الاستشارة كبيرٌ أو صغير، ولتنبيه الملائكة على ما دقَّ وخفي من حكمة خلق آدم. كذا ذكر المفسرون [١]..

وكذلك لإظهار فضل آدم وذريته الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه سبحانه لهم. وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن تَرْك الخيرِ الكثير لأجل الشر القليل من قلة العلم والحكمة. [٢]

وهذه قاعدة في التعامل مع الحياة يعلِّمها لنا علام الغيوب سبحانه.

وقد فصَّل القول الشيخ الإمام محمد عبده في تفسيره متأملاً من وجوهٍ فقال:

(أحدها) أن الله – تعالى – في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفى عليهم من أسرار في خلقه ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال والتوجه إلى الله – تعالى – في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سننه – تعالى – بأن يفيض منها (كالبحث العملي والاستدلال العقلي والإلهام الإلهي) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحدٍ من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك.

---

١ التحرير والتنوير ١/ ٤٠٠ بتصرف يسير.

٢ راجع تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٦٨)

(ثانيهما) إذا كان من أسرار الله – تعالى – وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا.

(ثالثها) أن الله – تعالى – هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علَّم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه.

(رابعها) تسلية النبي – ﷺ – عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين؛ أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسلطان مبين.

وهذا الوجه هو الذي يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها، وكون الكلام لا يزال في موضوع الكتاب وكونه لا ريب فيه، وفي الرسول وكونه يبلغ وحي الله – تعالى – ويهدي به عباده، وفي اختلاف الناس فيهما. انتهى (١)

ومن اللطائف أيضاً أن في هذه الآية دلالةٌ على أنَّ الإسلام دين الحق، وأنه دين العقل والاستدلال والفهم والسؤال وطلب العلم والفهم، فليس ديناً يأمرنا بالطاعة العمياء أو (الإيمان الأعمى) دون فهم وإدراك للحكمة وطلب للعلم. كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ... الآية} (سبأ: ٤٦)، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} (العنكبوت: ٢٠) ، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الحشر: ٢١). ومن ذلك ورود مادة فعل (العقل) في القرآن الكريم ومشتقاتها ومرادفاتها في كثرةٍ ملحوظة تؤيد أنّض دين الإسلام دين الفهم والعقل والاستدلال. (٢)

---

١ تفسير المنار [ص: ٢١٣]

(٢) ورد فِعلُ العقل في القرآن الكريم في تسعةٍ وأربعين موضعًا، ولم يَرِدْ بشكلِ مصدر مطلقًا، وكل أفعال العقل تدلُّ على عملية الإدراك والتفكير والفهم لدى الإنسان، ويمكن حصر هذه الأفعال بما يلي:

أ) ورد فعل العقل بصيغة "تعقلون" في أربعٍ وعشرين موضعًا في القرآن؛ منها قوله – تعالى –:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله – تعالى –: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

ب) وورد بصيغة "يعقلون" في اثنينِ وعشرين موضعاً؛ منها قوله – تعالى –: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ج) وورد بصيغة "يعقِلُها" مرةً واحدة في قوله – تعالى –: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

د) وورد بصيغة "نعقل" مرةً واحدة في قوله – تعالى –: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

هـ) وورد بصيغة "عقَلوه" مرة واحدة في قوله – تعالى –: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ويقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليقة، ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تُنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنّة في أبي بكر. أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصدّيق بعمر بن الخطاب، أو بتركه مشورة في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً، حراً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً، عدلاً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب والأراء، قرشياً على الصحيح؛ ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة والروافض. ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام: "إلا أن تروا كفراً

٢- وُروده بلفظ الألباب (ج/ لُب):

وقد وردت كلمة "الألباب" في القرآن في صفة أصحاب العقول ستَّ عَشْرةَ مرة في القرآن الكريم؛ منها قوله – تعالى -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٣- وروده بلفظ النُّهَى الدال على العقل:

وقد وردت أيضًا كلمة "النهى" في القرآن لتدل على أصحاب العقول أيضًا، مرتين في القرآن؛ وهما: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ٥٤]، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ١٢٨].

٤- وروده بلفظ القلب:

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ "القلب"[١] ليدلَّ على العقل أيضًا في إحدى دلالاته، قال – تعالى -: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

٥- وورد بلفظ الحِجْر:

ورد بلفظ "الحِجْر" ليدل على العقل مرة واحدة في القرآن الكريم، قال – تعالى -: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥].

٦- وُروده بلفظ الفكر الذي هو نتاج العقل:

أ- ورد بصيغة "فكَّر" مرة واحدة في قوله – تعالى -: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر: ١٨ – ١٩].

ب- وورد بصيغة "تتفكَّروا" مرة واحدة أيضًا في قوله – تعالى -: ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦].

جـ- وورد بصيغة " تتفكَّرون" ٣ مرات؛ منها قوله – تعالى -: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

د- وورد بصيغة "يتفكَّروا" مرتين؛ منها قوله – تعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الروم: ٨].

هـ- وورد بصيغة "يتفكَّرون" إحدى عشرة مرة، منها قوله – تعالى -: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

انظر د. فهمي قطب الدين النجار- العقل في القرآن الكريم- على الشبكة الدولية للمعلومات (شبكة الألوكة / آفاق الشريعة / مقالات شرعية / علوم القرآن).

بواحاً عندكم من الله فيه برهان" (كفراً بواحاً: قال ابن الأثير: أي جهاراً من باح بالشيء يبوح به إذا أعلنه. النهاية في غريب الحديث. والمعنى فعل من أفعال الكفر فعلا يعلن به عن كفره)، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: "من جاءكم وأمْرُكم جَميعٌ يريد أن يفرّق بينكم فاقتلوه كائنا من كان" وهذا قول الجمهور. انتهى. [١]

قلتُ: وقد أطنب العلامة محمد أمين الشنقيطي في بيان فقه الخلافة وأحكامها الشرعية في كتابه الماتع (أضواء البيان) فراجعه مشكورا تجد الأدلة واضحة. وإنما كان موضوع الآيات بعيدٌ عن هذا، وإنما جاءت الإشارة الفقهية فاقتنصها بعض المفسرين وأطنب فيها للفائدة.

﴿وَعلم آدم الْأَسْمَاء كلهَا﴾.

قَوْله تَعَالَى: {وَعلم آدم الْأَسْمَاء كلهَا}

معطوفٌ على قوله: {قال إني أعلم ما لا تعلمون} (البقرة: ٣٠) عطف الدليل التفصيلي على الاستدلال الإجمالي الذي اقتضاه قوله: {إني أعلم ما لا تعلمون}. فإن تعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجةً على قوله لهم: {إني أعلم ما لا تعلمون} أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض.

وعطف ذكر اسم آدم بعد ذكر مقالة الله للملائكة: {إني جاعل في الأرض خليفة} يدل على أن هذا الخليفة اسمه (آدم)، وهذا الأسلوب من بديع الإجمالي والتفصيل والإيجاز. [٢]

أما (آدم) إِنَّمَا سمى آدم؛ لِأَنَّهُ خلق من أَدِيم الأَرْض، ويؤيده عن أبي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل، والحزن والخبيث والطيب. أخرجه الترمذي وأبو داود.

وقال الجوهري أصله أأدم بهمزتين على وزن أفعل من الأدمة وهي لون السمرة. [٣]

---

١ تفسير ابن كثير– دار طيبة – سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م – ج١/ص٢١٧.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠٧) مختصرا.

(٣) وكان للشيخ ابن عاشور تفصيل جميل حول اشتقاق هذا الاسم في تفسيره، فراجعه مشكورا.

عموم قوله تعالى "الأسماء" يقتضي الاستغراق أي كل الأسماء، واقترانه بقوله سبحانه "كلها" يؤكد الشمول والتحقيق، ولذلك قَالَ ابْن عَبَّاس– رضي الله عنهما: لما خلقه الله تَعَالَى علّمه أَسمَاء الْأَشْيَاء حَتَّى الْقَصعَة والقصيعة.

قال ابن عاشور في التحرير: والظاهر أن الأسماء التي علمها آدم هي ألفاظ تدل على ذوات الأشياء التي يحتاج نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها، أو استحضارها، أو إفادة حصول بعضها مع بعض، وهي أي الإفادة ما نسميه اليوم بالأخبار أو التوصيف فيظهر أن المراد بالأسماء ابتداء أسماء الذوات من الموجودات مثل الأعلام الشخصية وأسماء الأجناس من الحيوان والنبات والحجر والكواكب مما يقع عليه نظر الإنسان ابتداء مثل اسم جنة، وملك، وآدم، وحواء، وإبليس، وشجرة وثمرة، ونجد ذلك بحسب اللغة البشرية الأولى ولذلك نرجح أن لا يكون فيما علمه آدم ابتداء شيء من أسماء المعاني والأحداث ثم طرأت بعد ذلك فكان إذا أراد أن يخبر عن حصول حدث أو أمر معنوي لذات، قرن بين اسم الذات واسم الحدث نحو ماء برد أي ماء بارد ثم طرأ وضع الأفعال والأوصاف بعد ذلك فقال الماء بارد أو برد الماء، وهذا يرجح أن أصل الاشتقاق هو المصادر لا الأفعال لأن المصادر صنف دقيق من نوع الأسماء وقد دلنا على هذا قوله تعالى: {ثم عرضهم على الملائكة} أي ذوات الأشياء المسماة ليعرفوا أسماءها؛ كما سيأتي. انتهى. [١]

قال العلماء: وَإِنَّمَا علمه ذَلِك تكريما وتشريفا لَهُ. [٢] واستدل بعض علماء (أصول اللغة) بهذه الآية أنَّ أصل اللغات توقيفي من الله تعالى حين علم آدم الأسماء كلها. ولا يسلم دليلهم من معارضٍ. [٣]

قال الطاهر ابن عاشور:

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي تَعْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى آدَمَ الْأَسْمَاءَ حَاصِلَةٌ سَوَاءً كَانَ الَّذِي عَلَّمَهُ إِيَّاهُ أَسْمَاءَ الْمَوْجُودَاتِ يَوْمَئِذٍ أَوْ أَسْمَاءَ كُلِّ مَا سَيُوجَدُ، وَسَوَاءً كَانَ ذَلِكَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي ابْتَدَأَ بِهَا نُطْقُ الْبَشَرِ مُنْذُ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ أَمْ كَانَ بِجَمِيعِ اللُّغَاتِ الَّتِي سَتَنْطِقُ بِهَا ذُرِّيَّاتُهُ مِنَ الْأُمَمِ، وَسَوَاءً كَانَتِ الْأَسْمَاءُ أَسْمَاءَ الذَّوَاتِ فَقَطْ أَوْ أَسْمَاءَ الْمَعَانِي وَالصِّفَاتِ، وَسَوَاءً كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ عَلَى الْمَعَانِي أَوْ كُلَّ دَالٍّ عَلَى شَيْءٍ لَفْظًا

---

(١) راجع التحرير؛ المصدر السابق (١/ ٤٠٨)

(٢) واستدل بعض العلماء من هذه الآية على أَن الْأَنْبِيَاء أفضل من الْمَلَائِكَة كَمَا ذهب إِلَيْهِ أهل السّنة. قلتُ: وليس فيها دليل صريح. والراجح أنها ليست أفضلية بإطلاقٍ فبعض البشر أفضل من بعض الملائكة، وبعض الملائكة خير من بعض البشر).

(٣)جاء في التحرير والتنوير (١/ ٤١١):

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللُّغَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ– أَيْ لَقَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى الْبَشَرَ عَلَى لِسَانِ آدَمَ– وَلَا عَلَى عَدَمِهِ لِأَنَّ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ} مُجْمَلَةٌ مُحْتَمِلَةٌ لِكَيْفِيَّاتٍ كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

كَانَ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ خَصَائِصِ الْأَشْيَاءِ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا كَمَا تَقَدَّمَ؛ إِذْ مُحَاوَلَةُ تَحْقِيقِ ذَلِكَ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ. [(١)]

وقوله تعالى: {ثمَّ عرضهمْ} أي المسميات والذوات نفسها بدليل قوله تعالى بعدها. {فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء}، وهذا من لطيف الحذف والإشارة إلى المحذوف بلطيف القرينة من بلاغة القرآن.

(قيل عطف ب(ثم) لِأَنَّ بَيْنَ ابْتِدَاءِ التَّعْلِيمِ وَبَيْنَ الْعَرْضِ مُهْلَةً وَهِيَ مُدَّةُ تَلْقِينِ الْأَسْمَاءِ لِآدَمَ أَوْ مُدَّةُ إِلْهَامِهِ وَضْعَ الْأَسْمَاءِ لِلْمُسَمَّيَاتِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ (ثُمَّ) هُنَا لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ كَشَأْنِهَا فِي عَطْفِهَا الْجُمَلَ لِأَنَّ رُتْبَةَ هَذَا الْعَرْضِ وَظُهُورَ عَدَمِ عِلْمِ الْمَلَائِكَةِ وَظُهُورَ عِلْمِ آدَمَ وَظُهُورَ أَثَرِ عِلْمِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ كُلُّ ذَلِكَ أَرْفَعُ رُتْبَةً فِي إِظْهَارِ مَزِيَّةِ آدَمَ وَاسْتِحْقَاقِهِ الْخِلَافَةَ، مِنْ رُتْبَةِ مُجَرَّدِ تَعَلُّمِهِ الْأَسْمَاءَ لَوْ بَقِيَ غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِهِ مَا حَدَثَ مِنَ بقية الْقصة). [(٢)]

وَإِنَّمَا عرضهمْ على الْمَلَائِكَة لإِظْهَار حكمته تعالى في استخلاف آدم عليه السلام، ولذلك قال سبحانه {أنبئوني} أخبروني وهو أمر تعجيز أي أنا أعلم أنكم عاجزون عن أنْ تخبروا بأسمائها، ولكني بلاغة في حبك الموقف وإلزامكم الحجة أقول لكم أخبروني، فَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّكْلِيفِ بِالْمُحَالِ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ. وَاسْتِعْمَالُ صِيغَةِ الْأَمْرِ فِي التَّعْجِيزِ هنا مَجَازٌ، فالمقصود ليس حقيقة أن يستعلمهم ما لا يعلمه، وهو العليم سبحانه. وهنا قاعدة من قواعد التفسير في فهم غاية الخطاب وقرينة الحال الذي به يتوجه التأويل.

{بأسماء هَؤُلَاءِ إِن كُنْتُم صَادِقين} فِيمَا زعمتم من معرفتكم وعلمكم بآدم وذريته وفعله. [(٣)]

ووجه الملازمة بين الإنباء بالأسماء، وبين صدقهم فيما ادعوه. وهو المقصود من ربط الجزاء بالشرط ف الآية {أنبئوني... إن كنتم صادقين} أن العلم بالأسماء عبارةٌ عن القوة العاقلة الناطقة الصالحة لاستفادة المعارف

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤١٠)

(٢) المصدر السابق (١/ ٤١١)

(٣) قال القشيري في لطائف الإشارات: وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» فيه إشارة إلى أنهم تعرّضوا لدعوى (= لإدعاء) الخصوصية، والفضيلة والمزية على آدم، فعرّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه (لمن يخص وله الخلق والأمر). ولمّا علِم الحقّ سبحانه تقاصر علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات؛ ثم كلّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أنّ الأمر أمره، والحكم حكمه، فله تكليف المستطيع، ردا على من توهّم أن أحكام الحق سبحانه مُعلَّلة باستحسان أرباب الغفلة بما يدَّعونه من قضايا العقول، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء، الحسن ما حكم الله – تعالى– بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه.

«قلت: وفي هذا رد على المعتزلة الذين يقولون –زوراً وسوء أدب مع الله تعالى–: لا يصح أن يكلف الله تعالى بما لا يُستطاع، والحسن ما حسنه العقل والقبيح ما استقبحه. كما قال القشيري في رسالته: (ولكنهم نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا، ونزَّهه الصوفية من حيث العلم فأصابوا)، والمعتزلة وذيولهم يُحَكِّمون عقولهم في أمر الله وحكمته، هداهم الله، ووقانا طريقهم».

وإفادتها، أو عبارة عن معرفة حقائق الأشياء وخصائصها، أو عبارة عن معرفة أسماء الذوات والمعاني، وكل ذلك يستلزم ثبوت العلم والمعرفة بالفعل أو بالقوة.

وصاحب هذا الوصف هو الجدير بالاستخلاف في العالم لأن وظيفة هذا الاستخلاف تدبير وإرشاد وهدي ووضع الأشياء مواضعها دون احتياج إلى التوقيف الإلهي على الأمر في غالب التصرفات، وكل ذلك محتاجٌ إلى القوة الناطقة أو فروعها، والقوى الملائكية على شرفها إنما تصلح لأعمال معينة قد سُخِّرَت تسخيراً لها لا تعدوها ولا تتصرف فيها بالتحليل والتركيب، وما يُذْكَر من تنوع تصرفها وصواب أعمالها إنما هو من توجيه الله تعالى إياها وتلقينه الذي عبَّرتُ عنه بالتسخير. فظهر أن آدم أولى بالخلافة منهم لما وضع الله فيه من القوى والقدرات التي بها يختار ما يعمر به الأرض. وبذلك ظهر وجه ارتباط الأمر بالإنباء بهذا الشرط وقد تحير فيه كثيرٌ من المفسرين. (١)

قَوْله تَعَالَى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ} قدَّموا مقام التقديس والتنزيه لعلم الله تعالى وحكمته؛ وهو مقام الأدب الملائكي مع الله تعالى. وفي تصدير كلامهم بسبحانك إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم: {أتجعل فيها من يفسد فيها} (البقرة: ٣٠) فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار.

والاعتذار وإنْ كان يحصل بقولهم: {لا علم لنا إلا ما علمتنا} لكن حصول ذلك منه بطريق الكناية دون التصريح، ويحصل آخرا لا ابتداء. فكان افتتاح كلامهم بالتنزيه تعجيلا بما يدل على ملازمة جانب الأدب العظيم. وهو أدبٌ يذكره القرآن فيجب أن نتعلمه من كلام الملائكة وتجده في معاملة الأنبياء مع الله تعالى، وفي كلام نبينا عليه الصلاة والسلام.

{لَا علم لنا إِلَّا مَا علمتنا} معناه: أَنَّك يا ربُّ أعظم من أَن نحيط بِشَيْء من علمك؛ إِلَّا الَّذِي علمتنا مِنْهُ بفضلك.

قال البيضاوي رحمه الله: هو اعتراف منهم بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وهو أيضا إظهارٌ لشكر نعمته بما عرَّفهم وكشف لهم ما اشتبه عليهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه. انتهى

{إِنَّك أَنْت الْعَلِيم} أَي: الكامل المحيط في علمه كلَّ شيءٍ ما جَلَّ منه وما دَقَّ {الْحَكِيم} لَهُ مَعْنيانِ أَحدهَا: الْحَاكِم الذي له الْحُكْم، وَهُوَ الْقَاضِي بِالْعَدْلِ. وَالثَّانِي: معنى الْحَكِيم: الْمُحكم لِلْأَمْرِ كَيْلا يتطَرَّق إِلَيْهِ الْفساد.

(١) مستفاد من تفسير التحرير والتنوير للعلامة الطاهر ابن عاشور (١/ ٤١٣)

والحكمة هي وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، وتأتي نتيجة العلم والخبرة بالأمور، ولذلك يجمع القرآن كثيرا بين العلم والحكمة. و الحكيم ذو الحكمة وهي العلم بالشيء وإتقان عمله وهو الإيجاد بالنسبة إليه والتدبير بأكمل ما تستعد له ذات المُدَبَّر (بفتح الباء) والاطلاع على حقائق الأمور .[١]

و{أنت} في قولهم {إنك أنت العليم الحكيم} ضمير فصل، وتوسيطه بعد ضمير وصل بنفس معناه من صيغ القصر فالمعنى قصر العلم والحكمة على الله تعالى، أي العلم التام والحكمة التامة لك يا رب وحدك.

---

(١) أصـل هذه المادة في كلام العرب(حكم) أصـلها يدور على معنى واحد في جميع اسـتعمالاتها وهذا المعنى الواحد هو: المنع. فإذا رأيت هذه اللفظة مهما تصـرفت ومهما تقلبت على أنحاء شـتى من معاني العرب فإنها تدور على هذا المعنى (المنع). الحكيم هو الذي امتنع بما تحلى به من العلم , والقدرة على وضع الأشياء في مواقعها , وامتنع أن يدخل رأيه خطأ أو أن يدخل تصرفه زلل.

فهذا هو الحكيم الذي يبدي الكلام والرأي والفعل عن علم فيوقع ذلك في أحسن موقع.

الحاكم: هو الذي يمنع أحد الخصمين على التعدي على حق الآخر.

الحَكَمَة: هي الحديدة التي توضع في فم الدابة فتمنعها من الانفلات.

الحِكْمة: هي صفة راسخة , توجب لمن اتصف بها صوابا في الرأي وسدادا في العمل , وهي عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

الحُكم: قيل له ذلك لأنه يمنع أحد الخصمين من التسلط على حق الآخر وهكذا..

الحاصـــل أن الحكيم على وزن فعيل , ومعلوم أن فعيل في كلام العرب يأتي بمعنى فاعل ويأتي بمعنى مُفعل , فإذا كان بمعنى فاعل فالحكيم بمعنى: الحاكم , وإذا كان بمعنى مُفعل فهو بمعنى: المُحكم يعني الذي يحكم الأشياء ويتقنها.

سمى الله عزوجل به نفسه بهذا الاسم (الحكيم) , وقد ورد في كتاب الله عزوجل في أكثر من ٩٠ موضعا , وغالبا ما يرد هذا الاسم مقترنا باسم الله العليم , وكذا العزيز , وذلك يخبر عن معنى وهو أن حكمة الله عزوجل صادرة عن علم , وصادرة عن عزة.

فمن اقترانه باسم الله العليم قوله تعالى: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

ومن اقترانه باسم الله العزيز قوله تعالى: (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

ومن اقترانه باسم الله الخبير قوله تعالى: (الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

ومن اقترانه باسم الله التواب قوله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ).

ومن اقترانه باسم الله العلي قوله تعالى: (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)

ومن اقترانه باسم الله الواسع قوله تعالى: (وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً).

الحاصـــل أن اقتران اســـم الله عزوجل الحكيم بأسماء أخرى له دلالة وله معنى , وذلك أن حكمة الله صـــادرة عن علم هذا عندما يقترن بالعليم , وحينما يقترن بالخبير مثلا فهذا يدل على أن حكمة الله عزوجل صادرة عن خبرة وهي معرفة بواطن الأشياء وهذه الخبرة , وحينما يقترن باسم الله عزوجل التواب فهذا يدل على أن الله تبارك وتعالى حينما يوفق بعض العباد للتوبة فإنما ذلك عن علم وحكمة , وهكذا في سائر المواضع.

وقد قال بعض أهل العلم في هذا المعنى كلاما حسـنا وهو قوله وقد تضـمن هذا الاسـم يعني الحكم جميع الصـفات العلى والأسماء الحسـنى إذ لا يكون حكما إلا سميعا بصيرا عالما خبير إلى غير ذلك.

فهو سـبحانه الحكم بين العباد في الدنيا والآخرة في الظاهر والباطن وفيما شـرع من شـرعه وحكم من حكمه وفي كل القضـايا التي قضـاها على خلقه قولا وفعلا , وليس ذلك لغير الله تعالى , ولذلك قال: (وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وقال: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) , فلم يزل حكيما قبل أن يحكم , ولا ينبغي ذلك لغيره.

انتهى من دروس مفرغة للشيخ خالد بن عثمان السبت حفظه الله.

قال ابن عاشور: ثم إن كلامهم هذا يدل على أن علومهم محدودة غير قابلة للزيادة فهي مقصورة على ما ألهمهم الله تعالى وما يأمرهم، فللملائكة علم قبول المعاني لا علم استنباطها.

وهذه ميزة آدم التي بها خلقه الله لخلافة الأرض.

قال الطاهر ابن عاشور: ولا شك أن هذه الخلافة لا تتقوم إلا بالعلم أعني اكتساب المجهول من المعلوم وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها ومقارناتها وهو العلم الاكتسابي الذي يدرك به الإنسان الخير والشر ويستطيع به فعل الخير وفعل الشر كل في موضعه ولا يصلح لهذا العلم إلا القوة الناطقة وهي قوة التفكير التي أجلى مظاهرها معرفة أسماء الأشياء وأسماء خصائصها والتي تستطيع أن تصدر الأضداد من الأفعال لأن تلك القوة هي التي لا تنحصر متعلقاتها ولا تقف معلوماتها كما شوهد من أحوال النوع الإنساني منذ النشأة إلى الآن وإلى ما شاء الله تعالى. انتهى

قَوْله تَعَالَى: {قَالَ يَا آدم أنبئهم بِأَسْمَائِهِمْ} لما عرضهمْ على الْمَلَائِكَة فعجزوا؛ يَقُول الله تَعَالَى لآدَم: أخْبرهُم بِأَسْمَائِهِمْ.

قال ابن عاشور: وابتداء خطاب آدم بندائه {يا آدم} مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى حتى ينال بذلك حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الآمر لأن شأن الآمر والمخاطب– بالكسر– إذا تلطف مع المخاطب– بالفتح– أن يذكر اسمه ولا يقتصر على ضمير الخطاب حتى لا يساوي بخطابه كلَّ خطاب، ومنه ما جاء في حديث الشفاعة بعد ذكر سجود النبي : وحمده الله بمحامد يلهمه إياها؛ فيقول: «يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تُشَفَّع».

وهذه نكتة ذكر الاسم حتى في أثناء المخاطبة. انتهى.

وقال القشيري: من آثار العناية بآدم عليه السّلام أنّه لمّا قال للملائكة: «أَنْبِئُونِي» داخلهم من هيبة الخطاب ما أخذهم عن أنفسهم، لا سيما حين طالبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط به علومهم. ولما كان حديث عن آدم عليه السّلام ردّه في الإنباء إليهم فقال: «أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ»، ولم يقل (أنبئني)، ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهيبة. انتهى

{فَلَمَّا أنباهم بِأَسْمَائِهِمْ} الإنباء إخبارهم بالأسماء، وفيه إيماءٌ بأن الْمُخْبَر به شيءٌ مهم. [١] لأن النبأ هو الخبر المهم. فَأخْبرهُم آدم بأسماء تِلْكَ المسميات، وَالْحِكْمَة الَّتِي لأَجلهَا خلقُوا، فَلَمَّا أخْبرهُم بهَا {قَالَ} الله تَعَالَى،

---

١ يقول الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله:

وجعل الفاعل ضميرا مستتراً؛ لأن سياق الخطاب أو الحال قرينةٌ على أن هذا القول لا يصدر من مثل آدم. وهذا من بلاغة القرآن وإعمال تلك القرائن من أهم قواعد فهم كتاب الله تعالى.

قال الله –سبحانه– لِلْمَلَائكَة: {أَلم أقل لكم إِنِّي أعلم غيب السَّمَوَات وَالْأَرْض} أى كل مَا غَابَ وخفي عَن الْأَبْصَار في السماوات وفي الأرض ومن ذلك قدرات آدم وذريته وإمكاناته التي حلَّاه اللهُ بها لمهمته في إعمار الحياة بتوحيد الخالق. [1]

{وَأعلم مَا تبدون} أَي ما تظهرون من قولكم وجهركم وفعلكم، {وَمَا كُنْتُم تكتمون} تدسون في أنفسكم وتحدثون أنفسكم به من غير أن تظهروه. وَفِيهِ قَوْلَانِ:

أَحدهمَا: مَا كتموا من الفكرة وراء تعجبهم من جعل آدم خليفة. وقد ذكر المفسرون أشياء وأقوال تعارض كونه من المكتوم أصلا، كقولهم: ما خلق الله خلقا أكرم عليه منا.

وَالثَّانِي: مَعْنَاهُ مَا كتمه إِبْلِيس من الحسد والحقد، فعَرَّض الكلام به؛ وقد كان معدودا فيهم حِين خُلِق آدم؛ فَإِنَّهُ قد قَالَ: (إِنْ سُلِّطْتُ عَلَيْهِ لأهلكنه، وإِن سُلِّط عَليّ لَا أطيعه)؛ كما في الحديث. [2]

ها نحن أولاء نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى.. ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة في الأرض.. سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها – وهي ألفاظ منطوقة – رموزاً لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة. وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض. ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان هذه القدرة، والمشقة في التفاهم والتعامل، حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة! وإن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. انتهى (في ظلال القرآن (١/ ٥٦)

(١) وهو تذكيرٌ لهم بقوله لهم في أول المحاورة: {إني أعلم ما لا تعلمون} ، وذلك القول وإن لم يكن فيه: {أعلم غيب السماوات والأرض} صراحة إلا أنه يتضمنه، لأن عموم ما لا تعلمون يشمل جميع ذلك فيكون قوله هنا: إني أعلم غيب السماوات والأرض بيانا لما أجمل في القول الأول لأنه يساويه ما صدقا لأن ما لا تعلمون هو غيب السموات والأرض وقد زاد البيان هنا على المبين بقوله: {وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}.

وإنما جيء بالإجمال قبل ظهور البرهان وجيء بالتفصيل بعد ظهوره على طريقة الحجاج وهو إجمال الدعوى وتفصيل النتيجة لأن الدعوى قبل البرهان قد يتطرقها شك السامع بأن يحملها على المبالغة ونحوها وبعد البرهان يصح للمدعي أن يوقف المحجوج على غلطه ونحوه وأن يتبجح عليه بسلطان برهانه فإن للحق صولة. ونظيره قول صاحب موسى: {سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة} [الكهف: ٧٨، ٧٩] إلى قوله: { وما فعلته عن أمري} [الكهف: ٨٢] ثم قال: {ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا} [الكهف: ٨٢] . فجاء باسم إشارة البعيد تعظيما للتأويل بعد ظهوره. وهذه طريقة مسلوكة للكتاب والخطباء وهي ترجع إلى قاعدة أخذ النتائج من المقدمات في صناعة الإنشاء كما بينته في كتاب «أصول الإنشاء والخطابة» وأكثر الخطباء يفضي إلى الغرض من خطبته بعد المقدمات والتمهيدات وقد جاءت الآية على طريقة الخطباء والبلغاء فيما ذكرنا تعليما للخلق وجريا على مقتضى الحال المتعارف من غير مراعاة لجانب الألوهية فإن الملائكة لا يمترون في أن قوله تعالى الحق ووعده الصدق فليسوا بحاجة إلى نصب البراهين. انظر التحرير والتنوير (١/ ٤١٧)

٢) قال أبو جعفر الطبري في قوله تعالى {وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن معنى قوله: "وأعلم ما تُبدون"، أي ما تُظهرون بألسنتكم، "وما كنتم تكتمون"، وما كنتم تخفونه في أنفسكم.. والذي أظهروه بألسنتهم ما أخبرَ الله جل

أقول: هكذا يأتي بعض بيان العبرة والحكمة من خلق هذا المخلوق الضعيف ليكون خليفة الله في أرضه لعمارتها وتوحيد ربه سبحانه.. هذا البيان يأتي في خضم تعليم لبني الإنسان أن يسلموا لله تعالى حكمته وعلمه.. بيانٌ يأتي في صورة اختبار للملائكة يردهم إلى مكانهم وموقعهم بين المخلوقات، فإن كان كلامهم الذي قالوه استعلاماً عن حكمة الله تعالى في خلق مَن يفسد ويسفك الدماء مع وجودهم وهم أهل الطاعة والتسبيح؛ إنْ كان كلامهم هذا يُشْعِر بأنهم ربما رأوا في منة الله بخلقهم ميزاتٍ لا توجد في غيرهم.. جاءت هنا الآيات لتضع كل مخلوقٍ من مخلوقات الله العاقلة في مكانه ووظيفته. والحقيقة أن اختبار الملائكة بما أودع الله تعالى في آدم وذريته من مَلَكات وخصائص لا توجد في الملائكة الكرام؛ وهي ملكات وخصائص ضرورية لمسيرة حياة الإنسان على الأرض؛ هذا الاختبار هو توضيحٌ لحقيقة عقائدية مهمة: أن الله تعالى يخلق ويهيئ في خلقه من الخصائص والملكات ما يساعد ما خلقه على إتمام مهمته في الوجود... فالعبث لا وجود له في قاموس العقيدة الإسلامية.. لأن الله يقول: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)} (المؤمنون: ١١٥، ١١٦) ... ولذلك يقترن الخلق مع الهداية كثيراً في القرآن العظيم: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)} (الأعلى: ١ – ٤).[1]

ثناؤه عنهم أنهم قالوه، وهو قولهم: {أتجعل فيها.. الآية}؛ والذي كانوا يكتمونه، ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على الله في أمره، والتكبُّر عن طاعته.

قال: والذي قاله ابن عباس يدلّ على صحته خبرُ الله جل ثناؤه عن إبليس وعصيانه إياه، إذْ دعاه إلى السجود لآدم فأبى واستكبر، وإظهارُه لسائر الملائكة من معصيته وكبره، ما كان له كاتمًا قبل ذلك.

قال: وذلك أنّ من شأن العرب، إذا أخبرتْ خبرًا عن بعض جماعة بغير تسميةِ شخصٍ بعينه، أن تُخْرِج الخبر عنه مَخْرَجَ الخبر عن جميعهم، ...كما قال جل ثناؤه: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} (سورة الحجرات: ٤)، ذُكِر أن الذي نادَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم – فنزلت هذه الآية فيه – كان رجلا من جماعة بني تميم، كانوا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخرج الخبر عنه مُخرج الخبر عن الجماعة.

قال ابن جرير: ومن قال إن معنى ذلك كتمانُ الملائكة بينهم لن يخلق الله خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه. فالذي حكي عن الحسن وقتادة ومن قال بقولهما في تأويل ذلك، غيرُ موجودةٍ الدلالةُ على صحته من الكتاب، ولا من خبر يجب به حجة.

انتهى تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٠٠، ٥٠١).

[1] يقول العلامة الفخر الرازي:

وقوله تعالى: {قَدَّرَ} يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِهِ.. فالله سبحانه قدر السموات وَالْكَوَاكِبَ وَالْعَنَاصِرَ وَالْمَعَادِنَ وَالنَّبَاتَ وَالْحَيَوَانَ وَالْإِنْسَانَ بِمِقْدَارٍ مَخْصُوصٍ مِنَ الخلق لا يصلح لها إلا ما قدَّره الله تعالى، وَقَدَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْبَقَاءِ مُدَّةً مَعْلُومَةً وَمِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَوْضَاعِ وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ وَالْهِدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ مِقْدَارًا مَعْلُومًا مثلما قَالَ تعالى: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ، وما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } (الْحِجْرِ: ٢١).. وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِمَّا لَا يَفِي بِشَرْحِهِ الْمُجَلَّدَاتُ، بَلِ الْعَالَمُ كُلُّهُ مِنْ أَعْلَى عِلِّيِّينَ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ. وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ.

والهداية المقترنة بالخلق هى هداية كل المخلوقات صغرت أو كبرت لوظائفها ومهمتها في الحياة والوجود... وهكذا كل عضو وكل آلة في جسم الإنسان والحيوان والنبات؛ وحتى كل خليةٍ حيةٍ مهما صغر حجمها بل أيضا الجماد... فكلٌ منها له وظيفة؛ وكلها هداها الله تعالى لمهمتها في الحياة وهيأ لها من التركيب والخصائص والصفات ما ييسر لها مهمتها ووظيفتها... وهذا في ذاته دليلٌ عظيم من أدلة وحدانية الله لا يدركه إلا المتأملون في خلق الله المتدبرون لمعاني كلامه...

الخلاصة: أن الله تعالى أودع آدم علم المسميات بأسمائها والتعبير عنها ليستطيع العيش على الأرض، وقد أودعه الله العقل وملكات التعلم والمشاهدة لمسيرة الحياة واكتشافها حتى يعيش عمره كله ليعرف طبائع المخلوقات، ويكتشف أسرارها، ويدرك في كل لحظةٍ من حياته عظمة الخالق العظيم، فيسبح ربه على علمٍ ونظرٍ واعتبارٍ في الوجود.. وهذا من أكبر معاني استخلاف آدم وذريته في الوجود.. {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)} (فاطر: ٢٧، ٢٨). فقد جعل الخشية على حقيقتها لا تحصل لغير العلماء الذين يتفكرون في خلق الله ويرون بعقول بصيرتهم قدرة الله تعالى في خلقه وهداياته للكائنات.

وهذه الخاتمة لهذا الدرس الرباني العملي هي الخلاصة الفريدة لعمقٍ مهمٍ من أعماق العقيدة في الله تعالى، وأبعادها الثابتة في الإسلام. وهو التسليم الكامل لله تعالى في علمه وحكمته وتقديره وتدبيره.

أَمَّا قَوْلُهُ تعالى:{ فَهَدى } عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ الْقُوَى فِيما خلق سبحانه بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ قُوَّةٍ مَصْدَرًا لِفِعْلٍ مُعَيَّنٍ، وَيَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِهَا تَمَامُ الْمَصْلَحَةِ ومهمة الخلق، وَقَالَ آخَرُونَ: هَدَاهُ لِلْمَعِيشَةِ وَرَعَاهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هَدَى الْإِنْسَانَ لِسُبُلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَعَلَهُ حَسَّاسًا مدركاً مُتَمَكِّنًا مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى مَا يَسُرُّهُ وَالْإِحْجَامِ عَمَّا يَسُوءُهُ؛ كَمَا قَالَ تعالى: { إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } (الْإِنْسَانِ: ٣)، وَقَالَ: { وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها } (الشَّمْسِ: ٧، ٨)، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: قَدَّرَ فَهَدَى وَأَضَلَّ، فَاكْتَفَى بِذِكْرِ الهداية عن الإضلال وكلاهما من الله..وَقَالَ آخَرُونَ: هَدَى أَيْ دَلَّهُمْ بِأَفْعَالِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَجَلَالِ كِبْرِيَائِهِ، وَنُعُوتِ صَمَدِيَّتِهِ، وَفَرْدَانِيَّتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى فِي العالم أفعال مُحْكَمَةً مُتْقَنَةً مُنْتَسِقَةً مُنْتَظِمَةً، فَهِيَ لَا مَحَالَةَ تَدُلُّ عَلَى الخالق سبحانه، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: {فَهَدى }.. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَكْرَهَ عَبْدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا عَلَى ضَلَالَةٍ، وَلَا رَضِيَهَا لَهُ وَلَا أَمَرَهُ بِهَا، وَلَكِنْ رَضِيَ لكم الطاعة، وَأَمَرَكُمْ بِهَا، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. انتهى من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢٩) بتصرف وحذف.

قصة الصراع بين آدم وإبليس وذريتهما.

هنا يبتدأ فصل جديد في قصة آدم – عليه السلام – أو لنقل قصة البشرية بأسرها منذ ابتدائها وإلى مصيرها النهائي. وذلك الصراع الطويل المرير بين الخير والشر. بين (آدم) وذريته، و(إبليس) وذريته. فهل سيثبت الإنسان جدارته بالتكريم الإلهي، أم سيُصَدِّق إبليسُ؛ ذلك الشيطان اللعين ظنَّه على بني آدم، ويثبت أنهم ما كانوا أهلاً للتكريم. إنها قصة الاستكبار والغرور؛ قصة الخطأ والتوبة؛ قصة الضعف الإنساني أمام الشهوات، وقوة ذلك المخلوق في رجوعه لربه سبحانه والاحتماء بكنف منهجه...

{وإذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا}.

قال العلامة الكوراني: السجود في اللغة الخضوع والاتضاع، وهما المراد بالآية، وتخصيصه بوضع الجبهة على الأرض عرفٌ حادث، ويجوز أن يكون مرادا (أي أنه سجود حقيقي، ولكن ليس سجود عبادة، فالتكريم لآدم والعبادة في امتثال أمر الله، وهو ما فهمه إبليس فلم يقل (أأعبد مَنْ خلقت طينا؟ ولكن قال: أأسجد)، واختلاف الأحوال باختلاف الأوقات والشرائع لا يُلزِم اتفاقا على كيفيته، وقد سبق أن الأمر بالسجود كان سابقاً على خلق آدم). انتهى بتصرف [١]

فها هو التكريم في أعلى صورةٍ، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنْ الله وهبه من الأسرار ما يرفعه على الملائكة في ناحيةٍ من النواحي. لقد وُهِب سر المعرفة، كما وُهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق. وإن ازدواج طبيعته التي فيها الإفساد وفيها المعرفة وتكريم الرب سبحانه، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله وعمارة الكون بمنهج الله تعالى. إن هذا كله هو بعض أسرار تكريمه. فهو يقاوم نفسه المجبولة على الفساد والشيطان الذي يسول له الإفساد ويشق طريق الخير ويأخذ جانب التكريم. لقد قال بعضهم مرةً: إن الإنسان يستطيع أن يصل بطاعة الله إلى مصاف الملائكة، وكذلك يستطيع أن يهبط بمعصيته إلى دركات الشياطين. إنه الكائن الوحيد الذي يحمل بين جنبيه ملاك وشيطان في الوقت عينه، أفلا يستحق هذا القدر من العظمة في خلقه السجود له؟!

---

(١) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني– شهاب الدين أحمد بن إسماعيل الكوراني– ١/٣٨١– دار الحضارة– المملكة العربية السعودية.

ويبقى المعنى الأرقى في تكريم آدم حين أمر الله الملائكة بالسجود لعظمة الله تعالى وبديع صنعته والمعاني التي أودعها فيه.. فلم يكن السجود لشخص آدم، والسجود ههنا معنى من معاني التكريم وليس سجود العبادة المعهود. (١)

ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوي الجليل، وإكراماً لصنعة الله في آدم – عليه السلام – وهذا المبدأ الراقي الذي يبين نظرة الإسلام للإنسانية يرسمه القرآن العظيم حين يعلنها صريحةً { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }(المائدة: ٣٢) (٢)، فالحقيقة أن إزهاق النفس البشرية بغير حقٍ هو في الإسلام جريمةً يفسرها الإسلام على أنها إهانةً للرب العلى في نقض صنعته بغير حق، وامتهان ما كرّمه سبحانه، وعلى النقيض فإن تكريم هذه النفس البشرية هو تكريم لصنعة الله سبحانه.. ولذلك كان القتل من أعظم الذنوب في الإسلام.. (٣)

هذه هي نظرة الإسلام للإنسانية–كل الإنسانية–وحرمة دمائها وأعراضها وأموالها. فكيف يرى العالم المتحضر بكل فلسفاته ودياناته وعقائده الإنسان؟!!

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٣٢)

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: كَانَ هَذَا سُجُودُ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} (يُوسُفَ: ١٠٠) .

وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ مُعَاذٌ: قَدِمْتُ الشَّامَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ، فَقَالَ:

"لَا لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا" (رواه أحمد ومسلم) وَرَجَّحَ هذا المعنى الفخر الرَّازِيُّ في تفسيره.

٢ قال فيها البغوي في تفسيره: من قتل نفسا بغير نفس: أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ، أو فساد في الأرض: أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق، فكأنما قتل الناس جميعا من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسن القتل ، وجرأ الناس عليه ، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا: أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعا ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب، ترهيبا عن التعرض لها، وترغيبا في المحاماة عليها. اهـ.

(٣) فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم: " أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء". رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله": لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما". وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفكُ الدم الحرام بغير حله".. رواه البخاري.

أبداً لن يبلغ فكرٌ أو مذهب او اعتقاد ما بلغه الإسلام من تكريمٍ للبشرية، وأى تكريم فوق أن يصرح القرآن أن الروح التي تسري في الإنسان هي خلقٌ خلقه اللهُ وخصَّه خصوصاً وأضافه لذاته تكريما من أجل الإنسان، وأن الإنسان ذاته هو صنعة مباشرةً ليدي الله تعالى، وأنه مخلوق في أحسن تقويم.

جاء في (أضواء البيان):

قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)} لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ أَوْ بَعْدَ خَلْقِهِ؟ وَقَدْ صَرَّحَ فِي سُورَةِ «الْحِجْرِ» وَ «ص» بِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ. فَقَالَ فِي «الْحِجْرِ»: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (الْآيَةَ ٢٨، ٢٩)، وَقَالَ فِي سُورَةِ «ص» : {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (الْآيَةَ ٧١، ٧٢). [١]

- يقول تعالى: {فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}.

فأخبر –جل ثناؤه– أنه قد أمر إبليس فيمن أمرَه من الملائكة بالسجود لآدمَ. ثم استثناه جل ثناؤه ممن أخبر عنهم أنهم فعلوه من السجود لآدمَ. فالاستثناء هنا منقطع متعلق بأمر السجود وليس الاستثناء على حقيقته لإبليس من جنس الملائكة. ويوحي السياق أن ابليس لم يكن من جنس الملائكة، إنما كان معهم. فلو كان منهم ما عصى الله أبداً؛ وصفتهم الأولى أنهم {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُون}.. والاستثناء هنا لا يدل على أنه من جنسهم، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء، كما تقول: جاء بنو فلان إلا أحمد. فيجوز أن يكون ليس منهم وإنما هو عشيرهم؛ وإبليس من الجن بنص القرآن، والله خلق الجان من مارج من نار. وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة.

ويؤكد أنَّ استثناء إبليس كان من جنس الذين توجَّه لهم الخطاب بالسجود قولُ الله عز وجل: {.. إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} (سورة الأعراف: ١١).

قال صاحب(الكشاف): لما اتصف بصفات الملائكة جُمِع معهم في الآية واحتيج إلى استثنائه، ويدل على ذلك قوله تعالى: {إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} (الكهف: ٥٠). وكُرِّرَت قصة إبليس في سبعة مواضع: في (البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، و ص) تسليةً له ﷺ، وعبرةً لبني آدم، فلا يغتر العابدُ ولا يقنط العاصي. انتهى

(١) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٣)

قال أبو جعفر: وإبليس هو على وزن "إفعِيل"، من (أبلس– إبلاسا)، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن، وكما قال الله جل ثناؤه: {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (الأنعام: ٤٤)، يعني به: أنهم آيسون من الخير، نادمون حزنًا.. عن ابن عباس، قال: إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبةً لمعصيته. وعن قتادة قال: كانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته. [١]

قوله: {أَبَى} أي امتنع أشد الامتناع. والتعبير به يوحي بشدة خذلان الله تعالى لهذا اللعين. قال الراغب: والإباء: شدة الامتناع، فكل إباء امتناع وليس كل امتناع إباءً. ومنه قوله تعالى: {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} (التوبة/ ٣٢) ، وقال: {وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ} (التوبة/ ٨) ، وقوله تعالى: {إلا إبليس أَبى وَاسْتَكْبَرَ }(البقرة/ ٣٤) ، وقوله تعالى:{إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى} (طه/ ١١٦) وروي: «كلّكم في الجنّة إلا من أبى. قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى. أخرجه البخاري»، ومنه: رجل أَبِيٌّ: ممتنع من تحمّل الضيم. انتهى. [٢] والواجب على المفسر أو المتدبر لكتاب الله تعالى هو تأمل المستوى الدلالي للكلمة على معناها، فإن القرآن العظيم يستعمل اللفظة ويعدل عن استعمال غيرها مما هو يقاربها في المعنى لنكتةٍ تحملها من المعاني الكثيرة الدلالات. ودائما في كل (عدولٍ) في القرآن نكتةٌ، وهو ما أسميه من ممارستي للتدبر (التوقيع الأدائي للقرآن)؛ فكلام الله له بصمةٌ في الكلام لا تشابه أى كلامٍ من كلام البشر، والفرق بين كلام الله تعالى– وكلام المخلوقين كالفرق بين الله وبين خلقه.

{وَاسْتَكْبَرَ} من عطف السبب على المسبَّب؛ أي أبى وامتنع من أجل أنْ طلب التكبر. وزيادة (الألف والسين والتاء) عند أهل اللغة لها معنيان: إما تدل على طلب الفعل أو تدل على تضخيم مبالغة الفعل، فمن الأول قوله {واستكبر} أى طلب الكبر والتكبر، إذ ليس يليق ولا يصح الكبر والتكبر لغير الله تعالى، فهو الكبير الذي له كل الصفات العلى. ومن الثاني قوله تعالى: {وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} يقول: قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره– كما فسره الطبري– والمقصود هو المبالغة في فعل العلو بالقهر.

١راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٠٩–٥١٢)، واختلاف العلماء في هل إبليس من جنس الملائكة أم غيرهم وما ارتضيته أثبته في المتن. وما أراه أن (إبليس) ليس اسمه وربما كان لقبه بعد أن عصى الله –تعالى– مستكبرا فأبلسه الله من رحمته ومن يومها صار إبليسا. ونُقل عن بعض أهل الكتاب أن اسمه (عزازيل) ولم يثبت في أيٍ من السنة.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني– ١/ ٥٨– دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ} لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مُوجِبَ اسْتِكْبَارِهِ فِي زَعْمِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (الأعراف\ ١٢)، وَقَوْلِهِ: {قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} (الحجر \ ٣٣). [(١)]

كان يحسب إبليس لنفسه استحقاق الخيرية، ويحسب استحقاق القربة والخصوصية، فلا سالف طاعةٍ نفعه، ولا آنف رجعةٍ رفعه، ولا شفاعة شفيع أدركته، ولا سابق عناية أمسكته. ومن غلبه القضاء لا ينفعه العناء.

وقوله تعالى: {وكان من الكافرين} قال الجمهور: معناه وكان في علم الله تعالى من الكافرين، وقال بعضهم: معناه (وصار من الكافرين)، كقوله تعالى: {وحال بينهما الموج فكان من المغرقين} أى فصار من المغرقين.

قلتُ: ونكتة هذا التعبير أنَّ ما كان في علم الله سبحانه– صار. ولا رادَّ لذلك. فكان بمعنى صار.

وفي الآية دليلٌ لعلماء الأصول على أن الأمر يأتي في القرآن والسنة ومعناه الوجوب والفورية إلى أن يأتي صارفٌ قوي إلى معنى غير الوجوب بدليل أن الله حاسب إبليس على عدم الامتثال لأمره فوراً، ولم يتعلل إبليس أنه ليس الوجوب ، ويدل عليه كذلك قوله تعالى: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص/ الآية ٧٢).

وفي الآية أيضا دليلٌ لعقيدة أهل السنة أنَّ السعيد مَن كتب الله تعالى له السعادة، والشقي مَن كُتب له الشقاءُ، ولا يتخلف قدرُ الله، وأن مَن طلب واختار السعادة هيا الله له أسباب الطاعة، ومن طلب المعصية وكله الله إلى نفسه، ولا يظلم ربك أحدا.

---

(١) يقول العلامة الشنقيطي:

مِثْلُ قياس إبليس نفسه على عنصره، الذي هو النار وقياسه آدم على عنصره، الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم. ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى: (اسجدوا لآدم) يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسدُ الاعتبار.

وإليه الإشارة بقول صاحب «مراقي السعود»: وَالْخُلْفُ لِلنَّصِّ أَوْ إِجْمَاعٍ دَعَا ... فَسَادَ الِاعْتِبَارِ كُلُّ مَنْ وَعَى.

فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس، وقياس إبليس هذا لعنه الله باطل من ثلاثة أوجه: الأول: أنه فاسد الاعتبار ؛ لمخالفة النص الصريح كما تقدم قريبا.

الثاني: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار ؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة، والنواة فيعطيكها نخلة.

وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة، وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة تعلم أن الطين خير من النار.

الثالث: أنا لو سلمنا تسليما جدليا أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم ؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيع الفرع وضيعا، كما قال الشاعر: إِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ ... قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا.

وَقَالَ الْآخَرُ: وَمَا يَنْفَعُ الْأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ ... إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ. انتهى من أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٣)

****

في هذه الآية تبدو مبادئ وأصول الشر مُجَسَّمة: عصيانُ الجليل سبحانه! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله. والعزة بالإثم. والاستغلاق عن الفهم. والغرور، والحسد. ومعارضة أمر الله تعالى بالعقل والهوى. ومعارضة شرع الله وما نص عليه بالقياس والتأويلات الفاسدة...

كلُّها آفات تميز الشر و(الشياطين من الجن والإنس) في كل عصرٍ وفي كل مكانٍ.. يعلِّمُها القرآن لكل الأجيال التي تخلف آدم كي تتعظ؛ فلا تسلك طرق العدو اللعين ولا تتبع ضلالاته وزلاته الكبرى... {وكان من الكافرين}.. وكفرُ إبليس لم يكن جهلاً بالله تعالى؛ فهو من أعلم الناس به، وإنما كان كفره استكباراً عن أمره، وجحوداً لحكمته وقدره، ووقوفاً مع العصيان والهوى والقياس الباطل. وهذا المعنى من معاني الكفر يتجاهله الكثيرون وهو من أهم وأشهر معاني الكفر بالله تعالى.

قال الإمام الجليل ابن جرير: وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريعٌ لضُربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعضٍ من الحق. انتهى.

روى الإمام مسلم في صحيحه – بسنده – عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – ﷺ: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي؛ يقول: يا ويله (وفي روايةٍ: يا ويلي)؛ أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فأَبَيْتُ (وفي روايةٍ: فعصيت) فلي النار).

أبى إبليس طاعة ربه وقاس بعقله الفاسد {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)} (الأعراف: ١٢).. ذكر البغوي عن ابن عباسٍ قال: أول من قاس إبليسُ فأخطأ القياس، فمن قاس الدين بشيءٍ من رأيه قرنه الله –تعالى– مع إبليس. وكذلك روى مثله ابن جرير الطبري في التفسير عن الحسن وابن سيرين.. ثم قال: يعنيان بذلك القياس الخطأ. انتهى.

كانت تلك أولى الخطايا وأكبرها: الكِبْرُ والحسد، ومعارضة أمر الله تعالى بالسفسطة والأقيسة العقلية الفاسدة التي يقودها الهوى. قال ابن كثير رحمه الله: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ" (رواه مسلم عن ابن مسعود).. وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبْرِ –وَالْكُفْرِ– وَالْعِنَادِ مَا اقْتَضَى طَرْدَهُ وَإِبْعَادَهُ عَنْ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ الْقُدْسِ. انتهى.

والآن. لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة. المعركة بين أصول وصفات الشر في إبليس، ومبادئ الخير في خليفة الله في الأرض. تلك المعركة الخالدة في ضمير الإنسان ومسرح الحياة على الأرض.. وقد بدأت المعركة في السماء، وتستمر على الأرض، فيكون المعنى: أن الرجوع للسماء يكون حين ينتصر الإنسان على الشر ويعصي الشيطان ويطيع منهج ربه سبحانه.

إنها المعركة التي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بربه ويرتقي بإرادته ويقف مع تكريم الله فيه، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته. ويبعد عن ربه ويترك منهجه ونوره؛ ولعل هذا الدرس يتبين لنا في وضوح من خلال خير البشرية وهم الأنبياء؛ وكيف أنهم حين اعتصموا بالله وحكّموا إرادتهم وقيمهم الراقية استطاعوا أن ينتصروا على الشهوة والشر... ويكفيك هذا المثل الإنساني الراقي في يوسف عليه السلام.. {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)} (يوسف: ٢٣). فكانت الإرادة وتحكيم المبادئ الراقية وقيم الوفاء والطهارة والعقل، وأما الاعتصام بالله ففي قوله عليه السلام: { معاذ الله} وقوله بعد ذلك: {رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)} (يوسف: ٣٣).

إنها المعركة الممتدة في عمق الزمان، وتلك هي ضوابط النصر والنجاة والفلاح، فهل من متعظ؟!

****

- قال تعالى: {وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين}.

وفي هذه الآية قال المفسرون: إن سجود الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح، وحينئذ كان امتناع إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حلَّت عليه اللعنة. وأُخرِج إبليسُ من الجنة حين لُعِن. وإن عدو الله إبليس أقسم بعزة الله ليُغوِيَنَّ آدم وذريته وزوجَه، إلا عباد الله المخلصين منهم... قالوا: وأُسكِن آدم الجنة. فكان يمشي فيها وَحْشًا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدةٌ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولِم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ. قالت له الملائكة – ينظرون ما بلغ علمه–: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولِم سُميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حيّ. فقال الله له: {يا آدمُ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رَغدًا حيث شئتما}.

قال الطبري بعد أن روى ما رواه بأسانيده عن ابن عباس وابن مسعود: فهذا الخبر يُنبئ أن حواء خُلقت بعد أن سَكن آدمُ الجنةَ، فجُعِلَت له سكنًا. وقال آخرون: بل خُلقت قبل أن يسكن آدم الجنة. [١]

قلتُ- جامعه: وظاهر الآية يؤيد القول الأخير، فالخطاب لآدم وزوجه بدخول الجنة يقتضي وجودها معه قبل دخول الجنة. وأما هذا الخبر الذي رواه الطبري وغيره فهو من الاسرائيليات التي نقلها الصحابة وللأسف تعارض ظاهر القرآن كما بيَّنًا. ويؤيد أنها من الإسرائيليات رواية ابن اسحق التي ذكرها الطبري- أيضاً- وقال فيها: (فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة)، وفيها أن خلق حواء كان من ضلع آدم الأيسر، وهذا قولٌ لا دليل عليه.

بل الحق هو ما صرح به القرآن أنَّ حواء خُلِقت من جنس خلق آدم وليس من ضلعه ولا من جسمه كما في الآية: {خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجَها} وتعود (منها) على النفس الواحدة، وليس الضلع أو غيره. والاسرائيليات لا نصدقها ولا نكذبها كما أخبرنا رسول الله -ﷺ- ولكن إن عارضت ظاهر القرآن أو أصلا من أصول الدين فإننا نردها. ولا يوجد في حديث رسول الله ما يخبرنا بأيٍ من هذا، فيكفينا ظاهر القرآن، فإن فيه الحق والخير كله.

قوله تعالى: {وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا}. [٢] قال أبو جعفر: أما الرَّغَد، فإنه الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يُعنّي (أي لا يُتعب) صاحبه. يقال: أرْغد فلان: إذا أصاب واسعًا من العيش الهنيء، كما قال امرؤ القيس بن حُجْر: بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا.... يَأْمَنُ الأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدْ. انتهى

والشجرة: اسْم لما يقوم على السَّاق، والنجم اسْم لما (لَا) يقوم على سَاق. قَالَ الله تَعَالَى: {والنجم وَالشَّجر يسجدان}. [٣]

والمعنى أن الله تعالى أباح لآدم وزوجته أن يتمتعا بكل شيء في الجنة وأن يأكلا هنيئا من غير تعبٍ ولا معاناة في تَكَسُّب القوت. إلا أنه امتحنهما بترك شجرةٍ واحدةٍ من أشجار الجنة.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥١٢) وما بعدها.

(٢) من نكت البلاغة ما استشكله بعضهم بأنه أتى في هذه الآية بالواو في قوله: {وَكُلاَ} وفي آية الأعراف بالفاء، هل لذلك من حكمة أجاب بأن الأمر هنا في هذه الآية كان داخل الجنة، فلا ترتيب بين السكنى والأكل، وفي آية الأعراف كان خارجها، فحسن الترتيب بين السكنى والأكل ا. هـ. والحق أن يقال: إن ذلك ظاهر إن دل دليل على اختلاف القصة ولم يوجد فالقصة واحدة، والأمر في الموضعين يحتمل أن يكون داخل الجنة أو خارجها، فعلى الأول معنى اسكن دم على السكنى، والفاء في آية الأعراف بمعنى الواو، وعلى الثاني معناه ادخل على سبيل السكنى، فتكون الواو بمعنى الفاء.

(٣) تفسير السمعاني (١/ ٦٨)

قال القاضي البيضاوي: {وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ} فيه مبالغةُ تعليقِ النهيِ بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغةً في تحريمه، ووجوب الاجتناب عنه، وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورث داعيةً، وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم»، فينبغي أن لا يحوما حول ما حرَّم الله عليهما مخافةَ أن يقعا فيه. انتهى [١]

كما في حديث النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، قَالَ: قال النَّبِيَّ عليه الصلاة والسَّلام: (الحَلالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ، فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ (أي ما اشتبه ولم يتبين) مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ (أي ظهرت حرمته) أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ، أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، والمعاصي حِمَى اللَّهِ، فَمَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ). وهذا لفظ البخاري.

لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة وكل أشجارها ونعيمها إلا شجرة- شجرة واحدة- وربما كانت ترمز في قصة البشرية للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض. فبغير المحظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد العاقل الذي لا تتملكه شهوته من الحيوان المَسُوق بفورة شهواته، وبغير ذلك الممنوع لا يُمتحَن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد الرباني، والتقيد بالشرط في تكريم الإنسان وخلافته في الأرض. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادةٍ ولا تحكمٍ في شهواتهم هم من عالم البهيمية، ولو بَدَوا في شكل الآدميين! وقد قرأتُ لبعض العلماء: أن الإنسان قد رُكّبت فيه الشهوة والعقل؛ فإن غلبت شهوته عقله صار إلى الحيوان الأعجم أقرب، وإن غلب عقله هواه وشهواته صار إلى الملائكة أقرب..

قال ابن كثير: وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} فَهُوَ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ. وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ: مَا هِيَ؟ قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلَا مِنْهَا، وَلَا عِلْمَ عِنْدِنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ؟

لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ. [٢]

قلتُ- متدبره: إن التفاصيل التي لا تفيد في جانب الموعظة، والهداية، والمغزى العقائدي، والأخلاقي لا تجد لها مكاناً في القصص القرآني، وبذلك يتمحَّض القصص القرآني ليؤدي غرضه العظيم في منظومة النور الرباني في القرآن دون تفاصيل مُمِلَّة تخرج عن المغزى والهدف اللذيْن جاء بهما كتاب الله. وهذه قاعدةٌ مهمة في تدبر

---

١ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٧٢)

٢ تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٣٤)

كتاب الله تعالى ومعرفة وجوه تصرفاته. فهو يعمد إلى الهدف والفائدة من أقرب طريقٍ، وبكل وسيلةٍ، وبلا تكلفٍ، أو زيادةٍ لا تفيد، فإذا وجدت فيه تفاصيل فاعلم أن لها من دلالات التربية والهداية والبلاغة الكثير. فإن القرآن ليس به فضول.

قال ابن كثير عن أمثال البحث في شجرة آدم المُحَرَّمة: وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى أَمْرٍ دِينِيّ؛ وَلِهَذَا يَخْتَلِفُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي هَذَا كَثِيرًا، وَيَأْتِي عَنِ الْمُفَسِّرِينَ خِلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَوْنَ كَلْبِهِمْ، وَعِدَّتَهُمْ، وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ؟ وَأَسْمَاءَ الطُّيُورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ، وَتَعْيِينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْقَتِيلُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} (الْكَهْفِ: ٢٢).

فَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَدَبِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، ... ثُمَّ أَرْشَدَ عَلَى أَنَّ الِاطِّلَاعَ عَلَى عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، فَقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} فَإِنَّهُ مَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: {فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا} أَيْ: لَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ. انتهى [١]

****

- قال تعالى: {فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه}.

اختلفت القُراء في قراءة ذلك. فقرأته عامتهم: "فأزلَّهما" بتشديد اللام، بمعنى: استزلَّهما، من قولك زَلَّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزلَّه غيره: إذا سبَّب له ما يزلّ (أي يخطأ) به في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله –تعالى – إلى إبليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة، فقال: "الشيطانُ فأخرجهما" . والشيطان مأخوذٌ– لغةً– من شاط بمعنى احترق لأنه محروق بالنار، أو من شطن بمعنى بعد لأنه

---

١ تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٩)

بعيد عن رحمة الله تعالى. فقد وسوس لهما [١] وأقسم كاذبا أنه ينصح لهم، فكانَ هو الذي زيَّن لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة. وليس كما تقول الروايات الظالمة عن اليهود والنصارى أنها حواء التي زينت لآدم الخطيئة.

وقرأه آخرون: "فأزَالهما"، بمعنى إزَالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه. [٢] والمعنى أنه أبعدهما عن الجنة. "فأخرجهما مما كانا فيه" من نعمة الله عليهما ونعيمه الذي أعده لهما ورغد العيش إلى الكد والعناء ومقاساة الحياة وتطلب الأرزاق كما قال تعالى في سورة " طه" : {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}. وقد جعل الخروج لكليهما– آدم وحواء– ثم جعل الشقاء مفردا لآدم، وذلك إيحاءٌ أن طلب الرزق والقيام على معيشة المرأة هو من مهام الرجال.

وقد جاء هذا المشهد أيضاً مُفصلا في سورة الأعراف: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)} (الأعراف: ٢٠ – ٢٢)

واللطيف هنا أن المشهد جاء مُختزلا مُختصَرا في (سورة البقرة) لأن السياق فيها سياق كشف النعمة على آدم بتكريمه، وإلزامه الحجة من أجل التمسك بطاعة الله –سبحانه وتعالى– ورفع راية التوحيد المطلق لله في العبادة والطاعة؛ لأنه وحده المُنعِم بجلائل النعم ودقيقها، ومنها تكريم آدم وإسكانه الجنة.

---

(١) اختلف المفســرون في كيفية وسـوسـته لهما فقالوا: وهو خارج الجنة وهما داخلها لكن أتوا على بابها فقال لهما ذلك، قالوا: ويحتمل أنه دخل الجنة على صورة دابة من دوابها وخزنتها غفلوا عنه، قالوا: ويحتمل أنه دخلها في فم الحية، ويحتمل أنه وسوس في الأرض فوصلت وسوسته لهما. وأيًّا كان ذلك فإننا نؤمن أنَّ من قدر الله تعالى أنْ بلغتهما وسوسته فكان منهما ما كان. ولله في خلقه المثل الأعلى والحكمة.

(٢) راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٢٤)

أما السياق الذي جاء بتفاصيل غواية إبليس – اللعين– لأبينا آدم في (سورة الأعراف، وسورة "طه") فكان سياق التركيز على عداوة الشيطان وذريته لآدم وذريته، وتحذير الناس من تلك العداوة التي كشفت سوأةَ أبينا آدم من قبلُ بطاعته لهذا الكذاب المخادع الشيطان الرجيم.

فتأمل كيف أن تفاصيل المشاهد في القصص القرآني تتنوع لخدمة السياق التي تجيء فيه منسوقةً مع السياق التركيبي المنطقي المناسب للآيات قبلها وبعدها. وبذلك نرى أن القصص القرآني لم يكن أبدا مُكَرَّراً إلا عند الذين لم يمتعوا بصائرهم وعقولهم بنور تدبر، وفهم طريقة القرآن في عرضه القصص وتنويعه.

ويا للتعبير المصور: {أزلَّهما}.. إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها. وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة، ويدفع بأقدامهما فتزِلَّ وتهوي!

عندئذ تمت التجربة: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية.

وكل آفة البشرية من هذا النسيان، وهذا الضعف أمام الشهوة والغواية. وهما سببا الزلل الإنساني في أي طريقٍ، ولا يأتي الخطأ والخطيئة إلا منهما؛ كما قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} (طه: ١١٥، ١١٦) قال ابن عطية الأندلسي والقرطبي: والعزم المضي على المُعْتَقَد في أي شيءٍ كان؛ وآدم – عليه السلام – قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة طاعةً لربه؛ لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده.

ومعنى قوله: {ولم نجد له عزما} فقال ابن عباس وقتادة: لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة، ومواظبة على التزام الأمر. قال النحاس: وكذلك هو في اللغة؛ يقال: لفلان عزم أي صبر وثبات على التحفظ من المعاصي حتى يسلم منها ، ومنه قوله تعالى: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} . وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفي: لم نجد له حفظا لما أمر به؛ أي لم يتحفظ مما نهيته حتى نسي وأكل من الشجرة متأولاً أو طامعاً بكرم الله تعالى. انتهى بتصرف.

إنه نسيانٌ– ولو عارضٌ– لعهد الله ووعده ووعيده، وضعفٌ يعتري العزيمة في القيام بما أمر الله به أو ترك ما نهى الله عنه. ولذلك يضاد هاتين المصيبتين في المؤمن: العِلْم والذِّكر، ومعه الصبر. فبالعلم الجازم والذكر الدائم لا ينسى الإنسان عهد الله، وبالصبر يجاهد نفسه على القيام بأمر الله، ويجاهد نفسه على ترك المعاصي، ولذلك قال الشافعي عن سورة العصر إن جمعت الدين كله، فقد أقسم الله تعالى{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } ثم استثنى من خسران الإنسان على عمومه {الَّذِينَ آمَنُوا} فهذه قوة العلم والذكر للعهد بين

الإنسان وبين الله تعالى، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فهذه قوة العزم والصبر وتصديق العملِ للعلم، {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} يوصي بعضهم بعضا بالعلم والذكر للعهد بين الإنسان وبين الله تعالى، {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} يوصي بعضهم بعضا بالعزيمة على عمل الصالحات وترك المعاصي. فهذا هو السبيل الوحيد لنجاة الإنسان من الخسران، وهو الشفاء من مرض أبينا آدم الذي شخَّصه الله تعالى بنسيانه العهد، وضعفه في العزم.

قول العلماء في معصية آدم- عليه السلام- ونكتة منهجية.

وأجيب بأجوبةٍ منها: أنَّ آدم اجتهد فأخطأ حيث ظنَّ النهي عن الأكل هو من شجرةٍ بعينها ولم يراعي الأمر في جنسها، فأكل من جنسها، فسمى الله خطأه معصية، فلم يقع منه صغيرة ولا كبيرة، وإنما هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين فلم يتعمد المخالفة. ويخالف هذا أن الله تعالى قال: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} (طه: ١١٥، ١١٦) وقوله تعالى بعدها: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (طه: ١٢٠، ١٢١) فدلَّ على أن النهي كان عن شجرةٍ بعينها، وأنَّ وسوس للأكل من هذه الشجرة نفسها وقد أكل منها عاصيا كما دلَّ عليه ظاهر الآيات.

وقال أبو محمدٍ عليّ بن حزم: وَمِنْه مَا يكون عَن قصد إِلَى خلاف ما أُمر بِهِ وَهُوَ يتأول فِي ذَلِك الْخَيْر وَلَا يدْرِي أنه عَاص بذلك، أَو أَن ذَلِك مُبَاح لَهُ؛ لِأَنَّهُ يتأول أَن الْأَمر الْوَارِد عَلَيْهِ لَيْسَ على معنى الْإِيجَاب وَلَا على التَّحْرِيم، لَكِنْ إما على النّدب أَن كَانَ بِلَفْظ الْأَمر، أَو الْكَرَاهِيَة إِن كَانَ بِلَفْظ النَّهْي.

قال: وَهَذَا شَيْء يَقع فِيهِ الْعلمَاء وَالْفُقَهَاء الأفاضل كثيرا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَقع من الْأَنْبِيَاء –عَلَيْهِم السَّلَام– ويؤاخَذون بِهِ إِذا وَقع مِنْهُم. وعَلى هَذَا السَّبِيل أكل آدم من الشَّجَرَة.

وَمعنى قَوْله تَعَالَى {فتكونا من الظَّالِمين} أَي ظالمين لأنفسكما، وَالظُّلم فِي اللُّغَة وضع الشَّيْء فِي غير مَوْضِعه، فَمن وضع الْأَمر أَو النَّهْي فِي مَوضِع النّدب أَو الْكَرَاهِيَة فقد وضع الشَّيْء فِي غير مَوْضِعه. وَهَذَا الظُّلم من هَذَا النَّوْع من الظُّلم الَّذِي يَقع بِغَيْر قصد وَلَيْسَ مَعْصِيّة، وليس الظُّلم الَّذِي هُوَ الْقَصْد إِلَى الْمعْصِيَة وَهُوَ يدْرِي أَنَّهَا مَعْصِيّة.

وبرهان هَذَا مَا قد نَصه الله تَعَالَى من أَن آدم عَلَيْهِ السَّلَام لم يَأْكُل من الشَّجَرَة إِلَّا بعد أَن أقسم لَهُ إِبْلِيس أَن نَهي الله عز وَجل لَهما عَن أكل الشَّجَرَة لَيْسَ على التَّحْرِيم، وإنهما لَا يستحقان بذلك عُقُوبَة أصلا بل يستحقان بذلك الْجَزَاء الْحسن وَفَوْز الْأَبَد. قَالَ تَعَالَى عَن إِبْلِيس أنه {وَقَالَ مَا نهاكما رَبكُمَا عَن هَذِه

الشَّجَرَة إِلَّا أَن تَكُونَا ملكَيْنِ أَو تَكُونَا من الخالدين وقاسمهما أَنِّي لَكمَا لمن الناصحين فدلاهما بغرور}. وَقد قَالَ عز وَجل {وَلَقَد عهدنا إِلَى آدم من قبل فنسي وَلم نجد لَهُ عزما}

قَالَ أَبُو مُحَمَّد بن حزمٍ : فَمَا نسي آدم عَلَيْهِ السَّلَام عهد الله إِلَيْهِ فِي أَن إِبْلِيس عَدو لَهُ، ولكن أحسن الظَّن بِيَمِينِهِ. وَلَا سَلامَة وَلَا بَرَاءَة من الْقَصْد إِلَى الْمعْصِيَة وَلَا أبعد من الجراءة على الذُّنُوب أعظم مِن حَال الذي يظن أَن أحدا لَا يحلف بالله كاذبا، وَهَكَذَا فعل آدم –عليه السلام– فَإِنَّهُ إِنَّمَا أكل من الشَّجَرَة الَّتِي نَهَاهُ الله عَنْهَا نَاسِيا بِنَصّ الْقُرْآن، ومتأولا وقاصداً إِلَى الْخَيْر لِأَنَّهُ قدر أنه يزْدَاد حَظْوَة عِنْد الله –تَعَالَى– فَيكون ملكا مقرباً، أَو خَالِدا فِيمَا هُوَ فِيهِ أبدا، فأداه ذَلِك إِلَى خلاف مَا أمره الله –عز وَجل– بِهِ.

وَكَانَ الْوَاجِب أَن يحمل أَمر ربه –عز وَجل– على ظَاهره، لَكِنَّه تَأَول، وَأَرَادَ الْخَيْر فَلم يصبهُ، وَلَو فعل هَذَا عَالمٌ من عُلَمَاء الْمُسلمين لَكَانَ مأجورا، وَلَكِن آدم عَلَيْهِ السَّلَام لما فعله وَوجد بِهِ إِخْرَاجه عَن الْجنَّة إِلَى نكد الدُّنْيَا كَانَ بذلك ظَالِما لنَفسِهِ وَقد سمى الله –عز وَجل– قَاتل الْخَطَأ قَاتلا؛ كَمَا سمى الْعَامِد. مع أنَّ المخطئ لم يتَعَمَّد مَعْصِية، وَجعل فِي الْخَطَأ فِي ذَلِك كَفَّارَة عتق رَقَبَة أَو صِيَام شَهْرَيْن مُتَتَابعين لمن عجز عَن الرَّقَبَة وَهُوَ لم يتَعَمَّد ذَنبا، فعاقبه أيضا. انتهى [(١)]

وأقول– والعلم عند الله –: أنَّ هذا تأويلٌ مُتكلَّفٌ. والأَوْلى أن يُقال أنَّ صغائر الذنوب، والتصرف خلاف الأصح والأَوْلى جائزٌ على الأنبياء قبل اصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة، لأن صغائر الذنوب إنما تُعلَم بالوحي ويداخلها الجهل بحرمتها، أما الكبائر والفواحش فهي مما تأباه فطرة الله في خلقه.

وعلى هذا فإنَّ آدم كان إنسانا عاديا ولم يكن نبياً حين نُهي عن الأكل من الشجرة، ثم أخطأ لا عن استصغارٍ لأمر الله– تعالى– ولا عن استكبارٍ كما فعل إبليس، وهذا ما دلت عليه ظواهر الآيات التي قارنت بين معصية إبليس– اللعين– ومعصية آدم –عليه السلام– فقالت في الأول: { أبى واستكبر وكان من الكافرين} وقالت في آدم: { نسي ولم نجد له عزما}، وقالت في إبليس حين جادل بالباطل وأخذته العزة بالإثم: { قال أنا خيرٌ منه} وقال: { أأسجد لمن خلقتَ طينا} ، وقالت في آدم– عليه السلام– حين أعلن الندم والتوبة: { قالا ربنا ظلمنا أنفسنا... الآية}.

---

(١) أبو محمد علي بن حزم الأندلسي –الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٣–٥)– مكتبة الخانجي – القاهرة.

ومقتضى كلامه تأويل الآيات المشعر ظاهرها بوقوع الصغائر من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها. على أن تجويز الصغائر عليهم قد قال به طوائفُ من أهل السنة. وفي طي وقوعها إلطافٌ من الله بالناس، وزيادةٌ في الالتجاء إلى اللَّه –تعالى، والتواضع له، والإشفاق على الخطائين، والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، كما نُقِل عن داود– عليه السلام– أنه كان بعد ابتلاء اللَّه له يدعو للخطائين كثيراً.

ولعل هذه المقارنة بين معصية المستصغِر لأمر الله– تعالى– المستهزئ بشرعه، المستكبر عن قبول تعاليمه، ومعصية الذي غلبته الشهوة أو التأويل والجهل أو وسوسة الشياطين، فالأخير يتوب الله تعالى عليه، والأول يركسه الله في معاصيه حتى تحيط به وترميه في جهنم.

كما قال تعالى في سورة (النساء): {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)}.

وتأمل في هاتين الآيتين الفرق بين الذين يعملون (السوء) بالمفرد، والذين (يعملون السيئات) بالجمع، والفرق بين الذين يتوبون (من قريب)، والذين يعملون السيئات حتى الممات ويسوِّفون التوبة، والفرق بين الذين يعملون (السوء) مفردا ولا يصرون لأنهم يعملونه (بجهالةٍ)، والذين يعملون (السيئات) وهم عالمين بحرمتها ويستخفون بها اتكالا على رحمة الله، حتى يقتربون من الموت. الأولون صرحت الآيات أن التوبة تحق لهم وأن الله يقبل توبتهم لأنه سبحانه عليمٌ بمَن يعصيه ضعفاً وغوايةً ولا يستهين بأمره، وَمَن يعصيه استخفافا بأمره واستحلالا للمعصية بهواه، والله الحكيم يحكم بينهم بعدله. أما الآخرون فلا تحق لهم التوبة ولا يتقبلها الله منهم حتى وإنْ قالوا صراحة أنهم تابوا، بل تصرّح الآية الكريمة المُحكَمة بجمعهم مع (الذين يموتون وهم كفار) وأنَّ كليهما قد أعد الله لهم عذاباً أليما. وهذا صريحٌ لا جدال فيه.

والخلاصة أنَّ معصية آدم– عليه السلام– كانت قبل نبوته من بشريته القابلة للخطأ والزلل، وكذلك القابلة للتوبة والرجوع وههنا الدرس للبشرية أجمعها، وتأويل معصيته هو انحرافٌ بها إلى وجهة نظر إبليس الذي برّر وأوَّل عصيانه واستكباره.

وأما كون قصة معصية آدم– عليه السلام– موضوعا للعقائد وهل الأنبياء معصومون؟ وهل العصمة لهم قبل وبعد النبوة أو بعدها فقط؟ وهل العصمة من الكبائر والصغائر أو من الكبائر فقط؟ فهذا مما لا يفشيه سياق الآيات ومحور معناها. وإنما ما جمعناه من المعاني بمقارنة الآيات التي ذكرت تفاصيل هذه القصة المباركة تشكل السياق المعنوي الذي تناقشه الآية.

تعليق ختامي بغرض الإتيان بهذه القصة.

والذي يتضح جليا وكأنه تعليق ختامي لمغزى القصة في قوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)} (البقرة: ٣٨، ٣٩)، وقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (طه: ١٢٣، ١٢٤)، وينزل ستار الخاتمة لعِبرة هذا القصص المبارك؛ يقول ربنا: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } (الأعراف: ٢٧).

وأما جدالات العقيدة التي أحدثها المتكلمون والفلاسفة فإنها تبعد القرآن عن غايته كثيرا، وخصوصا في فحوى ومغزى هذه القصة العظيمة. والله أعلم.

واعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَهْدِيدًا ووعيدا عَظِيمًا يكفُّ العاقل عَنْ كُلِّ الْمَعَاصِي. فمَنْ تَصَوَّرَ مَا جَرَى عَلَى آدَمَ بِسَبَبِ إِقْدَامِهِ عَلَى هَذِهِ الغلطة الصغيرة كَانَ عَلَى وَجَلٍ شَدِيدٍ مِنَ الْمَعَاصِي صغيرها وكبيرها، قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدٍ ... ومُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ.

تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَجَ الْجِنَانِ وَنَيْلَ فَوْزِ الْعَابِدِ.

أَنَسِيتَ رَبَّكَ حِينَ أَخْرَجَ آدَمَ ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ؟!

وقَالَ: عَنْ فَتْحٍ الْمَوْصِلِيِّ يقول: كُنَّا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَسَبَانَا إِبْلِيسُ إِلَى الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُخْرِجْنَا مِنْهَا. [١]

****

وعندئذ حقت كلمة الله، وكتب قضاؤه:

{... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (البقرة: ٣٦)

---

١ راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٣٨)

وأنشد ذلك المعنى ابن قيم الجوزية فقال:

فحَيَّ على جناتِ عدْنٍ فإنها ... منازلُنا الأولى وفيها المُخيَّمُ.

ولكننا سَبْيُ العدوِ فهل تُرى ... نعود إلى أوطاننا ونُسلَّمُ.

وقد زعموا أنَّ الغريبَ إذا نأى ... وشطَّتْ به أوطانُهُ فهو مُغْرَمُ.

وأيُّ اغترابٍ فوق غُرْبَتِنا التي ... لها أضحتِ الأعداءُ فينا تحكَّمُ.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر– كما في الصحيح :(كنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرَ سبيل).

وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المقدَّر لها. بين الشيطان والإنسان على الأرض إلى آخر الزمان. ونهض آدم من عثرته، بما رُكّب في فطرته من الرجوع والإنابة بعد الزَّلل، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها. وتمت كلمة الله– تعالى– الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته. عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار. لقد بدأت العداوة بين كل جنس البشرية وبين كل جنس الشياطين، ولذلك جاء التعبير الدقيق {اهبطوا} بصيغة الجمع إما لأن الحديث عن آدم وزوجه وإبليس والحية فهم جمع [١]، أو لأن الحديث عن كل ذرية آدم وكل ذرية إبليس؛ فهو أبلغ وأوفى بغرض الآيات كما أراه. [٢]

ومن الناس مَن يصير كالشياطين، بل هم أشد على إخوتهم من البشر شراً وإفساداً، ولذلك جاء توقيع الأداء القرآني في غاية البلاغة والعظمة في قوله: {بعضكم لبعض عدوٌ} [٣]، فمِن البشر مَنْ يختار جانب الشياطين؛ ويكون أنكى في البشرية منهم، فهم بعضنا ولكنَّهم أعداء الخير لبني البشر كما قال ربنا: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} (الأنعام: ١١٢).

وأما قوله تعالى: "ولكم في الأرض مُستقَرٌّ" فعن أبي العالية قال: هو في معنى قوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا} (سورة البقرة: ٢٢). وعن الربيع قال: هو معنى قوله: {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} (سورة غافر: ٦٤). عن السُّدّيّ قال: يعني القبور. وقال ابن زيد يعني مقامهم في الأرض.

قال أبو جعفر الطبري: والمستقرُّ في كلام العرب، هو موضع الاستقرار. فحيث كان الإنسان من في الأرض موجودًا حالًّا فذلك المكان من الأرض مستقره. وإنما عنى الله جل ثناؤه بذلك: أنّ لهم في الأرض مستقرًّا ومنزلا.

---

(١) وفي عداوتنا للحية ما روى عند أحمد بسند جيد عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحيات: "ما سَالمناهُنَّ مُنذ حارَبناهنّ، فمن ترك شيئًا منهنّ خيفةً، فليس منا". راجع تحقيق الشيخ شاكر في تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٣٧) الحديث: ٧٦٣. قال أبو جعفر: وأحسبُ أن الحرب التي بيننا، كان أصلها ما ذكره علماؤنا الذين قدمنا الرواية عنهم، في إدخالها إبليس الجنة –بقدر الله سبحانه– بعد أن أخرجه الله منها ، حتى استزلّه عن طاعة ربه في أكله ما نُهي عن أكله من الشجرة.

(٢) قال الكوراني في غاية الأماني ١/ ٣٩٤: والدليل عليه أن الخطاب في سورة طه جاء بالتثنية لآدم وإبليس لأنهما محور الأحداث ؛ قال تعالى: {اهبطا منها جميعا} (طه– الآية ١٢٣) ولأن القصة واحدة والتعادي بين الذرية لا بينهما خاصةً، وكذلك يدل عليه قوله تعالى بعدها {فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم... الآية} والتفريع على الكلام هنا مقصودٌ به الذرية، فإنه بيانٌ لجزاء الفريقين. انتهى بتصرف يسير.

(٣) قال ابن الجوزي: وفي العداوة المذكورة هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ذرية بعضهم أعداء لبعض، قاله مجاهد.

والثاني: أن إبليس عدو لآدم وحواء، وهما له عدو، قاله مقاتل.

والثالث: أن إبليس عدو للمؤمنين، وهم أعداؤه، قاله الزجاج. زاد المسير في علم التفسير (١/ ٥٧)

{... ومتاعٌ إلى حين} والمتاع في كلام العرب: كل ما استُمتِع به من شيء، من معاش استُمتع به أو رِياش (غنى وسعة) أو زينة أو لذة أو غير ذلك. والله –جل ثناؤه– قد جَعل حياة كل حيّ متاعًا له يستمتع بها أيام حياته، وجعل الأرض للإنسان مَتاعًا أيام حياته، بقراره عليها، واغتذائه بما أخرجَ الله منها من الأقوات والثمار، والتذاذه بما خلق فيها من الملاذِّ، وجعلها من بعد وفاته لجثته كِفاتًا، ولجسمه منزلا وَقرارا. [١] {إلى حِين} إلى يوم القيامة، وابتداؤه الموت، لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته.

****

آدم- عليه السلام- وروم التوبة.

قال تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)}

قال أبو جعفر: أما تأويل قوله: "فتلقى آدم"، فهو أخذ وقَبِل. وأصله (التفعُّل) من اللقاء، كما يتلقى الرجلُ الرجلَ يستقبلَه عند قدومه من غيبته أو سفره، فكأنَّ ذلك كذلك في قوله: "فتلقى"، كأنه استقبله فتلقاه بالقَبول حين أوحى إليه أو أُخْبِر به. فمعنى ذلك إذًا: فلقَّى الله آدمَ كلماتِ توبةٍ، فتلقَّاها آدم من ربه وأخذها عنه تائبًا، فتاب الله عليه بقيله إياها، وقبوله إياها من ربه. انتهى [٢]

وقرأ (ابن كثير): بنصب آدم ورفع الكلمات { فتلقَّى آدمَ من ربه كلماتٌ}: على أنَّ الكلمات استقبلته أى بلغته واتصلت به..

قلتُ: لله دّرُّ ابن جرير– رحمه الله– لقد تلقَّف توقيع الكلمة القرآنية ودلالته البليغة فأحسن التعبير عنه، إن في كلمة {فتلقَّى} تمثيلٌ لطيفٌ لحالة التلهُّف التي كان ينتظر بها آدم –عليه السلام– أي إشارةٍ من ربه تشير إلى أن الله تعالى ربما يقبل توبته ورجوعه وندمه على فعله.

و إن غاية الندم والأسف على خطيئته جعلت قلبه الرقيق يهفو لأن يعود إلى ربه تائباً، فما إنْ وجد إشارة التوبة من ربِّ العالمين الرحمن الرحيم حتى هُرِعَ إليها متلقياً تلك الإشارة (أو الكلمات) بالبكاء والسجود والتوبة والابتهال إلى الله الغفور الكريم.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٣٩) باختصار.

(٢) انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٤١).

وقال المفسرون: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الْأَعْرَافِ: ٢٣). وهو حسنٌ من باب تفسير القرآن من القرآن، وهو أَوْلى أدوات التفسير.

قال ابن كثير: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} أَيْ: إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ.

وهذا مثل قَوْلِهِ تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} (التَّوْبَةِ: ١٠٤) وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} (النِّسَاءِ: ١١٠) ... وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ. وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ... انتهى

كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}. وقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} والتوَّاب: يقال في العبد، كما يقال في الرب، يقال في العبد إذا كان يكثر من التوبة إلى الله – عز وجل – ويسمى كذلك (أوَّاب) . ويطلق في حق الله تعالى فهو الكريم العظيم الذي يقبل التوبة عن عباده، وقوله: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} جمع بين الوصفين – تنبيهاً على أنه مع ترك ذنبه، عليه لا يُخْلِيه من الإحسان إليه. وفي الآية تنبيهٌ يعني هو أنه متى تلقينا منه ما أنعم به علينا من العلوم، واستعملناه واعترفنا بذنبنا وطلبنا منه التجاوز عنه ونحن في مهلة من الحياة تاب علينا وأحسن إلينا. [١]

وفي الآية –كما قال ابن قيم الجوزية وغيره– دليلٌ على أنَّ توبة العبد بين توبتين من الرب –تبارك وتعالى– فالله يتوب على عبده أي يوفقه للتوبة ويُؤمِّله من قبولها، حتى إذا تاب العبد إلى ربه، قبل الرب الكريم الرحيم توبتَه. فتوبة الله على العبد أولاً بتوفيقه للتوبة، وآخرا بقبول توبته، كما قال تعالى:

{وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (التوبة: ١١٨)، فلله الحمد في الأولى وفي الآخرة. وله الثناء والمجد والحمد كله كما أراد وفوق ما نريد.

سئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب، فقال: يقول ما قال أبواه:{ رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا}. وما قال موسى: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} (القصص: ١٦). وما قال يونس: {لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. (الأنبياء: ٨٧).

قال أبو محمد بن عطية رحمه الله:

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٦٣) بتصرف يسير.

والتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب، مع (العزم على) تركه فيما يُستأنَف؛ (فهذه ثلاثة شروط).

وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة، وحواء مشارِكةٌ له في ذلك بإجماع لأنه المخاطَب في أول القصة بقوله: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله تعالى: {وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى} (طه: ١٢١). انتهى [١]

فالرجل مسؤولٌ عن إدارة مزالق الحياة ومهماتها والمرأة مشاركةٌ له، ولكنْ عند المحاسبة يُلام الرجل لأن الله أعطاه القدر ة والقوة على اتخاذ القرارات الكبيرة أكثر منها. وربنا العظيم قد ستر حواء عن ذكرها باللوم في المعصية؛ بينما رأى الناقلون عن كتابات تراث اليهود والنصارى أنها سبب العصيان، فأي حديثٍ تتبعون؟!

وفي توبة آدم وبنيه يقول الغزالي –رحمه الله–:

(إن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين، وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا عجبَ إنْ أذنب الآدمي واجترم؛ جَبَرَ بعد ما كسَّر وعمَّر بعد أن هدم. ولقد قرع آدمُ – عليه السلام – سِنَّ الندم. وتندم على ما سبق منه وتقدَّم. فمن اتخذه قدوةً في الذنب دون التوبة فقد زلَّت به القدم.

بل التجرُّد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين. والتجرد للشر دون التلافي سجيَّةُ الشياطين. والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورةُ الآدميين.

فالمتجرد للخير مَلَكٌ مقرَّبٌ عند الملك الديَّان. والمتجرد للشر شيطان. والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان. فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان. واصطحب فيه سَجِيَّتان. وكلُّ عبدٍ مصحِّحٌ نَسبَهُ إما إلى الملك، أو إلى آدم، أو إلى الشيطان.

فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم؛ بملازمة حد الإنسان. والمُصِرُّ على الطغيان مسجِّلٌ على نفسه بنَسَب الشيطان. فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارجٌ عن حيز الإمكان. فإن

---

١ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١٣١)

الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين نار الندم أو نار جهنم.

فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان.

وإليك الآن اختيار أهون النارَيْن والمبادرة إلى أخف الشَّرَيْن؛ قبل أن يُطْوَى بساطُ الاختيار، وتساق إلى دار الاضطرار؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار.) انتهى. (١)

والتوبة، والأَوْبة، والاستغفار متقاربة المعنى، وبحسب ما اختلفت فيها الاعتبارات اختلفت عليها العبارات.

ف (الإنابة) هي الرجوع عن طريق الضلال إلى الهدى. والأوبة: رجوع القلب إلى الحق والوقوف عليه.

والاستغفار: طلب الغفران قولاً وفعلاً، والفعل هنا هو تعاطي ما يغفر ما تقدم من الذنب. (٢)

والتوبة التامة المُعْتَدُّ بها يجمع حقيقتها: تركُ الذنب، والندم عليه، والعزم على أن لا يعود إليه، وتدارك ما تقدم وهو رد المظالم " مظلمة الخلق، وحق الخالق " (٣) .

وشرطها وركنها الأعظم (الندم) كما جاء في الحديث: " الندم توبةٌ" (٤) إذ سُميت بأعظم أركانها، كما في حديث: "الحج عرفة" ولا ينفي وجود غيره في أركانها. ولكنه المعنى الأعظم فيها حتى قال أهل العلم: " (النَّدَمُ تَوْبَةٌ) إِذْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا بَقِيَّةُ الْأَرْكَانِ مِنَ الْقَلْعِ وَالْعَزْمِ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ، وَتَدَارُكِ الْحُقُوقِ مَا أَمْكَنَ.... وَالْمُرَادُ النَّدَامَةُ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَعْصِيَةٌ لَا غَيْرَ ". (٥) ومعنى هذا: أن كل من حزن لكونه فعل المعصية، فقد حصل منه الندم المقصود في التوبة.

وقال الغزالي رحمه الله في "إحياء علوم الدين" (٤/٤):

"اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل.

فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث.

والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث، إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت.

أما العل م، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب.

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)- إحياء علوم الدين- (٤/ ٢) دار المعرفة – بيروت

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٦٢)

(٣) وحق الخالق: هي إعادة ما ترك من العبادات، والإكثار من الطاعات المُكفِّرات، وإذابة ما استفاد جسمه من الحرمات، ألا ترى إلى قوله –عليه السلام-: " كل لحمٍ نبت من سُحْتٍ (حرام) فالنارُ أَوْلى به ".

(٤) صححه الألباني في "صحيح ابن ماجة. "

(٥) "مرقاة المفاتيح" (٤/ ١٦٣٧) .

فإذا عرف ذلك معرفة محققة، بيقين غالب على قلبه: ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه : تألَّم، فإن كان فواته بفعله ، تأسف على الفعل المُفَوِّت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً .

فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال.

أما تعلقه بالحال، فبالترك للذنب الذي كان ملابساً.

وأما بالاستقبال، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر.

وأما بالماضي، فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء، إن كان قابلاً للجبر.

... فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها.

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام: (الندم توبة) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه ، أعني ثمرتَهُ ومُثْمِرَه" انتهى .

****

التكليف والمنهج.

قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)}

وفي قوله: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنها جَمِيعاً} كرر فعل الهبوط في آيتين للتأكيد، وقيل: لاختلاف المقصود، فإن الهبوط الأول دل على أن هبوطهم إلى دار البلِيّة يَتَعادَوْن فيها ولا يخلدون، والهبوط الثاني أشعر بأنهم أهبطوا لأجل التكليف والامتحان، فمن اقتفى الهدى نجا، ومن أضلَّ (منهج الله) هلك.

وقيل: الهبوط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والهبوط الثاني من السماء إلى الأرض. [١]

---

١ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٧٣)

وقال الراغب: والفائدة على تكرير قوله: (اهبطوا) لتكرير الشرط المقرون به، فإن الأمر الأول (اهبطوا) قُرِن بحال العداوة بينهم وسكونهم في الأرض إلى مدةٍ متناهية، والأمر الثاني: بيَّن به أنهم وإن اشتركوا في الهبوط، فهم متباينون في الحكم؛ فإن مَن اتبع هداية الله –تعالى– فهو على سبيل النجاة، ومن نبذ هدايته فهو مغبونٌ في الدنيا والآخرة. [١]

قلتُ: وهذا المعنى يعود على المعنى الأول، وهو أوْلى لما فيه من فقه توجيه الخطاب حسب سياق الكلام ومغزاه.

- وقوله تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} (إمَّا) بالكسر والتشديد [٢] أصلها قبل الإضغام (= إنْ ما) وهي هنا للشرط. قال الكوراني: وفائدة الشرط هنا وحرف الشك (إنْ) مع أن ايتان الرسل والهداية كائنٌ لا محالة، الفائدة هنا للإيذان بأن ارسال الرسل وانزال الكتب لهداية الناس تفضلاً منه سبحانه [٣] ، وهو يقدر ألا يرسل ويكون منه عدلٌ سبحانه. [٤]

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٦٤) بتصرف يسير.

(٢) قال السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٩٧) (إما) بالكسر والتشديد والتي ليست من معنى الشرط تَرِدُ لثلاثِ مَعَانٍ: الْإِبْهَامُ نَحْوَ: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ}.

وَالتَّخْيِيرُ نَحْوَ: {إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً}، {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} ، {فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} . وَالتَّفْصِيلُ، نَحْوَ: {إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}.

تَنْبِيهَاتٌ:

الْأَوَّلُ: لَا خِلَافَ أَنَّ إِمَّا الْأُولَى فِي هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ وَنَحْوِهَا غَيْرُ عَاطِفَةٍ وَاخْتُلِفَ فِي الثَّانِيَةِ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهَا عَاطِفَةٌ وَأَنْكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ ابْنُ مَالِكٍ لِمُلَازَمَتِهَا غَالِبًا الْوَاوَ الْعَاطِفَةَ. وَادَّعَى ابْنُ عُصْفُورٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ وَإِنَّمَا ذَكَرُوهَا فِي بَابِ الْعَطْفِ لِمُصَاحَبَتِهَا لِحَرْفِهِ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا عَطَفَتِ الِاسْمَ عَلَى الِاسْمِ وَالْوَاوُ عَطَفَتْ إِمَّا عَلَى إِمَّا وَهُوَ غَرِيبٌ.

الثَّانِي: سَيَأْتِي أَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِيَ لأو وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ إِمَّا أَنَّ إِمَّا يُبْنَى الْكَلَامُ مَعَهَا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ عَلَى مَا جِيءَ بِهَا لِأَجْلِهِ وَلِذَلِكَ وَجَبَ تَكْرَارُهَا وأو يُفْتَتَحُ الْكَلَامُ مَعَهَا عَلَى الْجَزْمِ ثُمَّ يَطْرَأُ الْإِبْهَامُ أَوْ غَيْرُهُ وَلِهَذَا لَمْ يَتَكَرَّرْ.

الثَّالِثُ: أن الكلام هنا عن (إما) لَيْسَ من أقسام (إما) التي فِي قَوْلِهِ: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً} بَلْ هِيَ كَلِمَتَانِ إِنَّ الشَّرْطِيَّةُ وَمَا الزَّائِدَةُ.

(٣) راجع غاية الأماني ١/ ٤٠١.

(٤) جاء في تفسير الزمخشري = الكشاف (١/ ١٢٩):

فإن قلتَ: فلم جيء بكلمة الشك «إما» مع أنّ إتيان الهدى كائنٌ لا محالة لوجوبه؟ قلتُ: للإيذان بأنّ الإيمان باللَّه والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب، وأنه إن لم يبعث رسولا ولم ينزل كتابا، كان الإيمان به وتوحيده واجباً لما ركّب فيهم من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكنهم من النظر والاستدلال. انتهى.

قلتُ: هاتان زلتان زلهما الزمخشري وحشر فيهما اعتقاد المعتزلة ولوى عنق المعنى ليؤيد كلامه:

الأولى: إيراد السؤال بناءً على أن هدى الناس واجبٌ على الله تعالى.

والثانية: بناء الجواب على أن الإيمان والتوحيد واجبٌ بالعقل قبل ورود الشرع.

قال العلامة السعدي:

وقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} أي: أيَّ وقت وزمان جاءكم مني -يا معشر الثقلين- هدىً، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني; ويدنيكم من رضائي، {فمن تبع هداي} منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، {فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

وفي الآية الأخرى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى}.

فرتَّب على اتباع هدى الله- تعالى- أشياء (عظيمة وهي): نفي الخوف ونفي الحزن.

والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان مُنْتَظَرا، أحدث الخوف.

فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو: الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة.

فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس مَنْ لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته فـ {أولئك أصحاب النار} أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي. انتهى. [١]

إن القضية والمغزى العام في هذه القصة -إذن- هي في منهج الله تعالى. الذي مَن تمسك به نجا وفاز، ومن رماه وراء ظهره كان فريسةً سهلةً للعدو الأبدي لأبينا آدم ولبَنِيهِ عبر الزمان.

والحق أن الله تعالى لا يجب عليه شيء، فتعالى الله عن أن يوجب عليه أحدٌ إلا ما أوجب على نفسه تفضلاً سبحانه. وإنما يدخل تحت ربقة التكاليف المربوبون لا الرب سبحانه. وأما وجوب النظر في أدلة التوحيد، فإنما يثبت بالسمع لا بالعقل، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع، ولكن وجوب النظر بالعقل على المكلفين لا يصح، وهو اعتقاد المعتزلة الذين يجعلون اول واجبات المكلف ليس التوحيد نفسه ولكن النظر العقلي في أدلة التوحيد.

راجع رد الشيخ أحمد السكندري في حاشية (الانتصاف على الكشاف).

١ تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠)

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)} (فاطر: ٥ – ٧).

إنه القرآن الذي يتسق كله في سياق واحدٍ كأنما هو كلمةٌ واحدةٌ، وجسدٌ واحدٌ، وماءٌ واحد.

ففي هذا الآيات يتمحض المبدأ الراقي، ويَخْلُص مضمون وغاية هذه القصة العظيمة، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. فهذه القصة هى تحذير من هذا العدو القديم وحزبه الضالين المتشيطنين الذين جحدوا نور الله في الأرض ونبذوا منهجه فضلوا وأضلوا، ومصيرهم النار فبئس القرار......

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظةً وما تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسارة.

مزيد من الدروس والفوائد

(١) قال السعدي رحمه الله-: في هذه الآيات من العبر والآيات: إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلما؛ يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء. وأنه عليم حكيم. وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والمأمورات فالوجبُ عليه التسليمُ، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم؛ بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته بعلمه وحكمته.

ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد. [١]

ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراما له لما بان فضل علمه- الذي علمه الله إياه- عليهم.

ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له... إلى غير ذلك من العبر. [٢]

---

(١) قال القشيري في لطائف الإشارات: استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنّ في قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب، فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ». ثم إن الحق سبحانه عرّفهم أنَّ الفضيلة بالعلم أتمّ من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلا وأقدمه، وآدم كان أكثر علما وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته.

٢ تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٩)

(٢)قال القشيري في (لطائف الإشارات): وفي تسبيح الملائكة إظهار فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم، وفي غفران الله -تعالى- لمعاصي بنى آدم إظهار كرمه ورحمته، والحق -سبحانه- غنيٌ عن طاعات كلِّ مطيع، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاقُ تمدحهم، ثبت بالغفران استحقاق تمدُّح الخالق سبحانه، واستحقاقه وحده الحمد على خلقه وأمره. انتهى

فما أطاع المطيع إلا بأمره سبحانه، وما عصى العاصي إلا بخذلان الله له وإيكاله لنفسه. وهو درسٌ آخر فهمته الملائكة وجاءنا به القرآن العظيم في فقه المعاملة مع الله -تعالى- بوجوب التسليم والأدب مع الله تعالى في أمره وحكمه، فكل توفيق لمعرفته وعبادته هو من الله وحده، وله الحمد فيه. وإنما ذلك دليل الكمال لله تعالى وحده. ولذلك قال الملائكة: {سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا}.

وفي هذا المعنى حتى يتعلق المحقّقون برحمة الله -تعالى- وعلمه وحكمته ويسلمون قياد أمورهم إليه فتَصِحُّ منهم عُرَى العبودية.. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيَّ ﷺ: " لَنْ يُنَجِّي أَحَدًا منكمْ عَمَلٌ". قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ﷺ قَالَ: " وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا ورُوحُوا, وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلجة والقصد والقصدَ؛ تبلغوا".

قال ابن عطاء الله السكندري في (حِكَمِه): من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل. انتهى. ومعناه : إياك أن تعتمد في رضا الله عنك و في الجزاء الذي وعدك على عمل قد فعلته، بل اعتمد على لطف الله وفضله و كرمه.

وكأن الله تعالى يقول للملائكة: أي خطرٍ لتسبيحكم لولا فضلي، وأي ضررٍ من ذنوب آدم وبنيه إذا كان عفوي؟! [١]

وكما روى مسلمٌ -في صحيحه- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

وهو كما يقول السلف: رُبَّ ذنبٍ أورث ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعةٍ أورثت عزاً واستكباراً.

(١) من كلام القشيري في لطائف الإشارات، (قلت: رويت هذه المعاني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة منها: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي «. وَفِي رِوَايَةٍ» غَلَبَتْ غَضَبِي " متفق عليه.

لأن أصل العبودية الذل والانكسار بين يدي الله تعالى، ولعل ما حصل من إبليس اللعين الذي كان من العابدين حتى صار في مصافِّ الملائكة، ولكنَّ قلبه كان ممتلأً كِبراً وعُجْباً فأراد الله أن يكشف ما خبأه في صدره فأمر الملائكة وهو منهم أن يسجدوا لآدم، ففهمها اللعين تكريما لآدم لا يستحقه فأبى وهلك.

(٣)وقبل أن أترك هذا الموضع أود أن أشير إلى نكتة يعرفها أرباب القلوب.

(إن الله تعالى لا يُطاعُ إلا بإذنه، ولا يُعصى إلا بقضائه وقدره). فلولا أن العبد المطيع صاحبه إذن الله تعالى وتوفيقه ومعونته وتصبيره على الطاعة ما قدر أن يعبد الله –تعالى. ولولا أن العاصي صاحبه خذلانٌ من الله– تعالى– وسحبٌ لبساط العناية من تحته وقضاءٌ نافذٌ فيه ما عصى الله.

وليس في ذلك حجةٌ لأغبياء المتصوفة الذين جعلوا القضاء عذراً وتعِلَّةً لهم لتبرير المعصية أو الركون إليه، وادعاء أنَّ التسليم للقضاء (بالمعصية) من أعلى مراتب العبودية.

فإنَّ العبد مُطالبٌ بشيئين لا يغني أحدهما عن الآخر، والبداءة فيهما لما بدأ الله به في أول ما يطالعنا به كتاب الله تعالى بيانا للمنهج الذي ارتضاه الله للعباد: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (الفاتحة: ٥). وهو العبادة التي تتضمن الاستعانة وتسبقها. [١]فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر {الاستعانة} بعد {العبادة} مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي. [٢] وإتيانه بقوله: (وإياك نستعين) بعد قوله: (إياك نعبد) فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة ; لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا واضحا في آيات أخر كقوله: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا)، وَقَوْلِهِ: (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا). فجعل العبادة لا تكتمل بغير الاستعانة على الله تعالى والتوكل عليه، وهذا من تمام معنى العبادة التي تنبثق عن معنى التوحيد، فلا ترى موحِّدا متوكلا على الله –تعالى– يعرف لنفسه فضلاً في عبادته؛ بل يرى الأشياء كلها من الله – تعالى– وهو وحده المتصرف والمعين والهادي(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

---

(١) قال ابن جرير :والمعنى: لك اللهم نَخشــعُ ونَذِلُّ ونســتكينُ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك. دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونَخاف– وإن كان الرّجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة– لأنّ العبودية، عندَ جميع العرب أصلُها الذلّة، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذلّلته الســابلة: معبَّدًا. ومنه سُمِّي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه. ومعنى قوله: (وَإِيَّاكَ نَسْــتَعِينُ): وإياك رَبنا نســتعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها –لا أحدًا ســواك، إذْ كان من يكفُر بك يَســتعين في أموره معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نســتعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ١٥٧) باختصار.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩).

عَلَيْهِ)، وعلى هذا نفهم قول المحققين من العلماء بأنه ما عُبد الله إلا بإذنه، وما عُصي إلا بقضائه؛ ليكون العبد دائم الالتجاء إلى الله– تعالى– والتعلق به في طاعته، والاستعانة به عليها، ودائم العودة والاستعاذة بالله –تعالى– من حال المعصية. وهو معنى قوله ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

(٤) ودرسٌ آخر أن الحق –سبحانه– لمّا أراد أن ينجّى آدم عصمه، وعلّمه، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أُخْبِر به، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نسى في الحضرة عهده، وجاوز حدّه، فقال الله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» فالوقت الذي ساعدته العناية تقدم على الملائكة بالعلم والإحسان، والوقت الذي أمضى عليه الحكم ووكله إلى نفسه ردّه إلى حال النسيان والعصيان، كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجرى وتمضى، ذلّ بحكمه العبيد، وارتقى بعونه مَن يريد، وهو الفعّال لما يريد. وهو درس عظيم في أن الله تعالى يعز من يعز بعنايته، ويهلك من هلك بإهماله وتركه لجنايته، ولهذا مزيد بيان في قصة آدم وإبليس بعدُ.

(٥) ويقال: أصبح آدم عليه السّلام محمود الملائكة، مسجود الكافة، على رأسه تاج الوصلة، وعلى وسطه نطاق القربة، وفى جيده رباط الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة، ولا شخص مثله في الرفعة، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم. فلم يمس حتى نزع عنه لباسه، وسلب استئناسه، والملائكة يدفعونه بعنف أن اخرج بغير مكث.

قلتُ: فسبحان من بيده الأمر يهدي ويضل، {كل يومٍ هو في شأن}.. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُول إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ من أَصَابِع الرَّحْمَن كقلب وَاحِد يصرفهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " الله مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». رَوَاهُ مُسلم)..

والدرس لذرية آدم– عليه السلام– في قوله تعالى: { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } (الأعراف: ٩٧ – ٩٩)

روى عن على بن أبي طالب – رضوان الله عليه – موقوفا قوله: " ألا أنبئكم بالفقيه؟ قالوا: بلى، قال: من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤيسهم من روح الله، ولا يؤمنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا في علمٍ ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر ".

تفسير الآيات من (٤٠-٦٤)

يقول الله تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46) (البقرة: 40-46)

المناسبة ، وروعة النظم القرآني.

في إطارٍ عام تدور في فلكه سورة البقرة لا يزال الكلام في الكتاب (القرآن)؛ ذلك المنهج الرباني لبناء دولة الإيمان في الصدور، ثم وضع أُسُسِها على أرض الواقع، بحيث يكون هذا القرآن دستورها الرباني الذي {لا ريب فيه}. ثم بيان أحوال الناس وأصنافهم، ومواقفهم المختلفة في تلقيه والإيمان به.

فقد ذُكِر الكتاب الذي لا ريب فيه، ثم ذكر السياق اختلاف الناس في تلقيه والإيمان؛ فبدأ بالمؤمنين، ثم ثنى بالكافرين، ثم تكلم عن المنافقين فأطال بيانا لخطرهم، وضرب لهم الأمثال وتفنن، ثم طالب الناس كلهم بعبادته، وأقام البرهان الجلي على ذلك وتحدى العالم أجمع بكون الكتاب مُنَزَّلا من الله– سبحانه– على عبده محمد – ﷺ –، ثم حذَّر وأنذر، وبشَّر ووعد، وحاجَّ الكافرين، وجاءهم بأنصع البراهين، وهو إحياؤهم مرتين وإماتتهم مرتين، وخلق السماوات والأرض لمنافعهم، ثم عطف بذكر أصل النوع البشري على عمومه، فجاء بقصة خلق الإنسان وتكريمه، وقضيته الأبدية مع إبليس وخلاصه بالتوبة وعاد لينبه على أنَّ الله – سبحانه– أرسل آدم للأرض وأرسل معه المنهج لإصلاحه وضمان حسن خلافته في تنفيذ شرع الله ودينه...

ثم بعد ذلك في تطور زماني ومنطقي متسلسل طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت فيها النبوة تفصيلا، وبيان موقفهم من تلقي منهج الله –تعالى. كيف لا، وهم سابقون لأمة محمد في تلقي كتاب الله ومنهجه؟ فماذا فعلوا؟ وماذا كانت عاقبتهم؟ هذا ما تجيب عنه الآيات.

وقد بدأت هذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذي نذكره، والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، وحسن اتساقه في سبكه، فهو دائر على قطب واحدٍ في فلكه، وهو الكتاب المنهج والدستور، والمرسَل به، وحاله مع المرسَل إليهم.

وقد قلنا: إن التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغٍ، ولن يبلغ شأوه فيها أي نصٍ.

فقد بيّن الله سبحانه طريق الهداية والضلال، ونبَّه على جزاء كل منهما إجمالا؛ ثم أشار هنا إلى تفصيله وتوضيحه بإيراد قصص القرون الماضية والأمم السالفة ليعتبر المؤمنون منها ولا ينزلقوا مزالق الغاوين الضالين قبلهم الذين جاء دعاء المؤمنين في سورة الفاتحة بالهداية إلى غير طريقهم الذي ضلوا وهلكوا فيه { غير المغضوب عليهم ولا الضالين}، فجاء الحديث في سورة البقرة عن اليهود المغضوب عليهم، ومن جملتها قصة إنعامه سبحانه على بنى إسرائيل وكفرهم وغَيِّهم .

وهنا يؤكد الخطاب القرآني على وظيفته المنهجية في الهداية والتنوير للإنسان لكي يمشي في طريق الحياة على نورٍ من ربه وبصيرةٍ وهدىً؛ بلا تخبطٍ ولا تعثرٍ..

في هذه الآيات المباركة يبتدأ السياق فصلاً جديدا مخاطبا فيه اليهود؛ أو لنكتةٍ بلاغيةٍ ومنهجيةٍ– تأتي قريبا– يسميهم القرآن" بني إسرائيل"؛ يخاطبهم بتذكيرهم– على وجه الخصوص– بنعمه الكثيرة عليهم، وكيف قابلوها. وفي طيات المعنى يأتي تصحيح مسار المؤمنين بتذكيرهم بمزالق طريق الهداية التي وقع فيها الذين سبقونا من الأمم. ولبسط الفائدة نجيب على السؤال الآتي...

مرّت بنا في الآيات السابقة قصّة خلافة آدم في الأرض، وموقف الملائكة منه، ثم نسيانه العهد الإلهي وهبوطه إلى الأرض، وبعد ذلك توبته. ولما كانت قصّة بني إسرائيل ابتداءً من تحررهم من السيطرة الفرعونية واستخلافهم في الأرض، ومروراً بنسيان العهد الإلهي، وانتهاءً بسقوطهم في حضيض الانحراف والعذاب والمشقة، تشبه إلى حد كبير قصة آدم، بل هي فرعٌ من ذلك الأصل العام، فإن الله سبحانه في آية بحثنا وعشرات الآيات الأُخرى التالية، بيّن مقاطع من حياة بني إسرائيل ومصيرهم، لإكمال الدرس التربوي الذي بدأ بقصة آدم.

بـنـو اسرائيل في القرآن الكريم.

لقد جاء الحديث عن بني إسرائيل في القرآن العظيم على مرحلتين؛ مكية ومدنية، وكلُّ مرحلةٍ فيها كانت تحمل خطاباً ذا روافدَ ومصادرَ مختلفةٍ عن الخطاب الآخر، لأن القرآن هو الدستور لبناء الإسلام في الصدور ثم منه على أرض الواقع دولةً تفتح القلوب والعقول قبل فتح البلدان والبيوت، وفي خضم هذا يروح عميقاً

في تربيته الحكيمة للفرد والمجتمع، فكان الخطاب يتنوع بتنوع البيئة التي يريد تربيتها والمعاني والقيم التي يقصد إلى بثها في بذرة الإسلام الناشئة في وقتها.

ولا نقول أنَّ القرآن بذلك يُعْتَبر نص تاريخي. أبداً، فهو نصٌ يتجدد لكل زمانٍ بما يستجد في الزمن والظروف من الحوادث، ولكنَّ القرآن يستعمل أسلوباً قَصصياً لإسقاط معانيه وقِيَمه على أرض الواقع في أحداثٍ حقيقية وقعت بالفعل؛ من أجل أن تكون هذه القيم والدروس أكثر واقعية وأشد إيقاعاً وتفصيلاً.

وكما أنَّ البشرَ هم البشرُ في كل زمانٍ –وإنْ اختلفت الظروف– فسيجد قارئ القرآن ما يشبه أصناف وتصرفات وظروف الذين قصَّ عنهم القرآن فيأخذ العِبرة والدرس بما مضى ليجتنب مَزالقَ ومساوئَ ما يأتي: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } (الحشر: ٢١)، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (العنكبوت: ٤٣).

وكما يقول الحكماء أن من أعظم محاسن النصيحة أنَّ الناصح ينقل لكَ مستقبلَ اختيارٍ ما كي لا تختاره؛ قد عاشه هو وفقد بخطأ اختياره له الكثير، فوفّر عليك جهد التجربة والخطأ والخسارة.

ولعل هذا يرد على بعض الزنادقة الذين يقولون إن اختلاف الخطاب القرآني بين ما نزل مكيا وما نزل في المدينة يدل على أنه جهد بشري، ونصٌّ ديناميكي (هكذا باصطلاحهم المتكلف)، ونقول إنه عين المعجزة التي تؤيد أنه من عند الله تعالى؛ فقد نزل على خصوص الذين قصَّ القرآن قصصهم كمثل درامي حقيقي يتنزل على مثاله كل واقعٍ في كل زمانٍ، وناسب في وقته لغة المُخاطَبين به، وما زال بعموم لفظه يخاطب كل الناس إلى يوم القيامة. [١]

يقول الشيخ محمد الغزالي– رحمه الله:

(لقد ظننتُ لأول وهلةٍ أنَّ حديث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل إنما كثر واستفاض بعد الهجرة النبوية؛ أي بعد أنْ جمع اليهود والمسلمين وطنٌ مشتركٌ وجوارٌ قريب. ثم تبيَّنتُ خطئي بعد أن تدبَّرتُ الوحيَ النازل في مكة، فقد ظهر لي أنه تكرر ذكر بنى إسرائيل في القرآن المكي تكرارا يشمل أغلب السور. ولا عجب فقد ذُكِر اسم موسى في القرآن نحو مائة وعشرين مرة ، فما ذُكِر اسمُ نبيٍ ولا مَلَك بهذه الكثرة ولا تحدث الوحي عن أمةٍ من الأمم الأُولى كما تحدث عن اليهود.

(١) ولعل هذه تكون تكملة للفكرة التي عرضتها في أول هذا الكتاب تحت عنوان (ترتيب النزول وترتيب المصحف) فراجعه مشكورا.

لقد جاء ذكرهم في سور الأنعام، والأعراف، والإسراء، وطه، ويونس، وهود، وجميع الحواميم (السور المفتتحة ب حم)، والطواسين (السور المفتتحة ب طس)، وسور أخرى كثيرة... والسور التي أحصيناها هنا مكيةٌ كلها.

وقوله تعالى: {إن هذا القرآنَ يقص على بني إسرائيل أكثرَ الذي هم فيه يختلفون} آيةٌ من سورة النمل المكية.

وعجيبٌ واليهود في مكة نَفَرٌ لا يُؤبَه لهم، أن يعنى القرآن بقَصَصِهم كلَّ هذه العناية. !

ولقد سألتُ نفسي: ما السبب في هذا السرد المفصل لتاريخ بنى إسرائيل في مكة قبل المدينة؟

أهو تعريفُ المسلمين بحقيقة القوم الذين سيخالطونهم فيما بعد؟ إن هذه إجابةٌ غيرُ مقنعةٍ.

وبعد تأمل غير قليل وجدتُ أنَّ هذا التاريخ يحوى في طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم، واستقلالها بأمورها، وازدهار حضارتها ، كما يحوى العناصر الحقيقية لانهيار الأمم ، وذهاب ريحها ، واضمحلال أمرها.

والقَصَصُ القرآني من أبرز الوسائل لتربية الأفراد والجماعات، وقد كان المسلمون المُسْتَضعَفُون في مكةٍ بحاجة إلى أن يعرفوا كيف تحول اليهود الأوائل من ذلٍ هائل، إلى تحررٍ وتمكين، وما هي الفضائل التي لابد من استجماعها كي تبلغَ الأممُ هذه الغاية الكريمة.

وقد تولَّت السورُ المكية هذا الشرح، ورأت القلة المستضعفة كيف تحول شعب تُذْبَح صِبْيَته، وتُسْتَحيا نسوته ، إلى شعبٍ مكين في الأرض سيد على ظهرها !.

وقد سئل ابن القيم: أيُمَكَّن للرجل أولا ثم يُبتلَى، أم يبتلى أولا ثم يمكن له؟

فقال: يبتلى أولا ثم يمكن له. وتلا قوله تعالى: {وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}. والآية من سورة السجدة المكية، وهي تنبه إلى أن الصبر واليقين أساسا الكفاح الطويل الذى يصل بالأمم المناضلة إلى هدفها. وقد أكَّد القرآن هذه الحقيقة الاجتماعية في سورة الأعراف: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} (الأعراف: ١٣٧).

وهكذا تفاوتت مصائر أقوام كانت بداية أمرهم متفاوتة أبعد التفاوت فالفراعنة يصدرون الأوامر بالقتل والسبي، وحملة التوحيد يمضون في الطريق المضرجة بالدماء والأحزان. فأما الأولون فقد جنوا عاقبة جبروتهم

صغارا وانهيارا: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ} (القصص: ٤١ – ٤٣)

أما الآخرون المعتصمون بحبل الله المستمسكون بعروة الإيمان والتقوى، فقد ظفروا وعمروا: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص: ٤٣)، {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} (الأنبياء: ٧٣). انتهى [١]

لقد كان ذكر بني إسرائيل في القرآن فيما نزل بمكة هو تثبيتٌ، وبشرى، وتسليةٌ لرسول الله– ﷺ– والذين آمنوا معه؛ كأن الوحي يربت على كتفيه ويقول له: { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} (سبأ: ٣٤)

{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} (الأنعام: ٣٤)

{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} (القصص: ٥)

ثم جاء الخطاب القرآني مختلفاً حين تحدث عن بني إسرائيل (اليهود) في المدينة المنورة؛ فلقد كان الحديث القرآني في مكة عن جانب اليهود العقائدي المتمثل في استضعافهم وقصتهم مع فرعون وملئه، وانتصار العقيدة حين كان الابتلاء بالضراء والاستضعاف في سبيل العقيدة، وهذه الحيثيات مفيدة جدا في تكوين العقيدة وتثبيتها لدى المؤمنين برسول الله– ﷺ– في مكة.

يحتل الحديث عن اليهود قسماً مهماً من سورة البقرة، التي هي أوّل سورة نزلت في المدينة كما صرح بذلك بعض العلماء، فإن سورة البقرة تتناول في محورها العام بناء دولة الإيمان وتأسيسها على منهجٍ عميق ومتكامل، وهذا المنهج هو عينه دستور الدولة المؤمنة المتمثل في (القرآن العظيم).

ثم يتوالى الحديث عن اليهود في السور التي نزلت في المدينة مرةً بنصحهم للانخراط في سلك الإيمان، وتارةً بتوبيخهم، وأخرى بمجادلتهم وتفنيد عقائدهم.

(١) الشيخ الغزالي في كتابه (حصاد الغرور) ص٢٢

ذلك أنّ اليهود كانوا أشهر مجموعةٍ من أهل الكتاب في المدينة، وكانوا قبل ظهور النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ينتظرون رسولا بشّرت به كتبهم الدينيّة، كما أنهم كانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية مرموقة، ولذلك كله كان جعل لليهود نفوذاً عميقاً في المدينة.

ولمّا ظهر الإِسلام، باعتباره الرسالة التي تقف بوجه مصالحهم اللا مشروعة وانحرافاتهم وَغَطْرَسَتِهِمْ، فمضافاً إلى عدم إيمانهم به وقفوا بوجه الدعوة، وبدأوا يحوكون ضدها المؤامرات التي لا زالت مستمرة بعد أربعة عشر قرناً من البعثة النبوية المباركة.

فبدأت الآيات القرآنية تنحو باللائمة الشديدة على اليهود، وتهز عواطفهم بذكر مقاطع حساسة من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدهم قليل من الموضوعية لاستيقظ واتجه نحو الإِسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درسٌ مليءٌ بالعبر للمسلمين.

وسنقف في آيات تالية بإذن الله عند دروس من تاريخ اليهود، مثل نجاتهم من فرعون، وانفلاق البحر لهم، وغرق الفرعونيين، وميعاد موسى في جبل الطور، وعبادة بني إسرائيل للعجل في غياب موسى، والأمر بالتوبة وقتل النفس، ونزول النعم الخاصة الإِلهية، وأمثالها من الدروس.

(إن بني إسرائيل قد واجهوا الدعوة في المدينة مواجهةً منكرة، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة، وكادوا لها كيْداً موصولاً لم يفتر لحظةً منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة المنورة، وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، وذلك منذ وحد رسول الله – ﷺ – بين الأوس والخزرج، وسد الثغرات التي كانت تنفذ منها اليهودُ بينهم، وشرع لهم منهجاً مستقلاً، يقوم على أساس القرآن العظيم..

هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخبُ أوارها حتى اللحظة الحاضرة؛ بنفس الوسائل ونفس الأساليب لا يتغير إلا شكلها؛ أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أنَّ العالم كله كان يطاردهم من جهةٍ إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مُسالمٍ لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين!

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد حيث كان القرآن يصدِّق ما جاء في التوراة في عمومه؛ وحيث كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين). [١]

وحين كفر اليهود، وأنكروا كتابهم الذي بيَّن لهم نعت سيدنا رسول الله وصدقه، ولم يكتفوا بذلك بل حاربوا دين الحق؛ كافرين بكل ما أولاهم الله –سبحانه وتعالى –من النعم. حينها كان أنْ حرمهم الله من حمل راية التكريم، والقيادة، والعلم عن الله، ودفعها إلى أتباع النبي محمد ﷺ.

(فيرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آيةٍ واحدةٍ فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط.

والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيُعزَلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّ الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما (بيت المقدس والكعبة)، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمةٍ إلى أمةٍ، من أمةٍ ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمةٍ تتدفق بالبِرِّ والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم). [٢]

(فلقد اتجهت الجهود بعد الهجرة إلى تكوين المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة، لقد نجح المسلمون أفرادا في مقاومة فتن الوثنية، وها هم أولاء قد خلصوا بدينهم، ووجدوا دارا تجمع أمتهم ، وتقيم دولتهم. لكنهم فوجِئوا بعداوةٍ من نوع آخر، عداوة اليهود الذين حسبوا الدين حكرا على جنسهم ، فتجهموا للمنافسين الجدد ، وشرعوا يستعدون لمقاومتهم ، ويتآمرون سرا وعلنا على الكيد لهم.

والقبائل اليهودية التي استوطنت البقاع الخصبة في الحجاز، بدأت حياتها فارَّةً بعقائدها من بطش الرومان ، وقد عاشت بين العرب الأميين مترفعةً عليهم ، فما حاولت محاربة الأصنام ، ولا أنشأت دعوة إلى الله ، ولا عرضت تعاليم السماء لتغنى عن تعاليم الأرض. كلا، لقد نَأَت بنفسها، واستراحت إلى مواريثها، وظنت أن الدين امتيازٌ لها ، ما ينبغي أن يَشْرَكهم فيه أحدا!!

فهل بقيت على هذا الشعور من اللامبالاة عندما ظهر الإسلام؟ لا، لقد رفضته، وقلبت له الأمور...

١ في ظلال القرآن باختصار يسير(1/ 63)

٢ الرحيق المختوم (ص: 128)

وحاول النبي الخاتم أن يستلين جانبهم، ويتعاون على الخير معهم ، بيد أن حقدهم غلب ، وبدأ شرهم ينمو ، فكان المسلمون في مهجرهم الذى ظفروا به يبنون بيد ، ويقاومون بأخرى! يؤسسون مجتمعهم وِفق إشارات الوحي، ويدفعون عنه أعداء لا يخفى لهم ضِغْنٌ!! في هذا الجو نزلت سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم وأحفلها بالتعاليم المنوعة). (١)

وبعد أنْ بحثنا في أبعاد الحديث والخطاب القرآني المتنوع لبني إسرائيل في مرحلتيه الزمانيتين المكية والمدنية، يصح لنا أنْ نتوقف أمام غرضِ وعمقِ هذا الحديث القرآني ببعده السياقي العام الخارق لحدود الزمان والظروف.

(فإن البشر كثيرا ما ينجحون في امتحانات البأساء والضراء حتى إذا وسَّع الله عليهم وغمرتهم نعماؤه، لم يحسنوا اجتياز الاختبار الجديد. وما أكثر الذين حولتهم السلطة إلى جبابرة متسلطين، وحولتهم الثروة إلى طغاة مستكبرين.

وكان من المنتظر من بنى إسرائيل أن يستغلوا تمكين الله لهم في نصرة دينه وإسعاد عباده، إلا أنهم سرعان ما فتكت بهم جراثيم السطوة والثروة فلم يفلتوا من الجزاء المعد لأمثالهم {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (البقرة: ٢١١) وقد بيَّن الله للمسلمين مراحل هذا التبديل لنعمة الله، وأوضح مظاهره في أخلاق القوم ومسالكهم ، وما فعل –جل شأنه– ذلك إلا ليتجنب المسلمون المزالق التي هَوَت بغيرهم، فإن الأمم لا تُنْكَب جُزافا ، ولا تُساقُ إليها المصائب خبْطَ عشواء ، ولكنها قوانين الله التي يَخضع لها الأولون والآخرون، ولا تُقْبَل فيها شفاعةٌ ، ولا يوقف حكمها استثناء.

إن الله نَحَّى أبناءَ إسرائيل عن المنصب الذي لم يقْدِروه قدره، واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية حيث عجز أبناء عمومتهم. والغريب أن التوجيه الذي قيل لهؤلاء قيل لأولئك على تباعد الزمان بين الفريقين.

ففي لذْعةٍ من لَذَعاتِ الألم صرخ بنو إسرائيل بنبيهم موسى: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } (الأعراف: ١٢٩) تُرَى أ إذا تحررتم وسُدْتُم؛ أتحسنون وتعدلون؟ أم ترتكبون الآثام وتستحلون المحارم؟

(١) محمد الغزالي السقا في كتابه الماتع الفريد (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) (ص٧)

وبعد عصورٍ طِوال جيء بالأمة الإسلامية بعد إقصاء بنى إسرائيل الذين أساءوا وظلموا، فماذا قال الله للأمة الجديدة؟

قال: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا؛ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ. وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا. كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} (يونس: ١٣، ١٤).

ذات القول الذي قيل لبنى إسرائيل. منذ قرونٍ سحيقة. فلنقارن بين تاريخ وتاريخ، وعوج وعوجٍ، لنعرف ما لنا وما علينا.

وهل وفينا أم غدرنا، وهل ما أصابنا كان جور الليالي علينا؟ أم هو صنع أيدينا وحصاد ما غرسنا؟

إذا كلّف اللهُ أمةً برسالةٍ، فيجب أن تكون حالُها الظاهرة والباطنة، ومعاملاتها الداخلية والخارجية صورةً دقيقةً لهذه الرسالة، صورةً تحبب الآخرين فيها ، وتغريهم باعتناقها. أما أن ينفِّر الدعاةُ غيرَهم من قبول الدعوة، فهذه هي الخيانة الكبرى.!

وحملةُ الدعوة المخلِصون يخشون أن يقع لهم أو يقع منهم ما يكون حجابا للآخرين أو عائقا عن تصديق دعوتهم.

وبهذا فسر العلماء قول المؤمنين: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} (الممتحنة: ٥) وكيف يكون المؤمنون فتنة للذين كفروا؟

قال المفسرون: تصيبهم هزائمٌ بسبب تقصيرهم؛ فيَنظر الكفارُ إلى هذه الهزائم؛ ويقولون: لو كانوا على حقٍ ما مَسَّتْهم تلك المصائبُ). [١]

هنا يكمن الدرس وتنمو العِبرة لتكون شجرةً وارفة الظلال في سماء البناء والحضارة، تعرف المسلمين متى نسود، ومتى نسقط وِفق سنن الله تعالى في صعود الأمم وهبوطها. وهكذا يجب أن نقرأ قصص بني إسرائيل وغيرهم في القرآن العظيم.

عودٌ لتفسير الآيات.

قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) }

(١) الشيخ الغزالي في كتابه (حصاد الغرور) ص٢٢

بدءاً من هذه الآية (الآية 40 من سورة البقرة) تبتدأ الحملة التصحيحية المنهجية على اليهود الذين انحرفوا عن المنهج؛ وخانوا العلم والكتاب الذي بأيديهم فاستحقوا اللعنة والغضب الإلهي على نقضهم ميثاق الله وعهده الذي واثقوه عليه.

واليهود هنا هم أوضح مثالٍ للفاسقين: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ...} (البقرة: 27) فنرى القرآن العظيم يدور على معانيه وآياته كأنها كلمةٌ واحدةٌ؛ فيفصِّل في صفات أولئك الفاسقين وكل من شابههم من هذه الأمة.

قال بعض المفسرين: هذا العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد –ﷺ– وأن لا يكتموا أمره ؛ فالآية على هذا المعنى يصح أن تكون في أهل الكتاب {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } (البقرة: 89، 90) .

روى الإمام الطبري عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ من الأنصار قالوا: فينا –والله– وفيهم – يعني في الأنصار، وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم – نزلت هذه القصة يعني: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا} .. قالوا: كنا قد علوناهم (أي غلبناهم) دهرا في الجاهلية – ونحن أهل الشرك، وهم أهل الكتاب – فكانوا يقولون: إن نبيا الآن مبعثُهُ، قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عادٍ وإرَم. فلما بعث الله – تعالى – رسولَهُ من قريشٍ واتبعناه، كفروا به. يقول الله: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به} انتهى.[١]

قلت: هكذا كان حال اليهود الذين كفروا بما علموا يقينه وخانوا علمهم، وتكريم الله تعالى لهم، فاتصل فيهم السياق القرآني ليجعل منهم العِبرة والمثل لمن كرَّمه الله تعالى فنكص على عقبيه واستهان بعهد الله – سبحانه – ووعده.

---

١ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 333) وقال الشيخ العلامة احمد شاكر تعليقا على الرواية: الخبر: 1519 – هذا له حكم الحديث المرفوع، لأنه حكاية عن وقائع في عهد النبوة، كانت سببا لنزول الآية، تشير الآية إليها. الراجح أن يكون موصولا. لأن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري الظفري المدني: تابعي ثقة، وهو يحكي عن "أشياخ منهم"، فهم آله من الأنصار. وعن هذا رجحنا اتصاله. وقد نقل السيوطي 1: 87 هذا الخبر، ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبي نعيم، والبيهقي، كلاهما في الدلائل.

وهنا الخطاب جاء موجهاً لتذكير بني إسرائيل بنعم الله السالفة عليهم؛ توبيخاً لهم على كفرهم وبيانا لجحودهم، وأنهم لا عذر لهم في نقضهم عهد الله تعالى، والخطاب لك واسمعي يا جارة؛ فالبيان والتصحيح هو لمسار أمة محمد صلوات الله عليه– جميعها؛ حتى تتجنب المزالق العقدية والمنهجية الخطيرة التي وقع فيها بني إسرائيل.

قال ابن جرير: وإنما خاطب الله جل ثناؤه بقوله: "يا بني إسرائيل" أحبارَ اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا بين ظَهرانَيْ مُهاجَر رسول الله ﷺ، فنسبهم جل ذكره إلى يعقوب، كما نسب ذرية آدم إلى آدم، فقال: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} (سورة الأعراف: ٣١) وما أشبه ذلك. وإنما خصّهم بالخطاب في هذه الآية والتي بعدها أن الذي احتج به من الحجج والآيات التي فيها أنباء أسلافهم، وأخبارُ أوائلهم، وَقصَصُ الأمور التي هم بعلمها مخصوصون دون غيرهم من سائر الأمم، ليس عند غيرهم من العلم بصحته وحقيقته مثلُ الذي لهم من العلم به، إلا لمن اقتبس علم ذلك منهم.

فعرَّفهم بإطلاع محمّد على علمها– مع بُعْدِ قومه وعشيرته من معرفتها، وعدم مزاولة محمد –ﷺ– درَاسةَ الكتب التي فيها أنباء ذلك – أنّ محمدًا –ﷺ– لم يَصلْ إلى علم ذلك إلا بوحي من الله وتنزيلٍ منه ذلك إليه – لأنهم من عِلْم صحة ذلك بمحلّ ليس به من الأمم غيرهم، فلذلك جل ثناؤه خص بقوله: "يا بني إسرائيل" خطابهم. [١]

وهي نكتة لطيفةٌ في حِجاج اليهود من خلال معرفة نبينا ﷺ بتاريخهم الذي لا يعرفه سوى أحبارهم، وكل ذلك فقط بتعليم من الله سبحانه، فقد كان أمياً لم يعلمه أحد.

(وقد أفاض القرآن في ذلك وتدرج فيه من درجة إلى أختها بأسلوب بديع في مجادلة المخاطبين وأفاد فيه تعليم المسلمين حتى لا يفوتهم علماءُ بني إسرائيل قال تعالى:

{أَوَ لَمْ يَكُنْ لهم آيةً أَنْ يعلَمَه عُلماءُ بني إسرائيل } (الشعراء ١٩٧) فقد كان العلم يومئذ معرفة التشريع ومعرفة أخبار الأنبياء والأمم الماضية وأحوال العَالَمَيْن العلوي والسفلي مع الوصايات الأدبية والمواعظ الأخلاقية ، فبذلك كان اليهود يفوقون العرب ومن أجله كانت العرب تسترشدهم في الشؤون وبه امتاز اليهود على العرب في بلادهم بالفكرة المدنية .

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٥٤)

وكان عِلم عامة اليهود في هذا الشأن ضعيفاً وإنما انفردت بعلمه علماؤهم وأحبارهم فجاء القرآن في هاته المجادلات معلماً أيضاً للمسلمين وملحقاً لهم بعلماء بني إسرائيل حتى تكون الدرجة العليا لهم لأنهم يضمون هذا العلم إلى علومهم اللسانية ونباهتهم الفكرية فتصبح عامة المسلمين مساوية في العلم لخاصة الإسرائيليين وهذا معنى عظيم من معاني تعميم التعليم والإلحاق في مسابقة التمدين.

وبه تنكشف لكم حكمة من حِكَم تعرض القرآن لقصص الأمم وأحوالهم فإن في ذلك مع العبرة تعليماً اصطلاحياً.

ولقد نعُدّ هذا من معجزات القرآن وهو أنه شرح من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلا أحبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانه الاستئثار به خشية المزاحمة في الجاه والمنافع فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن علمهم صادعاً بما لا يعلمه غير خاصتهم فكانت هذه المعجزة للكتابيينَ قائمةً مقام المعجزة البلاغية للأميين). انتهى. [١]

****

قال تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) }

الأوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: تذكّر النعم الإلهية، والوفاء بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الإلهي الكامل للبشرية.

تذكّر النعم الإلهية يحفّز الإنسان للإتجاه نحو معرفة الله سبحانه وشكره. واستشعار العهد الإلهي الذي يستتبع النعم الإلهية يدفع الكائن البشري إلى النهوض بمسؤولياته وواجباته. ثم الخوف من الله وحده ـ دون سواه ـ يمنح الإنسان العزم على تحدّي كل العقبات التي تقف بوجه تحقيق أهدافه والإلتزام بعهده. لأن التخوف الموهوم من هذا وذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الإلهي. وظاهرة الخوف كانت متغلغلة في أعماق نفوس بني إسرائيل نتيجة السيطرة الفرعونية الطّويلة عليهم.

قال العلامة ابن جزي: فإنه تعالى لما قدَّم دعوة الناس عموما وذكر مبدأهم: دعا بني إسرائيل خصوصا وهم اليهود، فتارةً دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر العقوبات التي عاقبهم بها. انتهى [٢]

(١) انظر تفسير الشيخ العلامة ابن عاشور (التحرير والتنوير).

٢ تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 80)

وفي هذه الآيات يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى يخاطب الله سبحانه اليهود، ويسميهم بِنِي إِسْرَائِيلَ (وَهُمُ اليَهُودُ – وَإِسْرَائِيلُ هُوَ يَعْقُوبُ بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليهم السلام– والخطاب لهم ولذريتهم في كل زمان، وإن كان الخطاب لآبائهم مذكراً إياهم بنعمه الكثيرة عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران، فذلك أنَّ النعمة على الآباء هي نعمة على الأبناء بالتبعية؛ إذ لولاهم ما كان الأبناء.

ونكتة تسميتهم ببني اسرائيل أنه وبَّخهم على عدم اتباع نهج أبيهم الصالح يعقوب (إسرائيل) –عليه السلام– يقول لهم: يا أولاد يعقوب الرجل الصالح. وكلمة (إسرائيل) هي كلمة عبرانية معناها (عبد الله وصفوته من خلقه) [١] ؛والمقصود هنا أنهم لم يصلحوا بأفعالهم لمقام العبودية الذي فيه أبوهم يعقوب حق قيام بِالدُّخُولِ فِي الإِسلامِ– دين الأنبياء جميعاً– وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ –ﷺ– الذي يجدونه عندهم مُبشَّراً به في التوراة.

قال ابن كثير: وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول : يا ابن الكريم ، افعل كذا . يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. انتهى.

يقول المولى سبحانه: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أى احفظوا نعمي. والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وقيل: أراد به الشكر ؛ لأن في الشكر ذكرًا، وفي الكفران نسيانًا، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، ونقل ابن قيم الجوزية في (المدارج) ما قَالَ الْجُنَيْدُ – وَقَدْ سَأَلَهُ سَرِيٌّ عَنِ الشُّكْرِ، وَهُوَ صَبِيٌّ – الشُّكْرُ: أَنْ لَا يُسْتَعَانَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وقوله {نعمتي} أي: نعمي، لفظها واحد ومعناها جمع؛ وهو اسم لجنس النعمة يعمها.

{الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أي: على أجدادكم وأسلافكم، قال قتادة: هي النعم التي خُصَّت بها بنو إسرائيل: فلق البحر، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم في التيه، وإنزال المَنّ والسلوى، وإنزال التوراة، في نعمٍ كثيرة لا تُحصى.

قال ابن كثير: وهذا كقول موسى عليه السلام لهم: { يا قومِ اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ جَعَلَ فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤْتِ أحدا مِن العالَمين } (المائدة : 20) يعني في زمانهم.

، {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي}: بامتثال أمري.

قال سبحانه: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ

---

(١) راجع النقول الصحيحة في ذلك في تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٥٥٣)

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (المائدة ١٣،١٢)

قال الشيخ رشيد رضا: عهد الله – تعالى – إليهم يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه، وعهد إليهم أن يرسل إليهم نبيا من بني إخوتهم ؛ أي بني إسماعيل يقيم شعبا جديدا . هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل في عموم العهد عهد الله الأكبر الذي أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبر والتروي ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور ، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهي العام ، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة في كتابهم ، لآمنوا بالنبي – ﷺ – واتبعوا النور الذي أنزل معه وكانوا من المفلحين ، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان بالنبي – ﷺ – كما فعل بعض المفسرين فإن الإيمان داخل في العهد العام وهو من أفراد العهد الخاص فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه انتهى.[١]

قلتُ (جامعه) : والدليل على ذلك أنه انتقل من الأمر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال – تعالى – جل شأنه : { وآمِنوا بما أنزلْتُ مُصَدِّقاً لما معكم }.

وتأمل هنا فائدة: في آلية الترجيح في التفسير بناءً على سياق الآيات سباقاً ولِحاقاً، فالسياق من أدوات الترجيح المفيدة جدا في القرآن، وقد أكثر من استعماله الإمام الطبري في تفسيره.

قال تعالى: {وأوفوا بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} وهنا شرطٌ وجزاء، فمتى وفوا بعهدهم مع الله، فقد تفضل الله –سبحانه– بتوفية ما عهد إلى عباده الصالحين بالقبول والثواب.

{وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} فخافوني في نقض العهد. يَقُولُ لهم: إِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ أَوْفَى بِعَهْدِهِ إِلَيْهِمْ بِأَنَّهُ سَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَسَيُدْخِلُهُم الجَنَّةَ. أَمَّا إذا لَمْ يَفْعَلُوا مَا أَمَرَهُم اللهُ بِهِ، فَلْيَحْذَرُوا أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ نِقَمُ اللهِ التِي أَنْزَلَهَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ آبَائِهِمْ، مِنَ المَسْخِ وَغَيْرِهِ مِنَ العُقُوبَاتِ.

١– انظر تفسير المنار ٢٤٠/١.

فَاللهُ تَعَالَى يُرغِّبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الإِيمَانِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَالمُعَانَدَةِ. ترغيبٌ وترهيبٌ في جملةٍ موجزةٍ قوية الإيحاء وعميقة المعنى. فيها من رهبة التلويح باسمه تعالى ما يفتت الأكباد، ويرعب القلوب، ولكنَّ مَن أعماه الله تعالى يدعي الظلام في أشد لمعان البروق.

****

قال الله تعالى: {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)}

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "آمنوا"، أي صدِّقو [(١)]ا، ويعني بقوله: "بما أنزلت"، ما أنزل على محمد -ﷺ- من القرآن "مصدِّقًا لما معكم"، أن القرآن مصدِّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة (في التوحيد والأصول العامة للإيمان والدين). فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أنَّ في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد -ﷺ- وتصديقه واتباعه، نظيرُ الذي من ذلك في التوراة والإنجيل... انتهى.

كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الأعراف: ١٥٧)

وقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أي لا تكونوا أوَّل الذين كذَّبوا به وَجحدوا أنه مِن عندي، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم. قاله أبو العالية، وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس.

وفي عود الضمير في قوله { به} قولان لأهل المعاني: أحدهما أنه رسول الله- ﷺ.

واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: {به} عائدٌ على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله تعالى: {بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ}.

ويرجح ابن كثير أنَّ كلا القولين صحيح (أي يعود الضمير على محمد – ﷺ – أو على القرآن) ؛ لأنهما متلازمان ، لأن مَن كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ، ومَن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن ...

(١) وقلتُ سابقاً أنَّ الإيمان أعمق وأوسع في المعنى من مجرد التصديق.

قلتُ (جامعه): ورأى ابن كثير– رحمه الله– حسن يجمع بين دلالات النص ويوافق جمال السياق القرآني المتسع الأفق.

وأما عن المقصود ب {ولا تكونوا أول كافر} مع وجود مَن كفر به قبلهم؛ فالمقصود هنا كونهم رأساً وزعامةً في الكفر مع علمهم اليقيني بصحة نبوة محمد وأحقية دين الإسلام.

قال صاحب تفسير المنار: أي ولا تبادروا إلى الكفر به والجحود له مع الواجب عليكم في السبق إليه، وهذا الاستعمال معروف في الكلام البليغ لهذا المعنى لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها .اهـ.

قلتُ: وقريبٌ من هذا المنحى قوله تعالى: {لا شريك له وأنا أول المسلمين} وليس المقصود أول شخصٍ يؤمن، ولكن المقصود أنه على رأس المسلمين ومن حماسه ويقينه بالإسلام كأنه يسبقهم.

والمقصود أنه كان من الأوْلى أن تكونوا من أول الذين يبادرون للإيمان به، ولا تكونوا أول من بادر بالكفر به. فهذا يسمى في (قواعد التفسير) استجلاء المعنى العميق للجملة بخلاف المعنى السطحي في تلقي دلالة الجملة.

الكهنوت وحقيقة الحرب على الإسلام.

قال سبحانه وتعالى: {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)}

والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي.. كله شنشنة يهود من قديم!!

وقد يكون المقصود بالنهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء، كما ورد في مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله في أيديهم عن طريق صد شعبهم كله عن الدخول في الإسلام، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة. على أن الدنيا كلها– كما قال بعض الصحابة والتابعين –رضوان الله عليهم –في تفسير هذه الآية– هي ثمنٌ قليل، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله، وإلى عاقبة الإيمان في الآخرة عند الله. [١]

والكلام –بامتداده واتساعه– هو لكل مَن ائتمنه الله– سبحانه– على أمانة العلم والدين ألا يبتغي بعلمه عَرَض الحياة الدنيا، ويموِّه على الناس دينهم من أجل حفناتٍ من الدراهم، مهما بلغت من الكثرة فإنها تزول ويبقى إثمها عليه عظيماً جدا، ثم ضررها الذي أحدثته في إضلال الناس وإفسادهم.

١– في ظلال القرآن (1/ 67) للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

قال العلامة القرطبي: وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله أو امتنع من تعليم ما وجب عليه أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل في مقتضى الآية، والله أعلم.

قال ابن كثير : في قوله تعالى { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } قيل : معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب ، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " من تعلم علما مما يُبتغَى به وجه الله؛ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يَرَحْ رائحة الجنة يوم القيامة".

وقوله تعالى: {وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} يفيد أنَّ هناك صفقةً تتم، يبيعون شيئاً ويشترون مكانه شيئاً آخر. والآية الكريمة ذكرت أنهم اشتروا ثمناً أي مالاً وعَرَضاً ووصفته بأنه قليلٌ مهما بلغ عند المشتري من كثرةٍ أو قيمة. فماذا باعوا؟!

وكعادة القرآن يجمل المقصود ليعمَّ بالدلالة ويوسّعُ، فيشتمل من المعاني ما لا تكفيه المجلدات، ليكون أوسع في التنزيل على كل حادثٍ، في كل زمان، مع كل الناس.

لقد با ع القوم أمانتهم، وعلمهم، ودينهم من أجل الحفاظ على ما يتلقونه من أموال الناس، ومن اجل المحافظة على رياستهم عليهم. كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ..} (الآية ٣٤/ التوبة) وتتضح مناسبة هذه الآية بما قبلها في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (التوبة٣٢، ٣٣) ففي هذه الآية يقرر القرآن حقيقة تلك الحرب المستعرة من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) على الإسلام، والصد عنه بكل وسيلةٍ ثم في الآية بعدها يقرر سبب تلك العداوة الشديدة لهذا الدين.

إنهم يريدون الدنيا والمال والرياسة والشهوات، والسيادة على جميع الناس بإدعاء أنهم أبناء الله وخلفاءه، وأن الناس غيرهم (الأغيار) هم دونهم، وهم لخدمتهم وخدمة أهواءهم.

ورسول الله– ﷺ– مع رسالته التي تساوي بين الناس جميعا وتنزع بساط الرياسة من تحت رجال الدين، وتجعل الإنسان يقف بلا واسطةٍ تحت السماء يناجي ربه ويطلب منه ما يشاء؛ رسول الله ورسالته بهذه القيم

يهدد شهوات وأهواء رجال الدين والكهنوت، والأموال التي يجنوها من وراء رياستهم الدينية، فهو بذلك أشد أعدائهم وعليهم محاربته بكل الطرق.

والقرآن إذ يتحدث إليهم في سورة البقرة يبدأ بملاطفتهم ونصهم للعودة عن غيهم، وضلالهم ونهمهم للدنيا والمال وهو ثمنٌ زهيد مقابل بيعهم للنجاة في الآخرة.

وبيعُهم أمانتهم ودينهم هو تركهم إبانةَ ما في كتابهم من أمر محمد -ﷺ- للناس، وأنه مكتوب فيه أنه النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، يبيعون ذمتهم وأمانة العلم عندهم لأنهم يخشون من عدل الإسلام ورحمته بالناس، ونهيه عن أكل أموال الناس بالباطل، والسيادة والرياسة عليهم بغير حق.

وهكذا ندرك أسباب المحاربين للإسلام، ونعرف دوافعهم التي تؤكد أنهم لا يحاربوا الإسلام لأنه يخالف دينهم، وإنما لأنه يهدد سلطتهم وسرقاتهم وفسادهم في الأرض.

وهذه الآية متصلةٌ بالآية التي قبلها، فهذا العهد الذي طالبهم الله – سبحانه وتعالى- بالوفاء به في الآية التي قبل هذه هو الاعتراف بنبوة محمد- ﷺ-.

وقد تناول العلماء في هذه الآية مسألة فقهية: هل يجوز اخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم،وقد أشبعها القرطبي في تفسيره 1/ 316 تدقيقا فراجعه، وأرى أن استنباطها من هذه الآية بعيد لما بيَّنا من سياق الآية وغرضها، وهذا مثله في كتب أحكام القرآن كثيرٌ، وبابه الفقه المحض.

****

مسلك اليهود وكل المضللين (بكسر اللام) في الغواية.

قال سبحانه: {وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بالباطلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }(البقرة – ٤٢)

بيَّنت هذه الآية مسلكهم في الغواية والإغواء في سياق النهي عنه.

قال العلامة الراغب:

اللَّبس والستر، والتغطية، والتعمية، والتمويه، والكتمان، والإخفاء يتقارب، فالستر أعم الألفاظ، لأنه يقال في المحسوس والمعقول " سترت كذا بثوبي "، وسترته في نفسي، والتغطية في الأعيان فقط، واللبس أصله في الثوب، ثم يقال في المعنى أيضاً، وذلك أن يخلط حق بباطل، وصدق بكذب، والتعمية: ما جعل الإنسان عن

إدراكه كالأعمى، والتمويه: ما جعل على وجهه مواهةً، والكتمان: يقال في الحديث ونحوه، وقوله: {وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} أخص من قوله: {تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} ، لأن اللبس هو الخلط بغيره، والكتمان إخفاؤه جملةً. اه. (١)

وقوله تعالى: {ولا تلبسوا الحق بالباطل} فيه أقوال:

الأول: أي لا تخلطوا الصدق بالكذب، قاله ابن عباس.

الثاني: لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، قاله مجاهد.

الثالث: لا يخلطوا التوراة بما كتبوه بأيديهم فيها من غيرها، أو بما بدلوا فيها من ذكر محمد ﷺ، قاله ابن زيد.

الرابع: لا يخلطوا الأمانة بالخيانة لأنهم ائتمنوا على إبداء ما في التوراة، فخانوا في ذلك بكتمانه وتبديله، أو الإقرار بنبوة محمد ﷺ إلى غيرهم وجحدهم أنه ما بعث إليهم، قاله أبو العالية.

الخامس: المقصود منه خلط إيمان منافقي اليهود بإبطان كفرهم

السادس: خلط صفة النبي ﷺ بصفة الدجال. (٢)

فقد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يُبْعَثون فيهم ويعملون العجائب، وجاء فيها أيضا أنه – تعالى – يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمةً، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه. (٣)

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٧١)

(٢) راجع البحر المحيط في التفسير (١/ ٢٩٠)

(٣) ورد في سفر التثنية (١٨/١٧): (قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا أني أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه). هذا الكلام لا ينطبق إلا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال: (من وسط إخوتهم). وإخوتهم هم أبناء إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أخو إسحاق الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل حيث هما ابنا إبراهيم عليه السلام. وأيضاً قال (مثلك) ومعلوم أن اليهود يرون أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى حيث قالوا في سفر التثنية (٣٤/١٠): (ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الرب وجهاً لوجه). وفي النسخة السامرية من التوراة هكذا (ولا يقوم أيضاً نبي في إسرائيل مثل موسى الذي ناجاه الله شفاها). واليهود يزعمون أن هذه البشارة لنبي لم يأت بعد، وإن زعم بعضهم أن المراد بها يوشع بن نون، فهذا غير صحيح؛ لأنه ليس مثل موسى، ويزعم النصارى أن المراد بها عيسى عليه السلام، وهي في الواقع لا تصدق عليه بأي وجه؛ لأنه: –
أولاً: من بني إسرائيل وليس من إخوتهم.
ثانياً: هو ليس مثل موسى عليه السلام، فإنه تابع له، كما أنه عند النصارى إله، وابن إله، فلو أقروا بأنه مثل موسى لهدموا ديانتهم وما هم عليه. أما النبي صلى الله عليه وسلم فتصدق عليه من جميع الوجوه، فإنه من إخوتهم، وهو مثل موسى عليه السلام نبي رسول، وأتى بشريعة جديدة، وحارب المشركين، كما فعل موسى عليه السلام. ثم إنه قال: (أجعل كلامي في فمه). فهذا كناية عن القرآن المحفوظ في الصدور، الذي تلقَّاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم مشافهة من جبريل عليه السلام، وحفظه في قلبه، وتلاه بعد لأمته من فمه عليه الصلاة والسلام، حيث كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب عليه الصلاة والسلام. ثم إن الله جلَّ وعلا أتم وعده للنبي صلى الله عليه وسلم أن الذين لا يطيعونه فإن الله سيطالبهم، وقد طالبهم، فانتقم من أعدائه المشركين واليهود، ثم ممن عداهم من الأمم. وهذا لم يكن لنبي غيره، وعيسى عليه السلام لم ينتقم الله من أعدائه، بل كان أعداؤه في مكان المنتصر، فأرادوا قتله إلا أن الله جلَّ وعلا أنجاه منهم، وفي زعم النصارى أنهم قبضوا عليه وأهانوه وصلبوه. انظر موقع الدرر السنية على

ولكنَّ الأحبار والرؤساء كانوا يلبِّسون على العامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي – ﷺ – من الأنبياء الذين نعتتهم الكتب بالكذبة (وحاشاه)، ويكتمون ما يعرفون من نعوته– ﷺ– التي لا تنطبق على سواه، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين وما يدعون إليه، وكله ظاهرٌ فيه – عليه الصلاة والسلام – بأكمل المظاهر.

روى الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله –ﷺ– المدينة فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي.

قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟

فقال رسول الله –ﷺ– «خبَّرني بهن آنفا جبريل» قال: فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة.

فقال رسول الله –ﷺ–: " أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها "

قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله.

ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بُهُتٌ [(١)] ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت (أي اختبأ منهم)، فقال رسول الله –ﷺ–: «أيُّ رجلٍ فيكم عبد الله بن سلام» (يسألهم عن خلقه وفضله) .

قالوا: أعلمنا، وابن أعلمنا، وأخيرنا، وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله» قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا، وابن شرنا، ووقعوا فيه. انتهى.

والأوْلى هو حمل تلبيسهم الحق بالباطل على كل ما ذكر السلف في تأويله، فالعام من ألفاظ القرآن يُحمل على عمومه إلا أن يخصِّصه القرآن أو السنة الصحيحة ببعض مراده. وهذه قاعدة في التفسير.

شبكة الانترنت– موسوعة الأديان –الباب الثالث: النصرانية وما تفرع عنها– الفصل التاسع: البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب المقدس–المبحث الأول بشارة العهد القديم والجديد– المطلب الأول: البشارة الأولى.

(١)بُهت هي جمع بهوت وبهَّات وهي صيغة مبالغة أى كثير البهتان وهو أسوأ الكذب أي كذابون ومجادلون لا يرجعون إلى الحق.

ومن تلبيس الحق بالباطل أيضا الذي هو بمعنى الخلط والتخليط ما يفتريه الرؤساء والأحبار فيكون صادا لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيه عن ضلالٍ وجهل، وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها على الكتب المنزلة بضروبٍ من التأويل والاستنباط من كلام بعض المتقدمين وأفعالهم.

فكانوا يحكِّمون هذه الزيادات في الدين حتى في كتب الأنبياء، ويعتذرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء، وعلى مَن بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم.

ولكنَّ الله– سبحانه– لم يقبل هذا العذر منهم، فأسند إليهم ذلك اللبس وكتمان الحق الموجود في التوراة إلى اليوم، وكذلك لا يقبل الله مِمَّن بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علما وفهما، فكل ما يعلم من كتاب الله – تعالى – يجب العمل به ، وإنما يَسأل الإنسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل .

وعلى هذا المنهج العام في حياة اليهود وتملصهم من الحق الذي نزل في التوراة عليهم فسَّر الزمخشري الآية فقال: الباء التي في قوله {بِالْباطِلِ} إن كانت صلة مثلها في قولك: لبست الشيء بالشيء خلطته به، كأن المعنى: ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المُنَزَّل من عند الله– تعالى– بالباطل الذي كتبتم، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم.

وإن كانت باء (الاستعانة) كالتي في قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبسا مشتبها مستعينين بباطلكم الذي تكتبونه. اهـ. [١]

وعند الطبري في قوله: "وتكتموا الحق"، وجهان من التأويل:

أحدُهما: أن يكون الله –جل ثناؤه– نهاهم عن أن يكتموا الحق، كما نهاهم أن يلبسوا الحق بالباطل. فتكون (الواو) للعطف والجمع بين النهيين؛ فيكون تأويل ذلك حينئذ: ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق.

والوجه الآخر منهما: أن يكون النهي من الله جل ثناؤه لهم عن أن يلبسوا الحق بالباطل، ويكون قوله: "وتكتموا الحق" حال عن فعلهم ذلك متلبسين بكتمان الحق إذ هو الغرض من خلطهم الحق بالباطل.. ونظيرُ ذلك في المعنى والإعراب قول الشاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ.

---

(١) انظر تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٣٢).

والمعنى لا تنهَ عن خلقٍ وأنت متلبسٌ بإتيان مثله. [١]

والحق الذي كتموه هو أمر رسول الله ﷺ، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو العالية، والسدي، ومقاتل.

أو هو الإسلام، قاله الحسن.

أو يكون الحق عاما فيندرج فيه أمر رسول الله ﷺ والقرآن، وما جاء به ﷺ وكتمانه أنهم كانوا يعلمون ذلك ويظهرون خلافه. كما هي القاعدة في تفسير العام التي ذكرنا.

قوله تعالى: {وأنتم تعلمون} جملة حال، ومفعول تعلمون محذوف اقتصارا، إذ المقصود:

وأنتم من ذوي العلم، فلا يناسب من كان عالما أن يكتم الحق ويلبسه بالباطل.

وقال ابن عطية: وأنتم تعلمون، جملة في موضع الحال ولم يشهد تعالى لهم بالعلم، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا، انتهى.

ومفهوم كلامه أن مفعول تعلمون هو الحق، كأنه قال: ولا تكتموا الحق وأنتم تعلمونه، لأن المكتوم قد يكون حقا وغير حق، فإذا كان حقا وعلم أنه حق، كان كتمانه له أشد معصية وأعظم ذنبا، لأن العاصي على علم أعصى من الجاهل العاصي. [٢]

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (٤٣)

فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضي لله – تعالى – ، وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر والوقوف عند الرسوم ، فقد كانوا يصلون، ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة ؛ لأن الإقامة هي الإتيان بالشيء مُقَوَّما كاملا.

وهذا المعنى لا يكون في الصلاة إلا حينما يكون فيها التوجه إلى الله – تعالى – بالقلب والخشوع بين يديه ، والإخلاص له في الذكر والدعاء والثناء ، فهذا هو روح الصلاة الذي شُرِعت لأجله، ولم تُشْرِع للاتيان بصورةٍ معينةٍ وهيئةٍ لا خشوع فيها الصورة ، فإن روح الصلاة لا يتغير ولم يختلف فيه نبيٌ، ولم ينسَخ في شريعةٍ من الشرائع .

---

(١) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢٩٠)

(٢) نفس المصدر (١/ ٢٩١)

أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من الله – تعالى – بالزكاة التي هي عنوان الإيمان ومظهر شكر الله على نعمته، والصلة العظيمة بين الناس.

ومن المعهود في القرآن اقتران إتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة. ومن أقام الصلاة لا ينسى الله – تعالى – ولا يغفل عن فضله. ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله.

يؤتي المؤمن من مال الله الذي أعطاه مواساةً لعيال الله تعالى [(١)] ، ومساعدةً على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته، فإن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنيا إلا بهم ومنهم ، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفةٍ في فكره ونفسه، أو عِلةٍ في بدنه؛ فيجب على الآخرين الأخذ بيده ، وأن يكونوا عونا له حفظا للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر ، وشكرا لله على ما ميَّزهم به من النعمة.

قلتُ: وهي فلسفةٌ اجتماعية راقية أتى بها الإسلام، ويكفيك أن تتأمل لذلك ما بعث رسول الله –ﷺ– معاذاً به من رسالة وأصول الإسلام إلى أهل اليمن فقال له: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تُؤْخَذُ من أغنيائهم وتُرَدُّ على فقرائهم». رواه الشيخان عن ابن عباس.

وتأمل فيه لفظ (وتُرَدُّ) لتجد أن المال لا يؤخذ من الأغنياء إلا ليعود إليهم بطريقةٍ خفيةٍ، فالمجتمع الذي يستأثر به الأغنياء بكنز المال ولا يدفعون الصدقات والزكاة للفقراء، يكثر فيه ضيق الحال وسوء الخلق الذي ينعكس بدوره على الحياة التي تشمل الأغنياء في ذلك المجتمع مهما بالغوا في الانزواء والتترس في حصونهم بعيداً عن الفقراء فهم في حاجةٍ متصلةٍ إليهم، بما يمكن أن نطلق عليه **mutual need**.

---

(١) روى قوام السنة في الترغيب والترهيب (١/ ١٣٤): عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: ((الخَلْق عيال الله؛ وأحب الناس إلى الله من أحسن إلى عياله)) . وبنفس الإسناد أخرجه ابن عدي في الكامل، وَلم ينْقل فِي مُوسَى بن عمر الْقرشِي شَيْئا عَن أُحْدُ في تجريحه، إلا أنه قَالَ: وَعَامة مَا يرويهِ لَا يُتَابِعه الثِّقَات عَلَيْهِ. أقول: فهو حديث محتمل لو وُجِد له من الشواهد والمتابعات. وقد جاء في كشف الأستار عن زوائد البزار (٢/ ٣٩٨) برقم (١٩٤٩): حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمُثَنَّى، ثنا يُوسُفُ بْنُ عَطِيَّةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ». قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥/ ٥٢٢): مَدَارُ إِسْنَادِ حَدِيثِ أَنَسٍ هَذَا عَلَى يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةَ الصَّفَّارِ، وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ.

فمن نتائج الفقر التصدّعات الأسرية، وانهيار المجتمع، وانتشار الرذيلة، والتشوهات الاجتماعية مثل الانحراف، والأمراض النفسيّة والجسدية، وارتكاب الجريمة المتمثلة في السرقة والقتل والاعتداء على حقوق الآخرين، وارتفاع نسبة الأميّة في المجتمع من خلال تسرب الأطفال من المدارس للعمل.

إن الفقر بأبسط تعريفاته هو التوزيع غير العادل للثروة في المجتمع بحيث يوجد مَنْ لا يجدون سد رمقهم، بينما يوجد الذي يزداد ثراءً وينفق فيما يزيد كثيرا عن حاجته؛ بل ينفق فيما يضره.

وما أعجب قول الشيخ الشعراوي رحمه الله: إذا وجدتَ من يموت من الجوع والبرد في بلاد المسلمين، فاعلم أنَّ هناك جشعاً لم يدفع حق الله وحق الناس في الزكاة.

هنا ينقسم المجتمع طبقتين، تكره كل طبقة الأخرى وتتحصن ضدها مما يسبب تفك المجتمع وانهياره. فالمجتمع هو وحدة كلية لا تتقدم أو تزدهر أو تعيش إلا بكليتها وحدةً واحدةً، وإن من الغباء النظر إليها مجموعةٍ منها تعيش ولا تعاني آثار أمراض المجموعة الأخرى.

يقول أحد علماء الاجتماع: وإنما تمتد تأثيرات الفقر إلى كل ما يمكن أن تتقدم المجتمعات من خلاله وتزدهر، فلا تقتصر تأثيراته مثلاً على الحالة الاقتصادية أو الحالة الاجتماعية؛ وإنما تكون مجموعة متشابكة من التأثيرات، قد تكون كافية لتدمير المجتمع بالكامل. انتهى

وظاهرٌ أن الغَنِيَّ في حاجةٍ دائمة إلى الفقير كما أن الفقير في حاجةٍ إليه، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال، ومساعدة الفقير، والضعيف مبالغةً وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون؛ لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق في سبل الخير علامة من علامات الإيمان وجعل البخل من آيات النفاق والكفر، كما سيأتي في بعض الآيات.

وهذا الربط الراقي بين قضية العقيدة، وبين الزكاة يبين لك كيف حرص الإسلام على بناءِ مجتمعٍ قويٍ ينعم فيه الجميع بالحياة المعقولة، والأمن، والسلام، والتقدم.

قال الأستاذ محمد عبده: إن البخل – ومنبعه القسوة على عباد الله – تعالى- والحرص على المال استرسالا في الشهوات وميلا مع الأهواء – لا يجتمع مع الإيمان الصحيح في قلبٍ واحد قط، وليس لأحدٍ أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رسله من الأوامر والنواهي حتى يقوم بما أمر الله فيما طُلِب منه على ما يحب الله ويرضى. انتهى. (١)

---

(١) تفسير المنار (٤٣،٤/١ ٢)

وهو ذات الفهم المتمكن الذي جعل الصديق الأكبر أبو بكر يحارب مَن رفضوا دفع زكاة المال بعد ارتقاء النبي – ﷺ– إلى ربه، واحتجاجه على عمر –رضي الله عنه– في ذلك بقوله –ﷺ– إن عصمة نفس المؤمن وماله تتوقف على أداء الحق الذي عليه في الدين، وحق المال الزكاة، فكان قسر الإسلام الأغنياء على دفع زكاة أموالهم للفقراء هو صمام الأمان لحفظ لُحْمة المجتمع، وتوافقه، وسلامه.

وكان الإسلام واضحاً جدا في طريقة وآلية حفظه لكيان المجتمع من خلال بيان منهجه في جمع المال من الأغنياء ثم رده على الفقراء مباشرةً بلا واسطة أو حسابات جزافية تضيع في غياهبها حقوق الأغنياء والفقراء على حدٍ سواء، كما في نُظم الجباية والضرائب التي اخترعها الذين يضادون منهج الله في الأرض.

ويستند التكافل الاجتماعي بنوعيه المعنوي والمادي إلى الإيمان بالله تعالى، وهو من أعظم ضمانات استمراره وديمومته؛ لأن المسلم يشعر وهو يتكافل مع غيره من أفراد المجتمع أنه يقوم بفعله هذا حباً لله تعالى وقربة إليه سبحانه وتعالى، وهو يعتقد أن مآل ذلك الفعل الذي يفعله إنما هو لنفسه، استجابة لقوله تعالى: { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: ٢٧٢ – ٢٧٤)

وقد اعتبر الإسلام أن للفقراء والضعفاء حقاً في الحياة الكريمة كما للأغنياء، ولم يعتبر الإسلام ضعف الإنسان لسبب من الأسباب مبرراً ومسوغاً لتركه وحيداً يصارع الجوع والألم والحرمان، بل أوجب على الأغنياء والأقوياء الأخذ بيده ومساعدته ليعيش حياة كريمة تليق بآدميته، وقد سعى الإسلام جاهداً أن يجعل المال متداولاً بين جميع أفراد المجتمع، الغني والفقير، القوي والضعيف، فهذا أحد مبادئه العامة في الاقتصاد وتوزيع الثروة، فقال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } (الحشر: ٧)، فالمال يجب ألا يبقى محصوراً بين الأغنياء وحدهم، وإنما يجب أن يتداوله الجميع ليعم الأمن والسلام والمحبة، ويعم معنى الإنسانية التي كرمنا الله بها.

وكان هذا الخطاب موجّها لليهود بصورة أكثر خصوصا لأنهم أمةٌ تعشق المال، وتكنزه، وتحرِمُه الفقراء، وقد صنعت نظاماً مالياً مبنيا على الربا، وشره الاستهلاك مع قباحة البخل يضمن لهم دوران المال وركوده في أيديهم، ولو مات العالم جوعاً فكان الأمر الخاص لهم بإيتاء الزكاة، ثم هو عام في حق كل الناس.

ومن المباحث اللغوية المرتبطة هنا ارتباطا وثيقاً في بلاغة الدلالة معنى الزكاة في اللغة.

قال الواحدي: الزكاة: تطهيرٌ للمال وإصلاحٌ له، وتثميرٌ ونَماء، كل ذلك قد قيل.

والأظهر أن أصلها من الزيادة، يقال: زكا الزرع يزكو زكاء، وزكاةً، وكل شيء يزداد فهو يزكو زكاءً.

و (الزكاة): الصلاح، وأصله أيضا من زيادة الخير، يقال: رجل زَكِيٌّ أي زائد الخير من قوم أزكياء، وَزَكَّى القاضي الشهود إذا بين زيادتهم في الخير، وسمي ما يخرجه من المال للمساكين بإيجاب الشرع زكاة، لأنها تزيد في المال الذي تخرج منه وتوفره وتقيه الآفات. انتهى [(١)]

قال الفخر الرازي: الزكاة فهي في اللغة عبارة عن النماء، يقال: زكا الزرع إذا نما، وفي لغة القرآن بمعنى التطهير قال الله تعالى: {أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً } (الْكَهْفِ: ٧٤) أَيْ طَاهِرَةً.

وقالَ: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} (الْأَعْلَى: ١٤) أَيْ تَطَهَّرَ. وقال: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً } (النُّورِ: ٢١). وقال: {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ} (فاطر: ١٨) أي مَن تطهر بطاعة الله.

قال الرازي: ولعل إخراج نصف دينار من عشرين دينارا سمي بالزكاة تشبيها بهذين الوجهين، لأن في إخراج ذلك القدر تنميةٌ للبقية من حيث البركة، فإن الله يرفع البلاء عن ذلك المال بسبب تزكية تلك العطية، فصار ذلك الإعطاء نماءً في المعنى وإن كان نقصانا في الصورة، كما قال سبحانه:

{ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة–٢٦١) [(٢)]

ويجوز أن تسمى الزكاة بالوجه الثاني من حيث إنها تطهر مخرج الزكاة عن كل الذنوب، ولهذا قال تعالى لنبيه: {خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها} (التَّوْبَةِ: ١٠٣). انتهى [(٣)]

---

(١) التفسير البسيط (٢/ ٤٤٥).

(٢) كان روى الرازي هنا حديثا لم أجد له أصلا فاستبدلته بالآية. وفي صحيح الترغيب للمنذري والألباني عن معاذ بن جبل –رضي الله عنه– أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– قال له: (ألا أدلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ قلتُ: بلَى يا رسولَ اللهِ! قال: الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطْفِئُ الخطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ)..

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٤٨٦) بتصرف يسير.

والمعنى اللطيف لهذه الآية الأخيرة أنه لما كان المال شقيق الروح، وكان صعبا على النفس التي تكاد تؤلِّه المال أن تفارقه، كان إنفاقه في سبيل الله دلالةً على صدق العبودية لله تعالى وخلوصها من الشوائب، فكانت الزكاة والصدقة –بذلك– تطهِّر النفوس المؤمنة من شوائب شرك المال وحبه فوق محبة الله تعالى.

ومن اللطيف أيضا في هذه الآية أن اجتماع (التطهير) مع (التزكية) في هذه الآية تدل على أنهما متغايران في المعنى، فالتطهير هو (تخلي) عما يشوب ويشين، والتزكية (تحلي فوق التخلي) بما يزين ويشرف، وهو معنىً جديدٌ في الزكاة يخالف ما ذهب إليه بعض العلماء أن الزكاة بمعنى التطهير؛ بل هي تطهيرٌ مع زيادةِ نماءٍ وتحلية بالخير في القلوب والمال.

وقوله تعالى: {وآتوا الزكاة} فيه اختصاص الزكاة والصدقات في القرآن بالإيتاء، من لفظ (آتى) بالمد على الألف، والتي يفسرها أهل علم الصرف أنها على وزن (فاعَل) من (أتى) مثل (قاتل) من (قتل).

وعلى هذا يكون الفعل (آتى) فعلاً متعدياً يحتاج لمفعولين بعكس الفعل (أتى) الذي هو لازم لا يحتاج لمفعول، فيُقال: أتى محمدٌ بمعنى جاءَ. ولكن إذا جاء فأعطى فلاناً شيئا، يُقال: آتى محمدٌ عليّاً كتاباً. فضم الفعل معنيين معنى المجيء إلى فلان وإعطائه شيئاً ما.

ومن عجيب أدب القرآن أن يستعمل الفعل (آتى) ولا يستعمل الفعل (أعطى) لمراعاة نفس الفقير فالفعل (آتى) فيه أنَّ المتصدِّق يذهب إلى الفقير بالمال ليعطيه في مكانه، وليس العكس.

فالمتصدق المؤمن حريصٌ على قبول صدقته ويرى أنها واجبٌ عليه، وحقٌ في ماله شكرا لله الرحيم الكريم.

قال تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

ثم أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها، وقد أخَّره ولم يصله بالصلاة لحكمةٍ جليلةٍ لا رعايةً للفاصلة كما زعم بعض المفسرين، فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع في كلام الله – تعالى – ؟

وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله – تعالى –؛ فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة الله – تعالى – لأنها روح العبادة والإخلاص له، ويليها إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضا على زكاة الروح وقوة الإيمان ، وأما الركوع وهو لغةً الخضوع والانقياد وفي الاصطلاح الشعائري الإسلامي بعض صورة الصلاة البدنية أشير به إلى الانضمام إلى جماعة الخاضعين لمنهج الله تعالى وأحكامه وشرعه.

فلم تقل الآية (واركعوا) وحسب، وإلا لكان المعنى الظاهر هو ركوع الصلاة، وقد انضوى تحت الأمر بإقامة الصلاة ابتداءً فتفسيره بركوع الصلاة تحصيل حاصلٍ. ولكنه هنا لما أضيف له (مع الراكعين) دلَّ على معنىً أوسع في الدلالة والتفصيل.

قال العلامة الرازي: أما قوله تعالى: {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ }(البقرة: 43) فَفِيهِ وُجُوهٌ :

أَحَدُهَا: أَنَّ الْيَهُودَ لَا رُكُوعَ فِي صَلَاتِهِمْ فَخَصَّ اللَّهُ الرُّكُوعَ بِالذِّكْرِ تَحْرِيضًا لَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِصَلَاةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمُرَادَ صَلُّوا مَعَ الْمُصَلِّينَ، وَعَلَى هَذَا يَزُولُ التكرار لأن في الأول أمر تعالى بإقامتها، وَأَمَرَ فِي الثَّانِي بِفِعْلِهَا فِي الْجَمَاعَةِ.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْأَمْرِ بِالرُّكُوعِ هُوَ الْأَمْرَ بِالْخُضُوعِ لِأَنَّ الرُّكُوعَ وَالْخُضُوعَ فِي اللُّغَةِ سَوَاءٌ فَيَكُونُ نَهْيًا عَنِ الِاسْتِكْبَارِ الْمَذْمُومِ، وَأَمْرًا بِالتَّذَلُّلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ }(الْمَائِدَةِ: 55) أي خاضعون خاشعون لله ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ أَمَرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالِانْقِيَادِ وَالْخُضُوعِ وَتَرْكِ التَّمَرُّدِ. انتهى. (١)

قلتُ: والترجيح عندي لهذا المعنى الأخير لموافقته للمعنى في آية المائدة؛ وهو إعمال لمنهج تفسير القرآن بالقرآن وهو الأولى.

وأما القول بأنه المقصود منه الأمر بشهود الصلاة في جماعة، فيرده اتجاه الخطاب لبني إسرائيل ولا معنى لمخاطبتهم بشهود الجماعة وهو من تفاصيل صلاة المسلمين، ثم إن اللفظ جاء مخصصا بالركوع، فلا ظاهرَ لقصده الصلاة في جماعة، ولو أريد لكان اللفظ بها أصرح مما ورد. واتجاه الخطاب وسياقه مرجِّحٌ مهم من مرجّحات التأويل. فعَضَّ عليه بنواجذك.

وقد أوجب حضور الجماعة بعضٌ أهل العلم على خلافٍ بينهم في كون ذلك عينا أو كفاية.

فجعلها فرضَ عينٍ أحمد وكثير من أهل الحديث وبعض الشافعية والمالكية، ولكنْ قالوا تصح صلاة المنفرد.

أما الظاهرية ومنهم داود وابن حزم فأوجبوها ثم جعلوا صلاة المنفرد لا تصح أصلا، وقولهم هذا مردودٌ بالأحاديث الصحاح.

والذي عليه الحنفية وكثيرٌ من المالكية وبعض الحنابلة أن ذلك من السنن المؤكدة ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة.

١- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 487).

وقد أوجبها الشافعية وبعض المالكية فرضا على الكفاية. قال ابن عبد البر: وهذا قولٌ صحيح لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يُجتَمَع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات، فإذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة المنفرد في بيته جائزة لقوله عليه السلام: (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ «الفرد» بسبع وعشرين درجة) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر. انتهى. قالوا فلو أنَّ صلاة الفرد لا تحتسب لما صح الزيادة على مثلها بمقدار سبع وعشرين أو خمس وعشرين.

وبين العلماء في هذا استدلالات بالأحاديث الصحاح وردود، ومجادلات، ولا خلاف على أفضلية وأهمية صلاة الجماعة، وثبت في الصحيح عنه ﷺ: الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده ثم ينام. والبحث طويل الذيول، كثير النقول. [١]

****

أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ...؟!

ومع أنَّ هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل، فإنه في إيحائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفةٍ خاصةٍ دائمٌ لا يخص قوماً دون قومٍ ولا يعني جيلا دون جيل ، فلا تمنع خصوصية الخطاب القرآني من عموميته، وبهذا يكون لكل مَنْ يحسن تزيين القول، ولا يشفع ذلك بالعمل، ويندب الناس إلى الخير، ويأمرهم به، ولا ينظر إلى نفسه، ولا يحملها على أخذ حظها من هذا الخير الذي يدعو إليه... وفي ذلك ظلم للنفس، وخسرانٌ مبين..

يقول تعالى: { أتأْمرونَ الناسَ بالبِرِ وتنسَوْنَ أنفُسَكم وأنتم تَتْلُونَ الكِتابَ أفلا تَعْقِلونْ}؟!

الكلامُ ابتداءً مُوَجَّهٌ إلى بني إسرائيل في عهد رسول الله –ﷺ – وقد طفق في هذه الآيات يوبخهم على سيرتهم المُعْوَجَّة في الدين ، ويهديهم إلى طريق الخروج منها .ثم إن هداية الخطاب هي عامةٌ لكل أمةٍ أعطاها الله تعالى منهجاً فانحرفتْ عنه، وخصوصاً أمة محمد – عليه الصلاة والسلام.. وهذا من قول العرب قديما:

إيَّاكِ أَعْني واسْمَعِي يا جَارَة. [٢]

١- راجع تفسير القرطبي (١/ ٣٤٩). وكلام العلامة الشوكاني في فتح القدير (1/54) وكذا في (نيل الأوطار) له تفصيل بديع.

(٢) هذا مثل قديم؛ كثيراً ما نستعمله للتعبير بصورة غير مباشرة، أو بطريق المجاز والتشبيه، عمّا في أذهاننا، بحيث يفهمه السامع من دون مجابهته أو خدش مشاعره. كما يقال أحياناً ممن يخاطب شخصاً ويقصد بكلامه شخصاً آخر. وهو من الأمور الشائعة في المجتمعات التي اعتادت مراعاة قواعد الأدب واللياقة. ما أصل مثل «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فيعود إلى رجل من بني فزارة؛ هو سهل بن مالك الفزاري، وكان في طريقه إلى مدينة الحيرة بالعراق للالتحاق بالملك النعمان... مرّ بحي من أحياء بني طي، فسأل عن سيد الحي، فقالوا له إنه حارثة بن لأم. فتوجّه نحوه فلم يجده، ولكنه صادف أخته، فرحبت به وأنزلته وأعدت له ما كان من طعام وشراب.

جاء قوله تعالى:{ أتأْمرونَ الناسَ بالبِرِ وتنسَوْنَ أنفُسَكم } بين قوله تعالى:{وأقيموا الصلاة }، وقوله : {واستعينوا بالصبر والصلاة}، فما وجه المناسبة؟

يقول عنها علماء البلاغة أنها جملة معترضة (اعتراضية) تفصل بين كلامين متصلين، إما بياناً، أو دفعاً لتوهم معنىً غيرِ مقصودٍ، أو تأكيد لمعنى الكلام بالتعليق عليه. كما قال تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} (النحل-٥٧). فَجُمْلَةُ: (سُبْحَانَهُ)، اعْتِرَاضِيَّةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ)، وقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)، والغَرَضُ منه التَّنْزِيهُ وَالتَّعْظِيمُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَفِيهِ الشَّنَاعَةُ عَلَى مَنْ جَعَلَ الْبَنَاتِ لِلَّهِ.

ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمر الله تعالى اليهود بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيَّل ذلك بقوله سبحانه: {واركعوا مع الراكعين} أي انضموا لركب المؤمنين وكونوا معهم في هدايتهم؛ ناسب ذلك أن يستنكر عليهم دعوتهم الناس للإيمان والبر وهم لا يفعلونه محافظةً على رئاستهم الدينية على خلق الله، ومصالحهم من وراء تلك الرياسة.

(والغرض من هذا هو التنبيه على كمال خسارتهم، ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته، والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يُعوَّضون عليه من مراتب ورواتب.

فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس). [١]

وعندما خرجت من خبائها لاحظ ما كان لها من جمال وحسن قامة. وكانت عقيلة قومها وسيدة نسائهم، فأصابه ما أصابه من هواها. ولم يعرف كيف يفتح لها قلبه ويكاشفها بحبه، فجلس في فناء الخباء يوماً وهي تسمع صوته، وجعل ينشد ويقول:

يا أخت خير البدو والحضارة ...كيف ترين في فتى فزارة؟

أصبح يهوى حرة معطارة.....إياك أعني واسمعي يا جارة

بيد أن كلماته لم تقع في نفسها بما كان يرجوه الفزاري. فأنشدت من وراء الخدر، وقالت:

إني أقول يا فتى فزارة....لا أبتغي الزوج ولا الدعارة

ولا فراق أهل هذي الجارة....فارحل إلى أهلك باستخارة

فخجل الرجل من نفسه وقال: «ما أردت منكراً... واسوأتاه». فاستحت من تسرعها وقالت: «صدقت». ثم ارتحل، وأتى النعمان فأكرمه، ثم عاد من حيث أتى، ومرّ على الديار نفسها. وبينما نزل عند أخيها، تطلعت إليه نفسها، فأرسلت إليه أن «اخطبني من أخي إن كانت لك حاجة بي». فخطبها وتزوج بها، وسار بها إلى قومه، فحكى لهم حكايته وما أنشده من شعر وما ردت به عليه من شعر... فسارت كلماتها مثلاً بين العرب؛ بدواً وحضراً. نقلته لأنه من اللطائف المخففة لحدة المنهج العلمي في كتابنا هذا.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤٧٤/١)

قال أبو جعفر الطبري: اختلف أهل التأويل في معنى البر الذي كان المخاطبون بهذه الآية يأمرون الناس به وينسون أنفسهم، بعد إجماع جميعهم على أن كل طاعة لله فهي تسمى " برا ".

عن ابن عباس قال: معناه أنكم تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهدة من التوراة، وتتركون أنفسكم؛ وأنتم أول مَنْ تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

قال الزمخشري: (وكان الأحبار (علماء اليهود) يأمرون مَنْ نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد -ﷺ- ولا يتبعونه هم. اهـ.

وعن السُدِّيّ قال: كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وهم يعصونه. وكذا قال قتادة.

وقال ابن زيد: هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق.

وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون، وإذا أُتُوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها. اهـ.

قال أبو جعفر: وجميع الذي قال في تأويل هذه الآية من ذكرنا قوله متقارب المعنى؛ لأنهم وإن اختلفوا في صفة " البر " الذي كان القوم يأمرون به غيرهم، الذين وصفهم الله بما وصفهم به، فهم متفقون في أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضا من القول أو العمل، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم.

فالتأويل الذي يدل على صحته ظاهر التلاوة إذا: أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ فهلا تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم؟ معيرهم بذلك، ومُقَبِّحا ما أتَوْا به.

وعن محمد بن واسع: بلغني أنّ ناسا من أهل الجنة اطلعوا على ناسٍ من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياءٍ عملناها فدخلنا الجنة. قالوا كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها.

قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا. [١]

قلتُ: معناه أي يحاسبها على تقصيرها فيما أمرت به ونهت عنه الناس هل وفَّت هي به، وهل بعد أن كره ما تصنع الناس من الشرور والبعد عن الله -تعالى- كره نفسه لفعلها مثل ذلك؟!

عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ أَلْسِنَتُهُمْ وَشِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَنْ هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: الخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ

---

(١) راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٧) مع تلخيص، وكذلك تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٣٣).

النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب أفلا يعقلون» (رواه أحمد في المسند وابن المبارك في الزهد وغيرهما بأسانيدَ صِحاحٍ وحسنة).

حينما يصير العلم والاصلاح الشرعي مهنةً يتكسب منها العلماء حينئذ يفسدون فيفسد بفسادهم الدين والدنيا، وفي هذه الآية استكمال لبيان قبائحهم بعد بيان أنهم اشتروا بدينهم ثمنا قليلا، وانهم يلبسون الحق بالباطل وهم يعلمون.

لقد تصاعد التقريع والاستنكار على أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويأمرون الناس بما لا يأتون في ثلاث مستويات دلالية؛ كل مستوىً منها يسْلم القياد لمستوىً أعلى في علو بلاغي فريد.

المستوى الأول: {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم}

المستوى الثاني: {وأنتم تتلون الكتاب}

المستوى الثالث: {أفلا تعقلون}

فالهمزة في قوله تعالى: {أتأمرون الناس بالبر ...} للاستفهام مع التوبيخ للمخاطَبين والانكار عليهم.

يقول العلامة السعدي: وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما، لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة القيام بهما، وهو أفضل من عدم القيام بهما جميعاً، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة. [١]

والبر: اسمٌ جامع للطاعة والعمل الصالح، والبر: سعة الخير والمعروف، والبر: الصدق...

و{وتنسون أنفسكم} هنا معناه الترك: أي وتتركون أنفسكم. وهو كثيرٌ في لغة القرآن [٢] ويحل إشكاليات كثيرة، كما قال ابن جرير الطبري: هو في هذا الموضع نظير النسيان الذي قال جل ثناؤه: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} (التوبة: ٦٧) بمعنى: تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥١) بتصرف يسير.

(٢) قال اللغوي ابن فارس في مقاييس اللغة (٥/ ٤٢١): (نَسِيَ) النُّونُ وَالسِّينُ وَالْيَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى إِغْفَالِ الشَّيْءِ، وَالثَّانِي عَلَى تَرْكِ شَيْءٍ.

والمستوى الثاني من التبكيت في قلوه تعالى: {وأنتم تتلون الكتاب} فالتلاوة: القراءة، وهي المراد هنا وأصل معناها الاتباع، يقال تلوته: إذا اتبعته، وسمي القارئ تاليا والقراءة تلاوة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النَّسق الذي هو عليه.

قال أبو جعفر الطبري ونقله عن ابن عباس: يعني بقوله: (تتلون الكتاب): تدرسون وتقرأون التوراة. اهـ.

وهي جملةُ حالٍ مشتملةٌ على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت. كما قال الشاعر:

لا تنْهَ عن خُلُقٍ وتأتِيَ مثلَهُ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ.

أي تنهَ عن الخلق الشيء وحالك أنك تأتي مثله.

ومعنى الآية: كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به، وأنتم من أهل العلم العارفين بكتاب الله –تعالى– الحاملين لأمانةِ تبليغِه، وكان الأوْلى أن تنتفعوا بما تحملونه وتنتهوا عما نهيتم الناس عنه، وتأتمروا بما أمرتموهم به من البر، والصدق، والخير، والإيمان.

كما قال تعالى في حق اليهود وعدم انتفاعهم بما يحملون من الكتاب: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الجمعة: ٥). يقول تعالى ذكره: مَثَل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فأوكل الله إليهم العمل بها ، ثم لم يعملوا بما فيها، وكذّبوا بمحمد ﷺ، وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه والتصديق به (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) يقول: كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها. [١] وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا كأنه كلمةٌ واحدةٌ!

والمستوى الثالث في قوله تعالى : {أفلا تعقلون} استفهام للإنكار عليهم والتقريع لِمَنْ يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم ، انتقل معهم من تقريعٍ إلى تقريع، ومن توبيخٍ إلى توبيخ فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك، ومانعاً وزاجرا لكم عنه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم .

والعقل في أصل اللغة: المنع، ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنعه عن الحركة، ومنه العَقْل في الدِّيَة لأنه يمنع وليَّ المقتولِ عن قتل الجاني.

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٣٧٧)

والعقل نقيض الجهل، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة: أي أفلا تمنعون أنفسكم من ملابسة هذه الحال المُزْرِية، ويصح أن يكون معنى الآية: أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم. (١)

******

قاعدة للتصحيح وغوصٌ في العمق

إن اليهود كسائر الملل يَدَّعون الإيمان بكتابهم والعمل به، والمحافظة على أحكامه والقيام بما يوجبه، ولكن الله – تعالى – علمنا أن من الإيمان – بل مما يسمى في العرف إيمانا – ما لا يُعْبَأ به، فيكون وجوده كعدمه، وهو الإيمان الذي لا سلطان له على القلب، ولا تأثير له في إصلاح العمل، كما قال تعالى: {ومِن الناسِ مَن يقولُ آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما همْ بمؤمنين} وكما قلنا آنفاً؛ فقد فرَّق اللفظ القرآني الحكيم بين قولهم آمنا بلسانهم وبين حقيقة وجود الإيمان الفاعل المؤثر الذي يحق له أنْ يقال إنهم مؤمنين.

وكانت اليهود في عهد بعثته – عليه الصلاة والسلام – قد وصلوا في البعد عن جوهر الدين إلى هذا الحد. كانوا – ولا يزالون – يتلون الكتاب تلاوة يفهمون بها معاني الألفاظ، ويوقرون أوراقه وجلده، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته؛ لأن الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به كما قال – تعالى – في غير هذه الآية، وعلى الوجه الذي يرضاه – تعالى –.

إنهم كانوا يتلون ألفاظه، ويأمرون الناس بالعمل بأحكامه، وآدابه من البر والتقوى، ولكنَّ الأحبار القارئين الآمرين الناهين ما كانوا يُبيِّنون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم وتقاليدهم، ولا يعملون بما فيه من الأحكام إلا إذا لم يعارض حظوظهم وشهواتهم.

هكذا كانوا. وهكذا صار علماءُ المسلمين وواعظوهم مثلَهم هذه الأيام؛ كما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري أَنَّ رَسُولَ اللهِ –ﷺ–قال: " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ، لَتَبِعْتُمُوهُمْ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: " فَمَنْ؟ ". رواه الشيخان. (٢)

---

(١) راجع فتح القدير (١/٥٤) مع تلخيص وتصرف.

٢ والسَنَن –بفتح السين–: السبيل والمنهاج والطريقة.

وما ذكره من الشبر والذراع ودخول الجُحْرِ تمثيل للاقتداء بهم شيئاً فشيئاً.

إن الحق ثقيل على النفوس يخرجها عمَّا تألف من لذةٍ موهومةٍ للباطل إلى مرارة الحق على عظمته ونبله، فإذا أراد الداعي إليه إخراج الناس عما تهواه أنفسهم تحيّلوا للانصراف عنه فإنْ وجدوا الداعي لا يأتي ما دعا إليه أو يخالفه تعللوا بذلك اتهاما للدعوة وانصرافاً عنها لا اتهام الداعي وحسب، ثم لا يعودون يثقون في الدين والعلم بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين والدعوة. فكانت دعوة الذين يقولون ما لا يفعلون هي عين المحاربة للدعوة ذاتها من حيث لا يدرون.

يقول صاحب الظلال – رحمه الله:

إن الكلمةَ لتنبعثُ ميّتةً، وتصل هامدة، مهما تكن طنَّانةً رنَّانةً مُتحمّسةً، إذا هي لم تنبعثْ من قلبٍ يؤمنُ بها. ولن يؤمنَ إنسانٌ بما يقول حقاً إلا أن يستحيلَ هو ترجمةً حيَّةً لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق...

عندئذٍ يؤمن الناسُ، ويثق الناسُ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنينٌ ولا بريقٌ.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها؛ لا من رنينها، وتستمد جمالَها من صدقِها؛ لا من بريقها... إنها تستحيل يومئذ دفعةَ حياةٍ، لأنها منبثقةٌ من حياةٍ.

والمطابقةُ بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيّناً، ولا طريقاً معبداً. إنها في حاجة إلى رياضةٍ وجَهْدٍ ومحاولةٍ. وتحتاج إلى صلةٍ بالله، واستمدادٍ منه، واستعانةٍ بهداياته.

فملابساتُ الحياةِ، وضروراتها، واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعِهِ عما يعتقده في ضميرِه، أو عما يدعو إليه غيره. انتهى. [(١)]

يقول الشيخ الشعراوي– رحمه الله:

إن الدين كلمةٌ تُقال. وسلوكٌ يُفعَل. فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة. فالله سبحانه وتعالى يقول: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }(الصف: 2–3)؛ فما لم ترتضه أنت كسلوكٍ لنفسك. لا يمكن أن تبشر به غيرك!

هذا فيما نهى الشرع عنه وذمه من أمرهم وحالهم، وَوجه التَّخْصِيص: بجحر الضَّب، لشدَّة ضيقه ورداءته، وَمَعَ ذَلِك فَإِنَّهُم لاقتفائهم آثَارهم واتباعهم طرائقهم لَو دخلُوا فِي مثل هَذَا الضّيق الرَّدِيء لوافقوهم. والمراد بها ها هنا طريقة أهل الأهواء والبدع التي ابتدعوها من تلقاء أنفسهم بعد أنبيائهم، من تغيير دينهم وتحريف كتابهم.

وقوله: (اليهود والنصارى) أي: أتعني مَن نتبعهم اليهود والنصارى؟ فأجاب صلوات الله عليه: (فمن؟) أي إن لم أردهم فمن سواهم؟. راجع مشكورا كتابي (صيدٌ وفيضٌ. الجزء الثاني).

(١) في ظلال القرآن (١/ ٦٨)

لذلك نقرأ في القرآن الكريم: { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }(الأحزاب: 21).

فمنهج الدين نظرياً وحده لا يكفي؛ إلا بالتطبيق. ولذلك كان رسول الله – ﷺ – لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا، وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – حين يريد أن يقنّن أمراً في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم: لقد بدا لي أنْ آمُرُ بكذا وكذا، والذي نفسي بيده مَنْ خالف منكم لأجعلنَّه نكالا للمسلمين، وكان عمر بن الخطاب –بهذا– يقفل أبواب الفتنة، لأنه يعلم من أين تُأتي...!

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }(فصلت: 33)

فالشرط الأول هو الدعوة إلى الله. والشرط الثاني العمل الصالح، وقوله {إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته؛ ولكنه نسب الفضل إلى الإسلام .انتهى. [١]

يقول صاحب الظلال– رحمه الله:

إن آفةَ رجال الدين– حين يصبح الدينُ حِرفةً، وصناعةً، وليس عقيدةً حارةً دافعةً... أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملونه، ويحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويؤولون النصوص القاطعة خدمةً للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير الأغراض والأهواء لِمَن يملكون المال أو السلطان! كما كان يفعل أحبار يهود! [٢]

قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }

والخطاب في هذه الآيات عامٌ لليهود الذين كان هذا حالهم ، وعبرةٌ لغيرهم ، لأنه مُنبِئٌ عن حالٍ طبيعيةٍ للأمم في مثل ذلك الطور الذي كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هدايةً للعالمين إلى يوم الدين ، لا حكايةَ تاريخٍ يُقصَد بها هجاءُ الإسرائيليين ، فلتحاسبْ كلُّ أمةٍ نفسَها في أفرادها ومجموعها ؛ لئلا يكون حالها كحال

١– من خواطر إيمانية حول القرآن الكريم للعلامة الشيخ الشعراوي (تفسير الشعراوي) رحمه الله.

٢– في ظلال القرآن (1/ 68):

مَن ورد النص فيهم ، فيكون حكمُها عند الله كحكمِهم ؛ لأن الجزاءَ على أعمالِ القلوبِ والجوارح ، لا لمحاباةِ الأشخاص، والأقوام، أو معاداتهم . [١]

روى الإمام أحمد، وغيره عن أنس بن مالك– رضي الله عنه– أن رسول – ﷺ –قال: " رأيت ليلة أُسْرِيِ بي رجالا تُقْرَض شفاهُهم بمقاريضَ من نارٍ . قلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ".[٢]

وقال أسامة بن زيد –رضي الله عنه– سمعت رسول الله ﷺ يقول:

" يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقَى في النار فتَنْدَلِق أَقْتابُه (أي تنقطع أمعاؤه) في النار ، فيدور كما يدور الحمار بِرَحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أيْ فلانٌ ما شأنك ؟ أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟

قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه ".

وقال شعبة عن الأعمش: فيُطحَن فيها كما يطحن الحمار برحاه " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أنَّ عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه وإنما ذلك؛ لأنه كالمُسْتَهِين بحرمات الله –تعالى– والمُسْتَخِفّ بأحكامه وهو ممن لا ينتفع بعلمه ; قال رسول الله –ﷺ – :" أشد الناس عذابا يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعه الله بعلمه ". [٣]

فاعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر، ولا يعملون بها وبخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: { أتأمرون الناس بالبر} الآية .

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله: عِظْ أصحابَك، فقال إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال : يرحمك الله ، وأيُّنا يفعل ما يقول ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينهَ عن منكر .

وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيءٌ، ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر .

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد عبده وتلميذه الأثري محمد رشيد رضا –رحمهما الله– ١/٢٤٧.

٢–(رواه احمد وأبو يعلى بسند صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 585) برقم291)

٣– أخرجه ابن ماجه في سننه (قال الألباني في الضعيفة (4/ 138برقم 1634): ضعيف الإسناد جدا.)

قال مالك : وصدق ، مَن ذا الذي ليس فيه شيء ؟!

وقال أبو عمرو بن مطر: حضرتُ مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته، فناداه رجل كان يُعرَف بأبي العباس : ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول:

وغيرُ تقيٍ يأمر الناس بالتقى ***** طبيبٌ يداوي والطبيب مريضُ.

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج. (قلت (جامعه): هكذا وعظ بسكوته فشفى وهكذا درج العلماء الأتقياء.

قال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص (أي وعظ الناس) لثلاث آيات:

قوله تعالى: {أتأمرون الناس بالبر} الآية،

وقوله: {لم تقولون ما لا تفعلون}،

وقوله: {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه}. [١]

قال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله******* عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وابدأ بنفسك فانهها عن غيّها****فإن انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك يُقبَل إن وعظتَ ويُقتدَى ****بالقول منك ويَنفَعُ التعليمُ

****

"واستعينوا بالصبر والصلاة... ".

لما خاطب الله تعالى بني إسرائيل، ومِن ورائهم أمة محمد– ﷺ – أنْ يسلكوا صراطه المستقيم فيذكروا نعم الله عليهم، ويلتزموا الحق الذي علموه، ولا يشتروا بآيات ثمنا قليلا، ولا يخلطوا الحق بالباطل، وينضموا لسلك المؤمنين الذين يرفعون أكفهم كل يومٍ إلى السماء يدعون ربهم { اهدنا الصراط المستقيم}؛ لما كانت هذه التكاليف ليست باليسيرة لأنها تخالف هوى النفوس شكلاً وموضوعاً دلَّهم –سبحانه– على ما يعينهم على الارتقاء والمضي في طريق السماء؛ وهما الصبر الذي يحجز صاحبه عن التنكُّب عن الصراط فإن الطريق طويل وليس بالسهل، والصلاة التي فيها يتصل العبد اتصالاً مباشراً بربه الكريم يسأله الثبات والتوفيق

١– راجع تفسير القرطبي (١/٣٤٥)

والسداد، ويجدد عهده معه أنه لولا الاستعانة بالله على الطريق ما قدر عليه أحدٌ. وهذه الآيات كأنها تفصيل لمعنى {إياك نعبد وإياك نستعين} الوارد في أم الكتاب. فتأمل كيف يعود القرآن على نفسه مفسراً كأنه كلمةٌ واحدةٌ كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} (الفرقان:٣٢، ٣٣) أى وأحسن مما جاءوا به من المثل بيانا وتفصيلا.

قال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)}

الخطاب لبني إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلق بجميع ما عدد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلي بالمحامد والتخلي عن المذمات، له أحسنُ وقعٍ من البلاغة فإنهم لما خوطبوا بالترغيب والترهيب ظُن بهم أنهم لم يبقَ في نفوسهم مسلك للشيطان ولا مجال للخذلان، وأنهم همّوا يتحفزون للامتثال والاقتداء إلا أن ذلك الإلف القديم يثقِّل أرجلَهم في الخطو إلى هذا الطريق القويم ، فوصف لهم الدواء الذي به الصلاح وهو الصبر والصلاة.

فالأمر بالاستعانة بالصبر لأن الصبر ملاك الهدى، فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين الحق ضعفُ النفوس عن تحمل مفارقتها لعاداتها وشهواتها، فإذا تحلَّوا بالصبر سهَّل عليهم اتباعَ الحق. وأما الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر بها الذي في قوله {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} وهذا إظهارٌ لحسن الظن بهم، وهو طريق بديع من طرق الترغيب. (١)

فقد أرشدهم إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل، والعمل بالعلم النافع؛ فإن العمل السيئ ليس فطريا ولا حتماً كوجود النفس لا يمكن دفعه ومقاومته ، بل هو اختياري وسببه عارضٌ تمكن إزالته بما أرشد الله إليه في قوله : { واستعينوا بالصبر والصلاة }..

قال الأستاذ محمد عبده: أمر بالصبر وهو: حبس النفس على ما تكره. ونقول بعبارة أوضح: هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم. (٢)

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور– الدار التونسية– ٤٧٨/١

٢– قال رسول الله – ﷺ – (... وما أُعْطِي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم

وقال الشيخ السعدي –رحمه الله– في تفسيره: (فلولا صبر الزارع على بذره ما حصد، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج، ولولا صبر المقاتل في ساح الوغى ما انتصر، وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر.

وإذا كان هذا في أمور الدنيا، ففي أمور الآخرة أولى، وخاصة أهل الإيمان، فهم أشد الناس حاجة للصبر لأنهم يتعرضون للأذى والمحن والابتلاءات.

قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.

وقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.) انتهى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فبالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين. ثم تلا هذه الآية {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}.. وكما في حديث ابن عباس – عند أحمد– حين أوصاه النبي – عليه السلام – قال :(واعلم أن النصر مع الصبر). وكما في حديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله –ﷺ– (والصبر ضياء) رواه مسلم .

وقال ابن القيم في الفوائد: والذي يبعث على الصبر أمور: –

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع.

الثاني: مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب إذا تمادى العبد في معصيته غضب.

الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاقه. ا.هـ.

والصبر عرَّفه الغزالي في إحياء علوم الدين بأنه: ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، وهو تعريف خاص بالصبر الشرعي صالح لأن يكون تفسيرا للآية لأنها في ذكر الصبر الشرعي، وأما الصبر من حيث هو الذي هو وصف كمال فهو : عبارة عن احتمال النفس أمرا لا يلائمها إما لأن مآله ملائم ، أو لأن عليه جزاء عظيما فأشبه ما مآله ملائم ، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر .. فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم، وأقل أنواعه ما كان عن عدم المقدرة.. ولذا ورد في الصحيح: " إنما الصبر عند الصدمة الأولى "؛ أي الصبر الكامل هو الذي يقع قبل العلم بأن الرجوع عن ذلك الأمر غير ممكن، والحصر في الحديث قصده حقيقة الصبر قبل إعمال العقل وإدراك أن الأمر حاصل لا محيص عنه؛ لذا كانت حقيقته عند الصدمة الأولى.

والصلاة أريد بها هنا معناها الشرعي في الإسلام وهي: مجموع محامد لله تعالى قولا وعملا واعتقادا؛ فلا جرم كانت الاستعانة المأمور بها هنا راجعة لأمرين (الصبر والشكر).. وقد قيل إن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر؛ كما في الإحياء، وهو قول حسن.

ومعظم الفضائل ملاكها الصبر؛ إذ الفضائل تنبعث عن مكارم الأخلاق، والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة، وكبح زمام النفس عن التوسع في شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالا أو عما يورث نقصانا..

فكان الصبر ملاك الفضائل فما التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر. ومما يؤثر عن علي – رضي الله عنه –: الشجاعة صبر ساعة.

وحسبك بمزية الصبر أن الله جعله مكمل سبب الفوز في قوله تعالى {والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} وقال هنا {واستعينوا بالصبر والصلاة}..

قال الغزالي: ذكر الله الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا }، وقال : { وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا }، وقال {إن الله مع الصابرين } اهـ .

وأنت إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر؛ فإن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مغيب عن الحس الذي اعتادته، وبوجوب طاعتها واحدا من جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة. فإذا صار الصبر خُلُقا لصاحبه هوَّن عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان.. فظهر وجه الأمر بالاستعانة على الإيمان وما يتفرع عنه بالصبر؛ فإنه خلق يفتح أبواب النفوس لقبول ما أمروا به من ذلك.

والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله – تعالى – بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التي تشُقُّ على النفس، وعن الشهوات المحرمة التي تصبو إليها النفوس، وبتذكر أن المصائب من فعل الله وتصرفه في خلقه ؛ فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، ومن عجيب أمر هذا الصبر أنه يقي الإنسان من الخسران في أي شيءٍ متى أحسن كما تفيده سورة (العصر) ويؤيد ذلك خبرة الحياة، وقد اشتهر أن " مَن صبر ظفر ".

والاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الأسباب التي تقلب الناس وتصرفهم عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات، والوُلوع باللذات، والبعد عن المؤلمات، ثم القياس بينها وبين ما رغَّب الله فيه ، أو أوعد بالعقاب على فعله ، بملاحظة أن ما أوعد الله – تعالى – به أولى بأن يُتَّقَى ، وما وعد به أولى بأن يُرجَى ويُبتَغى.

وأما الاستعانة بالصلاة فهي أقرب إلى حصول المأمول؛ وإرجاع النفس إلى الله – تعالى – لما لها من التأثير في الروح، ولكنها أشق على النفس الأمارة بالسوء؛ ولذلك قال – تعالى – : { وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين } أي : لثقيلة شديدة الوقع كقوله تعالى : {...أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } (الشورى: ١٣). (١)

وأما الاستعانة بالصلاة فلأن الصلاة شكر والشكر يذكِّر بالنعمة؛ فيبعث على امتثال المنعم على أن في الصلاة صبرا من جهات في مخالفة حال المرء المعتادة ولزومه حالة في وقت معين لا يسوغ له التخلف عنها ولا الخروج منها على أن في الصلاة سرا إلهيا لعله ناشئ عن تجلي الرضوان الرباني على المصلي..

فلذلك نجد للصلاة سرا عظيما في تجلية الأحزان وكشف غم النفس وقد ورد في الحديث: " أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان إذا حزبه – بزاي وباء موحدة – أي نزل به أمر– فزع إلى الصلاة " رواه أبو داود.. وهذا أمر يجده من راقبه من المصلين وقال تعالى: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} لأنها تجمع ضروبا من العبادات.

وأما كون الشكر من حيث هو معينا على الخير فهو من مقتضيات قوله تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنكم}.

(١) • قال القرطبي : خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها .

لأن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه.

• قال ابن القيم : والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، مادةٌ للقوى ، شارحة للصدر ، منورة للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن ، وبالجملة : فلها تأثير عجيب في حفظ الصحة والبدن وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما ، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً ، فما استُدفِعتْ شرور الدنيا والآخرة ، ولا استُجلبتْ مصالحهما بمثل

(والضمير في {وإنها} عائدٌ على الصلاة. هذا ظاهر الكلام، وهو القاعدة في علم العربية: أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل، وقيل: يعود على الاستعانة، وهو المصدر المفهوم من قوله: واستعينوا، فيكون مثل قوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى}، أي العدل أقرب، قاله البجلي.

وقوله تعالى: {إلا على الخاشعين} استثناءٌ مُفَرَّغٌ، لأن المعنى: وإنها لكبيرةٌ على كلِّ أحدٍ إلا على الخاشعين، وهم المتواضعون المستكينون، وإنما لم تشق على الخاشعين، لأنها منطوية على أوصاف هم مُتَحَلُّون بها لخشوعهم من القيام لله، والركوع له، والسجود له، والرجاء لما عنده من الثواب. فلما كان مآلُ أعمالِهم إلى السعادة الأبدية، سهُل عليهم ما صعُب على غيرهم من المنافقين والمرائين بأعمالهم الذين لا يرجون لها نفعا). (١)

إن المُخْبِتين؛ المتواضعين لله؛ المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله – تعالى – هم الذين يستفيدون بالصلاة والصبر وكل الخلائق الحسنة، لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله – تعالى – ، كما قال – عز وجل – : {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} (المعارج: ١٩ – ٢٣).

فمن خواص الصلاة والصبر نفي الجزع والهلع عند المصائب فهي معينةٌ للصبر كما أنَّ الصبر يعين على الالتزام بها، ولعل هذه هي نكتةُ الجمع بينهما في الآية (٢) ، ومن خواصِّ الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر ، ومن خواصها الجود والسخاء ، فالمصلي الحقيقي هو البار الحقيقي الذي لا يترك الحق لأجل شهوةٍ ، ولا لِما يعْرِض له في معاملاته مع الخلق من خوفٍ وخشية ، هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال ، ولذلك قال – تعالى – : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} (المؤمنون: ١، ٢) . (٣)

ولمَّا كان عمود الإسلام هو الصلاة، وبها يتميز المسلم من المشرك، أتبع الصبر بها، وأُمروا بالاستعانة بالصلاة، لأنه يُتْلَى فيها ما يرغب في الآخرة ويزهِّد في الدنيا، أو لِما فيها من تمحيص الذنوب وترقيق

الصلاة ، وسر ذلك : أن الصلاة صلة بالله ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه ، والعافية والصحة والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه .

- وقال الشنقيطي في بيان سر أن الصلاة معينة على أمور الدنيا والآخرة: لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه ، يناجي ربه ويتلو كتابه ، تذكر ما عند الله من الثواب ، وما لديه من العقاب ، فهان في عينه كل شيء ، وهانت عليه مصائب الدنيا ، واستحقر لذاتها ، رغبة فيما عند الله ، ورهبة مما عند الله .

(١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (١/ ٢٩٩–٣٠٠)

(٢) كما في قَوْلِهِ تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} (سورة طه: ١٣٢).

(٣) تفسير المنار (١/٢٤٨–٢٥١) بتصرف.

القلوب، أو لما فيها من إزالة الهموم، ومنه الحديث الصحيح: «كان رسول الله –ﷺ– إذا حَزَبَهُ (أي أهمَّهُ) أمرٌ فَزَعَ إلى الصلاة».

وقد رُوي أن ابن عباس نُعِي إليه أخوه (قُثَمٌ) وهو في سفر، فاسترجع وتنحَّى عن الطريق، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: {واستعينوا بالصبر والصلاة} [١]

أو لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وكل هذه الوجوه ذكرها العلماء. وناهيك من عبادة تتكرر على الإنسان في اليوم والليل خمس مرات، يناجي فيها ربه ويستغفر ذنبه.

وقُدِّم الصبرُ على الصلاة، قيل: لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي (التخلية أو التخلي)، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي (التحلية أو التحلي)، والتخلي مُقَدَّمٌ على التحلي كما هي قاعدة أصول الفقه (دفع المكروه مقدم على جلب المرغوب).

ويظهر أنه قَدَّم الاستعانة بالصبر على الاستعانة بالصلاة، لأنه سبق ذِكرُ تكاليفَ عظيمةٍ شاقٌّ فراقُها على من أَلِفها واعتادها؛ مِن ذكر ما نسوه، والإيفاء بما أخلفوه، والإيمان بكتاب متجدد، وترك أخذهم الرِّشا على آيات الله، وتركهم إلباس الحق بالباطل، وكتم الحق الذي لهم بذلك الرياسة في الدنيا والاستتباع لعوامهم وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذه أمور عظيمة، فكانت البداءة بالصبر لذلك. [٢]

قال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواءً؟!

فقال: «لا تعصه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه في الليل. فإن وقوفك بين يديه في الليل لمِن أعظم الشرف. والعاصي لا يستحق ذلك الشرف». [٣]

وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد: إني أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟ فقال الحسن: ذنوبك قيدتك.

العِبرة بعموم اللفظ، وتصحيحٌ لتوجهاتنا مع القرآن.

قال ابن كثير: والظاهر أنَّ هذه الآية {واستعينوا بالصبر والصلاة...} –وإنْ كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل– فإنهم لم يُقْصَدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم. انتهى

---

(١) موقوف صحيح. أخرجه سعيد بن منصور. والطبري من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه «أن ابن عباس ... فذكره». وأخرجه البيهقي في الشعب من هذا الوجه. تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر.

(٢) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢٩٨)

(٣) إحياء علوم الدين (١/٤٨٤)

قلتُ –محقِّقُه–: وهذا كثيرٌ في خطابات القرآن إذا كانت من الأمور الإصلاحية العامة لكل البشر، فالخطاب فيها يخصُّ مَن نزلت فيهم ثم يعُم معناه المراد إصلاحهم من البشر إلا أن يجيء دليلٌ يقصر الخطاب على خصوصه، ومثاله قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} (المائدة: ٤٤) فترى بعضُ مَن لم يدرك مقاصد القرآن ولم يحتكم إلى أصول الدين يقول: نزلت في اليهود، ونسأله فهل ترى أنَّ مَن ينبذ ما أنزل الله وراء ظهره من أمة محمد– ﷺ – مؤمنٌ كامل الإيمان؛ حتى وإنْ جعل شرع غير الله كشرع الله – سبحانه؟ وإنْ استهان بأحكام الله –تعالى؟ وإنْ حارب شرع الله ورفع التقنين الوضعي فوقه، ضاربا عُرض الجدار بأخص صفات الألوهية والتوحيد وهي توحيد الله بالطاعة؟! إنه للعجب العجاب أنْ يُظَن هذا بالقرآن العظيم. ثم هل قال الله تعالى: (ومن يحكم بغير ما أنزل الله من اليهود خصوصاً ...) كلا فالأمر – إذن– على عمومه. وخلاف ذلك إما جهلٌ وإما تدليسٌ وتحايل على كتاب الله من أجل حشره في خانةٍ تاريخيةٍ ضيقةٍ تبطل فاعليته في ضبط الحياة للأبد!

وكيف يكون ذلك وهي في القرآن صريحة في غير موضع؛ منها قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} إلى قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }(النساء: ٦٠– ٦٥).

وهذه القاعدة في علوم القرآن تسمى (العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

****

تحقيق في معنى (الظن) في وصف المؤمنين.

ثم وصف الخاشعين وصفاً يناسب المقام، ويظهر وجه الاستعانة به فقال سبحانه: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} (البقرة: ٤٦)

أي : الذين يتوقعون لقاء الله – تعالى – يوم الحساب والجزاء وأنهم إليه راجعون ، بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره. قال محمد عبده : فالإيمان بلقاء الله – تعالى – هو الذي يوقف المعتقدَ له عند حدوده ، ولو لم

يكن الاعتقاد يقينيا ، فإن الذي يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضارٌّ يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ، ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن .

قال: وقد فسر الجلال السيوطي الظن هنا باليقين ؛ لأنه الاعتقاد المنجي في الآخرة ، وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرأون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالاحتياط .

يقول رشيد رضا: بل دينهم هو تقليدٌ محض بحكم العادة والميراث، لم يعوا فيه إلى يقين أو حتى ترجيح (ظن) كالعادات القومية والوطنية فهو لا ينجي صاحبه في الآخرة.

قال: وقوله تعالى: {الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون} هذا من تمام الكلام الذي قبله ، أي : وإن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، أي : يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ، وأنهم إليه راجعون ، أي : أمورهم راجعة إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله ، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سَهُل عليهم فعلُ الطاعات وترك المنكرات . (١)

وفي الحديث الصحيح: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة:" ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أفظننتَ أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتني " انتهى. (٢)

قال ابن جرير – رحمه الله: العرب قد تسمي اليقين ظنا، والشك ظنا، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة، والضياء سدفة، والمغيث صارخا، والمستغيث صارخا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يُسَمَّى بها الشيءُ وضده (وهو ما يسميه العرب الأضداد) ، ومنه قول الله تعالى : {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا} (الكهف: ٥٣).

ثم قال ابن جرير: –بسنده– عن مجاهد، قال: كلُّ ظنٍ في القرآن يقين، ورَوَى عنه قال: كل ظن في القرآن فهو علم. وهذا سند صحيح. انتهى. (٣)

---

(١) تفسير المنار (١/٢٤٨–٢٥١) بتصرف

٢– تفسير ابن كثير (1/253–255).

(٣) وَذكر أهل التَّفْسِير أَن الظَّن فِي الْقُرْآن على خَمْسَة أوجه:

أَحدهَا: الشَّك. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة: {إِن هم إِلَّا يظنون} وَفِي الجاثية: {إِن نظن إِلَّا ظنا} .

وَالثَّانِي: الْيَقِين. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة: {الَّذين يظنون أَنهم ملاقوا رَبهم}، وفيهَا: {قَالَ الَّذين يظنون أَنهم ملاقوا الله}، وفيهَا: {إِن ظنا أَن يُقِيمَا حُدُود الله} ، وَفِي ص: {وَظن دَاوُد أَنما فتناه} ، وَفِي سُورَة الحاقة: {إِنِّي ظَنَنْت أَنِّي ملاق حسابيه}.

قال الراغب في المفردات: الظَّنُّ: اسم لما يحصل عن أمارةٍ، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم. انتهى [١]

فتكون درجات التحقق أربعة: الوهم (الشك) <<<<< الظن<<<<< العلم <<<<<اليقين.

قلتُ- المحقق: فهو بذلك- كما قال ابن جرير-: من المشترك اللفظي الذي يُفْهَم معناه من السياق، هل هو ظن اليقين، أو ظن التوهم. والظَّن فِي الأَصْل: قُوَّة أحد الشَّيْئَيْنِ على نقيضه فِي النَّفس. وَالْفرق بَينه وَبَين الشَّك. أَن الشَّك: التَّرَدُّد فِي أَمريْن لَا مزية لأحدهما على الآخر. [٢] والعلم والظن يشتركان في كون كل واحدٍ منهما اعتقادا راجحا إلا أن العلم راجحٌ مانعٌ من النقيض، والظن راجحٌ غير مانعٍ من النقيض، فلما اشتبها من هذا الوجه صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر.

قال ابن عطية في (المحرر الوجيز): قد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المُتَحَقِّقة، لكنه لا يوقَع فيما قد خرج مخرج الحس. لا تقول العرب في رجلٍ مرئي حاضر: أظن هذا إنسانا، وإنما نجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس، انتهى.

وقال ابن عرفة: (الذي يظهر) لي أن الظنّ على بابه مصروف لزمن (الملاقاة) أي هم يستحضرون الموت ويظنونه في كل زمن واقعا بهم. انتهى [٣]

قلتُ- المحقق: فالظن على تأويله -وهو تأويلٌ جيد- ينصرف إلى معنى توقعهم لقاء الله في أية لحظةٍ، فيكونون من أهل التقوى وعلى الصراط المستقيم دائما، وهذا هو المقصود الأكبر من الأمر بتذكر الآخرة واليقين في اليوم الآخر، ولقاء الله تعالى، لأنهم يعتقدون المعاد علما لا ظنّا.

ويؤيد هذا التوجيه الحسن الصيغة التركيبية للكلام، فقد قال تعالى (ملاقوا) وهو اسم فاعل من فعل الاستقبال والمضارعة (يلاقوا) الذي يدل على (تجدد) هذا (الظن= التوقع) للقاء ربهم، ولم يقل (يظنون)

وَالثَّالِث: التُّهْمَة. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: [فِي التكوير]: {وَمَا هُوَ على الْغَيْب بظنين}، أَي بمتهم.
وَالرَّابِع: الحسبان. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي حم السَّجْدَة: (وَلَكِن ظننتم أَن الله لَا يعلم كثيرا مِمَّا تَعْمَلُونَ وذلكم ظنكم الَّذِي ظننتم بربكم أرداكم}، وَفِي الانشقاق: {إِنَّه ظن أَن لن يحور}، أَي: حسب.
وَالْخَامِس: الْكَذِب. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى [فِي النَّجْم]: {إِنْ يتَّبعون إِلَّا الظَّن وَإِن الظَّن لَا يُغني من الْحق شَيْئا}، قَالَه الْفراء.
انظر نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص: ٤٢٥)

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٩)

(٢) انظر نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص: ٤٢٥)

(٣) تفسير ابن عرفة (١/ ٢٧٢)

ملاقاة ولقاء ربهم)، وكذلك قال (راجعون) ولم يقل (رجوع) التي توحي بأن الظن هو اعتقادهم، وليس كذلك؛ بل اليقين في (ملاقاة ولقاء) الله و(الرجوع) إليه هو اعتقادهم، وأما (الظن) فهو توقع تلك الملاقاة والرجوع إلى الله في أية لحظةٍ، وهو أبلغ في الدلالة على يقينهم في ملاقاة الله–تعالى–حتى تحولت عملاً وتوقعا مستمرا متجدداً للقاء الله تعالى.

قال القاضي البيضاوي: قوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ} أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيهم، ويؤيده أن في مصحف عبد الله بن مسعود «يعلمون»، وكأن الظن لما شابه العلم في الرجحان أُطلق عليه لتضمن معنى التوقع، قال أوس بن حُجْر:

فأرْسَلَتْهُ مُستَيْقِنَ الظنّ أنَّه ... مُخالِطُ ما بينَ الشَّراسِيفِ جائِفُ. انتهى [(١)]

قلتُ– المحقق: هنا لفتةٌ مهمةٌ في لغة القرآن، وهي أنَّ من أسباب العدول عن استعمال كلمةٍ إلى ما يقاربها في المعنى هو وجود (تضمين لمعنى زائد) في الكلمة التي استعملها القرآن العظيم، وهو مفتاحٌ مهم من مفاتيح فهم القرآن وتدبره.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٧٨)

قال الفخر الرازي: أما قوله: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ} فللمفسرين فيه قولان: الأول: أن الظن بمعنى العلم.

قالوا: لأن الظن وهو الاعتقاد الذي يقارنه تجويز النقيض يقتضي أن يكون صاحبه غير جازم بيوم القيامة وذلك كفر والله تعالى مدح على هذا الظن والمدح على الكفر غير جائز، فوجب أن يكون المراد من الظن هاهنا العلم، وسبب هذا المجاز أن العلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقادا راجحا إلا أن العلم راجح مانع من النقيض والظن راجح غير مانع من النقيض، فلما اشتبها من هذا الوجه صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر، قال أوس بن حجر:

فأرسلته مستيقن الظن أنه ... مخالط ما بين الشراسيف خائف.

وَقَالَ تَعَالَى: {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ} [الْحَاقَّةِ: ٢٠] وَقَالَ: {أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ} [الْمُطَفِّفِينَ: ٤] ذكر الله تعالى ذلك إنكارا عليهم وبعثا على الظن ولا يجوز أن يبعثهم على الاعتقاد المجوز للنقيض فثبت أن المراد بالظن هاهنا العلم.

القول الثاني: أن يحمل اللفظ على ظاهره وهو الظن الحقيقي، ثم هاهنا وجوه:

الأول: أن تجعل ملاقاة الرب مجازا عن الموت، وذلك لأن ملاقاة الرب مسبب عن الموت فأطلق المسبب والمراد منه السبب، وهذا مجاز مشهور فإنه يقال لمن مات إنه لقي ربه. إذا ثبت هذا فنقول: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون الموت في كل لحظة، وذلك لأن كل من كان متوقعا للموت في كل لحظة فإنه لا يفارق قلبه الخشوع فهم يبادرون إلى التوبة، لأن خوف الموت مما يقوي دواعي التوبة ولأنه مع خشوعه لا بد في كل حال من ألا يأمن تقصيرا جرى منه فيلزمه التلافي، فإذا كان حاله ما ذكرنا كان ذلك داعيا إلى المبادرة إلى التوبة.

الثاني: أن تفسر ملاقاة الرب بملاقاة ثواب الرب وذلك مظنون لا معلوم فإن الزاهد العابد لا يقطع بكونه ملاقيا لثواب الله بل يظن إلا أن ذلك الظن مما يحمله على كمال الخشوع.

الثالث: المعنى الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم بذنوبهم فإن الإنسان الخاشع قد يسيء ظنه بنفسه وبأعماله فيغلب على ظنه أنه يلقى الله تعالى بذنوبه فعند ذلك يسارع إلى التوبة وذلك من صفات المدح. انتهى من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٤٩١).

ومثاله: قول الملائكة فيما ذكرنا من سورة البقرة آنفا {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} (البقرة: ٣٠) فقد اختلف المفسرون في معنى اللام (ونقدس لك) فقال بعضهم هي صلة (أي زائدة) وهذا مرفوضٌ لأنه يكون بمعنى (ونقدسك) أي ننزهك عما لا يليق؛ الذي هو مذكور بالفعل في قولهم (نسبح بحمدك)، والبلاغة في التأسيس لا التأكيد. والصحيح أنَّ اللام هنا تضمنت الإشارة إلى لفظٍ محذوف أي (ونقدس أنفسنا لك) أي نطهرها لك، وهو معنى جديدٌ وتوجيهٌ جيد حلَّ إشكاله قضيةُ تضمين المعاني ويدل على اتساع لغة القرآن وعمقها الدلالي....

فائدة: في حقيقة الخشوع.

ما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهية الخشوع: إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكونٌ وتواضعٌ.

واستثنى سبحانه الخاشعين في قوله تعالى : { وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين} مع أنَّ استعمال جوارحهم في الصلاة ، وملازمتهم لوظائف الخشوع ، وإتعابهم لأنفسهم إتعابا عظيما في استحضار الأسباب الموجبة له ليس يسيراً على أحدٍ؛ استثناهم لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب ، وعلى ذلك تسهُل عليهم تلك المتاعب ، ويتذَلَّل لهم ما يرتكبونه من المصاعب ، بل يصير ذلك لذةً خالصةً لهم، وراحةً محضةً عندهم ، ولمثله هان على قومٍ ما يلاقونه من حر السيوف عند تصادم الصفوف في الجهاد ، وكانت الأمنية عندهم طعم المَنِيَّة حتى قال قائلهم (زيد بن الدثنة –رضي الله عنه–) :

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلما *** على أي جنبٍ كان في اللهِ مَصْرَعي. [(١)]

قال سفيان الثوري سألت الأعمش عن الخشوع فقال: سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع؛ فقال : ليس الخشوع بأكل الخشن، ولبس الخشن، وتطأطء الرأس ؛ لكن الخشوع أن ترى الشريفَ، والدنيء في الحق سواء ، وتخضع لله في كل فرضٍ افترض عليك.

ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال: " يا هذا ارفع رأسك؛ فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب ".

---

(١) راجع الشوكاني في فتح القدير ٥٥/١.

وقال علي بن أبي طالب: " الخشوع في القلب، وأن تلين كفيك للمرء المسلم، وألا تلتفت في صلاتك ".

فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه؛ فإنما أظهر نفاقا على نفاق.

قال سهل بن عبد الله: " لا يكون المرؤ خاشعا حتى تخشع كل شعرةٍ على جسده؛ وذلك لقول الله تبارك وتعالى: {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم}.

قلت (أي القرطبي): هذا هو الخشوع المحمود؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه؛ فتراه مطرقا متأدبا متذللا. وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك.

وأما المذموم فتكلفه والتباكي وطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوا بعين البر والإجلال، وتلك خُدَعٌ من الشيطان، وتسويلٌ من نفس الإنسان.

روى الحسنُ البصري أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– كأنه يتحازن؛ فلكزه عمر أو قال: لكمه. وكان عمر –رضي الله عنه– إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ؛ وكان ناسكا صادقا وخاشعا حقا . [١]

تفسير الآيات (47–61 البقرة)

يقول تعالى شأنه :

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٣٥٢،٣/١) مع اختصار.

طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) }(البقرة 47–61)

سياق الخطاب في الآيات.

إن القرآن الكريم حينما يخاطب يقرِّب تارةً ويباعد أخرى، ويرقِّق تارةً ويغلِّظ أخرى، ويبشِّر وينذِر، ويبسط ويقبض، ويستميل تارةً ويعرض أخرى. إنه الخطاب الذكي – لو سمح لنا التعبير- الذي يعرف مَن يخاطب وكيف يخاطب، يغرس في عمق الوجدان ما أراد، يستجيش الذكريات، ويحرك المشاعر، ويحفز الهمم، ويعالج أدواء النفوس وانتكاساتها، ويحرِّض على التفكير المجرد من هوى النفوس وشطحاتها. وليكن كلُّ هذا في خَلَدك حين تسمع القرآن يخاطب، أو يجادل، أو يعظ، او حتى يشرِّع ويرسم تعاليمه.

قلنا أنَّ القرآن يضرب في عمق جذور تاريخ بني إسرائيل؛ في أحداثٍ، وتفاصيلَ دقيقةٍ لا يحيط بها إلا علماؤهم، ومحمد- ﷺ – لم يبارح يوما ثقافته العربية إلى ثقافة أهل الكتاب التي كانوا يضنون بها أصلاً على غيرهم ويكتمونها، وهو لم يجالس ساعةً أياً من أحبارهم فيأخذ عنهم، ولو حدث ذلك لكانت الثغرة التي يحتج بها اليهود- وهم أعدى أعدائه- على كذبه – وحاشاه- ثم من العجب أنَّ بعض أبناء البارحة من المستشرقين وأذنابهم المملة يرددون تلك الفرية أنَّ محمداً – ﷺ –نقل كتابه من كتب اليهود والنصارى، ولو كان ذلك كذلك لهدم به اليهود المعاصرين له الدين من الأساس.

نعود فنقول إن تعليم الله –تعالى- لنبيه – ﷺ – دقائقَ في تا ريخ اليهود يخفيها الأحبار في خزائنهم لهو أهمُّ داعيةٍ لأولئك المارقين أن يستمعوا لخطاب القرآن ويتعظوا ويعودوا عن غيهم.

وتبدأ الآيات بنبرةٍ هادئةٍ فيها إجمالٌ لمقصود الخطاب معهم فتذكرهم أنَّ الله نجَّى أسلافهم، وحفظ أصولَهم، وفضَّلهم على الناس بالرسالة والنجاة في وقتهم؛ لعلهم يتقون الله– سبحانه– ويتذكرون يوم القيامة حيث لا تنفع شفاعةٌ، ولا فديةُ مالٍ، ولا نصرُ أحدٍ من دون الله.

يقول تعالى: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً، وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ، وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (47)».

ثم تتلاحق وتتسارع الآيات في تذكيرهم ببعض دقائق نِعم الله –تعالى– الخاصة عليهم لعلهم يرجعون.

وهنا ينفرد حرف (إذ) بمكانته السامقة في إعادتهم إلى تلك الأحداث كأنهم يرونها رأى العين.

إن الله – تعالى– يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى سَالفَ نِعَمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، وَمَا كَانَ فَضَّلهم بِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (الدُّخَانِ: 32)، (قال القرطبي: ولقد اخترناهم يعني بني إسرائيل. على علم أي على علمٍ منا بهم لكثرة الأنبياء منهم. على العالمين أي عالمي زمانهم فقط، بدليل قوله لهذه الأمة: {كنتم خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناس}. وهذا قول قتادة وغيره.)، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} (الْمَائِدَةِ: 20). [١]

يعود الخطاب القرآني إلى نداء بني إسرائيل، وتذكير هم بنعمة الله عليهم، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالاً قبل الأخذ في التفصيل...

وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوتٌ بزمان استخلفاهم واختيارهم، فأما بعد ما عَتَوْا عن أمر ربهم، وعَصَوْا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد، وحقَّ عليهم الوعيد.

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكيرٌ لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده، وإطماعٌ لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان. وإلى عهد الله شكراً على تفضيله لآبائهم، ورغبةً في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون. [٢]

١– راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 255)

٢– في ظلال القرآن (1/ 69)

وكما قررنا آنفاً إن الخطاب لبني إسرائيل هو في جوهره خطابٌ ثانويٌ للأمة المحمدية ليأخذوا العِبرة والعِظَة، والدروسَ الواضحة مما جرى لحملة الكتاب قبلهم؛ فلا يكرروا أخطاءَهم، ولا يسيروا سيرهم...

تشريف وتكليف.. نعمةٌ وإساءةٌ.

قال تعالى: {يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}

قال الألوسي: كرر التذكير بالنعمة للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوقها، وليربط به ما بعدها من الوعيد الشديد لتتم الدعوة بالترغيب والترهيب ، فكأنه قال سبحانه : إن لم تطيعوني لأجل سوابق نعمتي ، فأطيعوني للخوف من لواحق عقابي. انتهى.

ولأن التشريف هنا مقترن بتكليف؛ فمَنْ لم يراعِ حقَّ التكليف رده الله تعالى على عقبيه ولعنه وغضب عليه بعد أن قابل نعم الله الكبيرة عليه بالإساءة والإجرام. وهذا درسٌ آخر من دروس القرآن العامة تفسره مقولة الجنيد –رحمه الله – حين سئل عن الشكر فقال: هو ألا تعصي الله –تعالى– بنعمه عليك.

(فإن قلتَ: ما الفائدة في قوله: {التي أَنْعَمْتُ} ولو أسقطت لقيل: اذكروا نعمتي (عَلَيْكُمْ) لما اختلَّ المعنى؟ فالجواب: أنه أفاد اختصاص تلك النعمة بهم، وأنهم مقصودون بها، أي اذكروا نعمتي التي جعلتها خاصةً لكم، لأنه أنعم عليهم نعما كثيرة، ثم ذكَّرهم بما اختصهم به منها دون ما (شاركهم) الغير (فيه) ، وأيضا فالإنعام على الشخص يطلق على ما ناله مباشرة وما كان بواسطة ؛(فذُكِّروا) بما أنالهم من النعمة مباشرة باختصاصها باسم الوصل " التي" وإضافتها إلى نفسه سبحانه.) [١]

****

قال تعالى مُبَكِتا لهم ومُسْتَحِثّاً لما بقي من الحياء في وجوهم كيف ينقضون عهد الله– تعالى– الذي قربهم ورفع قدرهم بعهده ورسله وكتبه؛ يقول: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين، بينما المعروف أن محمد – عليه السلام – هي أفضل الأمم على الإطلاق؟

والجواب عن هذا: أنَّ المراد بالعالمين هم أهل زمانهم المعروفون لهم من الأمم المجاورة، إذ كانوا هم أهل كتاب، وفيهم الرسل والأنبياء، على حين كان جيرانهم وثنيين، على كفرٍ وشرك وضلال. وهذا قول جمهور

---

١ تفسير ابن عرفة (1/ 274) بتصرف

المفسرين. ويقول عنه علماء القرآن أنه من العام الذي أريد به الخصوص، ولابد له من مُخصِّص، وخصَّصه هنا النصوص الأخرى وقرينة الحال.

قال ابن كثير : ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة أفضل منهم. لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}.

(قلت: فهذا حكم قاطع بالخيرية المطلقة لهذه الأمة– في مقام الهداية، وصدق الإيمان بالله– على سائر الأديان، وجميع الملل إذا ما حافظوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله– تعالى– فإن لم يرعوا ذلك نُزعت منهم الخيرية كما نُزعت من غيرهم حين نسوا عهد الله– سبحانه– والله لا يحابي أحداً في شرعه ودينه، ولا لأحدٍ عنده عهداً إلا بالطاعة والتقوى!).

وكذلك قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} والوسط هو الأفضل في كل شيءٍ.

وقال رسول الله – عليه السلام –: (أنتم توَفُّون سبعين أمةٍ؛ أنتم خيرُها وأكرمُها على الله) رواه أحمد. وقوله – عليه السلام –: (أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، ... وسُمِّيتُ أحمد، وجُعِلَتْ أمتي خيرَ الأمم) رواه أحمد .

قلت–جامعه: فأمة محمدٍ أفضل الأمم باعتبار أن أكثرها كذلك، وإذا ما التزمت بدين الله وعهده.

وأذكر هنا ما روى البخاري عن ابن مسعود قال: شهدتُ من المقداد بن الأسود مشهدا؛ لأن أكون صاحبه أحبُّ إلي مما عُدِل به: أتى النبيَّ – ﷺ – يوم بدرٍ؛ وهو يدعو على المشركين، فقال يا رسول الله! إنا لا نقول لك كما قال قومُ موسى لموسى: {اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون}، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك.

فرأيت النبي – ﷺ – أشرق وجهه وسره؛ يعني قوله. انتهى [(١)]

****

ثم يستمر الخطاب القرآني في لهجته الهادئة المتأنية وفي الإطار الإجمالي لوعظ اليهود حيث يعالج تلك النعرة الكاذبة التي كان يحملها يهود المدينة وما حولها ويتباهون بها على الرسول – ﷺ – والمؤمنين يقولون نحن أكرم على الله تعالى من كل أحدٍ، ونحن أهل الكتاب الأوَل، ونحن أهل الفضل والشفاعة... وغير ذلك من

١– الحديث في مختصر صحيح الإمام البخاري للألباني (3/ 10).

التعالي اليهودي الفارغ، فجاء القرآن ليفضح كذبهم وأنهم ليسوا أعلى من أحدٍ؛ بل هم بكفرهم أقل الناس، ولن ينفعهم أيٌّ من نرجسيتهم تلك في يوم الحساب الأكبر.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ ... الآية﴾

قال ابن عاشور: عَطَفَ التحذير على التذكير، فإنه لما ذكَّرهم بالنعمة، وخاصةَ تفضيلهم على العالمين في زمانهم؛ وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيلٌ من أجل ذواتهم لا أعمالهم، فتوهموا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعقَّب التذكير بالتحذير من ذلك. انتهى

(هذه النداءات المكررة من ربّ العزة إلى هذا القطيع الشارد، من بنى إسرائيل- إنما تشير إلى ما في نفوس هؤلاء القوم من جحودٍ، وما في طباعهم من جفاءٍ وجموحٍ، وما ضمّ عليه كيانُهم من كفرٍ للإحسان، وكفران بالنعم.

وليست هذه النداءات المتكررة إلا لإقامة الحجة عليهم، وإظهار النذارة لهم، حتى إذا أخذوا بعنادهم وجماحهم كان أخذهم شديدا أليما.

ومن أجل هذا أخذهم الله بالبأساء والضراء، وأوقع عليهم اللعنة، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، فقال تعالى في بنى إسرائيل: «فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً » (المائدة/١٣). ويقول سبحانه: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ» (آل عمران/ ١١٢)). [1]

قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) }

{وَاتَّقُوا} أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم عذاب يوم القيامة، وقال سبحانه: (يَوْمًا) بالتنكير لتذهب النفس مذاهب شتى في تصوير هوله، والإبهام وحده يوجِد رهبةً، ويُشْعِر بالتهويل، وبأنه لا يحد عذابه وصفٌ، وإن ذلك اليوم الذي اتقاؤه بالعمل الصالح والقيام بالحقوق، وأداء الواجبات، يتقدم فيه الإنسان منفردا إلا من

---

١ التفسير القرآني للقرآن (1/ 81)

عمله، ولا تجزي فيه نفسٌ عن نفس شيئا، أي لَا يحمل عملُ نفسٍ عن نفسٍ شيئا من الجزاء، أو "تجزي" بمعنى تقضي؛ أي لَا تقضي نفسٌ عن أخرى أيَّ شيءٍ قلَّ أو جَلَّ كما يفيده تنكير " شيئا"، كما قال تعالى: {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } (النجم: ٣٨ – ٤١).

وقوله تعالى: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} (الطور: ٢١).

وقوله سبحانه: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٣ – ١٥)

(فالتبعة فردية، والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً..

وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم. مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله. وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره. وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام). (١)

وتنكير كلمة (نفس) في الموضعين من الآية «لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً» وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس، إذن فهو مبدأ عام كلي ينال المخاطَبين وغير المخاطَبين من الناس أجمعين.

وتأمل معي هذه البنية الدلالية البليغة للآية. فاستعمال النكرة في سياق النفي في هذه الآية في كل كلماتها (يوماً... نفسٌ...نفسٍ... شيئاً... شفاعةٌ... عدلٌ...) له دلالات بلاغية عميقةٌ منها: العموم والشمول فلا يخرج أي استثناء لهذه الأحكام، والمقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي تعم، ثم التهويل لهذا الموقف الذي يوحيه الابهام الناتج عن تنكير كل هذه الكلمات مجتمعةً، ثم نفي الخصوصية التي يدعيها اليهود دائما لأنها أحكام عامة لكل النفوس، وكل الأشياء، وكل الشفاعات، وكل الفديات....

وعقَّب سبحانه وتعالى بما يؤكد ذلك، فلما كان اليهود يعتقدون أنهم شعبٌ مميز، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم في مأمنٍ من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم، وأن آباءهم سيشفعون لهم ... لما كانوا كذلك

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٧٠)

جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ما اعتقدوه، وتقطع ما أمّلوه، ولتَنْقُض كلَّ ما يَحتمل أن يكون وسيلةً للنجاة يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح.

فقال تعالى: {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} والشفاعة في اللغة من الشفع وهو ضد الوتر، ومعناه الضم، فالشافع يضم قوته إلى مَن يشفع فيه.

والمعنى: لا يقبل الله تعالى شفاعةً من أحدٍ لأحدٍ إلا بإذنه لمَن يعلم أنه يستحق الشفاعة، إنما هو العمل وحده الذي ينفع كما قال تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (المدثر: ٤٨) .

وإذا كان للأنبياء شفاعة فبأمر الله تعالى وحده ورضاه وعلمه وحكمته، كما قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} (الأنبياء: ٢٦ – ٢٨)

وأما قوله تعالى: {وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} أي: لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ أو بَدَلٌ، فالعدل البدل، فلا ينجيهم من العذاب شفاعةٌ ولا فديةٌ ببدلٍ يُدْفَع.

كما قال تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ} (الْبَقَرَةِ: ٢٥٤)

كما قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} (آلِ عِمْرَانَ: ٩١).

وَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الْمَائِدَةِ: ٣٦).

وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا} (الأَنْعَامِ: ٧٠) ، وَقَالَ: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الْآيَةَ (الْحَدِيدِ: ١٥).

وقوله تعالى: {وَلا هُمْ يُنصَرُونَ} لأنه لَا ناصر إلا الله، أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: {فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} (الطَّارِقِ: ١٠)

أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: {وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ} (الْمُؤْمِنُونَ: ٨٨).

وَقَالَ {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} (الْفَجْرِ: ٢٥ ٢٦).

وَقَالَ {فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} الْآيَةَ (الْأَحْقَافِ: ٢٨).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: {وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} يَعْنِي: إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ، كَمَا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ شَافِعٌ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ، بَطَلَت هُنَالِكَ الْمُحَابَاةُ وَاضْمَحَلَّتِ الرُّشى وَالشَّفَاعَاتُ، وَارْتَفَعَ مِنَ الْقَوْمِ التَّعَاوُنُ وَالتَّنَاصُرُ، وَصَارَ الْحُكْمُ إِلَى عَدْلِ الْجَبَّارِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ لَدَيْهِ الشُّفَعَاءُ وَالنُّصَرَاءُ، فَيَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا وَبِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا.

وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} (الصافات: ٢٤-٢٦).[١]

وخير تفسير لآيات الله –تعالى– يكون في ضوء بعضها البعض، لأن كتاب الله يفسر بعضه بعضا.

- وفي (صحيح البخاري) عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النبيِّ – ﷺ – قَالَ: "يقُولُ اللهُ تَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أنَّ لَكَ مَا فِي الأرْضِ مِنْ شَيءٍ، أكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أرَدْتُ مِنْكَ أهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؟ ألا تُشْرِكَ بِي شَيئاً، فَأَبَيْتَ إلا أنْ تُشْرِكَ بِي".
- قال الرازي في تفسيره: أن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة؛ لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراكٌ، ولا شفاعةٌ، ولا نصرةٌ ولا فديةٌ علِم أنه لا خلاصَ له إلا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن ساعةً من التقصير في العبادة، ومن فَوْت التوبة من حيث إنه لا يقينَ له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال.

والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبةٌ لجميع الناس لأن الوصفَ الذي ذُكِر فيها وصفٌ ليوم القيامة، وذلك يعم كلَّ مَن يحضر في ذلك اليوم ، ولابد من حضوره .انتهى.

وقفة مع اعتقاد الشفاعة.

والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفيا مطلقا، ولكن هنالك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا لِمَن أذن له الرحمن في ذلك، من هذه الآيات قوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ»

وقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا».

١– راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٥٧)، وزهرة التفاسير (1/ 223)، والتفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي (1/ 119) بتصرف.

وللجمع بين هذه الآيات، تُحمَل الآيات التي تنفى الشفاعة نفيا مطلقا على أنها واردة في شأن النفوس الكافرة، وتحمل الآيات التي تبيح الشفاعة على أنها واردة في شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين.

وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر (المعنوي) في أن النبي – ﷺ – ستكون له شفاعةٌ في دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، من ذلك ما أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله– رضي الله عنهما– أن رسول الله – ﷺ – قال: «أُعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي: نُصِرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وجعلت أمتي خير الأمم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً؛ وبُعِثْت إلى الناس عامةً».

قال الإمام ابن جرير الطبري:

(وهذه الآية وإن كان مخرجها عاما في التلاوة، فإن المراد بها خاصٌّ في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله – ﷺ –أنه قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.

وأنه قال– ﷺ –: «ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلةٌ إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئا».

فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد – ﷺ –لهم عن كثيرٍ من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله تعالى: {وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ} إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله– عز وجل–» انتهى.[١]

فقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} يَعْنِي عَنِ الْكَافِرِينَ، أو مَن مات غير تائبٍ إلى الله –تعالى– تكبراً، وكان جرمه في حق غيره من الناس، أو مات وفي قلبه استهزاءٌ وعدم اعتبارٍ لدين الله –تعالى– واستحلالا لما حرَّم الله تعالى؛ لأن هذا يكفر به ولا يطلق عليه مؤمنٌ ابتداءً.

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٣٣)

حديث: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي": هكذا ذكره الطبري دون إسناد. وهو حديث صحيح، ذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لأحمد، وأبي داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم–عن أنس. والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم–عن جابر. انظر شرح المناوي الكبير، رقم ٤٨٩٢ (ج ٤ ص ١٦٣).

وحديث "ليس من نبي" إلخ: كذلك جاء به الطبري دون إسناد. ومعناه ثابت صحيح، من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري، ومسلم. انظر الترغيب والترهيب ٤: ٢١٣.

أما مَن مات مِن أهل الإسلام وقد أتى كبيرةً وقد تاب منها، أو لم يكن يصر عليها أو يستحلها في قلبه، أو يستهزأ بشرع الله –تعالى– فهو في مشيئة الله –تعالى– إنْ شاء قبل شفاعة الشافعين فيه، أو عفا عنه {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (البقرة: ٣٧)

وليس فيها مستند للمعتزلة والخوارج في نفى الشفاعة ، لأن المقصود بالخطاب هنا الكافرون ؛ كَمَا قَالَ تعالى : {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (الْمُدَّثِّرِ: 48)، وَكَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} (الشُّعَرَاءِ: 110، 111) ،فهذا من العام الذي أريد بها الخاص، تبعا للسياق القرآني، ومعرفة أنواع الخطاب القرآني ومقصوده، والجمع بين آيات الله تعالى، و رَدِّ المتشابه للمحكم كما علَّمنا الله تعالى– في أصول تناول كتابه [١] ؛ وهذا كله من العلوم المطلوبة لتدبر وتفسير كتاب الله، ولكنه ديدنُ أهل البدع والهوى يضربون الكتابَ بعضَهُ ببعضٍ، فيؤمنون ببعضه، ويكفرون ببعضٍ، وينكرون سنة رسول الله وتفسيرها لكتاب الله...

- فالشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض ، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، والشفاعة لأهل التوحيد لا تكون إلا بشروط :

الشرط الأول: أن يأذن الله بالشفاعة. كما قال تعالى {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} (سورة القرة/ آية الكرسي). وله الحكمة والعلم المحيط بنفوس مَن تجوز له الشفاعة مِن خلقه، وهو خلقهم! فالاعتراض على إذن الله بالشفاعة لبعض العصاة هو اعتراضٌ على علمه وحكمته.

والشرط الثاني: أن يكون راضياً عمن شَفَعَ، وعمَّن شُفِع له. قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} (طه: ١٠٩). {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} (الأنبياء: ٢٨)؛ كما لا يستشكل مثل هذا الأمر على الذين يعظمون في نفوسهم علم الله تعالى المحيط وحكمته وعدله وكرمه.

والثالث: ألا يكون المقصود بالشفاعة مشركاً أي نوعٍ من الشرك، أو مستهزئا بدين الله، أو مستحلا لمعصيته فإنه يكفر بذلك. كما قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (النساء: ١٨)

(١) بفضل الله– تعالى– جمعتُ كثيرا من هذه الأصول في كتابي (نظام القرآن– وكيف نقرأ القرآن من الداخل) أتمه الله تعالى وييسر نشره.

ولقوله تعالى في سورة البقرة (الآية ٦١) في بني إسرائيل ذكرا لسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وغضب الله عليهم: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} بأن ارتكبوا معاصي الله وكانوا يعتدون على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضا، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

- وقد أنكر الشفاعة وحرَّف أخبارها من أهل البدع الخوارج الوعيدية الذين يكفِّرون المسلم بمجرد ارتكابه الكبيرة، وقومٌ من المعتزلة، والمتفلسفين. وعلى الطرف الآخر بالغ فيها المرجئة فجعلوها في غير مواضعها تساهلاً، فأدخلوا فيها كل مَن تجرأ على الله –تعالى– بالمعاصي وإنْ عظمت.. وكلاهما على الباطل الذي لا يجيزه جمع النصوصُ الشرعية وفهمها.

وفي الأمر تفصيل ليس هذا مقامه... [١]

تفصيلٌ بعد إجمال.

اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَدَّمَ ذِكْرَ نِعَمِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ إِجْمَالًا ؛ بَيَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَقْسَامَ تِلْكَ النِّعَمِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي التَّذْكِيرِ وَأَعْظَمَ فِي الْحُجَّةِ.

فَكَأَنَّهُ قَالَ: {اذْكُرُوا نِعْمَتِي..} وَاذْكُرُوا إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ..، وَاذْكُرُوا إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ.. وإذ..، وإذ ... وَهِيَ نعمٌ متعددةٌ كثيرةٌ وهذه أمثلةٌ لها، وَالْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْإِنْعَامُ الْأَوَّلُ. [٢]

قال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) } (البقرة: 49 – 51)

في هذه الآيات الكريمات تفصيلٌ لبعض تلك النعم، التي أنعم الله بها على بنى إسرائيل، والتي جاء إجمالها في قوله تعالى: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...».

١– راجع لذلك شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (1/ 282)

٢– راجع تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 504)

توجهات الخطاب القرآني في الآيات.

(واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت لهم لفوائد عديدة [١] :

منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم، ما يبين به لكل أحد منهم أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المَظِنة أنهم أوْلى وأرفع حالةً ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطَبين؟ ".

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصلة إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخوطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع. لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

---

(١) يقول ابن جرير الطبري–رحمه الله:

والخطاب به لمن لم يدرك فرعون ولا المنجَّين منه، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناء من نجاهم من فرعون وقومه، فأضاف ما كان من نعمه على آبائهم إليهم، وكذلك ما كان من كفران آبائهم على وجه الإضافة، كما يقول القائل لآخر:"فعلنا بكم كذا، وفعلنا بكم كذا، وقتلناكم وسبيناكم"، والمخبِر إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك، أو أهل بلده ووطنه –كان المقولُ له ذلك أدرك ما فعل بهم من ذلك أو لم يدركه، كما قال الأخطل يهجو جرير بن عطية:

ولقد سما لكم الهذيلُ فَنَالَكُم ... ب(إرَابَ)، حيث يقسِّم الأنفالا).

"سما فلان لفلان": إذا أشرف عليه وقصد نحوه عاليا عليه". والهذيل، هو الهذيل بن هبيرة التغلبي غزا بني يربوع في مكان يدعي (إراب) (وهو ماء لبنى رياح بن يربوع) فقتل منهم قتلا ذريعا. وأصاب نعما كثيرا، وسبى سببا كثيرا، منهم "الخطفى" جد جرير، فسمى الهذيل "مجدعا"، وصارت بنو تميم تخوف أولادها باسمه. (انظر خبر ذلك في النقائض ٤٧٣، ونقائض جرير والأخطل: ٧٨). وقوله (نالك)م: أدرككم وأصاب منكم ما أصاب. والأنفال جمع نفل (بفتحتين) : وهي الغنائم.

ولم يلحق جرير هذيلا ولا أدركه، ولا أدرك معركة (إراب) ولا شهده. ولكنه لما كان يوما من أيام قوم الأخطل على قوم جرير، أضاف الخطاب إليه وإلى قومه. فكذلك خطاب الله عز وجل من خاطبه بقوله: (وإذ نجيناكم من آل فرعون) لما كان فعله ما فعل من ذلك بقوم من خاطبه بالآية وآبائهم، أضاف فعله ذلك الذي فعله بآبائهم إلى المخاطبين بالآية وقومهم. انتهى. انظر تفسير الطبري = جامع البيان وحاشيته ت شاكر (٢/ ٣٨).

والقصد أنه خاطبه بما لم يعاصره ولكنه حدث في قبيلته ويحفظونه فكأن الخطاب له.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلا الله). انتهى [١]

يقول العلامة رشيد رضا: والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجها إلى الذين كانوا في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر ليعلم الناس أن سنة الله – تعالى – في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة إذا فَشَتِ الذنوب في الأمة وإنْ لم يواقعها هو ؛ كما قال تعالى : {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (الأنفال: ٢٥) ، وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين. انتهى. [٢]

قلتُ : روى الإمام أحمد وغيره بسند صحيح عن قيس قال: قام أبو بكر – رضى الله عنه– فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير مواضعها : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} إنا سمعنا رسول الله – ﷺ – يقول: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه".

بيان الآيات.

تعود الآيات لتفصل لؤم اليهود، ومع تتابع هذه النعم السابقة، وتوالى هذه الآلاء الكريمة، فإن القوم لم يلقوا هذا الإحسان إلا بالكفران، واللجاج في العناد، والمحادّة لله ورسوله. ينجيهم الله من فرعون، وما رهقهم به من محن، وما رماهم به من بلاءٍ، حيث كان يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم. [٣] وقد اتفق المفسرون على أن معناها هو استبقاء النساء للخدمة والأعمال المُذِلَّة بعد قتل ذكور الولدان لأنه رأى في المنام أنَّ ذهاب ملكه على يد أحد صبيان بني إسرائيل. [٤]

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣)

(٢)(تفسير المنار ١/ ٢٦٧) مع بعض الاختصار

٣– التفسير القرآني للقرآن (1/ 84) للدكتور عبد الكريم الخطيب– رحمه الله، وقال في معنى (ويستحيي نساءهم) بما يدخل عليهم من جنده من استخفاف بحرماتهن، وهتك لأستارهن، مما يجرح حياء المرأة، ويغرق وجه الحرة بماء الخجل! انتهى. ويقصد أن يجعل (يستحيي) أي يصيب بالحياء بما يفعله هو وجنوده من هتك الاستار. وهذا معنى بعيد.

(٤) قال العلامة ابن كثير في تفسير أول سورة القصص :

أَمَّا قَوْلُهُ: {وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ}. أصل الإنجاء والتنجية هو التخليص، وقوله {مِن آلِ فرعونَ} (الآل) بمعنى الأهل وخاصة المرء ويُختص بها – في اللغة – ذووا الشأن من الملوك وأمثالهم، وَلَا يُقَالُ: آلُ الْحَجَّامِ وَالْإِسْكَافِ [1]، و(فرعون) هو لقب مَن يحكم مصر من القِبط (المصريين)؛ كما لُقِّب حاكم الفرس ب(كسرى)، وحاكم الروم ب(قيصر)، و حاكم الحبشة ب(النجاشي) .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَقَ: فرعون موسى هُوَ غَيْرُ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ كَانَ اسْمُهُ الرَّيَّانَ بْنَ الْوَلِيد. وهذا هو الصَحِيحِ–كما قال الرازي– إِذْ كَانَ بَيْنَ دُخُولِ يُوسُفَ مِصْرَ، وَبَيْنَ أَنْ وُلد فيها مُوسَى أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِمائَةِ سَنَةٍ.

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ} أَيْ: تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَى. {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} أَيْ: أَصْنَافًا، قَدْ صَرَّفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دَوْلَتِهِ. وَقَوْلُهُ تعالى: {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ} يَعْنِي: يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلَّط عليهم هذا الملك الجبار العتيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويُكِدُّهم ليلا ونهارا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة.

لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه.

فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ– إلى قوله– يَحْذَرُونَ} وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ– إلى قوله– يَعْرِشُونَ} (الأعراف: ١٣٧). وقال تعالى: {كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ..} (الشُّعَرَاءِ: ٥٩).

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.. انتهى من تفسير ابن كثير ت سلامة (6/ 221).

١– قَالَ الْقَفَّالُ: وَقَالُوا لِلْمَكَانِ الْعَالِي: نَجْوَةٌ لِأَنَّ مَنْ صَارَ إِلَيْهِ نَجَا، أَيْ تَخَلَّصَ وَلِأَنَّ الْمَوْضِعَ الْمُرْتَفِعَ بَائِنٌ عَمَّا انْحَطَّ عَنْهُ فَكَأَنَّهُ مُتَخَلِّصٌ مِنْهُ.
وقَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ: أَصْلُ (آلٍ) أَهْلٌ وَلِذَلِكَ يُصَغَّرُ بِأُهَيْلٍ فَأُبْدِلَتْ هَاؤُهُ أَلِفًا، وَخُصَّ اسْتِعْمَالُهُ بِأُولِي الْخَطَرِ وَالشَّأْنِ، كَالْمُلُوكِ وَأَشْبَاهِهِمْ وَلَا يُقَالُ: آلُ الْحَجَّامِ وَالْإِسْكَافِ.
قَالَ عِيسَى: الْأَهْلُ أَعَمُّ مِنَ الْآلِ، يُقَالُ: أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَلَدِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَلَا يُقَالُ: آلُ الْكُوفَةِ وَآلُ الْبَلَدِ وَآلُ الْعِلْمِ.
فَكَأَنَّهُ قَالَ: الْأَهْلُ هُمْ خَاصَّةُ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَغْلِيبِهِ عَلَيْهِمْ، وَالْآلُ خَاصَّةُ الرَّجُلِ مِنْ جِهَةِ قَرَابَةٍ أَوْ صُحْبَةٍ.
وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ سَمِعَ فَصِيحًا يَقُولُ: أَهْلُ مَكَّةَ آلُ اللَّهِ. انتهى.
راجع تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 504)

قلتُ: ففي زمن يوسف كان يحكم العماليق (الهكسوس) الذين غزوا مصر من الشام وحكموها قرونا، ثم مُكِّن ليوسف – عليه السلام – وقومه فيها فكانت لهم المكانة في دولة الهكسوس، فلما حرر أحمس ذلك الفرعون القبطي (وكلمة قبط = تعني مصر وليس مسيحي) شمال مصر من الهكسوس أخذ الفراعنة في استعباد وتعذيب بني إسرائيل نَكالا بهم لمرافقتهم الهكسوس ودعمهم. ولذلك نجد القرآن حين يذكر حاكم مصر في عهد يوسف – عليه السلام– يقول عنه (ملك) وهو لقب الحكام من العماليق، أما ذكره الحاكم في عهد موسى فقال عنه (فرعون) وهو لقب قبطي مصري، فتأمل الدقة التاريخية العظيمة لكلام الله تعالى. والله أعلم.

وقوله تعالى: {يسومونكم} أَصْلُهُ مِنْ سَامَ السِّلْعَةَ إِذَا طَلَبَها، كأَنَّهُ بِمَعْنى يَبْغونكم أشدَّ الْعَذَابِ، وَيُرِيدُونَهُ بِكُمْ، ويُوْلُونكم إياه، وَالسُّوءُ مصْدَرُ سَاءَ بِمَعْنى السَّيِّئِ، وَمَعْنى {سُوءِ الْعَذَابِ}؛ مع أن الْعَذَابُ كُلُّهُ سَيِّئٌ أي أَشَدُّهُ وَأَصْعَبُهُ؛ كَأَنَّ قُبْحَهُ زَادَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى سوء العذاب في ذاته. وهذا العمق الدلالي في تصوير مدى البلاء والمحنة التي نجاهم الله –تعالى– منها، فتأملْ جمال ودقة الأداء والبلاغة القرآنية!

قال الرازي: واختلف المفسرون في المراد من «سوء العذاب».

فقال محمد بن إسحاق: إنه جعلهم عبيداً، وخدما له، وصنَّفهم (جعلهم أصنافا) في أعماله، فصِنْفٌ كانوا يبنون له، وصنف كانوا يحرثون له، وصنف كانوا يزرعون له، فهم كانوا في أعماله ومَنْ لم يكن في نوعٍ من أعماله كان يأمر بأن يوضع عليه جزية يؤديها.

قلتُ– محققه: ويؤيد ذلك قوله في أول سورة القصص: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ}. فتصنيفهم في خدمته من استضعافهم وجعلهم شيعا أي طوائف وأصنافاً.

وقال السُّدِّيُّ: كان قد جعلهم في الأعمال القذرة الصعبة مثل كنس المبرز وعمل الطين ونحت الجبال، وحكى الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى: {أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنا} (الْأَعْرَافِ: 129). وقال مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ} (الشُّعَرَاءِ: 22).

واعلم أن كون الإنسان/ تحت يد الغير بحيث يتصرف فيه كما يشاء لا سيما إذا استعمله في الأعمال الشاقة الصعبة القذرة، فإن ذلك يكون من أشد أنواع العذاب، حتى إن من هذه حالته ربما تمنى الموت فبين الله تعالى

عظيم نعمه عليهم بأن نجاهم من ذلك، ثم إنه تعالى أتبع ذلك بنعمة أخرى أعظم منها، فقال: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ويستحيون نساءَكم}. [١]

والنعمة هنا في إنجائهم وإنجاء ذريتهم وفروعهم التي تحفظ وجودهم من إهلاك فرعون لهم بقتل الذكور من أبنائهم واستبقاء الإناث للاستعباد والتنكيل والخدمة.

قال ابن الجوزي: كان الزجاج يرى أن قوله: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ويستحيون نساءكم} هو تفسير (عطف بيان) لقوله: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ}، أي أن سوء العذاب هو أنهم يذبحون أبناءكم... وأبَى هذا بعضُ أهل العلم، فقال: قد فرَّق الله بينهما في موضعٍ آخر من كتابه، فقال: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} (إبراهيم: ٦) ، فجعل سومهم أشد العذاب معطوفا عليه ذبح أبنائهم واقتضى ذلك المغايرة بين المعنيين. وإنما سوء العذاب: استخدامهم في أصعب الأعمال.

وقال الفرّاء: الموضع الذي فيه الواو، يبين أنه قد مسهم من العذاب غير الذبح، فكأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح. [٢]

قلتُ- المحقق: وهو جمع حسنٌ بين الآيتين، وهذا ما نعنيه بالنظرة الشمولية في تفسير القرآن وفهمه من خلال جمع الآيات المتناظرة، وتحليلها في سياقٍ عامٍ متصلٍ يبيّن بعضهُ بعضا.

قال ابن الجوزي: وقوله تعالى: {وَيَسْتَحْيُونَ}، أي: يستبقون {نِساءَكُمْ}، أي: بناتكم. وإنما استبقوا نساءكم للاستذلال والخدمة. وفي البلاء هاهنا قولان:

أحدهما: أنه بمعنى النعمة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو مالك، وابن قتيبة والزجاج. (قلتُ: أي اختبار بالنعمة لينظر أتشكرون أم تكفرون بعدما أنجاكم وأعزكم وأكرمكم، وتكون "ذلكم" تعود على "الإنجاء").

والثاني: أنه النقمة، رواه السدي عن أشياخه. فعلى هذا القول بمعنى النقمة والابتلاء يكون معنى {ذلِكُمْ}: عائداً على سَوْمهم سوء العذاب، وذبح أبنائهم واستحياء نسائهم.

قال أبو العالية: وكان السبب في ذبح الأبناء، أن الكهنة قالت لفرعون: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فقتل الأبناء. قال الزَّجَّاج: فالعجب من حُمق فرعون، إن كان الكاهن عنده صادقا، فما ينفع القتل؟! (أي لو كان عنده صادقا وما قاله سيحدث لا محالة) وإن كان كاذبا فما معنى القتل؟! (أي لو

١- راجع تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 505)

٢- راجع زاد المسير في علم التفسير (1/ 63) بتصرف يسير.

لم يكن صادقاً فلماذا يرهق أمن بلاده في قتلٍ لا يعود عليه بفائدة ولا يدفع عنه ضررا، ولكنه الفساد والغباء الفرعوني في كل زمانٍ. [١]

وَأَصْلُ الْبَلَاءِ – أي في اللغة: الِاخْتِبَارُ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ. [٢] كما قال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء: ٣٥) أي نختبركم بالشر لننظر هل تصبرون، وبالخير والتوسعة لننظر هل تشكرون، وقال تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ } (القلم: ١٧) أي اختبرناهم بالخير والسعة. وقال الله عزّ وجل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ} (محمد/ 31) .
وإن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر. وكذلك قوله تعالى: { وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ} (الدخان/ ٣٣) ، راجع إلى الأمرين: المنحة والمحنة.
والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال الفاروق عمر –رضي الله عنه: (بُلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر).
ولهذا قال أمير المؤمنين على: مَن وُسّع عليه في دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِر به فهو مخدوعٌ عن عقله.
وقوله عزّ وجل: {وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} (البقرة/ 49) ، راجع إلى الأمرين، إلى المحنة التي في قوله عزّ وجل: {يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ } (البقرة/ 49) ، وإلى المنحة التي أنجاهم فيها من فرعون وعمله.
قال صاحب (الظلال): وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم. ليلقي في حسهم– وحس كل من يصادف شدة– أن إصابة العباد بالشدة هي امتحان وبلاء، واختبار وفتنة. وأن الذي يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة، ويعتبر بالبلاء، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ. والألم لا يذهب ضياعاً إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها. والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما في التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله، وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته.. ومن ثم هذا التعقيب الموحى: «وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ». [٣]

١– راجع زاد المسير في علم التفسير (1/ 63) بتصرف.
٢– راجع المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: 6،145)
(٣) في ظلال القرآن (١/ ٧٠)

جاء في اللطائف: مَن صبر في الله على بلاء أعدائه عوّضه الله صحبة أوليائه، وأتاح له جميل عطائه فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم، وجعلهم ملوكا، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين. «وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ»: قيل معنى بلاء هو نعمةٌ عظيمة، وقيل محنةٌ شديدة. وفى الحقيقة ما كان من الله- في الظاهر- محنة فهو- في الحقيقة لمن عرفه- نعمة ومنّة. [١] فما ابتلاهم إلا ليرفع قدرهم وربما يشعروا بقيمة وعظمة نعمة الله تعالى برفع البلاء عنهم كما قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} (القصص: ٦، ٥).

يقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم: «ربما أعطاك الله فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع، عاد المنع عين العطاء»، فالنعم الوفيرة قد تكون مصدر شرور وفتن، وابتلاء ونقم؛ ومنعها خيرٌ ونفع ومغنمُ، ففي منع النعمة عين العطاء، والرضا بقضاء الأقدار من أرفع درجات اليقين.

وبنو إسرائيل ابتلاهم الله تعالى بالضراء فصبروا فجعل منهم الأنبياء وأورثهم الأرض، وفضلهم على العالمين، فلما ابتلاهم بالخير والنعمة كفروا وفسدوا فغضب عليهم ولعنهم. نعوذ بالله من الخذلان..

دقة وعبقرية البلاغة القرآنية.

قال تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) }

أما تأويل قوله: (وإذ فرقنا بكم)، فإنه عطف على: (وإذ نجيناكم)، بمعنى: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، وإذ فرقنا بكم البحر. وهي تفاصيل دقيقة- كما قلنا- يذكرها الله سبحانه لبني إسرائيل يعرفها فقط علماؤهم ليبين أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وليذكرهم بأحداث نعمته عليهم بشيءٍ من التفصيل لعلهم يتذكرون ويعودون إلى حضن الإيمان.

(إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فَرْقِ البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى- عليه السلام- على مشهدٍ منهم ومرأى! وخاصي استحضار المشاهد بحقيقتها كأنها ماثلةٌ من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب.) [٢]

١- لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 89)

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٧١)

ومعنى قوله: (فرقنا بكم): فَصَلْنا وشَقَقْنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثني عشر سبطا؛ ففرَّق البحر اثني عشر طريقا، فسلك كلُّ سِبْط منهم طريقا منها، فذلك فرق الله بهم عز وجل البحر، وشقه لهم، وفصّله بتفريقهم في طرقه الاثني عشر... [١]

والتعبير ب(فرقنا) دون (شقَقْنا وفَصَلْنا وفلقْنا) هنا لأنه شقٌّ للبحر يتضمن تقسيمه على عدد قبائلهم (أسباطهم) الإثني عشر حتى لا يتزاحمون ولا يتعاركون ولذلك جاء حرف الجر الرابط هنا بعده (بكم) أي بعدد أسباطكم؛ ولم يقل (لكم)، وكذلك لفظ (فرقنا) يتضمن معنى قوله تعالى: {... فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} (الشعراء: ٦٣). وبهذا يتبين أنَّ العمق الدلالي ل(فرقنا) أوفر، وهذا من أمثلة العدول اللغوي في القرآن لعلة التضمين في المعنى والدلالة. [٢]

ذلك أن فرعون لما اشتد أذاه للمؤمنين بموسى –عليه السلام– واشتدت معاداته للدين الحق وحربه؛ خرج موسى بقومه من مصر فما فاجئه إلا البحر أمامه وفرعون بجنوده يحاوطونه من خلفه، فخاف قومُه وذُعِروا فرد عليهم بيقينه الذي قصه علينا القرآن: {كلا ، إنَّ معي ربي سيهدينِ} ؛ فاستجاب الله تعالى ليقينه بربه، وأمره بضرب البحر بعصاه، وفَرَقَ بهم البحر فكان كالطود (الجبل) تجمع على جانبي طرقٍ إثنى عشرة ممهدةٍ

١– تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 50)

(٢) وفي تكملة هذه النقطة البلاغية؛ فإنْ قال قائلٌ: أنَّ القرآن استعمل التعبير { وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم} (البقرة– ٥٠) وقلتم إنه عدل عن استعمال لفظ (شققنا أو فلقنا) مكانه، فما باله استعمل لفظ (فانفلق) في سورة (الشعراء الآية ٦٣) {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} ، أليس ادعاءك الخصوصية في استعمال وانتقاء الألفاظ وارتباطها بالعمق الدلالي خاطئا؟

قلتُ: إن من جماليات بلاغة القصص القرآني أنه يرسم المشهد المقصود مع عمل تركيز **focus= zoom** على البعد الدلالي المقصود من وراء المشهد، مع انتقاء دلالي خاص جدا للألفاظ والتراكيب لتتسق مع غرض الكلام ودلالاته. وفي هذه الآيات نرى أنّض غرض المشهد في سورة البقرة كان إشعار بني إسرائيل بالنعمة الربانية بإنجائهم ولطفه بهم– سبحانه– في تيسير نجاتهم بجعل البحر طرقاً مفرقة للأسباط كي لا يتزاحموا ويؤذوا بعضهم البعض، فجاء اللفظ هناك { فرقنا بكم البحر}. أما المشهد في سورة الشعراء فكان غرضه إشعارهم بقدرة الله –تعالى– وذكر المعجزة وتفاصيلها فجاءت الآيات في اتساقها الدلالي البديع {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء: ٦١ – ٦٣] ويؤيد ذلك قوله تعالى في نهاية المشهد {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء: ٦٧] فلما كان الغرض ذكر المعجزة (الآية) والقدرة الإلهية ؛ جاءت التفاصيل وهي (عصا موسى، ضرب البحر، انفلاق البحر، كل فرق مثل الجبل) لتعمق البعد الدلالي للغرض المَسوق للمشهد.

ومما يؤيد وجهتنا اللغوية ما قَالَ الراغب الأصفهانيّ في (المفردات): الفَرْق يُقارِب الفَلْق، لَكِن الفَلْقُ يُقالُ باعْتِبارِ الانْشِقاق، والفَرْق يُقال باعْتِبار الانْفِصال.

وبهذا نفهم أن القصص القرآني لا يأتي مكرراً في كتاب الله –تعالى– وإنما هي مشاهد محددة الغرض، والدلالة، والسياق، والبناء اللغوي، والتركيبي بكل دقةٍ، وبلاغةٍ.

اللهم فقهنا في كتابك واملأ صدورنا بنوره.

؛ لكل قبيلةٍ وسبط منهم طريقٌ حتى لا يتزاحموا في طريق واحد يقتتلون عليه ... فذكرهم ربنا تبارك وتعالى بهذه النعمة والمعجزة العظيمة.

(عندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراءى الجمعان أي أنهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى «أنا لمدركون» – وهذا كلام منطقي– فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده. ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب إلى قدرة المُسبِّب فهي لا تخضع لأسباب الكون. ولذلك قال لهم موسى بملء فمه: {كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} .

قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67)} (الشعراء: 61 – 67)

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق. وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة. وانفرق البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل. ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو إسرائيل.

هذا هو معنى قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر} والفرق هو الفصل بين شيئين. وإذا كان البحر قد انشق فأين ذهب الطين المبتل في قاع البحر (؟!!)

(قلتُ– المحقق: هذا هو معنى المعجزة التي لا تأتي بالحل والجواب والنجاة والعجيب من جنس الأسباب؛ ولكنها تخرق قوانين الطبيعة في أصولها.. [١] لأن الحديث هنا ليس للطبيعة المخلوقة وقوانينها الربانية، ولكن

---

(١) وهنا لنا أن نتعرض لحقيقة علمية أشارت إليها المعجزة في الآية إشارة بعدت أو قربت .. فإن التعبير القرآني عن البحر بالفرق والفلق وأن ذلك تعرض لقوانين الحياة والفيزياء فهدمها تحقيقا للمعجزة في حق سيدنا موسى –عليه السلام – فجزيئات الماء ابتداءً – وكما يعلم علماء الفيزياء والكيمياء– تحتوي داخلها وفيما بينها على مجموعة من الروابط بين ذراته هي من أقوى الروابط في الكون؛ فجزئ الماء عبارة عن زرتين من الهيدروجين وجزئ واحد من الأكسجين ، وبحسب قوانين الفيزياء الكيميائية فإن هذا تركيب غازي لا يحتمل إلا أن يكون غازا .. ولكن مجموعة من الروابط (الهيدروجينية) وغيرها من الراوبط بين جزيئاته تجعل منه هذا السائل الذي تقوم عليه الحياة ، فهذا التماسك في الماء هو هبةٌ ربانية لإبقاء الحياة ، وحين يكون حديث القرآن عن (انفراق ، أو انفلاق البحر) فهو إشارة إلى أن الذي وهب هذه الخاصة للماء قادر على أن يسلبها إياه ، ثم إن الماء يتميز بظاهرة عامة في السوائل هى (الاستطراق) وهى أنه بفعل ظاهرة(التوتر السطحي) (= التماسك بين جزيئاته السطحية الذي يجعلها كسطح متصل واحد)؛ وبفعل هذه الظاهرة لاي يمكن للماء إلا أن ينتشر فتستوي أسطحه ، وكون الآية الأخرى تشير إلى الإعجاز في خرق هذه الظاهرة في قوله تعالى : {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)} (الشعراء: ٦٣).. فإنها إشارات الخالق تعالى لما خلق من قوانين الكون وأن قدرته بلا حدود في أن يخلق ما يشاء ويغير ما يشاء...

للرب الخالق سبحانه. إن اليهود الذين أفسدوا الدنيا كلها بقوانين الأسباب والمادية التي لا تعترف بوجود أي شيء سوى الطبيعة والأسباب هم عينهم الذين لا يقدرون أنْ ينكروا أن نجاتهم من فرعون في كل رواياتهم لما حدث لأسلافهم؛ كانت نجاتهم بفعلٍ خارقٍ لكل الأسباب وكل الطبائع، وكل التصورات).

التوقيع النفسي للبلاغة القرآنية.

(عندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون إلى البحر ليعبروه. أراد أن يضرب البحر ليعود إلى السيولة؛ فلا يلحق بهم آل فرعون، ولكن الله أوحى إليه: {واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ} (الدخان: 24) أي اترك البحر على ما هو عليه؛ حتى يتبعكم قوم فرعون؛ ظانين أنهم قادرون على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه. وحينما يكون أولهم قريبا من شاطئكم وآخرهم عند الشاطئ الآخر. أعيد الماء إلى استطراقه وحاله بحراً كبيرا مغرقاً، فيهلكوا جميعاً عن بكرة أبيهم.

فيكون الله –تعالى– قد نجَّى وأهلك بالسبب الواحد (البحر).

فالحق –سبحانه وتعالى– يريد أن يمُنَّ على بني إسرائيل بأنه أنجاهم من العذاب وأهلك عدوهم. فكان العطاء عطاءين: عطاء إيجاب بأن أنجاهم، وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم.

قالها –تعالى– ممتنا عليهم في جملةٍ موجزة بليغة: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)} (البقرة).

وما معنى {وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ}؟ معناه أنَّ القوم قد عاينوا المعجزة والمنة وعايشوها بشعورهم ووجداهم وقلوبهم وعقولهم أتمَّ معاينةٍ فكيف ينسون؟ ثم كيف هم يجحدون، ولا يشكرون؟!!

وقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تنظُرُونَ} في هذه الآية لم يتحدث الحق –جل جلاله– عن فرعون. وإنما تحدث عن إغراق آل فرعون. لماذا؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه. هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني إسرائيل.

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو إسرائيل آلَ فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدونهم. [١]

---

(١) قال الإمام الطبري– رحمه الله:

وقد زعم بعض أهل العربية (يقصد الفراء في معاني القرآن) أن معنى قوله: (وأنتم تنظرون)، كمعنى قول القائل: "ضربت وأهلك ينظرون، فما أتوك ولا أعانوك" بمعنى: وهم قريب بمرأى ومسمع، وكقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) [الفرقان: ٤٥]، وليس هناك رؤية، إنما هو علم.
قال أبو جعفر: والذي دعاه إلى هذا التأويل، أنه وجه قوله: (وأنتم تنظرون)، أي وأنتم تنظرون إلى غرق فرعون، فقال: قد كانوا في شغل من أن ينظروا –مما اكتنفهم من البحر– إلى فرعون وغرقه. وليس التأويل الذي تأوله تأويل الكلام، إنما التأويل: وأنتم تنظرون إلى فرق الله البحر لكم – على ما قد وصفنا آنفا– والتطام أمواج البحر بآل فرعون، في الموضع الذي صير لكم في البحر طريقا يبسا. وذلك كان، لا شك نظر عيان لا نظر

وأنت حين ترى مصرع عدوك. تشعر بزوال المرارة التي في قلبك.

{وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ} تحتمل معنى آخر. أي ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم. وفي نفس الوقت تطمئنون وأنتم تشاهدونهم؛ وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحدٌ حتى لا يدخل في قلوبكم الشك أنه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيشٍ ليتبعوكم.) [١]

(وتَنْظُرُونَ: قيل: معناه بأبصاركم لقُرْبِ بعضهم من بعضٍ، وقيل: بصائركم للاعتبار لأنهم كانوا في شُغُلٍ.

قال الطبريُّ: وفي أخبار القرآن على لسان النبيّ – ﷺ – بهذه المغيَّبات التي لم تكُنْ من علم العَرَب، ولا وقعتْ إلا في خفيّ علْمِ بني إسرائيل دليلٌ واضحٌ عند بني إسرائيل، وقائم عليهم بنبوءة نبيّنا محمّد ﷺ.) [٢]

ونتوقف هنا أمام (التوقيع النفسي) الرائع لبلاغة القرآن الحكيم وهو يستجيش في النفس تلك الصورة متكاملة التفاصيل؛ متلاحقة المشاهد التي تضع المتدبر أمام أحداثٍ حيةٍ نابضةٍ. هذا التوقيع النفسي يوضح مدى جحود بني إسرائيل لنعمة ربهم في إنجائهم وتخليصهم من عدوهم، وترسم الواقع النفسي، وكل الأحاسيس، والمشاعر التي كان يكابدها بنو إسرائيل لحظات نجاتهم، وكلُّ ذلك في آيةٍ واحدةٍ –فحسب– تمثل في صياغتها اللغوية/ الدلالية لقصةٍ طويلةٍ، ومشهدٍ متكاملٍ بكلماتٍ قلائلَ قمةَ المعجزة القرآنية بتفاصيلها الأثيرة.

الآيات (٥١–٥٧).

يقول –تعالى– :{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ

علم، كما ظنه قائل القول الذي حكينا قوله. انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٥٨). وهذا من النقاش العلمي الرزين أثبته لفائدته المنهجية.

١– من خواطر الشيخ الشعراوي (1/ 329) بتصرف وزيادة.

٢– تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 237)

الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) } (البقرة: 51 – 57)

(وقصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى– عليه السلام– عند ما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل، مفصلة في سورة طه السابقة النزول في مكة. وهنا فقط يذكرهم بها، وهي معروفة لديهم. يذكرهم بانحدار هم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم، الذي أنقذهم باسم الله، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب. ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة: «وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ». ومَن أظلمُ ممَّن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلاً جسداً، وقد أنقذه الله ممَّن كانوا يقدسون العجول؟!). [(١)]

فلقد كان الفراعنة يقدسون العجل (أبيدوس) ويعبدونه، وربما تأثر بهم بنو إسرائيل فقلدوهم.

لقد ذكَّرهم بكفر آبائهم مع هذه الآيات العِظام التي كان مقتضاها الإيمان لا الكفران، وأعْلمهم أن كفرهم بالنبي – ﷺ – مع وضوح أمره وما وقفوا عليه من خبره في كتبهم ككفر آبائهم مِن قبل مع ما مَنَّ الله عليهم من الإنجاء والنعم الكثيرة.

البـنـاء اللغوي / الدلالي للقصص القرآنـي وحـكـمته.

ورد ذكر عجل بني إسرائيل في القرآن أربع مرات ...

في البقرة مرتين هذه المرة، ثم تارةً أخرى في قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92)} (البقرة: 92).

وفي سورة الأعراف: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ...} الآيات (١٤٨، ١٤٩)

والمتبع هنا لسياق القَصص القرآني يلاحظ أن القصة القرآنية ربما تتكرر في سورٍ شتى ،ولكن المدقق يرى أنه في الحقيقة لا يوجد تكرار، أو هو تكرار بلاغي معنوي إعجازي في مناسبته في موضعه ووظيفته... فأنت ترى المشهد الواحد يختلف إجمالا وتفصيلا على وفق السياق والغاية الدلالية للآيات، ومقصود هذا المشهد في موقعه من البلاغة والهداية..

وهذا ما حدث هنا مع قصة (عجل بني إسرائيل) فأنت ترى التفاصيل واضحة تماما في سورة (طه)، وهي سورةٌ مكية النزول، وأقل تفصيلاً في الأعراف وهي مدنية النزول، حتى ترى الإشارة والإجمال في آية سورة

(١) في ظلال القرآن (١/ ٧١)

البقرة البقرة.. وذلك لأن الأخيرة في موضعها من سورة البقرة هي موضعُ إشارةٍ وتذكيرٍ لتتماشي مع سياق التذكير الطويل بتاريخ المنة من الله –تعالى– على بني إسرائيل، والكفران والجحود من اليهود ... ثم تجد الإشارة المفصلة قليلا في سورة (الأعراف) حيث كان الحديث عن التوحيد ودعوة الأنبياء فناسب السياق هنا موقف الاستدلال على قضية التوحيد وحسب.

أما في سورة (طه) فالسياق سياق خطاب تثبيتٍ وتسلية وعبرة لرسول الله – ﷺ – ، وتنبيهه على وعورة طريق الرسالة في الأنبياء قبله ؛ ثم إن النصر والفرج من عند الله –تعالى– مع الصبر والمصابرة من أولي العزم ؛ فكانت لذلك قصة موسى –عليه السلام– مع قومه وجحودهم ونكوصهم عن عهد الإيمان مرةً بعد مرةٍ متناغمة التفاصيل الواردة لهذه الأغراض...

ومن هنا نرى تلك الوحدة، والترابط، والتلاؤم التام بين القَصص القرآني، والسياق؛ سواء الخاص في السورة الواحدة، أو السياق العام في القرآن كله؛ وهذا كله تجده مع روح التجدد في الخطاب للناس أجمعين في كل عصرٍ ومكان من أجل هداية البشرية وسعادتها في بناء لغوي متوافق جدا مع البناء الدلالي السياقي للآيات وأغراضها.

فما هى قصة عجل بـنـي إسرائيل؟

وخلاصته، إن موسى(عليه السلام) بعد نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة أُمر بالذهاب إلى جبل الطور مدة ثلاثين ليلة لتسلم ألواح التوراة، ثم مُدّت هذه الليالي إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه. واستغل السامريّ الدّجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بني إسرائيل من ذهب الفراعنة ومجوهراتهم، وصنع منها عجلا له صوت خاص، ودعا بني إسرائيل لعبادته. فأتبعه أكثر بني إسرائيل، وبقي هارون ـ أخو موسى وخليفته ـ مع أقلية من القوم على دين التوحيد، وحاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الإنحراف فلم يفلحوا، وأوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضاً. [١]

١– وننقل عن ابن كثير في البداية يقول:

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل، حين ذهب موسى، عليه السلام، إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، ويسأله موسى، عليه السلام، عن أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: السامري.

فأخذ ما كان استعاروه من الحلي فصاغ منه عجلا، وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي، ويقال: إنه استحال عجلا جسدا. أي لحما ودما، حيا يخور. قاله قتادة وغيره. وقيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره، خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون.

{فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [طه: ٨٨]

أي: فنسي موسى ربه عندنا، وذهب يتطلبه، وهو هاهنا. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وعداته.

قال الله تعالى، مبينا لهم بطلان ما ذهبوا إليه، وما عولوا عليه، من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيوانا بهيما وشيطانا رجيما:

{أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} [طه: ٨٩] وَقَالَ: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} [الأعراف: ١٤٨]

فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم، ولا يرد جوابا ولا يملك ضرا ولا نفعا، ولا يهدي إلى رشد، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال، {ولما سقط في أيديهم} [الأعراف: ١٤٩] أي: ندموا على ما صنعوا، {وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ١٤٩].

ولما رجع موسى، عليه السلام، إليهم، ورأى ما هم عليه من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة، ألقاها، فيقال: إنه كسرها. وهكذا هو عند أهل الكتاب، وإن الله أبدله غيرها. وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب، أنهما كانا لوحين. وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى، عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وابن حبان، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». ثم أقبل عليهم فعنفهم، ووبخهم، وهجنهم في صنيعهم، هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح؛ قالوا: {إِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} [طه: ٨٧] تحرجوا من تملك حلي آل فرعون، وهم أهل حرب، وقد أمرهم الله بأخذه، وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم، وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد، الذي له خوار، مع الواحد الأحد، الفرد الصمد القهار. ثم أقبل على أخيه هارون، عليهما السلام، قائلا له: قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا – أَلَّا تَتَّبِعَنِ} [طه: ٩٢ – ٩٣] أَيْ: هَلَّا لَمَّا رَأَيْتَ مَا صَنَعُوا اتَّبَعْتَنِي فَأَعْلَمْتَنِي بِمَا فَعَلُوا، فَقَالَ: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [طه: ٩٤] أَيْ: تَرَكْتَهُمْ وَجِئْتَنِي، وَأَنْتَ قَدِ اسْتَخْلَفْتَنِي فِيهِمْ، {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف: ١٥١] وقد كان هارون، عليه السلام، نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي، وزجرهم عنه أتم الزجر، قال الله تعالى:

أي: إنما قدر الله أمر هذا العجل، وجعله يخور فتنة واختبارا لكم.

{وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ} [طه: ٩٠] أي: لا هذا العجل {فاتبعوني} [طه: ٩٠] أي: فيما أقول لكم،{وَأَطِيعُوا أَمْرِي – قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} [طه: ٩٠ – ٩١] يشهد الله لهارون، عليه السلام، وكفى بالله شهيدا، أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك، فلم يطيعوه ولم يتبعوه، ثم أقبل موسى، عليه السلام، على السامري {قال فما خَطْبُك يا سامريُّ} [طه: ٩٥] أي: ما حملك على ما صنعت. {قال بَصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به} [طه: ٩٦] أي: رأيت جبرائيل، وهو راكب فرسا {فقَبَضْتُ قبضةً من أثرِ الرسول} [طه: ٩٦] أي: من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكان كلما وطئت بحوافرها على موضع، اخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب، كان من أمره ما كان، ولهذا قال: {فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي – قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ} [طه: ٩٦ – ٩٧] وهذا دعاءٌ عليه بأنْ لا يمَسَّ أحداً؛ معاقبةً له على مسه ما لم يكن له مسه. هذا معاقبة له في الدنيا، ثم توعده في الأخرى فقال: {وإنَّ لكَ مَوْعِدا لن تُخْلَفَه} [طه: ٩٧] قرئ: (لن نُخْلِفَهُ).

{وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [طه: ٩٧] قال: فعمد موسى، عليه السلام، إلى هذا العجل فحرقه، قيل: بالنار. كما قاله قتادة، وغيره. وقيل: بالمبارد. كما قاله علي، وابن عباس، وغيرهما. وهو نص أهل الكتاب. ثم ذراه في البحر، وأمر بني إسرائيل فشربوا، فمن كان من عابديه، علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه، وقيل: بل اصفرت ألوانهم.

ثم قال تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لهم: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [طه: ٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف: ١٥٢] وهكذا وقع، وقد قال بعض السلف {وكذلك نجزي المفترين} [الأعراف: ١٥٢] مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة.

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه، بتوبته عليه فقال: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأعراف: ١٥٣] لَكِنْ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ تَوْبَةَ عَابِدِي الْعِجْلِ إِلَّا بِالْقَتْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٥٤] .

بعد أن عاد موسى من جبل الطور تألم كثيراً لما رآه من قومه، ووبّخهم بشدّة فثاب بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأدركوا خطأهم وطلبوا التوبة، فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير، سنذكرها فيما يأتي.

وَقَوله تَعَالَى {ثمَّ اتخذتم الْعجل من بعده} يَعْنِي: إِلَهًا، وَله قصَّة مَعْرُوفَة ستأتي فِي سُورَة طه الآيات (٨٣ – ٩٨). [١]

القرآن يفضح التركيب النفسي لبني إسرائيل.

إن القرآن كتاب حياةٍ وليس كتاب فلسفةٍ؛ إنه الحقيقة والواقع الذي يسمو على كلّ حقيقةٍ وواقعٍ، والذين يحيون مع القرآن وبالقرآن يعلمون جيدا كيف ان هذا الكتاب السامق يغوص في عمق النفس الإنسانية بجميع أبعادها غوص العالم بجميع أعماقها وثُغْراتها وأسرارها ليعالج منها ما يراه اعوجاجا عن الفطرة الصحيحة التي فطر اللهُ– سبحانه– عليها خلقَه.

وأنت إذا تأملتَ قصص بني إسرائيل في القرآن الكريم يتبيَّن لكَ مدى التشوه النفسي الذي حدث لليهود بعد أن نكصوا عهد أبيهم يعقوب عليه السلام بتوحيد الله تعالى، وركنوا إلى علماء السوء فأفسدوا عليهم دينهم، ثم ابتلاهم الله– تعالى– بفرعون يذلهم ويذبح أبناءهم، ويستحل منهم الكرامة والإنسانية؛ فلما مَنَّ الله عليهم بموسى– عليه السلام– ليخلصهم من ذل فرعون لهم، ويورثهم الأرض، ويحملهم كتاب الله–

يقال: إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليه ضبابا، حتى لا يعرف القريب قريبه، ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه، فقتلوهم، وحصدوهم. فيقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفا.... إلى آخر القصة في البداية.. راجع البداية والنهاية ط هجر (٢/ ١٤٥–١٥٠)

(١) ما رُوي عن ابن عباس– رضي الله عنه– قال:

" لما امتنع فرس فرعون أن يدخل به البحر، تمثل له جبريل عليه السلام على فرس أنثى فتقحم خلفها ودخل بفرعون، وكان السامري قد عرف جبريل لأن أمه خافت عليه الذبح، فخلَّفته في غار فانطبقت عليه الغار. فكان جبريل عليه السلام يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في إحدى أصابعه لبناً وفي الأخرى عسلاً وفي الأخرى سمناً. فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما رأى جبريل عليه السلام عرفه، فأخذ من أثر فرسه قبضة من تراب، ورفعها عنده، وكان موسى ﷺ إذ أمر بني إسرائيل أن يخرجوا من أرض. مصر، أمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط ويخرجوا به معهم. فلما تجاوز البحر وغرق آل فرعون استخلف موسى هارون على بني إسرائيل، ومضى لِوَعْدِ ربه عز وجل، فقال لهم هارون: اجمعوا الحلي وادفنوه حتى يأتي موسى، فإن أحلَّها لكم أخذتموها. فجمعوا الحلي في حفرة، وألقي [في روع] السامري / أنه لا يلقي تلك القبضة على شيء فيقول: كن كذا إلا كان، فقذفها في الحفرة وقال: كن عجْلاً جسداً له خوار، فصار الحلي كذلك، تدخل الريح من دبره وتخرج من فيه، يُسمع لها صوت، فقال لهم السامري: {هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ} [طه: ٨٨] ؛ أي نسي موسى ﷺ إلهه عندكم، ومضى يطلبه كأنه قد نسي. فعكفوا على العجل يعبدونه فنهاهم هارون ﷺ وقال: {إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن فاتبعوني} [طه: ٩٠] . فأبوا حتى يرجع موسى [ﷺ] ".

وقيل: إنه كان يمشي ويخور.

واسم السامري: موسى بن ظفر، واعتزل هارون بمن معه ممن لم يعبد العجل فلذلك قال له موسى: {فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إسرائيل} [طه: ٩٤].

انتهى. راجع الهداية الى بلوغ النهاية – مكي بن أبي طالب(١/ ٢٦٦)

التوراة– هدىً ونور؛ لما أنعم الله عليهم لم يستطيعوا أن يقاوموا ذلك التشوه النفسي الذي حدث على مدى عقودٍ طوالٍ استباح فيها فرعون– اللعين– منهم كل شيءٍ.

إن (الآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو، والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً. وليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوّماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يرفع عنها السوط، وتبطراً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين). [(١)]

إن الطريق الوحيد للخلاص من تلك الطبيعة القاسية في وجه الحق؛ الذليلة للمال والمادة والقهر؛ الطريق الوحيد هو التوحيد وطاعة الله تعالى والسير وفق منهجه في ضبط الحياة. ولقد طالبهم موسى – عليه السلام– بذلك فما استمعوا له.

في الحقيقة لا يوجد حرية ولا كرامة ولا عدالة خارج طاعة الله –تعالى– لأن المؤمن الملتزم يرى كلَّ شيءٍ صغيرا في جنب إيمانه بما هو فوق المادة، وفوق الخلق، وفوق السماوات والأرض، وفوق العرش.

حين يكون الجميع أمام الله سواء، لا يستعبد أحدٌ أحداً، ولا يخشى أحدٌ أحداً، ولا يدوس الناس بعضهم من أجل عرض فاني، فالجميع حينئذٍ يدركون أن هناك يوما للحساب، يجازي فيه اللهُ الناسَ بأعمالهم جلَّت أو دقَّت. حينئذٍ ينصلح المجتمع تلقائياً، لأن العقيدة الثابتة هي ما يحكمه وليس المبادئ والنظريات النسبية التي صُمّمت بمراعاة فئةٍ من الناس وحرمان أخرى.

كان هذا هو الخلاص أمام بني إسرائيل فحكموا فطرتهم التي تغيرت باستعباد فرعون لهم، وعقلهم الذي تلوث بفلسفة الفراعنة الضالين فضلوا وعبدوا العجل. وما العجل إلا رمزٌ لكل فكرةٍ خبيثةٍ تستحوذ على كيان المرء فيطيعها فتكون هي عجله.

قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (الأعراف: ١٣٨ – ١٤٠)

(١) في ظلال القرآن (١/ ٧٢)

فضَّلهم على العالمين بحمل راية توحيده وكتابه، ولكنهم أرادوا أن يعبدوا أنفسهم أولاً فيكون دين كل شخصٍ ما يهواه وما يشتهيه، ثم يعبدون بعضهم البعض والأقوى أو الأغنى أو الأذكى يصير هو (العجل) الذي يعبدونه.

وهكذا كلُّ أمةٍ خرجت عن طاعة الله في أمره، وعبادة الله بشرعه، وبحثت عن الكرامة والأمان، والعدل، والرقي في غير دينه، فإن هذه الأمة تعبد أقذر العجول ثم تعيش في الذل أبد الآبدين.

بين انتظار وعد الله، وعبادة العجل.

يقول –تعالى– :{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَ لِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٥٤)}.

في هذه الآيات الأربع، تأكيدٌ على مقطع آخر من تاريخ بني إسرائيل، وعلى أكبرِ انحرافٍ أُصيبوا به في تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبدأ التوحيد، والاتجاه إلى عبادة العجل. وهذا التأكيد تذكيرٌ لهم بما لحقهم من زيغٍ نتيجة إغواء الغاوين، وتحذيرٌ لهم من تكرار هذه التجربة في مواجهة الدين الخاتم. كأنها تقول لهم لقد سقطتم في هاويةٍ عميقةٍ عندما أطعتم شياطينكم واتجهتم بالعبادة إلى عجلٍ صنعتموه بأيديكم، ولم يكن ذلك العجل سوى تجسيد لهواكم، وها هو هواكم نفسه يصدكم عن الإيمان برسول الله محمد ﷺ فهلا تتعظون؟ وتعتبروا بما مر بكم؟!

قال ابن جرير: اختلفت القُراء في قراءة ذلك، فقرأ بعضهم: (واعدنا) بزيادة الألف؛ بمعنى أن الله تعالى واعد موسى موافاة الطور لمناجاته، فكانت المواعدة من الله لموسى، ومن موسى لربه. وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة (واعدنا) على "وعدنا" أن قالوا: كل اتعاد كان بين اثنين للالتقاء والاجتماع، فكل واحد منهما مواعد صاحبه ذلك.

وقرأ بعضهم: "وعدنا" بمعنى أن الله الواعد والمنفرد بالوعد دونه. وكان من حجتهم في اختيارهم ذلك أن قالوا: إنما تكون المواعدة بين البشر، فأما الله جل ثناؤه، فإنه المنفرد بالوعد والوعيد في كل خير وغيره. قالوا: وبذلك جاء التنزيل في القرآن كله، فقال جل ثناؤه: (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) (إبراهيم: ٢٢) وقال: (وَإِذْ

يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) (الأنفال: ٧) . قالوا: فكذلك الواجب أن يكون هو المنفرد بالوعد في قوله: "وإذ وعدنا موسى". [١]

وللمرة الأولى في سورة البقرة يُذكر اسم {مُوسَى} عليه السلام.

وموسى –فيما بلغنا– بالقبطية كلمتان، يعني بهما: ماء وشجر. ف" مو"، هو الماء، و "شا" هو الشجر. وإنما سُمِّي بذلك –فيما بلغنا– لأن أمه لما جعلته في التابوت –حين خافت عليه من فرعون وألقته في اليم، كما أوحى الله إليها، وقيل: إن اليم الذي ألقته فيه هو النيل – دفعته أمواج اليم حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت فأخذنه، فسمي باسم المكان الذي أصيب فيه، كان ذلك بمكان فيه ماء وشجر، فقيل: موسى، ماء وشجر.

حكاه السُّدِيُّ.

وعن أبي العالية قوله: (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) ، قال: يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة. وذلك حين خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح –وكانت الألواح من زبرجد – فقربه الرب إليه نجيا، وكلمه، وسمع صريف القلم.

وصريف الأقلام: صوتها وصريرها وهي تجري بما تكتبه الملائكة.

وعن ابن إسحاق قال: وعد الله موسى–حين أهلك فرعون وقومه، ونجاه وقومه ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، يلقاه ربه فيها ما شاء. واستخلف موسى هارون على بني إسرائيل، وقال: إني متعجل إلى ربي فاخلفني في قومي ولا تتبع سبيل المفسدين. فخرج موسى إلى ربه متعجلا للُقِيِّه شوقا إليه، وأقام هارون في بني إسرائيل ومعه السامري يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به. [٢]

وربما كانت هذه روايات عن أهل الكتاب من الإسرائيليات لا نصدقها ولا نكذبها، ولا دليلَ عليه إلا إن صح فيها أثرٌ. وما يعنينا أنها كانت أربعين ليلة؛ ثلاثين ثم زادت عشراً كما في قوله: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} (الأعراف 142).

---

(١) أقول: إذا ثبتت القراءة فلا مجال لتفضيل قراءةٍ على أخرى ؛ بل كلٌ من عند الله نؤمن به وببلاغته في موضعه. ورجح هذه القاعدة الجليلة في التعامل مع القراءات المتواترة العلامة ابن جرير نفسه فقال:

والصواب عندنا في ذلك من القول: أنهما قراءتان قد جاءت بهما الرواية المتواترة وقرأت بهما القراء، وليس في القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى، وإن كان في إحداهما زيادة معنى على الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة. فأما من جهة المفهوم بهما فهما متفقتان. راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٥٩)

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٦٠)

(وتأويل قوله: {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ} ، ثم اتخذتم في أيام مواعدة موسى العجل إلها، من بعد أن فارقكم موسى متوجها إلى الموعد. و"الهاء" في قوله "من بعده" عائدة على موسى عليه السلام.

فأخبر جل ثناؤه المخالفين نبينا ﷺ من يهود بني إسرائيل، المكذبين به المخاطبين بهذه الآية –عن فعل آبائهم وأسلافهم، وتكذيبهم رسلهم، وخلافهم أنبياءهم، مع تتابع نعمه عليهم، وشيوع آلائه لديهم، مُعَرِّفَهم بذلك أنهم –من خلاف محمد ﷺ وتكذيبهم به، وجحودهم لرسالته، مع علمهم بصدقه – على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم، ومحذِّرَهم من نزول سطوته بهم =بمقامهم على ذلك من تكذيبهم= ما نزل بأوائلهم المكذبين بالرسل: من المسخ واللعن وأنواع النقمات.) [١]

قال الراغب: وقوله تعالى: {وأنتم ظالمون} عنى به الظلم المطلق وهو الكفر، وقد تقدم الكلام في أنواع الظلم وأنها: ثلاث: (ظلم الكفر ، وظلم الفسوق، وظلم المعاصي) أعظمها ظلم الكفر.

قال: وفي الآية حث على معرفة ما وعدنا الله تعالى به ومراعاته والمنع من الاشتغال عنه تعالى بشيء بغيره، وعلى هذا الوجه قال بعض الناس: كل ما شغلك عن الله فهو (عِجْلٌ) مُتَّخَذ و(طاغوتٌ) مُتَّبَع وشيطانٌ مُطاع، ومبدأ كل ذلك إتباع الهوى.

ولذلك قال: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وهذا وإن لم يكن كفراً فهو شرك، وبهذا المعنى قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}. [٢]

قال سبحانه: **{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)}** (البقرة: 52)..

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ} أي حين تبتم، والعفو محو الجريمة، من (عفا) إذا دَرَس (قلتُ: والعفو أصل معناه الترك، فكأن العافي يترك ذكر خطأ المعفو عنه، أو يترك معاقبته عليها كما قال ابن جرير في الآية {ثم عفونا عنكم}: أي تركنا معاجلتكم بالعقوبة).

{مِنْ بَعْدِ ذلِكَ} أي من بعد اتخاذكم العجل إلهاً (قال أبو السعود: الذي هو متناهٍ في القُبح للإيذان بكمال وعظمة العفو بعد تلك المرتبة من الظلم)، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي لكي تشكروا نعمةَ العفو وتستمرّوا بعد ذلك على الطاعة.

قال ابن جرير: و"لعل" في هذا الموضع بمعنى "كي". وقد بيَّنتُ فيما مضى قبلُ أن أحد معاني "لعل" هو "كي".

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٦٣)

٢- تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 189)

وأصل الشكر في اللغة الظهور (يقال شكرت الناقة إذا ظهر أثر العلف عليها، فكان ظهور أثر نعمة الله على عبده من طاعته هو عين الشكر).

قال الجوهري: الشكر الثناء على المحسِن بما أولاك من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام أفصح، والشكران خلاف الكفران. [١]

****

قال الله– تعالى–: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)}

هو في معرض ذكر نعمةٍ جديدةٍ كبيرةٍ على القوم. {وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ} يعني الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل. يعني التوراة. كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة.

ونحوه قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ} (الأنبياء: 48) يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقانا، وضياءً، وذكرا.

ولكن تأبى طباعهم النكدة أن تعلو إلى مشارف هذا النور، بل هى رابضة على التراب، ترعى مع البهائم، وتهيم فى أودية الضلال.. فيتخذون من العجل إلها معبودا من دون الله!

وقال بعض المفسرون: معناه آتينا موسى التوراة، والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات. أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان انفراق البحر. وقيل: النصر الذي فرَّق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: {يَوْمَ الْفُرْقانِ} (الأنفال: 41) يريد به يوم بدر.

قلتُ: وكلُّ ذلك تحتمله الآية، والأول أقرب. وهو ما رجَّحه ابن جرير الطبري. والله أعلم.

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} أي لكي تهتدوا بالعمل فيه من الضلال. [٢]

١– راجع تفسير القاضي البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 80)، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 101)، فتح البيان في مقاصد القرآن لصدي خان(1/ 169)، تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٦٩)

٢– انظر تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 306)

ذنبٌ عظيم وتوبة فريدة.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)}

في هذه الآيات ضَرْبٌ من ضروب التذكير غيرُ ما سبقه، ومن البلاغة والحكمة أن يجيء تاليا له ومتأخرا عنه: فقد مهَّد أولا للتذكير تمهيدا يسترعي السمع، ويوجه الفكر ويستميل القلب، وهو الابتداء بذكر النعمة مجملة والتفضيل على العالمين، ولا يرتاح الإنسان لحديثٍ كحديث مناقب قومه ومفاخرهم.

ولا عجب أن نفوس الإسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الأريحية عند ما تلا عليهم النبي – ﷺ – هذه الآية لما فيها من الشهادة بعناية الله – تعالى – بهم، ولا سيما إذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركي العرب بتلك القوارع الشديدة.

ثم ثنَّى بذكر نعمةٍ خاصة خالصة تسكن النفس إلى ذكرها، إذ لا يشوبها تنغيصٌ من تذكر خطيئةٍ تتصل بواقعتها، وهي فرق البحر بهم وإنجاؤهم، وإغراق عدوهم. وذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم – وهو قتل الأبناء – ليخفِّض من عُتُوِّ تلك النفوس المُعجَبة المتكبِّرة التي تعتقد أنَّ الله لا يسوِّد عليهم شعبا آخر، وهو مع هذا لا ينفِّر بها عن الإصغاء والتدبر بذكر جريمةٍ أو خطيئةٍ.

ثم لم يترك نفوسهم بعد هذه الإطراءات والامتنان تجمح في عجبها وفخرها، وتتمادى في إبائها وزَهوها، بل عقَّب عليها فذكر مقابلتهم هذه النعمة بخطيئةٍ لهم، هي كبرى الخطيئات التي ظلموا بها أنفسهم وكفروا نعمة ربهم، وهي اتخاذ العجل إلها، وقدَّم على ذكرها خبرَ مواعدة موسى وهي من النعم، وختمها بذكر العفو، ثم قفَّى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان، وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقة يتنازعها شعور اعتراف التذكير الواعظ لها بالشرف، وشعور رميه إياها بالظلم والسرف.

بعد هذا كله استعدت تلك النفوس؛ لأن تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تمهيد ولا توطئة، فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مَبْدوءاً بقوله – تعالى –: {وإذ قال موسى لقومه} أي واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بني إسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حليهم عجلا عبدوه بعدما ذهب يناجي ربه ويأتيهم بالتوراة: {يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل} إلهاً عبدتموه.

قال ابن جرير: وظلمهم إياها، كان فعلَهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه بها، مما أوجب لهم العقوبة من الله تعالى. وكذلك كل فاعل فعلا يستوجب به العقوبة من الله تعالى فهو ظالم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من الله تعالى. انتهى.

والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه المكيتين؛ لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات، وأما ما هنا فهو تذكير لبني إسرائيل بما تقدم وجهه في سياق دعوتهم إلى الإسلام.

{فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم} أي فتوبوا إلى خالقكم الذي لا يجوز أن تعبدوا معه إلها آخر ؛ وخاصةً إذا حيوانا أدنى منكم، بل هو من صنعكم، توبوا إلى الله من خطيئتكم هذه وذلك بأن يقتل بعضكم بعضا، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليبخع كل من عبد العجل نفسه انتحارا.

قال صاحب الظلال: {فاقتلوا أنفسكم} أى ليقتل الطائع منكم العاصي. ليطهره ويطهر نفسه.. هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة.. وإنه لتكليف مرهق شاق، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه. ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة، التي لا تتماسك عن شر، ولا تتناهى عن نكر. ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل. وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم! [(١)] (ويتلقّى هؤلاء المناكيد العقاب الطبيعي من الله، فيأمرهم أن يقتلوا أنفسهم، فتلك نفوس لا حرمة لها، بعد أن نزلت إلى هذا المستوي الحيواني، بل ونزلت عن هذا المستوي، فوضعت جباهها تحت أقدام الحيوان، تعفّر جبينها بالتراب عابدة ساجدة له.

ويتسلط القوم بعضهم على بعض، ويضرب بعضهم رءوس بعض، كما تتناطح الوعول، أو كما تتناهش العقارب والحيات!) [(٢)]

لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة، لأن بني إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيّهم موسى(عليه السلام)، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النّبي إنحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإِلهي.

كان لابدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كي لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٧١)

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١/ ٨٤)

ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الأنبياء، وتقضي هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به ـ هو نفسه ـ من عذاب القتل.

وجاء في الأخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم في البعض الآخر.

ولعلك تسأل عن السبب في قساوة هذه التوبة ولماذا لم يقبل الله تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب في شدّة هذا الحكم ـ كما ذكرنا ـ يعود إلى عظمة الذنب الذي إرتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومستقبلها لإن أُصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن اختزالها في التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعني إنهيار جميع اللبنات الفوقية والمباني الحضارية للدين، فلو تساهل موسى(عليه السلام) مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سُنّة في الأجيال القادمة، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوماً متعنتين لجوجين.

ولابدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك.

ولعل في عبارة قوله تعالى: (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) إشارة إلى هذا المعنى.

تكلم الأستاذ محمد عبده عن حقيقة التوبة فقال:

إنها محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة مَن عصاه، وما له من السلطان عليه في الحال، وكون مصيره إليه في المآل، لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الإلهي بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية، ويحدث في روحه انفعالا مما فعل، وندما على صدوره عنه، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب، وما رتبه الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة. هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه وتمحو أثره السيئ {إن الحسنات يذهبن السيئات} ..

فمن علامة التوبة النصوح الإتيان بأعمال تشق على النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يحدثه الذنب، وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة، سواء كان الذنب مع الله – تعالى – أو مع الناس، ألا ترى أن

أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهي به أن يجيء معترفا بالذنب معتذرا عنه؟ وهذا ذل يشق على النفس لا محالة، وقد أمر بنو إسرائيل بأشق الأعمال في تحقيق التوبة من أكبر الذنوب، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم وقد قال: (فتوبوا إلى بارئكم) لينبههم إلى أن الإله الحقيقي هو الخالق البارئ ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم، ذلك العمل الذي أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم..

قال – تعالى –: {ذلكم خير لكم عند بارئكم} لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا لما وعدكم به في الدنيا ولمثوبته في الآخرة،

وقوله: {فتاب عليكم} من كلام الله – تعالى – لا تتمة لكلام موسى – عليه السلام – في الظاهر، وهو معطوف على محذوف، تقديره ففعلتم ما أمركم موسى به، فتاب عليكم {إنه هو التواب الرحيم} أي أنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولاسيما الشرك به. [١]

عناد المادية وغباؤها.

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)} .

طغى في هذا العصر مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة، ولا شيء وراءها، وكل شيء في الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة، والمادة لا تتجدد ولا تفنى، وقوانينها

قديمة أزلية أبدية، وليس في هذا العالم شيء يعتريه الفناء، وإنما تتغير الأشكال، وبناءاً على ذلك: فلا نفس ولا روح ولا دين ولا إله! ولا مجال هنا للتوسع في توضيح ونقد هذا المذهب الضال.

وحاملو لواء هذا المذهب قديما وحديثا هم اليهود ولا أدل على هذا النمط العقيم من الفكر إلا هذه الآيات التي تبين كيف صار الجحود بأولئك المارقين إلى أنْ طلبوا رؤية الله جهرةً.

إنها النزعة المادية Materialism في اليهود الذين لا يرون الروح في الوجود ولكنهم يؤمنون بالمادة والدنيوية والعالمانية secularism فيقتلون الروح وكل ما يتصل بحياتها كالدين فكراً وعملا ، على

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا (١/ ٢٦٤-٢٦٧) باختصار.

عكس النصارى الذين غلبت عليهم الروحانية الكاذبة المبالغ فيها فانتهوا إلى فصل الحياة عن الدين...

والحقيقة أن توازن الإسلام بين الروح والمادة في وسطيةٍ متزنةٍ هو ما يجعله دواءً شافيا لأدواء كل الملل التي انحرفت سواه..

والقرآن هنا يقرر أمراض اليهود في كل عصر. فإنهم ماديون، ويجادلون بالباطل دائما ، ويحِنّون إلى الشرك والكفر ومعصية الله تعالى في كل حين....

(ولا تنفع في القوم هذه المثلات، ولا تقوم لهم منها شواهد العبر والعظات، وإذا الذين رحمهم الله منهم من هذه المحنة ونجاه من القتل لا يزالون في ريبةٍ من ربّهم، وفى شك من معبودهم، فيجيئون إلى موسى بهذا الطلب العجيب: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً». [١]

وهم بهذا يكشفون عن بلادة حسّهم، وطفولة مداركهم، بحيث لا يتعاملون مع الحياة إلا بما يلامس حواسّهم، ويجبه أبصارهم، أمّا ما يستشفه الوجدان، ويمثله الحدس والخيال فليس لهم حظٌ منه، ولا تجاوب معه..

---

(١) روى الطبري من كلام محمد بن اسحق: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون، إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى {واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٥٥] وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهّر ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال: افعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً} .

ثم روى الإمام ابن جرير عن بعض السلف مثل ذلك ثم قال معلقا:

فهذا ما روي في السبب الذي من أجله قالوا لموسى: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله في سبب قيلهم ذلك لموسى، تقوم به حجة فيُسَلَّم له. انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٨٩)

قال الشيخ أحمد شاكر معلقاً على مثل هذا الكلام عند الطبري ومبينا لمنهجيته في تفسيره:

فاستدلال الطبري بما ينكره المنكرون، لم يكن إلا استظهارًا للمعاني التي تدل عليها ألفاظ هذا الكتاب الكريم، كما يستظهر بالشعر على معانيها. فهو إذن استدلال يكاد يكون لغويًّا. ولما لم يكن مستنكرًا أن يستدل بالشعر الذي كذب قائله، ما صحت لغته؛ فليس بمستنكر أن تساق الآثار التي لا يرتضيها أهل الحديث، والتي لا تقوم بها الحجة في الدين، للدلالة على المعنى المفهوم من صريح لفظ القرآن، وكيف فهمه الأوائل – سواء كانوا من الصحابة أو من دونهم.

وهذا مذهب لا بأس به في الاستدلال. ومثله أيضًا ما يسوقه من الأخبار والآثار التي لا يشك في ضعفها، أو في كونها من الإسرائيليات، فهو لم يسقها لتكون مهيمنة على تفسير آي التنزيل الكريم، بل يسوق الأثر الطويل، لبيان معنى لفظ، أو سياق حادثة، وإن كان الأثر نفسه مما لا تقوم به الحجة في الدين، ولا في التفسير التام لآي كتاب الله.

ومن أجل هذا الاستدلال، لم يبال بما في الإسناد من وهنٍ لا يرتضيه.

راجع حاشية الشيخ شاكر على تفسير الطبري = جامع البيان – مؤسسة الرسالة (١/ ٤٥٣).

إنهم لم يستطيعوا أن يروا الله في آياته التي تبدو في ظاهر الموجودات وباطنها، أو أن يشهدوه فيما يجريه الله تعالى على يد موسى عليه السلام، من معجزاتٍ ناطقةٍ بقدرة الله، وبسلطانه المتمكن في كل ذرةٍ من ذرات الوجود، حتى لقد آمن سحرة فرعون بين يدي موسى من غير دعوة إلى الإيمان، وهم منه في وجه خصومةٍ باديةٍ، وعداوة متحدية، بل لقد اضطر فرعون إزاء سطوة المعجزة أن يقول: «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل».

ولكنَّ القومَ رجالٌ في مساليخ أطفال، لا يكادون يخْطون على طريق الهدى خطوةً أو بضعَ خطواتٍ حتى يتعثروا ويسقطوا في التراب والوحل!

وكان من إعناتهم لنبيهم موسى، وإلحاحهم عليه، أنْ طلب موسى من ربّه أن يراه حتى يراه معه هؤلاء الأغبياء، كما جاء في قوله تعالى على لسان موسى:

«وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قالَ لَنْ تَرانِي، وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً» (١٤٣: الأعراف)

كذلك صعق القوم الّذين كانوا معه، وكانت عدتهم سبعين، وقع عليهم الاختيار، ليكونوا شهودا!

وفي هذا يقول الله تعالى: «وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ» (١٥٥: الأعراف).

يقول عبد الكريم الخطيب في تفسيره: وقد كاد يكون إجماع المفسرين على أن البعث في قوله تعالى: «ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» – هو إحياؤهم بعد أن أخذتهم الصاعقة، وأن كلمتي البعث والموت هنا مجازيتان في مقابل اليقظة والنوم، كما في قوله تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى» (٤٢: الزمر).

والأولى– عندي– أن يُحمَل المعنى على ظاهر اللفظ، فيكون الموت موتا حقيقيا، والبعث بعثا حقيقيا أيضا، أي بعث الآخرة!

(قلتُ– متأمله: أو يكون بعثاً حقيقيا في الدنيا بعد موتهم، وتكون آيةً أخرى كما حدث في قصة بقرة بني اسرائيل التي ضربوا ميتا ببعضها فقام يخبرهم بمَن قتلوه، ويؤيده قوله بعده مؤكدا على حقيقة البعث الذي هو في مقابل الموت {مِن بَعْدِ موتِكم}. وهنا قاعدةٌ شريفةٌ أن تأكيد اللفظ بما هو مُستغنٍ عنه في أصل البيان إنما يُحْتَرَز به عن إحالة الفهم للمجاز، فكأنه يؤيد الفهم على حقيقة المعنى، ومثاله قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا} (النساء: ١٦٤) فالتأكيد بالمصدر (تكليما) يدل على أن المراد هو حقيقة التكليم وليس ما أنفقه بعضهم من الحبر في صرف معناه على معانٍ مجازية سخيفة).

قال- رحمه الله-: ويشهد لهذا الوجه، العطف ب"ثم"، في هذه الآية «ثم بعثناكم من بعد موتكم»، كما يقوّيه أيضا ما جاء لسان موسى في قوله تعالى مخاطبا ربّه: «لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ» ! فلو أنهم عادوا إلى الحياة مرة أخرى، لما كان لموسى أن يسأل ربه ما سأل...

ثم إن مجيء الآيات بعد هذا خطابا عاما لبنى إسرائيل، مُعَدِّدةً النعم التي أنعم الله بها عليهم، مُذَكِّرةً بالبعث بين عرض هذا النعم- فيه إيقاظ للشعور بيوم الجزاء، والعمل له، وتغليظ للمنكرات التي يقترفها القوم، في مواجهة هذه النعم الجليلة المتتابعة عليهم. [١]

{وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً} أي واذكروا إذ قلتم لنبيكم: يا موسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان وإتباع، حتى نرى الله عيانا جهرة، فيأمرنا بالإيمان لك، والحقيقة أنَّ أولئك الأغبياء قد وقعوا في تناقضٍ فجٍّ حين ربطوا بين الإيمان وبين رؤية الله جهرةً، والإيمان أصلا لا يكون إلا بغيبٍ، فلا يُقال (آمنت أنَّ محمود أتى حين أراه). إذ أنَّ الإيمان هو معنى أعمق من معاني التصديق، والتصديق يكون للخبر لا للمعاينة. وربط الإيمان بالله برؤية الله جهاراً هو إبطال لحقيقة الإيمان ابتداءً كما قال الله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} (الشعراء: ٤) وحينئذٍ لا تتم الحكمة من منح البشرية الاختيار بين الإيمان والكفر.

{فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون} أي فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون بأعينكم.

قال الأستاذ محمد عبده- رحمه الله-: سؤال بني إسرائيل رؤية الله – تعالى – واقعة مستقلة لا تتصل بمسألة عبادة العجل، وهي معروفة عند بني إسرائيل ومنصوصة في كتابهم... وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرون ينظرون، وهكذا بنو إسرائيل يتمردون ويعاندون موسى – عليه السلام –، وكان سوط عذاب الله يُصَبُّ عليهم صبَّاً، فرُمُوا بالأمراض والأوبئة، وسُلِّطَت عليهم الهوامُّ وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيرا، ولكنهم ما اتعظوا قط فجحودهم ومعاندتهم للنبي – عليه السلام – لم تكن بِدْعاً من أعمالهم. [٢]

فالآية سيقت؛ لبيان تعنتهم في طلب الآيات، وتأثرهم بما فاله سيدهم فرعون مصر لهامان:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (١/ ٨٥)

٢- تفسير المنار لرشيد رضا (1/ 264-267) بتصرفٍ.

{... يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}. إن القوم لم يتخلصوا بعد من عقدة الاستعباد لفرعون وملئه، بل إنهم صاروا يقلدونهم (سيكولوجية الإنسان المقهور).

قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

{مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ} بالصاعقة، وكان ذلك بدعاءَ موسى عليه السلام، ومناشدته ربه بعد أن أفاق.

والموت هنا، ظاهرٌ في مفارقة الروح الجسد بقرينة ذكر البعث معه. فهو على حقيقته بالقرينة الظاهرة.

وقال بعض العلماءَ: كان موتهم غشيانا وهمودا، لا موتا حقيقيا. كما فى قوله تعالى: {... وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ...}، والمراد من البعث على هذا، إعادة النشاط والصحو لهم.

وقال آخر: موتهم؛ هو جهلهم الذي كانوا فيه. وبعثهم: تعلمهم أحكام التوراة؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلنا له نورا...} (الأنعام/ ١٢٢).

قلتُ: هذا كله على سبيل التمثيل بقرينةٍ واضحةٍ (السياق) أما الآية التي نحن بصددها فلا سبيل لحملها على المجاز لأنه لا قرينةَ تصرفها لذلك، بل ظاهرُ السياق يحملها على المعنى الحقيقي. وهنا قاعدة في تفسير كتاب الله – تعالى– وهي أنَّ الكلام محمولٌ على حقيقته حتى تأتي قرينة واضحة تصرفه إلى معنى المجاز، وأن التوسع في المجاز يعطل كلام الله – تعالى– عن معانيه.

ثم قال تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي لكي تشكروا نعمته تعالى ببعثكم بعد الموت، أو جميع نعمه بعد ما كفرتموها. والمراد من شكرهم له –تعالى– ما يعم قيامهم بكل ما كُلِّفُوا به، وتركهم لما نُهُوا عنه حتى تغفر لهم جرائمهم. فلفظ الشكر: يتناول جميع الطاعات، لقوله تعالى: { ... اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكرًا ... } (سبأ/١٣).

يقول الشيخ القاسمي– رحمه الله: وكما أخبر تعالى بأنه لا يُرَى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك، وهي قطعية الدلالة. لا ينبغي لمنصفٍ أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها. [1]

١–قال القاسمي: دلَّت الآية على أن طلب رؤيته –تعالى– في الدنيا مُسْتَنْكر غير جائز، ولذا لم يذكر –سبحانه وتعالى– سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك في آيات. منها هذه. ومنها قوله تعالى: { يسألك أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ }(النساء: ١٥٣) ، ومنها قوله تعالى: { وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى

نعمةٌ بعد نعمةٍ والقومُ لا يشكرون.

بعد هذا يذكر الله – تعالى – مزيداً من نعمه التي من بها على بني إسرائيل، فكفروا بها، وهذه نعمة أخرى في قوله – تعالى –: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ} وهذه نعمة متصلة بما قبلها في سياق التذكير، منفصلةٌ عنها في الوقوع، والمعنى: ثم سترناكم بالسحاب الأبيض الرقيق وجعلناه عليكم كالظُلَّة من حَرّ الشمس، أثناء وجودكم في وادي التّيه بين الشام ومصر مدة أربعين سنة، حيارى تائهين، بعد أن خرج آباؤكم من مصر، وجاوزوا البحر. والغَمام من الغَمّ في اللغة، وأصله: التغطية والستر، وفي الحديث (فإذا غُمَّ عليكم الهلال): إذا غطّاه الغيمُ فلم يُرَ.

وأما النعمة التالية ففي قوله – تعالى –: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} وما مُنح من الله – تعالى – يُسمَّى إيجادُه إنزالا، ومنه قوله تعالى: {وأنزلنا الحديد} (الحديد 25)، وهو من أدلة العلو لله تعالى على خلقه مكانا ومكانةً– كما هو اعتقاد أهل السنة– على أنَّ المَنَّ ربما كان ينزل كالنَّدَى، وهو مادةٌ لزجة حلوة تشبه العسل، تقع ثم تَجْمُد وتجف فيجمعها الناس. وأما السلوى فقد فسرها بعض العلماء بالسماني، وهو الطائر المعروف، فمعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا.

قال المفسرون: وكان المنّ ينزل عليهم نزول الضباب من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وتأتيهم السّماني، فيأخذ كل واحد ما يكفيه إلى الغد.

وللعلماء اختلاف في تعيين (المن والسلوى) لا يعنينا إلا أنه نوعٌ راقٍ من أنواع الطعام امتنَّ الله– تعالى– بإنزاله عليهم، قال الزجاج: جملة المَنّ مَنٌّ يَمُنُّ الله به عليهم مِن غير تعب. وهكذا ينبغي أنْ يكون التعامل مع كثيرٍ من (مُبهمات القرآن)؛ فلو كان في بيان حقيقة معناها فائدةٌ لبيَّنها الله سبحانه وتعالى أحسن تبيين. (١)

وظاهر أن قوله – تعالى –: {كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم} مقدر فيه القول؛ أى قلنا لهم. وهذا مِن إيجاز القرآن البلاغي الذي يذيب الحواجز بين المتلقي والمشهد المرسوم في آيات القرآن، فكأن المتلقي بينهم يسمع ما قيل لهم، ويرى ما حدث، وهو من جميل تصرف القرآن في قَصَصِه تجده كثيرا في سورة (يوسف)

رَبَّنا، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً }(الفرقان: ٢١)؛ فدلَّت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناع رؤية الله– سبحانه– في الدنيا. انظر تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 308)

(١) راجع للأقوال فيهما تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٩١–٩٧)

وغيرها من القصص. يصفه الإمام الطبري في تفسيره بقوله: (وهذا مما اسْتُغْنِي بدَلالةِ ظاهره على ما تُرِك منه).

وفي معنى {طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم} قولان: أنه من هنيء العيش الذي أعطاهم، فوصف ذلك ب"الطيب"، الذي هو بمعنى اللذة، وقيل: من وصفه بأنه حلال مباح. ورجّح الطبري القولَ الأول، لأنه في معرِض الامتنان بطيبه ولذته، ولأنه ساقه الله –تعالى– إليهم بغير جهد منهم فيكون منه الحلال والحرام؛ بل كله لهم حلالٌ ومنةٌ.

وفي (سفر الخروج– من أسفار العهد القديم) أن بني إسرائيل أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل، وكان لهم بدلا من الخبز، وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السلوى، فقد كان معهم المواشي، ولكنهم كانوا محرومين من النبات والبقول لأنهم لم يكونوا أهل زراعةٍ– كما يعلمنا القرآن– في الآيات مما يأتي.

وخلاصة المعنى في الآية أنَّ الله–تعالى– حتى لما كتب عليهم التيه، حاوطهم بعنايته فهوَّن عليهم أمر الحَرِّ والمأكل والمشرب على أحسن وجوه الرعاية، وكان المفتَرَض أنْ يشكروا عناية الله فيهم، ولكنهم كفروا نعمة الله كما تبيّن الآيات بعد ذلك.

وأما قوله – تعالى –: {وَمَا ظَلَمُونَا، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

فهذا أيضا من الذي استغني بدلالة ظاهره على ما ترك منه. وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم. فخالفوا ما أمرناهم به وعصوا ربهم، ثم رسولنا إليهم، و"ما ظلمونا" أي: وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها. [١] وذلك باستيجابهم عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة في الدنيا، ولا حسابٍ في العُقْبَى. [٢]

يقول الشيخ رشيد رضا: وفيه تقريرٌ لقاعدةٍ مهمة، وهي أن كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ما ينهاه عنه فإنما يُقْصَدُ به دفعُ الضَّرَر عنه، ولن يبلغ أحدٌ نَفْعَ اللهِ فينفعه، ولن يبلغ أحدٌ ضَرَّهُ – سبحانه–

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ١٠١)

(٢) انظر مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل– اختصره عبد الله بن أحمد بن علي الزيد (١/ ٣١) دار السلام للنشر والتوزيع – الرياض.

فيضره، كما ثبت في الحديث القدسي. فكلُّ عمل ابن آدم له أو عليه {لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} (البقرة 286) [١] وقال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ...} (يونس ١٠/ ٢٣).

قال ابن جرير–عليه من الله سابغ الرحمة: وكذلك ربنا جلَّ ذكرُه، لا تضره معصيةُ عاصٍ، ولا يتحيَّف خزائنَه ظلمُ ظالمٍ، ولا تنفعه طاعةُ مطيعٍ، ولا يزيد في ملكه عدلُ عادلٍ، بل نفسه يظلم الظالمُ، وحظَّها يبخس العاصي، وإياها ينفع المطيعُ. انتهى

اليهود؛ وبداية التحريف والتبديل.

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)}

أعقب السياق الحديث عن نعمة رعاية الله –تعالى– لبني إسرائيل في التيه، وعنايته بهم حتى في حمايتهم من حر الشمس ولسعة الجوع والعطش؛ أعقب ذلك بيان مدى جحود القوم، وسفاهتهم، وتبديلهم لشرع الله عناداً وفُجراً وفسوقاً.

قال د/ وهبة الزحيلي : كان إمداد اليهود بالنّعم من أجل شَدِّهم إلى منهج الاستقامة، وتخليصهم بالتوبة من الخطايا التي كانوا يرتكبونها، وذلك كله على سبيل العظة والعبرة. وكان إبقاء اليهود في التّيه أربعين سنة من أجل خروج جيل جديد يتربى على العقائد الحقة وفضائل الأخلاق، وانقراض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية وعبادة العجل. اهـ [٢]

وإذا قلنا لبني إسرائيل عن طريق رسولهم يبلغهم، ممتنين عليهم بعد وجودهم في التيه سنين؛ قلنا لهم ادخلوا {الْقَرْيَةَ} هي بيت المقدس. وقيل أريحا من قرى الشام. [٣] {فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً} أي كلوا أكلاً مُوَسَّعاً عليكم فيه بلا تعبٍ هنيئاً لكم كيف شئتم.

{وَادْخُلُوا الْبابَ} وهو باب القرية. وقيل هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها، وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى –عليه الصلاة والسلام– أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً للَّه وتواضعاً.

١– تفسير المنار (1/ 267–9)

(٢) التفسير المنير للزحيلي (١/ ١٧٠).

(٣) وفي اللغة سميت الْقَرْيَة قَرْيَة؛ لِأَنَّهَا تجمع أَهلهَا. وَمِنْه قَرْيَة النَّمْل؛ لِأَنَّهَا تجمع النَّمْل، ومنه يقال المقراة للحوض لأنها تجمع الماء.

{سُجَّدا} جمع ساجد، وهو حالٌ من فعل الأمر الدخول؛ أي ادخلوا الباب وحالكم حال السجود. قيل «السجود» أن يتطامنوا داخلين، ليكون دخولهم بخشوع وإخبات. بمعنى خاشعين شاكرين خاضعين.

وقيل: منحنين على أصل معناها. وكل انحناء سجود وهو المقصود بما في رؤيا يوسف –عليه السلام– التي تأتي في سورة يوسف {ورفع أبويه على العرش وخروا سجدا} أي منحنين تعظيما لحقهم. فتعود على معنى إظهار الخشوع والتعظيم لأمر الله تعالى.

قيل خُفِّض لهم الباب ليخفضوا رؤسهم فلم يخفضوها، ودخلوا زاحفين على أوراكهم.

{وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ} وحِطَّةٌ على وزن فِعلة وهي في التصريف (اسم هيئة من الحط) كالجِلْسة والرِّكْبة، وهي خبر مبتدأ محذوف، أى مسألتنا حِطَةٌ، وأمرنا حِطَة. وتضمين معنى الهيئة فيها كأنه يقول لهم (اسألوا الله –تعالى– أنْ يحط عنكم ذنوبكم كما يحط ذنوب التائبين العابدين المخبتين فكأنكم إنْ لم تبلغوا درجة التائبين الأوابين تصنَّعتموها وتشبهتم بها)، وما أجمله من إيجازٍ وبلاغةٍ تتضمنها كلمةٌ واحدةٌ سامقةٌ في موضعها.

والأصل: النصب بمعنى: حطَّ عنا ذنوبَنا حِطَّةً. وإنما رُفِعت وأُبرِزت في صورة الجملة الإسمية لتعطى معنى الثبات والقوة في طلب المغفرة، كقول يعقوب عليه السلام لأبنائه: {فصَبْرٌ جَمِيلٌ} والأصل فيها (فسأصبر صبراً جميلا) عدل عن الفعل الذي يستلزم التجدد إلى الاسم الذي يقتضي الثبات والتمكن. وهذه نكتةٌ بديعة في أسلوبية القرآن وظاهرة العدول التي يرتقي فيها ببلاغةٍ أعمق من التركيب المعتاد في اللغة.

{نغفر لكم} تقْرَأ بقراءتين: " نغفر لكم " بالنُّون التعظيم لله الغفور، و " يغْفَر لكم " بِالْيَاءِ والفاعل هو الله وهما وَاحِد في المعنى. وَهُوَ لغةً من الغَفْر، وَهُوَ السّتْر. وَمِنْه الْمَغْفِر؛ لِأَنَّهُ يستر الرَّأس. كَذَلِك الْمَغْفِرَة تستر الذُّنُوب. أما العفو فهو في أصل اللغة الترك، وهو ترك المؤاخذة على الذنوب.

{خطاياكم} جمع (تكسير) لْلخَطِيئَة، وَتُجْمع على الخطيئات أَيْضا، وَهِي الذُّنُوب. يُقَال: خطئَ يُخطئ خطأ وخطيئة، إِذا أذْنب مُتَعَمدا. وَأَخْطَأَ يُخطئ إخطاء إِذا أذْنب خاطئا.

{وسنزيد الْمُحْسِنِينَ} من فضلنَا على غفران خطاياهم. قال الزمخشري: أى مَنْ كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة سبباً في زيادة ثوابه، ومَن كان مُسيئا كانت له توبةٌ ومغفرة.

ومعلومٌ أن الإحسان زائدٌ على العدل، لأن العادل هو الذي يفعل ما إذا أخلَّ به يلحقه الذم، والمحسن مَن زاد على ذلك. والمقصود أنَّ المحسنون هم الذين لم يكتفوا بامتثال أمر الله بدخول القرية خاضعين شاكرين،

ودعاء الله بحط خطاياهم؛ وإنما هم الذين داوموا على الطاعات والقربات وذكروا ربهم وشكروه في كل حال، فأولئك لهم أجرٌ كبير، وهذا كما قسم الله تعالى الناس فقال: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (فاطر: ٣٢) .

فَأَما المحسنون: فَقَالُوا الَّذِي أمروا بِهِ، وهذا المعنى مطويٌّ في قَوْله تَعَالَى: {فبدل الَّذين ظلمُوا قولا غير الَّذِي قيل لَهُم} إذ هو من المحذوف وقد دلَّ عليه ما ظهر من الآية.

أَجمع المفسرون على أَنهم بدلُوا قَول (حطة) بِ(حِنْطَةِ) تحريفا وعصيانا واستهزاءً بشرع الله– سبحانه–، وَقَالُوا بلسانهم: (هطا سمقاثا). وَهِيَ لَفْظَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ تَفْسِيرُهَا: حِنْطَةٌ حَمْرَاءُ. وقيل: إنهم تكلموا بكلام بالنبطية على جهة الاستهزاء والخلاف.

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا الْباب سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ؛ فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ) . وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَقَالَ (فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حِطَّةٌ حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ). فِي غَيْرِ الصحيحين" حنطة في شعر".

قيل: إِنَّهُم دخلُوا الْبَاب يزحفون على استاههم، وَكَانَ قد خُفِّض لَهُم الْبَابُ، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَن يدخلُوا قيَاما، وأبوا أَن يدخلُوا سجدا، فَدَخَلُوا يزحفون على استاههم مُخَالفَةً فِي الْفِعْل كَمَا بدلُوا القَوْل.

قال القرطبي–رحمه الله: استدل بعض العلماء بهذه الآية على أنَّ تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها أو بمعناها؛ فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها لذم الله تعالى مَنْ بدَّل ما أمره بقوله في هذه الآية. وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي إلى ذلك المعنى ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه. انتهى [(١)]

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١/ ٤١١)…. ذكر هذا ثم تحدث رحمه الله في كلام طويل بعيد عن فقه الآية عن جواز نقل الحديث بالمعنى، ورجحه بأدلةٍ أراها واهية وتفتح باب القدح في السنة، وذكر بآخرةٍ كلام العلامة ابن العربي– رحمه الله– وكلامه في غاية الجودة يقول: الخلاف في هذه المسألة إنما يتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم في معرفة اللغة الجبلية الذوقية وأما من بعدهم فلا نشك في أن ذلك لا يجوز إذ الطباع قد تغيرت والفهوم قد تباينت والعوائد قد اختلفت وهذا هو الحق. والله أعلم. انتهى. وقد رد عليه القرطبي بما لا يدانيه. فصارت خلاصة البحث – عندي– أنَّ هذه المسألة إن جازت للصحابة والتابعين للضرورة في بعض المواضع لا كلها فإنها لا تجوز لمن بعضهم حفظا للدين والسنة. وكما قال القرطبي نفسه في بحثه: وذلك هو الأحوط في الدين والأتقى والأولى. انتهى. وللأمر بحث طويل الذيول ويجزئك أن تقرأ في كتاب (دفاع عن السنة النبوية) للدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله فقد جمع فيه كثيرا من البحث وأجاد.

أقول– محققه: على أنْ يكون هناك قرينةٌ واضحة توجّه النصوصَ إلى أنَّ التعبد هو بمعناها لا بلفظها كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} (الإسراء: ١١٠)

وقد دلتنا الآية أنَّ أنواع التحريف لشرع الله – سبحانه– هي نوعان:

النوع الأول هو التحريف في القول؛ بطرقٍ ثلاثة:

إما بتبديله كليةً بغيره كما فعل اليهود ههنا وكما يشير جهلاء الصوفية إلى صدورهم ويقرأون قوله تعالى {مَن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} فيقولون (مَن ذَلَّ ذي يشفع عند هو) أي من ذل نفسه يشفع عند الله، وكله تحريفٌ مقيت، ويقال لهم فماذا تفعلون بقوله بعدها {إلا بإذنه} ...

أو بإخفائه كما فعل اليهود في إخفاء حكم الرجم ويأتي معنا في سور أخرى..

أو بتأويله على غير وجهه، فيتعطل العمل به، وقد اتفق علماء السنة على أنَّ كل تأويلٍ يعود على النص بإبطال العمل به هو تحريفٌ باطل.

النوع الثاني: تحريف العمل، بالابتداع بالزيادة والنقص فيه على غير ما أمر به الرسول. كما قال رسولنا – ﷺ – في الحديث الصحيح: "كلُّ عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ" أي مردودٌ على صاحبه. فشرط قبول العمل من العابد أن يكون لله تعالى مخلصا فيه، وأن يكون على وِفق ما أمر به رسوله ﷺ . وهو العمل الصالح المقبول. لأن معنى أصل كلمة (الدين) هي الخضوع والطاعة والالتزام، والذي يدعي أنه يدين لله – تعالى– وهو يعبده بحسب ما يراه لا بحسب ما شرع هو يعبد نفسه التي اختارت له وخالفت شرع الله – تعالى.

وقوله تعالى: {الذين ظلموا} فيه احتراز يدل على عدل القرآن في إطلاق أحكامه، فالذين بدلوا هم الذين ظلموا، وهناك محسنون هم الذين لم يبدلوا.

وقَوْله تَعَالَى: {فأنزلنا على الَّذين ظلمُوا رجزا من السَّمَاء بِمَا كَانُوا يفسقون}. وهنا أيضا احتراز لطيف [(١)] لئلا يعود الكلام على كل بني إسرائيل الذين أمِروا فمنهم مَن أطاع ومنهم مَن عصى وحرَّف. والعذاب نزل

---

(١) يتجلّى النص القرآني بأسلوبه البياني المعجز البليغ , ويتفنن غاية التفنن في التصرف بفن القول , ودقة سبك الألفاظ , في تراكيبه المختلفة وسياقاته المتنوعة .

وهو في ذلك كله يحترز كل الاحتراز للمعنى المقصود المراد، وتظهر صور هذا الاحتراز في أنماط متعددة ومتنوعة، يعمد إليها النص القرآني، وهو أسلوب من أساليبه العجيبة المدهشة لمتذوق هذا البيان.

والاحتراز –كما قال ابن فارس في المقاييس– أصله في اللغة من (حرز) ومعناه في الحفظ والتحفظ. وعند الجوهري في الصحاح من معنى التوقي.

على الذين بدلوا وحرفوا. وقد جاء في سورة الأعراف: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} (الأعراف: ١٦٢) فقال: (فأرسلنا عليهم) على الإضمار، وذلك لأنه فصَّل في الآية المقصودين بالعذاب بقوله (الذين ظلموا مِنْهُمْ) فلم يكن هناك حاجة للاحتراز، والله أعلم.

والرجز (بكسر الراء) المراد به هنا الْعَذَاب وأصله في اللغة من الاضطراب، وذلك لما يُتّصوَّر فيه من الاضطراب والحركة المهلكة. والرُّجز (بضم الراء) هو صنم والمراد النهي عن الشرك في قوله {والرُّجز فاهجر} (المدثر) و(الرِّجس) هو الشيء القذر من حيث الطبع أو العقل أو الشرع، فالميتة رجس من حيث الطبع، والخمر رجس من حيث الشرع، والشرك رجس في العقل والشرك. وكل كلمةٍ في تحديد المقصود من معناها يحدد من السياق وموضعها فيه لا من معناها اللغوي وحسب.

روى أهل التفسير أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفاً. وقيل: سبعون ألفاً.

قال الراغب: وتخصيص قوله: {رِجْزًا} بأنه {مِنَ السَّمَاءِ} لأن العذاب نوعان، نوع قد يمكن لبعض الناس دفعه أو يظن ذلك، وهو كل عذاب على يد آدمي أو من جهة المخلوقات.

، ونوع لا يمكن ولا يُظَنُّ أصلاً دفعه كالطاعون والصاعقة والموت، ومثل ذلك وهو العذاب الإلهي، وهو المعني بقوله {رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ}. انتهى

والاحتراز للمعنى مفهومه قديم، ظهر عند البلاغيين بمسمى (الاحتراس) لكنهم حصروه على نماذج محدودة ومكررة، لا تخرج في جملتها عن دلالة السياق اللغوي للنص.

وقد عُرِف مصطلح الاحتراس عندهم بـ " أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، أي: يؤتى بشيء يدفع ذلك الإيهام، نحو قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}(المائدة ٥٤)

فإن المولى— لو اقتصر على وصفهم بأذلة على المؤمنين؛ لتوهم أن ذلك لضعفهم، وهو خلاف المقصود، فأتى على سبيل التكميل بقوله: أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ "، وقد سماه ابن جني في الخصائص بالاحتياط إذ يقول:— "واعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته واحتاطت له " .

ومن شواهد احتراز العرب لكلامها قول ابن المعتز يصف فرسه: –

صَببنَا عليها – ظالمينَ – سياطَنا.. فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

فقد أتى الشاعر بكلمة (ظالمينَ) أي ظلما منا– احترازاً من أن يفهم أن سياطه التي صبها على فرسه ؛ بسبب بلادة فيها , وإنما ذلك ظلمٌ منه , وهي لا تستحق ذلك.

وكذلك قول الشاعر: –

وأصفحُ عن سبابِ الناسِ حِلماً... وشرُ الناسِ من يهوي السِّبابا.

فقد ذكر الشاعر كلمة (حِلما) احترازاً منه حتى لا يفهم أنَّ صفحه عن السباب بسبب ضعف منه.

وإذا كانت العرب تحتاط في كلامها وتحترز له كما ذكر ابن جني, وذكرناه سابقاً, فإن كلام المولى – عز وجل – في نظمه البديع, وبيانه المعجز, يبرز فيه الاحتراز للمعنى غاية في الدّقة والإعجاز.

وقوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يفسقون} أي بسبب الْمُخَالفَة والاستهزاء بشرع الله –تعالى– وأمره وتعالميه فعلا وقولا. ومن عظمة الله وكمال عدله ألَّا يذكر عذاباً عذبه أحداً إلا ويقرنه بسببه من فعله وجُرمه [١]. تواصى بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا به يُؤمَرون، حتى أنَّ قولاً واحداً أُوْصُوا بحفظه فحرفوه وبدّلوه، وفعلاً واحداً من السجود أُمِروا بأن يفعلوه فخالفوه، وكل ذلك وأقدامهم لم تجفُّ بعد من ماء البحر الذي أنقذهم الله – سبحانه– به وأهلك فيه عدوهم وهم ينظرون، وبطونهم لم تهضم بعد ما أنزل الله عليهم من أجود الطعام المَنَّ والسلوى، فعرّضوا أنفسهم لعواقب الكفران، ثم لم يطيقوا الإصابة بقَوارعها، فدعوا الله برفع العقوبة ثم ما زالوا ولا يزالون في تمردهم على أمر الله– تبارك وتعالى–. ربما تكون عقلية المنهزم وسيكولوجية المقهور جعلت بني إسرائيل يقلدون جلاديهم من الفراعين وقومهم الذين ما رأوا من موسى – عليه السلام– آيةً إلا هي أكبر من أختها ولكنهم كانوا يجحدون، فإذا نزل بهم العقاب والمثلات يتضرعون إليه لرفع الضر ثم يعودون إلى الجحود والكفران. ربما!

الخلاصة أن تاريخ اليهود امتلئ بالمعصية والمخالفة والمروق من دين الله حتى صاروا مثلاً يُضْرَب لكل مخالفٍ ومعاند ومستهزئٍ بدين الله وعليهم جميعاً وأمثالهم قوله تعالى: {... قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)} (التوبة: 64 – 66). فكلُّ استهزاءٍ أو تحريف أو استخفاف بشرعِ الله – تبارك وتعالى– هو في ظاهره كفرٌ مخرج من دين الله. ولا ينجي من ذلك إلا التوبة إلى الله –سبحانه– واتباع أمره، وتصديق خبره.

الأمر يفيد الوجوب: مسألة في أصول الفقه.

وفي هذه الآية لعلماء الأصول استدلالٌ على أن الأمر يقتضي الوجوب إلا إذا صرفه دليلٌ عن الوجوب إلى الندب أو الإباحة. فلو لم يكن الأمر هنا {ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة} للوجوب لما عاقبهم على تركه أو تبديله. والأمر في تعريفه هو ما يُؤجَر فاعلُه ويُعاقَب تاركه.

١- راجعتُ لتفسير هذه الآيات تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٤٣)، وتفسير السمعاني (1/ 83–84) ط. دار الوطن الرياض، ومختصر تفسير البغوي (١/ ٣١)، وتفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٠٥))

بينما الأمر في قوله: {فَكُلُوا منها حيث شئتم رغداً } هو للإباحة وليس الإيجاب بقرينة قوله { حيث شئتم} الدال على التخيير المطلق، وقلنا في (القاعدة الأصولية)إن الأمر إذا ورد في الشرع فالصحيح أنه للإيجاب إلا إذا اقترن بما يصرف معناه إلى الندب أو الإباحة.

قال صاحب العدة: إذا ورد لفظ الأمر متعريًا عن القرائن اقتضى وجوب المأمور به. وهذا ظاهر كلام أحمد –رحمه الله– في مواضع قال: إذا ثبت الخبر عن النبي –ﷺ– وجب العمل به.

وقالت المعتزلة: هو محمول على الندب بإطلاق حتى يدل الدليل على الوجوب.

وقالت الأشعرية: هو على الوقف على ما يبينه الدليل.

وذهب قوم إلى أنه على الإباحة حتى يدل الدليل.

فالدلالة على ما قلنا قوله تعالى: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ}.

فوجه الدلالة: أن الله تعالى لما أَمَرَ الملائكة بالسجود لآدم تبادروا إلى فعله، فعلم أنهم عقلوا من إطلاقه وجوب امتثال المأمور به، ثم لما امتنع إبليس من السجود وبَّخَهُ وعاقبه وأهبطه من الجنة، فلولا أن ذلك واجب عليه لما استحق العقوبة والتوبيخ بتركه.

فإن قيل: يجوز أن يكون ذلك الأمر معه قرينة دلت على المراد به، فلهذا عاقبه بالمخالفة.

قيل: لم يذكر في الآية إلا أمرًا مطلقًا، وعلَّق التوبيخ والعقوبة بتركه، فمن ادَّعى أن هناك قرينة احتاج إلى دليل، يبين صحة هذا أن قوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك} مثل قوله: ما يمنعك أن لا تسجد إذ قلت لك: اسجد، فإن الذم يتعلق بمجرد مخالفة القول، كذلك ههنا. فإذا قيل: إنما عاقبه؛ لأنه استكبر وكان من الكافرين، قيل: عاقبه على الأمرين جميعًا، على مخالفة الأمر، وعلى الاستكبار والكفر.

ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ}، فنفي التخيير في الأمر وجعله ضالا مع التخيير، ومن قال: الأمر على الندب أو الإباحة خَيَّرَه.

فإن قيل: إنما قال هذا فيما قضاه، وما قضاه واجب، وخلافنا فيما أمر به.

قيل: ما قضاه لا صيغة له تدل على أنه واجب ولا ندب وهو دون مرتبة الأمر، ومع هذا فلم يجعل له الخيرة، فأولى ألا يجعل له ذلك في الأمر، وعلى أن تعلقنا بقوله: {إِذَا قَضَى أَمْرًا} فعاد الكلام إلى قوله: {أَمْرًا}.

ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، فتوعد على مخالفة الأمر بالفتنة والعذاب، فلولا أن إطلاقه يقتضي الوجوب لم يتوعد عليه.

ويدل عليه قوله تعالى في سورة طه: {أَفَعَصَيتَ أَمْرِي}، فدلَّ على أن مخالفة الأمر معصية، ولم يقل: أعصيت ما دلَّ على وجوب الأمر؟ بل علَّق المعصية بمخالفة الأمر، وليس له صيغة غير لفظة: افعل، ألا ترى أن هذه اللفظة هي التي ترك امتثالها إبليس، فَذُمَّ، وهو قوله للملائكة: {اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا} فعلم أن هذه صيغة الأمر.

ويدلُّ عليه ما روي عن النبي -ﷺ- أنه قال: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة"، ومعلوم أن السواك مستحب، فدل على أنه لو أمر به لوجب.

ويدل عليه أيضًا ما روي عن النبي -ﷺ: أنه مر برجل يصلي فدعاه، فلم يُجِبْهُ، فلما فرغ من الصلاة قال: "ما منعك أن تجيبني؟ " قال: كنت في الصلاة، فقال عليه السلام: "أما سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم} " وهذا ظاهر، فإن النبي -ﷺ- عاتبه على مخالفة أمر الله تعالى المطلق، وهو قوله: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} وإن كان في الإجابة إليه ترك فريضة عليه، هو فيها... إلخ كلامه رحمه الله. (١)

فهو الراجح -بإذن الله- والمتبادر إليه من ظاهر فهم المخاطبين ولا محيد عنه إلا بمشقة تأويلِ وليّ عنق النصوص، كما هو الأحوط والأفقه في التلقي عن الله تعالى.

سقاهم الله ثم كفروا.

قال تعالى في تعداد نعمٍ أخرى على القوم:

---

(١) العدة في أصول الفقه للقاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى : ٤٥٨هـ)- (١/ ٢٢٤-٢٣٩) مع اختصار.

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)}.

والمعنى أنَّ الله تعالى يخاطب بني إسرائيل مذكِّراً يقول: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى– عليه السلام– حين طلب السقيا لكم حين أتعبكم العطش وعَزُبَ الماء، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجرٍ يُحمَل معكم أينما ذهبتم، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينا (نبعاً للشراب) لكل سِبطٍ من أسباطكم عينٌ قد عرفوها حتى لا تتنازعوا وتتقاتلوا، فكلوا من المَنّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنْبَعْته لكم بلا سعيٍ منكم ولا كَدٍّ، واعبدوا الذي سخَّر لكم ذلك. {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسْلَبوها. [١] وقد بسط أهل التفسير هذا المعنى...

قَالَ قَتَادَة: كَانَ هَذَا وهم فِي الْبَرِيَّة (الصحراء)، اشتكوا إِلَى مُوسَى الظمأ، فسقوا من حجر كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام يحملهُ مَعَه من جبل الطُّور، فَكَانُوا إِذا نزلُوا ضربه مُوسَى بعصاه، فانفجرت مِنْهُ اثْنَتَا عشرَة عينا لكل سِبْطٍ عين. وَمعنى السِّبط فِي اللُّغَة: الْجَمَاعَة الَّذين يرجعُونَ إِلَى أَب وَاحِد.[٢]

والاستسقاء طلب السَقْي أو الإسقاء، فالسقي من الفعل (سَقَى) أنْ يجعل له ماءً يشربه، والإسقاء من الفعل (أسقى) هو تعريض الظمئان للماء، وجعله له ليتناوله متى أراد، فهو أخص معنى من السقي.[٣]

وقوله تعالى {وَلا تَعْثَوْا فِي الأرض} في اللغة (عاث وعثي عثواً) [٤] : أي أفسد أشدَّ الفساد، قال تعالى: {مُفْسِدِينَ} وتأويل الطبري له أنه أسلوب تأكيد على النهي عن الإفساد بكل صوره ودرجاته؛ فقال: يعني

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٧٨) بتصرف.

٢– تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (1/ 144)

٣– تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 206) بتصرف يسير

(٤) قال ابن منظور في لسان العرب (١٥/ ٢٩): القُرَّاء كلُّهم قرؤوا: { وَلا تَعْثَوْا...} بِفَتْحِ الثَّاءِ، مِنْ عَثِيَ يَعْثَى عُثُوّاً وَهُوَ أَشدُّ الْفَسَادِ، وَفِيهِ لُغَتَانِ أُخْريان لَمْ يُقْرأْ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا: إِحْدَاهُمَا عَثَا يَعْثُو مِثْلُ سَمَا يَسْمُو؛ قَالَ ذَلِكَ الأَخفش وَغَيْرُهُ، وَلَوْ جَازَتِ الْقِرَاءَةُ بِهَذِهِ اللُّغَةِ لَقُرِئَ وَلَا تَعْثُوا، وَلَكِنَّ الْقِرَاءَةَ سُنَّة وَلَا يُقْرأُ إِلَّا بِمَا قَرأَ بِهِ القرَّاء، وَاللُّغَةُ الثَّانِيَةُ عاثَ يَعِيثُ. انتهى.

ثم إن ابن منظور قد جمع أصول هذه المادة (عثا) فوجدها تعود إلى وصف الشعر بالسواد والغزارة والجعودة التي تجعله سمجا، وأنشد لشَاعِرٍ:

عَرَضَتْ لَنَا تَمْشِي فيَعْرِضُ، دُونَها، ... أَعْثَى غَيُورٌ فاحِشٌ مُتَزَعِّمُ.

ثم استعيرت بعد ذلك لوصف وعورة الخلق وقسوته. قال ابْنُ سِيدَهْ: الأَعْثَى هو الأَحْمَقُ الثَّقِيلُ؛ وقَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: شَاهِدُهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ: فوَلَدتْ أَعْثَى ضَروطاً عُنْبُجا. والعَثَوْثَى: الجَافِي الغليظ.

واستعيرت كذلك فِيمَا تَشَعَّثَ مِنَ النَّبَاتِ وييس، والأَعْثَى: الضَّبُع الْكَبِيرُ. وَقَوْلُ ابْنِ الرِّقَاعِ:

لَوْلَا الحَيَاءُ، وأَنَّ رأْسِيَ قَدْ عَثَا ... فِيهِ المَشِيبُ، لَزُرْتُ أَمَّ القاسم. أي فشا وطغى فيه المشيب. راجع لسان العرب الموضع السابق.

والخلاصة أنَّ أصل معنى (العثو) هو من الوعورة التي قد تكون في الخَلق أو الخلق، وهو معنى التجاوز والطغيان يقارب لفظ ومعنى (العتو) من الفعل (عتا). ويطلق على الفساد لا بأصل معناه وإنما استعارةً وتوسعاً. لذلك يمكن أن يُفسَّر بمعنى الطغيان والتجاوز.

بقوله: (لا تعثوا) لا تطغوا، ولا تسعوا في الأرض مفسدين. ونقله عن ابن زيد من السلف ومجاهد بن جبر.
[١] أقول: وهو تأويلٌ سائغٌ قريبٌ. فالإفساد المنهي عنه في الحالين متغايرٌ، وهو درجتان أو حالتان من الإفساد، إفسادٌ يتمادى بهم إلى أن يصير عادةً وصفةً وحالاً ملازما لهم. فإنه لما أُمِروا بالأكل والشرب من رزق الله، ولم يقيد ذلك عليهم بزمانٍ ولا مكانٍ ولا مقدار من مأكولٍ أو مشروب، كان ذلك إنعاما وإحسانا جزيلا إليهم، واستدعى ذلك البسط في المآكل والمشارب، ما ينشأ عن ذلك من القوة الغضبية، والقوة الاستعلائية وسوء الخلق؛ فجاء التعبير الموجز الشامل لمرحلتين من الوعظ والنهي: {ولا تعثوا في الأرض} أي لا تطغوا وتتجاوزوا حدكم بالإفساد فيما وسَّع الله عليكم، ولا تتبعوا مسلك المفسدين على العموم. كأنه قيل: ولا تعثوا في الأرض بالطغيان فيما آتيناكم، فتصيروا إلى حال المفسدين الين صار لهم الإفساد وصفا لازما. وهذا أقرب تأويل عندي والله أعلم بأسرار كتابه. [٢]

لطيفة في بلاغة أسلوبية القرآن.

وفي سورة الأعراف في قوله تعالى: {... أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا... الآيةَ} (الأعراف: ١٦٠). قال: «انبجست» بدل (انفجرت) ، والانبجاس هو رشح الماء ، والانفجار خروجه

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ١٢٣)

(٢) وقد حاول المفسرون هنا الإجابة على سؤال بلاغي: إذا كان معنى العثي هو الفساد فما معنى النهي بقوله(مفسدين) كأنه قيل: لا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

وجواب الرازي كأنه قيل لهم: لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه، والمقصود منه ما جرت العادة بين الناس من التشاجر والتنازع في الماء عند اشتداد الحاجة إليه، فكأنه تعالى قال: إن وقع التنازع بسبب ذلك الماء فلا تبالغوا في التنازع والله أعلم. وهو تأويل ليس بالقريب كما أنه يخصِّص الخطاب بواقعة الشرب فقط، والخطاب أقرب إلى معنى الوعظ العام لهم في عجز الآية.

ووجهه بعض العلماء أنَّ بعض الفساد يكون في الظاهر فساداً، وباطنه في الحقيقة صلاح، كخرق الخضر السفينة وقتله الغلام في قصة الخضر وموسى في سورة الكهف، فبين أنَّ فسادهم هو فسادٌ محض لا تأويل لهم فيه، ولا باطن خير فيه، فكأنه قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض فسادكم لا باطن للإصلاح فيه فأنتم مفسدون لا تأويل لذلك.

قال الراغب: " إن العثو وإن اقتضى الفساد فليس بموضوع له، بل هو كالاعتداء، وقد يوجد في الاعتداء ما ليس بفساد وهو مقابلة المعتدي بفعله، نحو: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} ، وهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو بالإضافة إلى ما قوبل به عدل، فلولا كونه جزاءً لكان إفساداً، فبين تعالى أن العثو المنهي عنه هو المقصود به الإفساد مكروه على الإطلاق، ولهذا قال: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} ، وقد يكون في صورة العثو، والتعدي ما هو صلاح وعدل على ما تقدم، وهذا ظاهر. قلتُ: أراه معنى بعيداً مُتكلَّفاً. وإنما أطلت بذكر هذه الأقوال لبيان طريقة المفسرين في الإجابة على الأسئلة البلاغية للنص القرآني ومنهجهم في خدمة هذا النص الحكيم.

راجع تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٥٣٠)، وإيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ١٠٠) للنيسابوري المتوفى ٥٥٠ هـ. وكذلك راجع تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٠٧).

بكثرة وغزارة؛ كأنه انبجس ثم انفجر، كما قال في عصا موسى إنها (جانٌّ) وهي الحية صغيرة في قوله تعالى: {وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ } (النمل10). ، ثم وصفها بالثعبان المبين أي الكبيرة في قوله تعالى: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } (الأعراف: ١٠٧) كأن المقصود أنها ابتدأت صغيرة ثم كبرت فكأنه حين الجمع بين أطراف القصص القرآني من مواضعه المختلفة في القرآن العظيم تكتمل المعاني كأنها لوحة ورسم حى لتطور الموقف واكتماله . هذا رأىٌ وله وجاهته.

وقد أجاب الفخر الرازي بجوابين آخرين غير هذا:

أحدها: أنَّ الفَجْر معناه في الأصل الشق، والانفجار الانشقاق، ومنه الفاجر لأنه يشق عصا المسلمين بخروجه إلى الفسق، والانبجاس اسم للشق الضيق القليل، فهما مختلفان اختلاف العام والخاص، فلا يتناقضان.

وثانيها: لا يمتنع أن حاجتهم كانت تشتد إلى الماء فينفجر، أي يخرج الماء كثيرا ثم كانت تقل فكان الماء ينبجس أي يخرج قليلا. انتهى [١]

ولكنَّ لي تأصيلاً آخرَ هو أشدُّ قوةً، وهو أنَّ استدعاء المواقف التي حدثت يكون في سياقها العام، وغرض الخطاب وتوجهه في السياق القرآني الذي أتى فيه ذكر هذه المواقف من القَصَص الحكيم، فتتنوع أسلوبية وتراكيب الكلام/ النظم من أجل ذلك السياق.

ومثالنا هنا يعززه أنَّ الخطاب لبني إسرائيل في سورة البقرة جاء في توضيح مقدار النعم المتتالية التي بلغت حد المعجزة في مقابل كفرانهم ومعصيتهم المتتالية، فلأجل ذلك جاء الخطابُ الحادُّ والأسلوب القوي مستخدما الكلمات الحادة القوية في الوصف؛ فجاءت كلمة (انفجرت) للدلالة على أنَّ استجابة الله تعالى لطلبهم السقيا في حال اشتداد الظمأِ بهم كانت استجابةً قويةً وسريعةً عبَّر عنها بالانفجار، وأنَّ هذه الاستجابة القوية قابلها القوم بمنتهى البرود والمماطلة والتفلُّت والاستهانة والميوعة في التعامل مع تكاليف الله –تعالى، وبهذا التعبير الذي يكشف الفرق بين قوة النعمة وبرود وميوعة القوم ينير المعنى في أعلى درجات البلاغة والفصاحة. فالمقام مقام تذكيرٌ عنيف لمدى كفر اليهود.

بينما في سورة الأعراف يبدأ السياق بقوله تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} (الأعراف: ١٥٩) وفيه مدح للمؤمنين منهم وترغيب في الإيمان يتضح بالآيات قبلها، ثم يأتي السياق بذكر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٥٢٩)

مجمل للنعم على القوم في آية واحدة: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (الأعراف ١٦٠) فالخطاب هنا أهدأ نبرةً وأقل حدةً عن الخطاب في سورة البقرة، فناسبه أنْ يستعمل كلمة (انبجست) بدل التعبير القوي في كلمة (انفجرت) ليتحد الغرض بين الدلالة والأسلوب والألفاظ في تناسقٍ بلاغي جمالي لا تجده سامقاً إلا في كتاب الله تعالى.

وفي المثال المقارن له في قوله تعالى واصفاً معجزة عصا موسى تارةً أنها جان أي حية صغيرة، وتارةً أنها ثعبان مبين (كبير جدا) نقول أنَّ في المرة الأولى كان الموقف في سياق تعريف موسى ﷺ بالمعجزة التي أمده الله– سبحانه– بها، فناسب ذلك مجرد تحول العصا إلى جان (حية صغيرة) ولم هناك داعي لتحولها لثعبان مبين يخوفه ويروعه وخصوصا أنها كانت المرة الأولى التي تُعرّض عليه معجزته. إقرأ معي قوله تعالى: {يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} (النمل: ٩، ١٠).

وقوله: {... يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} (القصص: ٣٠، ٣١).

أما في المرة الثانية فكان الموقف هو التحدي الذي أبداه موسى بمعجزة العصا أمام فرعون وسحرته فجاء التعبير بما يناسب قوة المعجزة وعظمها عن ثعبان كبير ؛ اقرأ معي قوله تعالى: {قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } (الأعراف: ١٠٦، ١٠٧)، وقوله تعالى: { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } (الشعراء: ٣٠ – ٣٢).

وهنا يتسق السياق الدلالي والخطابي مع السياق اللغوي والتعبيري فتأخذك العظمة القرآنية كل مأخذ.

الشعور بالنعمة نعمةٌ عظيمة.

في هذه الآيات إظهارٌ لنفسية اليهود الدنيَّة التي لم تشعر يوماً ما أنعم الله تعالى به عليها، فإنهم لما عموا عن قيمة النعمة ولم يشكروها طلبوا الأدنى. وهذا من ابتلاء الله لعباده، وفي كثير من الأحيان يكون عقاباً من الله

على كفر نعمته أن يفقد العبد الإحساس بالنعم التي هو فيها، فإن الإحساسَ بالنعمة نعمةٌ أكبر لا يعرفها إلا من ذاق الضنك والبؤس في الحياة بسبب أنه لا يرى ما هو فيه من الخير.

ولعل هذا المعنى هو بعض تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} (طه: ١٢٤-١٢٦)

وفي معنى فقدان الشعور بالنعمة جواب مَن قال: كيف هي المعيشة الضنك وبعضهم يحاوطه الثراء والنعم والنعيم؟

فيُقال: سلبهم الله الإحساس بالنعمة فكأنها غير موجودة أصلا؛ لذلك تجد أكثر الأمراض النفسية ومنه الاكتئاب والقلق المزمن في أولئك الأثرياء والمشاهير والولاة ومدعي الفكر الذين ابتعدوا عن منهج الله – سبحانه– وتجد راحة البال في فقيرٍ يصلي.

إنها المعيشة الضنك (الضيقة) تضيق بالصدور وليس المسكن والملبس والمركب. قال الحبر ابن العباس – رضي الله عنهما– في هذه الآية: كلُّ مالٍ أعطاه اللهُ– تعالى– عبدا من عباده قلّ أو كثر، لا يتقيه فيه، فلا خيرَ فيه، وهو الضنك في المعيشة. إن قوما ضُلالا أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مُكثِرين، فكانت معيشتهم ضنكا، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله –عزّ وجل– ليس بمخلف لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله، والتكذيب به. [١]

إنهم يمضون في الحياة بلا هدفٍ ولا التماس لما هو أرفع وأغلى وأعظم من مجرد الشهوات التي مهما بلغت تتلاشى حلاوتها ويبقى في النفس مزيد تشوُّفٍ لمزيد شهوات فيحصل الضيق والملل (معيشة الضنك).

---

(١) راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٣٩٢) ورجح الطبري أن المعيشة الضنك هي عذاب القبر لأنه لم يستطع الرد على سؤال كيف أن بعض الكفار والمعرضين دانت لهم الدنيا وكيف يوصف دنياهم بأنها معيشة ضنكا؟ ولكن المتواتر أمام أعيننا ويؤكده لنا الأطباء النفسيون أنَّ أكثر مرضاهم ممن ملكوا كثيرا من الدنيا ولم يكن في قلوبهم منهج الحق. ففي تقارير حديثة صنفت اليابان مثابة البلد الثاني في العالم من حيث معدلات الانتحار، حيث يؤكد الأطباء النفسيون هناك أن السبب الحقيقي لارتفاع معدلات الانتحار في هذه البلاد يعود للضغوط اليومية والحياتية المتزايدة. في تقرير نشرته منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة عام ٢٠٢٠ م، دقت المنظمة ناقوس الخطر بشأن معدل الانتحار العالمي، فقد ورد في التقرير أن شخصا واحدا يموت منتحرا كل ٤٠ ثانية، ليصل العدد، طبقا للتقرير إلى ٨٠٠ ألف شخص سنويا، أي أكثر من الذين قتلوا في الحروب وعمليات القتل أو سرطان الثدي. والمثير في الأمر أن التقرير أوضح أن البلدان ذات الدخل المرتفع لديها معدل أعلى لحالات الانتحار أكثر من غيرها من البلدان ذات الدخل المتوسط.

ويكفيك البحث في شبكة الانترنت عن هذه المعلومات للتأكد من صدقها وأكثر...

يقول رِبْعِيَّ بن عامر – رضي الله عنه– لقائد الفرس لما سأله: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا... إلخ كلامه.

يقول الشيخ المربي أبو الحسن الندوي– رحمه الله:

(وإني لأتساءل ما هو الضيق الذي كان فيه الفرس، وما هي السعة التي فيها العرب؟!

لقد أجمع التاريخ والمؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون في رغدٍ من العيش، ويتقلبون في أعطاف النعيم؛ لقد اتسعت لهم الدنيا ولانت لهم الحياةُ. أما العرب فكانوا يعيشون في شَظَفٍ وفقرٍ، والمدنية لم تكن تعقَّدت أمامهم بعد؛ فأين هي السعة؟!

إن رِبْعِيَّ بن عامر– رضي الله عنه– كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقل إلى دُمَىً قد كُسيتْ ملابسَ فاخرة جميلة، وإلى تماثيلَ قد أُحْكِمت صياغتُها وتأنَّقَ صانعوها في إظهار قسماتها وملامحها، ولكنها تماثيل من حجر أو جِبْسٍ لا حياةَ فيها، ولا حراكَ بها!

وكان ربعيٌّ كبقية المسلمين– يتمتع بالحرية التي عرّفه الإسلام بها، فتنقله من دنيا ضيقةٍ محدودةٍ خائفةٍ؛ دنيا المعدّة والمادة، ودنيا الشهوات والأغراض، ودنيا الاستعباد، إلى دنيا القلب والروح والإيثار والمساواة والعدل والرحمة ... وتلك هي السعة التي يتحدث عنها من تربى في مدرسة وحياة محمد ﷺ). انتهى [١]

إنها نفس المادية واللهاث وراء الشهوات الذي أنسى اليهود نعمة ربهم فنبذوها وراموا الخسيس والأدنى والنصب بدلا منه.

عودٌ للآيات.

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ} (البقرة: ٦١)

معنى الآية: واذكروا إذا قلتم –يا معشر بني إسرائيل-: لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد – وذلك "الطعام الواحد"، هو ما أخبر الله جل ثناؤه أنه أطعمهم في تيههم، وهو " المن والسلوى" في قولِ بعضِ أهل التأويل، وفي قول وهب بن منبه هو "الخبز النقي مع اللحم" – فاسأل لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من البقل والقثاء، وما ذكر الله أنهم سألوه موسى.

(١) من مقدمة محاضرة له نُشرت في هدية مجلة الأزهر شهر ربيع الأول ١٤٣٠ هـ بتقديم الدكتور محمد رجب بيومي رحمه الله.

قال قتادة: كانوا قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملوا ذلك، وذكروا عيشا كانوا فيه بمصر. وذلك في التيه. كذا قال السدي وابن زيد. [١]

وقوله تعالى: {مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} (مِن) الأولى في قوله {مما تنبت الأرض} للتبعيض أي بعض ما تنبت. و(من) الثانية بيانية بمعنى أي بقلها وفومها... على البيان.

(و"البقل" و"القثاء" و"العدس" و"البصل"، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وحبها.

وأما "الفوم"، فإن أهل التأويل اختلفوا فيه. فقال ابن عباس: هو الحنطة والخبز. وكذا عن مجاهد بن جبر وقتادة والحسن وعطاء وابن زيد.

وقال آخرون: هو الثوم. روى عن مجاهد والربيع.

وقد ذُكِر أن تسمية الحنطة والخبز جميعا "فوما" من اللغة القديمة. حُكِي سماعا من أهل هذه اللغة: "فوموا لنا"، بمعنى اختبزوا لنا.

وذكر أن ذلك قراءة عبد الله بن مسعود: "وثومها" بالثاء. فإن كان ذلك صحيحا، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: "وقعوا في عاثور شر: وعافور شر"، وكقولهم "للأثافي، أثاثي... وما أشبه ذلك مما تقلب الثاء فاء والفاء ثاء، لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء). [٢] فالله أعلم.

وقوله تعالى: {قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}

قال لهم نبيهم موسى: كيف تأخذون الذي هو {أدنى} يعني أخَسُّ وأقَلُّ قيمةً وقَدْرا من العيش، بدلا بالذي هو خير منه قيمةً وقدراً؟ ومعنى "الاستبدال": هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك. والاستفهام هنا غرضه (الاستنكار) و(التوبيخ). ولأن غرضه كذلك فلا يصح تأويل (أدنى) بمعنى: هو أقرب، من "الدنو" الذي هو بمعنى القرب. لأنه لا معنى له في السياق. وسياق الحال هنا أداة قوية للترجيح في التفسير.

وأما قوله تعالى: {اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ} معناه: فدعا لهم موسى ربه أن يعطيهم ما سألوه، فاستجاب الله له دعاءه، فأعطاهم ما طلبوا، وقال الله لهم: (اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ) .

ثم اختلف القُراء في قراءة قوله تعالى: (مصرا) فقرأه عامة القراء: "مصرا" بالتنوين وتصريفه. وهذه القراءة معناها مصرا (أي بلداً فيه زرع) من الأمصار، لا مصر (البلد المعروف بعينه). فتأويله –على قراءتهم-:

---

(١) مختصرا من تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ١٢٤)

(٢) راجع المرجع السابق (٢/ ١٣٠)

اهبطوا مصرا من الأمصار، لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي، وإنما يكون في القرى والأمصار، فإن لكم -إذا هبطتموه- ما سألتم من العيش.

قال الطبري: وقد يجوز أن يكون تأويل الكلام: "اهبطوا مصرا" البلدة التي تعرف بهذا الاسم، وهي "مصر" التي خرجوا عنها. غير أنهم أجروها ونونوها اتباعا منهم خطَّ المصحف، لأن في المصحف ألفا ثابتة في "مصر"، فيكون سبيل القراءة بالإجراء والتنوين، سبيل من قرأ: (قواريرا قواريرا من فضة) (الإنسان: ١٥- ١٦) منونة اتباعا منهم خط المصحف.

وقرأه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه (مِصرَ) وعدم تصريفه. وأما الذي لم ينون "مصر" فإنه لا شك أنه مقصودٌ به "مصر" البلد التي تُعرَف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها. وأسماءُ البلدان لا تنصرف (لا يدخلها التنوين) خَفَّت أو ثَقُلت. [(١)]

قال أبو جعفر الطبري:

ومن حجة من قال إن الله جل ثناؤه إنما عنى بقوله: (اهبطوا مصرا) ، مصرا من الأمصار دون"مصر" فرعون بعينها -: أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر. وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة، إذ قال لهم: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة: ٢١-٢٤) ، فحرم الله جل وعز على قائلي ذلك - فيما ذكر لنا- دخولها حتى هلكوا في التيه. وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون - بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فلا يجوز لنا أن نقرأ: "اهبطوا مصر"، ونتأوله أنه ردهم إليها.

---

(١) راجع التفصيل اللغوي للقرائتين في معاني القرآن للفراء (١/ ٤٣)

ثم ذكر الرأي الثاني وحجته. [١] ثم قال: والذي نقول به في ذلك أنه لا دلالة في كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر. وأهل التأويل متنازعون تأويله،...وإذ كان الذي سألوه لا تنبته إلا القرى والأمصار، وأنه قد أعطاهم ذلك إذ صاروا إليه. وجائز أن يكون ذلك القرار "مصر"، وجائز أن يكون "الشام". انتهى [٢]

وبيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه لما أنعم الله عليهم واختار لهم ما يتعيَّشون به بلا تعبٍ ولا جهد، فأصروا على استبدال الذي هو خير بالأدنى والميل إلي الدنيء على ما اختار الله لهم وما فيه مراعاة القوة البهيمية، والعناية بتربيتها فقال لهم: {اهْبِطُوا مِصْرًا} وذلك على طريقة قوله: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} فكأنه قيل: إن لم ترغبوا فيما اخترته لكم، وفيه خلاصكم، فشأنكم وما اخترتم في قصد المكان الذي فيه ما أردتموه. وربما يفسر هذا المعنى دلالة الحذف والإيجاز في قوله: {اهبطوا مصراً...} والقصد أن موسى دعا الله –تعالى– فقال له: قل لهم {اهبطوا مصرا...}؛ فجرى هذا الحذف والخطاب المباشر لهم بالتوبيخ مجرى إيكالهم إلى أنفسهم في اختيارهم الدنيئ فكان بمعنى قوله: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}.

---

(١) قال: فإن من حجتهم التي احتجوا بها الآية التي قال فيها: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) [الشعراء: ٥٧-٥٩] وقوله: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) [الدخان: ٢٥-٢٨] ، قالوا: فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورثهم ذلك وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها. قالوا: ولا يكونون منتفعين بها إلا بمصير بعضهم إليها، وإلا فلا وجه للانتفاع بها، إن لم يصيروا، أو يصر بعضهم إليها. قالوا: وأخرى، أنها في قراءة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: "اهبطوا مصر" بغير ألف. قالوا: ففي ذلك الدلالة البينة أنها "مصر" بعينها. انتهى.

ويمكن ان يرد على حجتهم بأن معنى {وأورثناها} يعود على إنعام الله عليهم بمثلها وأكثر بعد زوالها عن فرعون وقومه، كما في الآية الأخرى {ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها...} ولا دليل صريح على عودتهم إلى مصر. وكذلك فإن عامة القراء اجتمعوا على قراءة (مصرا) بالألف وتصريفها، ولا يخالفهم إلا قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب وهي من شواذ القراءة وهو ما أكد عليه ابن جرير الطبري في تفسيره فكأنه استحيا أن يرجح معنى هذه القراءة بعد ترجيحها كشبهة القول الآخر.

(٢) راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ١٣٤) باختصار.

ومن أشد علامات غضب الله على العبد إيكالُه إلى نفسه، وكان من دعاء سيدنا النبي ﷺ : اللَّهُمَّ رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنتَ». [١] وكان ﷺ يدعو: "اللهم خِرْ لي واختر لي ولا تكلني لنفسي طرفة عين". [٢]

قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}

يعني بقوله: (ضُرِبَتْ) أي فُرِضَتْ. ووُضِعَت عليهم الذلة وصارت لهم لازمةً. وأصل معنى الضَّرْب في اللغة: إيقاعُ شيءٍ على شيء بشدة.

هذا أصل معناه ثم أُستعير إلى معاني أخرى تدل على القوة والشدة في وصف الفعل، فالضرب في الأرض هو السير الحثيث فيها، وضرب الخيام هو تثبيتها في الأرض بشدة كي لا تطير بها الريح. وضرب الأعناق هو القتل الشديد، وضرب العملة هو صكها بحيث يظهر أثر العلامات فيها فتُعرف، وقال الله: {وضربنا على آذانهم في الكهف} أي أغلقنا سمعهم إغلاقا لا ينفذ إليهم شيء. ومنه هنا {وضُربت عليهم الذلة} أي كُتبت وألصقت بهم إلصاقاً شديداً. ولعل شدة اللفظ هنا (التوقيع اللفظي/ الدلالي) جزاءً لهم على كفرهم وجحودهم نعمة الله تعالى كما سيأتي.

وأما "الذِّلَّة" فهي على وزن "الفِعْلة" بمعنى المصدر وليس الهيئة من قول القائل: ذَلَّ فلانٌ يَذِلُّ ذُلّاً وذِلّة"، على وزنها أيضاً: (قَلَّ قِلَّةً)، ومثله: نَشَدَ الدابة نِشْدة، ليس للهيئة، وإن وافقها في الوزن.

الذلة والذُلُّ خلقٌ خبيث من أخلاق نفس الإنسان يضاد الإباء والعزة، وأصل المادة اللغوية فيه معنى اللين وهو مضاد الصعوبة. يقول العرب: طريقٌ مُذلَّل ومُعبَّد أي وطئته الأقدام والحوافر فصار سهلاً لينا ليس بوَعْرٍ.

وإذا كان نبيل الأخلاق يذل لوالديه، ولأخوانه المؤمنين، وللضعيف من الناس لا عن ضعفٍ وعجز وإنما عن نبلٍ وسموٍ من أجل حقوقهم عليه كما قال تعالى: {... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ...} (المائدة: ٥٤)، فإن الخسيس هو ذليلٌ في نفسه يعلم من نفسه الدنائة والعجز،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، وإسناده حسن بشواهده. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِفَاطِمَةَ: " مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟ ! أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» ". رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ عُثْمَانَ بْنِ مَوْهَبٍ، وَهُوَ ثِقَةٌ. انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١١٧). قال الحافظ فى " الفتح " ١١ / ١٤٨ : صححه ابن حبان. وحسنه الألباني انظر حديث رقم: ٣٣٨٨ في صحيح الجامع. وسلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٤٤٩) برقم ٢٢٧.

(٢) ورد في سنن الترمذي، ولكن بإسناد ضعيف. ومعناه صحيح بشواهده. انظر التعليق السابق.

فيدعي أنه مسكين (يتمسكن) في حال وجد مَن هو أقوى منه ثم إذا غلب طغى وأفسد ولم يرحم، كما قال الشاعر: وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ ... طلب الطَّعنَ وحدَهُ والنِّزالا .

وكما يقول الناس: يتمسكن حتى يتمكن. ولذلك قرنت الآية بين {الذلة والمسكنة} فإن المسكنة هي أثر من التواضع الكاذب يظهر على الجوارح في حال العجز. فالذلة الملازمة لهم هنا هو خوارٌ في القلب يملأ قلب بعدما فقد المعين من إيمانه بالله –تعالى– وصار اتكاله على نفسه الضعيفة، وقد وصف القرآن العظيم هذه الخوار الذي تلقفه المنافقون من اليهود فصاروا مثلهم، فقال: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} (المنافقون: ٤)، ولعل هذا هو تفسير بعضٍ من المرض الذي ذكره الله– سبحانه– في أوائل سورة البقرة حين قال عنهم: {في قلوبهم مرض} ... فتأمل هذه الروابط العجيبة بين معاني القرآن.

وقد جعل بعض المتدبرين من جماليات قوله تعالى: {وضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة} تصويراً بليغاً لالتصاق الذلة والمسكنة بهم كما تُضرب الخيمة فتحيط بهم كالقبة على من فيها. [١]

وهي على تسمية أهل البلاغة (استعارةٌ تمثيلية).

قال تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ من الله} ومعنى باءَ فِي اللُّغَة: أي رجعَ؛ يُقَال: باء يبوء بوءاً. وهو هنا مُستَعارٌ لانقلاب الحالة مما يرضي الله إلى غضبه. والمعنى أنهم استحقوا غضب الله –سبحانه– والتعبير باستحقاقهم الغضب ورجوعهم به أبلغ في ذمهم من مجرد وقوعه بهم، فلم يقل هنا (وغضب الله عليهم)، فإن غضب الله عليهم ربما يكون لسببٍ عارضٍ ثم يتوب عليهم، ولكنْ استحقاقهم للغضب يصير سُبَّةً ملازمةً لهم أبداً فقد أصابه، فقد غضب الله عليهم، وتنكير الغضب دلالة على أنه نوع عظيم من سَخَطِه عليهم.

قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)}

وقوله تعالى {ذلِكَ} إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة واستحقاقهم الغضب من الله –تعالى– ، والباء في قوله: {بأنهم} هي سببية أي أنَّ كفرهم وما فعلوه من قتل الأنبياء والعصيان والاعتداء كان سببا لعقابهم في الدنيا بالذلة والمسكنة، وفي الآخرة بغضب الله، وبيان السبب هو من رحمة الله تعالى المربي لعباده

---

١ في قوله تعالى {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمسكنة} وكأنها جعلت علامةً لازمةً لهم. كما قال الزمخشري: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضُرِبت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب (أي ملاصق ملازم)، كما يُضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومفقرة إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم، خيفة أن تُضاعَف عليهم الجزية. وقوله {وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} هو من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، أى صاروا أحقاء بغضبه. انظر تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 146)

ففيه تحذيرٌ من الوقوعِ في مثل ما وقعوا فيه. وقد كفر اليهود {بآياتِ اللهِ} أي نعمه المتوالية عليهم، وما كان من المعجزات التي أيّد بها رسوله موسى– عليه السلام– .

{ويقتلون النبيين بغير الحق} ثم إنهم– لعنهم الله– قتلوا كثيرا من الأنبياء كأشعياء وزكريا ويحيى وغيرهم. وهذا يعني أجيال اليهود الذين اجترموا هذه الجريمة العظيمة سواء في ذلك مَن باشر القتل وأمر به، ومَن سكت عنه ولم ينصر الأنبياء، ثم مَن رضي بذلك الجُرم الكبير ممَّن أتى بعدهم. فإن الراضي بالجريمة شريكٌ فيها.

فإن قلتَ: إن قتل الأنبياء لا يكون بحقٍ أبداً فما فائدة ذكره؟

قلتُ: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيستحقوا القتل ؛ وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سُئِلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم. فهو من باب تقريرهم على سوء فعلهم.،وإلا فإن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال.

قال ابن عاشور: وإنما قال (الأنبياء) لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا} (غافر: ٥١) وقال: {والله يعصمك من الناس} (المائدة: ٦٧) ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه.

وَقَوْلُهُ: {ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ} يحتمل أن تكون الإشارة فيه إلى نفس المشار إليه بذلك الأولى فيكون تكريرا للإشارة لزيادة تمييز المشار إليه حرصا على معرفته، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله تعالى عليهم، والآية حينئذ من قبيل التكرير وهو مغن عن العطف مثل قوله تعالى: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (الأعراف: ١٧٩) .

ويجوز أن يكون المشار إليه ب{ذلك الثاني } هو سبب الكفر بآيات الله وقتلهم النبيين، فهو سبب السبب؛ تنبيها على أن إدمان العاصي يفضي إلى التغلغل فيها والتنقل من أصغرها إلى أكبرها وهو الكفر وقتل النبيين. [١] وكذلك قال السلف: إن من عقوبة المعصيةِ المعصيةُ تتلوها، ومن علامات قبول الحسنةِ الحسنةُ تتلوها.

---

(١)التحرير والتنوير (١/ ٥٣٠) للطاهر بن عاشور ، وقد نقل المعنى من تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٤٦).

يقول ا. سيد قطب– رحمه الله: (إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء! فناسب أن يكون قول موسى لهم، «اهْبِطُوا مِصْراً» هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان! ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة. فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم– وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين– وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية. وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل! ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة. كانوا دائما يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون. وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك.. وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه. يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح. وإن فضل الله ليس حجراً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه) . (١)

تقرير مبدأ عام وتصحيحٌ في العمق.

وبناءً على عمق الرؤية في مخاطبة اليهود الذين ادعوا أنهم (شعب الله المختار)، وأن الله حلَّ فيهم كشعب مقدس، وأنَّ توارثهم الأنبياء بينهم دلالةٌ على كرم عنصرهم، وأنهم أحق بكل خير ممن دونهم حتى سموا جميع الأمم من غير اليهود (الأغيار) وهو المقابل العربي للكلمة العبرية «جوييم» (بالعبرية: גויים)، وهذه هي صيغة الجمع للكلمة العبرية «جوي» (بالعبرية: גוי) التي تعني «شعب» أو «قوم». (٢) بناءً على كل هذه

---

(١)في ظلال القرآن (١/ ٧٥).

(٢)تتبدى النزعة المتطرفة في التمييز الحادّ والقاطع بين اليهود كشعب مختار أو كشعب مقدَّس يحل فيه الإله من جهة والشعوب الأخرى التي تقع خارج دائرة القداسة من جهة أخرى. فقد جاء في سفر أشعياء (٦١/٥ . ٦): «ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتُدعَون كهنة الرب تُسمَّون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمَّرون». كما جاء في سفر ميخا (٤/١٢): «قومي ودوسي يا بنت صهيون لأني أجعل قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين».

وقد ساهم حاخامات اليهود في تعميق هذا الاتجاه، فنجدهم قد أعادوا تفسير حظر الزواج من أبناء الأمم الكنعانية السبع الوثنية (تثنية ٧/٢ . ٤)، ووسعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على جميع الأغيار دون تمييز بين درجات عليا ودنيا.

الادعاءات جاء النبي –ﷺ– ليذكرهم بنقائصهم وجحودهم ومعاصيهم التي أوجبت لهم الغضب الإلهي، ليقول لهم ببساطة لستم شعباً مقدساً وإنما شعبٌ نجسٌ بعيدٌ عن الله –تعالى–. وإن القدسية لا تأتي إلا لمَن آمن بالله واتبع هداه، ولا علاقة لها بشعبٍ دون شعبٍ، ولا بأمةٍ دون أمةٍ، ولا بشريعةٍ دون أخرى ما داموا متفقين على الإيمان بالله تعالى، وبما جاء من عنده كله لا يفرقون بين بعضه وبعضه. {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣) هذه القاعدة الكبرى في تمييز البشر تأتي في هذه الآية لتكون جملةً اعتراضيةً لتقرير قاعدةٍ كبيرة لا تحتمل التأجيل ثم يستأنف السياق توبيخه لليهود الذين ادعوا دعوات عريضة لا تمت لهم بصلة.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)}

{إن الذين آمنوا} قد اختلف المفسرون في المراد منه، وسبب هذا الاختلاف قوله تعالى في آخر الآية: {مَن آمن بالله واليوم الآخر}، فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا } غير المراد منه في قوله تعالى: {مَن آمن بالله} ونظيره في الإشكال قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا } (النساء: 136)، فلأجل هذا الإشكال ذكروا وجوها:–

أحدها: وهو قول ابن عباس. المراد هم الذين آمنوا بعيسى قبل مبعث محمد –عليهما السلام– مع البراءة عن أباطيل اليهود والنصارى مثل قُس بن ساعدة، وبحيرى الراهب، وحبيب النجار، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، ووفد النجاشي؛ فكأنه تعالى قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد، والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود، والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى؛ كلُّ الذي آمن منهم بعد مبعث محمد –عليه الصلاة والسلام– بالله واليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند

وقد ظل الحظر يمتد ويتسع حتى أصبح يتضمن مجرد تناول الطعام (حتى ولو كان شرعياً) مع الأغيار، بل أصبح ينطبق أيضاً على طعام قام جوي (غريب) بطهوه، حتى وإن طبَّق قوانين الطعام اليهودية. كما أن الزواج المُختلَط، أي الزواج من الأغيار، غير مُعترَف به في الشريعة اليهودية، ويُنظَر إلى الأغيار على اعتبار أنهم كاذبون في بطبيعتهم، ولذا لا يؤخذ بشهاداتهم في المحاكم الشرعية اليهودية، ولا يصح الاحتفال معهم بأعيادهم إلا إذا أدَّى الامتناع عن ذلك إلى إلحاق الأذى باليهود. وقد تم تضييق النطاق الدلالي لبعض كلمات، مثل «أخيك» و«رجل»، التي تشير إلى البشر ككل بحيث أصبحت تشير إلى اليهود وحسب وتستبعد الآخرين، فإن كان هناك نهي عن سرقة «أخيك» فإن معنى ذلك يكون في الواقع «أخيك اليهودي». وقد تحوَّل هذا الرفض إلى عدوانية واضحة في التلمود الذي يدعو دعوة صريحة (في بعض أجزائه المتناقضة) إلى قتل الغريب، حتى ولو كان من أحسن الناس خلقاً. راجع موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية – د.عبد الوهاب المسيري [المجلد الخامس – الجزء الثاني – الباب الخامس عشر]، من اليهودية إلى الصهيونية – د.أسعد السحمراني. "، الموسوعة الكتابية المعيارية العالمية، غراند رابيدز: William B. Eerdmans Publishing Company، Goiim ج ٢.

ربهم. قلتُ: وهذا رأى وجيه لولا أنه لا يستقر مع النظم في الآية، وعليه يقع التكرار في معنى الذين آمنوا بعيسى والنصارى المذكورة بعدها.

وثانيها: أنهم المنافقون؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في أول هذه السورة طريقة المنافقين ثم طريقة اليهود، فالمراد من قوله تعالى: {إن الذين آمنوا} هم الذين يؤمنون باللسان دون القلب وهم المنافقون، فذكر المنافقين ثم اليهود والنصارى والصابئين؛ فكأنه تعالى قال: هؤلاء المُبْطلون كل من أتى منهم بالإيمان الحقيقي صار من المؤمنين عند الله وهو قول سفيان الثوري. قلتُ: وبه قال الزمخشري في الكشاف. وهو رأى وجيه لولا أنه إشارةٌ إلى بعيدٍ لا دليل عليه من نظم الآية ولا السياق قبلها وبعدها.

وثالثها: المراد من قوله: {إن الذين آمنوا} هم المؤمنون بمحمد –ﷺ– في الحقيقة وهو عائد إلى الماضي، ثم قوله تعالى: {مَن آمن بالله} يقتضي المستقبل فالمراد الذين آمنوا في الماضي وثبتوا على ذلك واستمروا عليه في المستقبل وهو قول المتكلمين. [١]

قلتُ: وهذا الثالث أبعدهم وفيه تكلف. وما أرجحه أن الآية في نظمها فيها قسيمان: {الذين آمنوا} ، {وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا} وبإعادة ترتيب الكلام يصبح (إن الذين آمنوا، و معهم مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا مِن الَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ) استحق ما ذكره الله مِن الأجر، والذي فاته ذلك فاته الخير كله. وعلى هذا يكون تفسير الآية فيها ومنها، بإعادة نظمها على ترتيب عقولنا، ويكون معنى الذين آمنوا على وجهه وهم المؤمنون بمحمدٍ –ﷺ– مِن أمته ومِمَّن عاصره مِن الأمم الأخرى يهوديا أو نصرانيا، وأما قبله فكل من آمن بالله واليوم الآخر واتبع الرسول الذي أُنزِل إليه {فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

وهذه الآية فيها ردٌ على ادعاء اليهود أنَّ النجاة لهم وحدهم، وفيها معيارٌ دقيقٌ لميزان النجاة في الأمم قبل بعثة محمد– ﷺ– وفيمن عاش بعد بعثته الشريفة.

قال رسول الله –ﷺ–: " والذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ ، لا يسمعُ بِي أحدٌ من هذه الأمةِ ، لا يهودِيٌّ ، و لا نصرانِيٌّ ، ثُمَّ يموتُ ولَمْ يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به ، إلَّا كان من أصحابِ النارِ" رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١– انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 535).

وأما الرد على الأغبياء الذين يستدلون بهذه الآية عن غير فهم بأن الجميع في الجنة بلا قيد، فهم بجهلٍ أو بتعمد ضلالٍ تجاهلوا تكرار قيد الإيمان بالله واليوم الآخر في الآية مرتين، والله تعالى في صريح محكم كتابه يقول: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (آل عمران: ١٩)، وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (آل عمران: ٨٤، ٨٥) فهذه صريحة لا تدع قولا أو فهماً لمتأوّلٍ أبداً.

{والذين هَادُواْ} أي تهوَّدوا من (هادَ) إذا دخَل في اليهودية، ولفظ (يهودُ) إما عربي من هاد إذا تاب؛ سُموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل، وخُصوا به لما كانت توبتهم هائلة، وإما معرَّبُ من (يهوذا) كأنهم سُمّوا باسم أكبرِ أولاد يعقوب –عليه الصلاة والسلام– حيث قيل ؟إنه بعد تسليط بختنصر عليهم قتلا وسبيا من تبقى منهم أكثرهم من نسل يهوذا هذا ولذلك جعلوا فيهم ملكم، وكان منهم أنبياؤهم، فأطلق عليهم اسمه مع تخفيف الذال المعجمة دالا مهملة، وهذا أشبه .

{والنصارى}، جمع نَصرانٍ أي فيه نُصْرةٌ، كندامَى جمعُ ندمانٍ أي فيه ندم، يقال رجلٌ نصرانٌ وامرأة نصرانةٌ والياء في (نصراني) للمبالغة كما في أحمريّ سُموا بذلك لأنهم نَصَروا المسيحَ –عليهِ السَّلامُ– كَمَا قَالَ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} (آلِ عِمْرَانَ: ٥٢) وقال الخليل واحدُ النصارى نَصري (من نصر) كمَهْري ومهارى.

وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة، أو نَصرانُ فسُمّوا باسمها أو نُسبوا إليها والياء للنسبة. قاله قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضا، والله أعلم.

{والصابئين} هم قومٌ بين النصارى والمجوس، وقيل أصلُ دينهم دينُ نوحٍ عليه السلام، وقيل هم عبدةُ الملائكة، وقيل عبدةُ الكواكب، فهو إن كان عربياً فمن فعل (صَبأ) إذا خرج من دين إلى آخرَ، أو من (صَبَا) إذا مال؛ لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه، أو مالوا من الحق إلى الباطل.[١]

هذه الفرق الأربعة أنهم إذا آمنوا بالله فلهم الثواب في الآخرة ليعرف أن جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحق فإن الله –سبحانه وتعالى– يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته البتة.

١– راجع تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 108)، وتفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٨٥).

واعلم أنه قد دخل في الإيمان بالله الإيمان بما أوجبه، أعني الإيمان برسله، ودخل في الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة، فهذان القولان قد جمعا كل ما يتصل بالأديان في حال التكليف، وفي حال الآخرة من ثواب وعقاب. [١]

والمراد بالإيمان هاهنا هو ما بينه رسول الله –ﷺ– من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره»، ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمَن لم يؤمن بمحمد – ﷺ– ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومَن آمن بهما صار مسلماً مؤمنا ولم يبق يهودياً ولا نصرانيا ولا مجوسيا. [٢]

وأما قوله تعالى: {ولا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون} فقيل: أراد زوال الخوف والحزن عنهم في الدنيا، ومن المفسرين مَن قال في الآخرة في حال الثواب، وهذا أصح لأن قوله: {ولا خوفٌ عليهم} عام في النفي، وكذلك: {ولا هم يحزنون} وهذه الصفة لا تحصل في الدنيا وخصوصا في المكلفين لأنهم في كل وقتٍ لا ينفكون من خوفٍ وحزن، إما في أسباب الدنيا وإما في أمور الآخرة، فكأنه –سبحانه– وعدهم في الآخرة بالأجر، ثم بيَّن أن من صفة ذلك الأجر أن يكون خاليا عن الخوف والحزن. [٣]

قلتُ: أخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ، وابن جرير وابن أبي حاتم، من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله: {إن الذين آمنوا والذين هادوا... الآية}، قال: فأنزل الله بعد هذا: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران: ٨٥) .

أقولُ: وهذا من باب التوسع في إطلاق المتقدمين النسخ على أشياء مِن باب بيان النص وتخصيصه، فالمعنى في الآيتين واحدٌ يؤكد أنَّ الإيمان الذي يُنْجِّي ويُعتَبَر به هو في الحقيقة الإيمان بالله، وبمحمد ﷺ وباليوم الاخر والقرآن كله، وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله من أحدٍ ديناً سواه. فلا تعارض.

قال ابن كثير: إن هذا الذي قاله ابن عباس ﷺ إخبارٌ عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى، عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم. فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما

١– تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 537)

٢– فتح القدير للشوكاني (1/ 110)

٣– تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 537).

للنبيين، ورسولا إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقا. وسميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

وقال السدي: {إن الذين آمنوا والذين هادوا ... الآية} نزلت في أصحاب سلمان الفارسي ﷺ ، بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبيا، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له رسول الله ﷺ: "يا سلمان، هم من أهل النار". فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكا.

وإيمان النصارى أنَّ من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ، فمَن لم يتبع محمدا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل –كان هالكا.

قال ابن أبي حاتم: وروي أيضا عن سعيد بن جبير [(١)]

وهذا بعض معنى قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (النساء: ١٥٠ – ١٥٢)

وهذا الذي نقلناه هو اتفاق أهل العلم ولا يُعلَم له مخالفٌ إلا من ضعف علمٍ أو ضعف إيمانٍ أو حتى نكايةٍ في دين الإسلام. وقد أطلتُ في هذا الموضع لأنه قد أكثر الذين يحاولون هدم دين الإسلام من التمميع الذي يفضي بالنهاية إلى شد أزر ما يدعونه بالديانة الإبراهيمية وهي كفر بالله ورسله.

فإن من أعظم فتن العصر: فتنة السعي لإلغاء الفروق وتذويب الاختلافات بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإسلام والكفر مصادمةً لنصوص الشريعة القطعية، ومُحْكَماتها وثوابتها الشرعية. وأعظم فتنةً من ذلك أن ينسب هذا القول الباطل لدين الإسلام بأى تحايلٍ كان، والإسلام منه براء. فالإسلام هو الحق وما سواه هو الباطل. هذه عقيدة القرآن وعقيدة المؤمنين ولا يجادل في ذلك إلا جاهلٌ أو منافقٌ.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٢٨٥– ٢٨٤) مختصراً.

ومن العجب الذي لا ينتهي أن أهل الباطل بجميع مللهم ونحلهم، كل أهل ملة يرون أنهم وحدهم على الحق وأن ما سواهم على الباطل، بينما يشاع في أوساط المسلمين وحدهم تعدد الحق، وعدم التثريب على مخالف الحق، بل والنكير الشديد على من حكم بكفر غير المسلمين، وهو حكم القرآن، وحكم رسول الله ﷺ.

والفرق كالشمس سطوعا بين تقرير تحريم الظلم لكل أحد؛ ولو كان من غير المسلمين

، وفيه بيان عدل الإسلام ورحمته، وبيان ما جاء به من عدم إكراه أحد على الدين... فرقٌ بين هذا كله مما يجوز فعله، والسعي لتحقيقه، وبين إضفاء الشرعية على ما سوى الإسلام، وهو أبطل الباطل.

وأما الذين يلبِّسون على الناس دينهم ويقولون إن الله رحيم، وإدخال الجميع الجنة من رحمته فيتولى الله تعالى الرد عليهم في كتابه الكريم في سورة الأعراف!! قال تعالى:

{... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) }. وبعدها فلا مجال لفاسد عقلٍ يريد أن يفسد على الناس دينهم فيهلكهم.

لمسات بيانية.

قال علماء المعاني: قدم النصارى على الصابئين لأنهم أهل كتاب، وعكس الترتيب في الحج لأن الصابئين مقدمة على النصارى بالزمان، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير، لأن تقديره: والصابئون كذلك. [١]

*ما وجه الاختلاف من الناحية البيانية بين آية 62 في سورة البقرة، وآية 69 في سورة المائدة؟

في المائدة: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (69)}.

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٣٠٣)

وفي البقرة: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62)}. الآيتان فيهما تشابه واختلاف وزيادة في إحداها عن الأخرى.

أولا: من حيث الإعراب والتقديم والتأخير، ودوره في صياغة المعنى والدلالة؟

النصب في "الصابئين" ليس فيه إشكال (إذ هو من باب العطف على اسم إن الناصبة)، وإنما الرفع هو الذي كثيراً ما يُسأل عنه. والرفع في آية سورة المائدة من حيث الناحية الإعرابية ليس فيه إشكال عند النحاة لأنهم يقولون على غير إرادة (إنّ)، على محل إسم إنّ (فكأنها لم تكن عاملة في "الصابئين"، و"الصابئون" معطوفة على محل اسمها الذي هو مبتدأ قبل دخول "إن"). أى يجعلونه مبتدأ جملةٍ مستأنفة على تقدير: والصابئون كذلك. لكن ما النكتة البيانية في ذلك حتى لو خرّجناها نحوياً؟ فالإعراب فرع المعنى. لماذا رفع "الصابئون"؟ (إنّ) تفيد التوكيد فمعناه أن هنا قِسم مؤكّد وقسم غير مؤكد. (الصابئون) غير مؤكدة، والباقي مؤكد لماذا؟ لأنهم دونهم في المنزلة. فهم أبعد المذكورين ضلالاً.. يقول المفسرون أن هؤلاء يعبدون النجوم. صبأ في اللغة أي خرج عن المِلّة، أو الدين. فالصابئون خرجوا عن الديانات المشهورة، ودخلوا في الوثنية البغيضة.. هؤلاء أبعد المذكورين عن رقى الإيمان، والباقون أصحاب كتاب، فالذين هادوا والنصارى والذين آمنوا أتباع رسالات وكتب سماوية وإن ضلوا، ولقد عاب القرآن على اليهود إذ صححوا مذهب الشركين على دين الإسلام؛ وكانوا أولى باتباع دين محمد والأنبياء قبله أو حتى عدم نصرة الوثنية عليه. فوجب هنا ألا يوضع الجميع في سلةٍ واحدة، فمن كان عنده كتاب وجاءه رسول ؛ وإن حرَّف وبدل أولى ممن عبد الوثن والطاغوت، ويرسم معالم هذا الإنصاف التشكيل النحوي في الآية الكريمة التي فصلت" الصابئين" عن أهل الكتاب في الإعراب، وهو بعينه ما عناه- الجرجاني- في نظريته الشهيرة عن النظم ..

*لماذا لم يأت بها مرفوعة ووضعها في نهاية الترتيب؟ هنا ندخل في مسألة التقديم والتأخير وليست في مسألة المعنى. وهي ليست الآية الوحيدة التي فيها تغيّر إعرابي. في آية التوبة {وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (3) التوبة}،فقد عدلت الآية عن إعراب "ورسولَه" على النصب مع أنه يمكن العطف على لفظ الجلالة "الله" المنصوب إعراباً، وإنما عُطف على المحل، أي (ورسوله كذلك بريء) لأن براءة الرسول ليست ندّاً لبراءة الله تعالى، ولكنها تبع لها، براءة الله تعالى هي الأولى ولو

كانت "ورسولَه" على النصب تكون مؤكَّدة ومقارنة لبراءة الله، فإشارة ذلك إلى أن براءته ليست بمنزلة براءة الله سبحانه وتعالى، وإنما هي دونها فرفعت" ورسولُه) على غير إرادة (إنّ).

حتى في الشعر العربي: إن النبوةَ والخلافةَ فيهمُ*** والمكرماتُ وسادةٌ أطهارُ.

قال "المكرماتُ" بالرفع، ولم يقل "المكرماتِ" نصبا بالعطف على اسم "إن"؛ لأن المكرمات وهؤلاء السادة لا يرتقون لا إلى النبوة ولا إلى الخليفة. هذه الدلالة موجودة في الشعر ففهمها العرب.

وفي سورة الحج تحدثت الآيات عن مطلق الايمان والكفر والحساب يوم القيامة لذلك لما بدأ ذكرهم أولاً بالتأكيد جمعهم جميعاً بحرف العطف حتى يأتي معنى كلمة {يفصل بينهم}. لاحظ الآية: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)}، إذن هنا لا مجال ولا معنى لفصل المؤمنين لأن الفصل سيكون يوم القيامة. وهنا في آية المائدة: إن الذين آمنوا لهم حكم، وهؤلاء لهم حكم مقيّد إذا فعلوا هذا معناه أنه سينحازون الى الإيمان والاسلام. لكن هنا ليس هناك كلام على الايمان أو غيره وإنما كلام على الفصل، كيف يفصل؟ لا بد أن يجمعهم أولاً ثم يفصل بينهم؛ فكان التركيب النحوي بالعطف في سورة الحج مفيدا لمعنى الجمع يوم الجمع لساعة الفصل.

***

يبقى السؤال حول التقديم والتأخير في الترتيب في آية المائدة قال تعالى {والصابئون والنصارى}، وآية البقرة فيها: {والنصارى والصابئين}. ففي المائدة قدّم ورفع "الصابئين"، بناءاً على أنه ذمّ النصارى في المائدة ذماً فظيعاً على معتقداتهم، وتكلم على عقيدة التثليث، فجعلهم كأنهم لم يؤمنوا بالله ابتداءً، وكأنهم صنف من المشركين ؛ ففيها قال تعالى:{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ (72)}، وقال: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (74)}، ولما كان الكلام على ذم العقائد عقيدة النصارى أخّر النصارى حتى تكون منزلتهم أقل، وقدّم الصابئين مع أنهم لا يستحقون. وفي البقرة لم يذم عقيدة النصارى في سياق الآيات؛ إذ لم يكونوا مقصودون به فوُضع الصابئين في موضعهم المنطقي في آخر المِلل.

ثانياً: هناك فرق بين الآيتين {فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} في آية سورة البقرة، أما في سورة المائدة {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، والمذكورين في الآيتين هم نفسهم (الذين آمنوا، الذين هادوا، النصارى، الصابئين)، فما دلالة ما جاءت في سورة البقرة {فلهم أجرهم عند ربهم} ولم تأتِ في سورة المائدة؟.

الجواب: أن في سورة المائدة السياق كما قلنا في ذمّ عقائد اليهود والنصارى ذمّاً كثيراً مسهباً. أما في سورة البقرة، فالكلام عن اليهود فقط وليس النصارى. ولنتأمل الآيات في السورتين وكيف تحدثت عن اليهود: ففي سورة البقرة والتي كانت أول ما نزل في المدينة وفيها أول لقاء بين الرسول وأهل الكتاب ، هنالك في السورة تجد السياق تذكير بنعمة الله وفضله على يهود والوعظ والأمل في عودتهم عن ضلالهم، فسياق الوعظ والترقيق في آيات البقرة يستصحبه الوعد بالأجر للمهتدين؛ ولذلك جاءت {فلهم أجرهم عند ربهم}.

على خلاف السياق في سورة المائدة والتي نزلت في أواخر ما نزل في عمر دعوة الرسول ﷺ في المدينة حين اشتداد ضلال أهل الكتاب وحربهم على دين الله الحق ، فاسترسلت سورة المائدة في الدفاع عن عقيدة الحق وذم عقائد الضالين من يهود والنصارى، وفي هذا السياق القوى في الحق والعنيف على الشرك لا مجال هنا سوى للترغيب اللطيف مع ترهيب خفى في قوله تعالى:{فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}؛ وكأنه يقول لهم لا نجاة من الخوف والحزن في الآخرة بغير تقوى الله والرجوع إلى سبيله.

وفي هذا دروس تربوية للمنهج الدعوي المتدرج في نشر الحق والدفاع عنه والقوة والحكمة في بيانه حين يقتضي الأمر.

وهذا بالضبط ما نقصده بالسياق الترتيبي، والسياق التاريخي الدعوي، والسياق التربوي، وأثر كل هذا في نظم وتركيب، ودلالة وتدبر القرآن العظيم.

وأيضاً بما أن سورة البقرة جاءت أقل غضباً وذكراً لمعاصي اليهود لذا جاءت الرحمة فقد وردت الرحمة ومشتقاتها في سورة البقرة(19 مرة) بينما وردت في المائدة (5 مرات) لذا اقتضى التفضيل بزيادة الرحمة في البقرة، والأجر يكون على قدر العمل فالنسبة للذين آمنوا من أهل الكتاب قبل تحريفه وهم مؤمنون بالله تعالى عليهم أن يؤمنوا إيماناً آخر باليوم الآخر المقصود الذين آمنوا إيماناً حقيقياً.

ثالثاً:{ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} تعبير في غاية العجب، والدقة من الناحية التعبيرية والدقة الدلالية والأداء، ولا تعبير آخر يؤدي مؤدّاه؛ بما يمكن أن نسميه" الدقة الأدائية" في لغة القرآن.

وتفصيل ذلك أنه نفى من الخوف الاسم ولم ينفي فعل الخوف، فلم تكن" ولا يخافون"، كما قال " ولا هم يحزنون"، ثم ما قيمة ضمير" هم" الدلالية ههنا؟

إن الخوف أمر جبلي لا ينفك عنه إنسان، وخصوصا في هول مشاهد القيامة؛ والمؤمن ممدوح بخوفه من الله الذي يبلّغه الأمن يوم القيامة، فليس من المناسب نفى فعل الخوف عنه، والنفي هنا لمقتضى الخوف {لا خوف عليهم} معناها لا يُخشى عليهم خطر؛ فالخوف موجود، وهو طبيعي، ولكن الأمان من الله تعالى أمّنهم به. وبما أنهم عرفوا مكانهم عند ربهم فليس بقلوبهم مكان للحزن؛ فنفى فعلهم للحزن على ما فاتهم؛ فمن كان الله معه ل يفته شيء، كما نفى تجدد الحزن لهم في ذلك الموقف العصيب يوم الدين أو فيما يستقبل بعده.. كما لا يستقيم قولنا" لا حزن عليهم" بمعنى لا يحزن عليهم احد؛ فالمؤمن تبكيه الأرض والسماء، بعكس الكفار {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)} (الدخان: 29).

والنكتة في {ولا هم يحزنون}: بتقديم (هم) أي أن الذين يحزن غيرهم وليس هم. نُفي الفعل عنهم، ولكن أُثبِت لغيرهم بدلالةٍ غير مباشرة .. كأن نقول (ما أنا ضربته) أي لست أنا الذي ضربته ، فانظر من ضربه؟ نفيته عن نفسي ، وأشير إلى وجود شخص آخر ضربه (يُسمّى في علوم البلاغة التقديم للقصر)، أما عندما نقول (ما ضربته) يعني لا أنا ولا أعلم غيري.

* ما الفرق بين(عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) في سورة الكهف و (وَعَمِلَ صَالِحًا) هنا في آية البقرة؟

في عموم القرآن إذا كان السياق في العمل يقول (عملاً صالحاً). كما في آخر سورة الكهف {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110)} لأنه تكلم عن الأشخاص الذين يعملون أعمالاً سيئة، ويكون السياق في الحديث عن الأعمال وشروط قبولها وصحتها {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)} والسورة أصلاً بدأت بالعمل {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2)}.مع العمل يقول "عملاً" تنبيها لخطورة وشأن العمل في السياق الدلالي للآيات.

أما في آية البقرة:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62)} فليست في سياق الأعمال فقال {عمل صالحاً} هكذا بمطلقها.

وههنا نصل إلى أن لغة القرآن في دقة أداء كلماتها وقيمة تركيبها وسياقاتها الدلالية المتنوعة وتشابهها واختلافها محكمة احكاماً معجزا لا يستطيعه بشر، ومن يمتلك قدرا مناسبا من الحس اللغوي والبلاغي يدرك عظمة لغة القرآن وأدائها التربوي والعقلاني اللطيف. انتهى مستفادا من د. فضل السامرائي– حفظه الله.

عودة للآيات.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)} (البقرة٦٣–٦٤)

{وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ} مرة أخرى يذكر الله اليهود بجريمة متجددة من جرائم أسلافهم وقد استنوا سنتهم واتبعوا طريق كفرهم خطوةً بخطوة، ونعلاً بنعل. ومرةً أخرى يذكرهم بفضل الله عليهم، وإرادته (أي محبته) الهداية لهم؛ ولكن القوم –كعادتهم– ينكصون على أعقابهم ويتولون عن الحق مدبرين.

(نعمة ما أعظمها، وما أولاها بالتلقي بالشكر والولاء للمنعم..

ولكن أنّ للعمى أن يبصروا، وللصمّ أن يسمعوا؟.

طلبوا إلى موسى آية يرون الله فيها، فجاءتهم الآية منذرة مفزعة..

رأوا الجبل الذي بين أيديهم يتحول إلى سقف مرفوع فوق رءوسهم، لا يمسكه شيء وظنوا أنه واقع عليهم، ففزعوا إلى موسى يطلبون الخلاص والرجوع إلى الله، وفى هذا يقول الله تعالى: «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ» (17: الأعراف) .[١]

والميثاق في اللغة من الفعل (وثّق) أي أكَّد وشدَّد؛ فقد أخذ الله عليهم العهود المؤَكَّدَة على الإيمان بموسى عليه السلام، والعمل بكل ما جاء به من عند الله تعالى من التوراة، وكالعادة – أيضاً– فإن اليهود–وأشباههم– يريدون أن يعبدوا الله بما يريدون لا بما يريد الله تبارك وتعالى؛ فأبوا قبول كتاب الله، فرفع اللهُ –

١ التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب(1/ 93)

سبحانه– الجبل فوق رؤوسهم آيةً أخرى على صدق المبلِّغ عن الله، ورحمةً بهم؛ إذ يشفع كل رسالةٍ إليهم بما يدل على صدقها عنه سبحانه.

(قال الأستاذ محمد عبده: لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح، فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات، وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان، وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم، فقد قال – تعالى – في سورة الأعراف: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(7)} والنتق: الزعزعة والهز والجذب والنفض، ونتق الشيء ينتقه نتقا، أي جذبه واقتلعه، والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسى عليه.

فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم، من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق، كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد؛ لأن رؤية الآيات تقوي الإيمان، وتحرك الشعور والوجدان؛ ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله: {خذوا ما آتيناكم بقوة} أي تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وهن ولا وهم، ثم قال: {واذكروا ما فيه} أي بالمحافظة على العمل به؛ فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرا عندها. ويؤثر عن أمير المؤمنين علي –كرم الله وجهه – أنه قال: يهتف العلم بالعمل. فإن أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العلم إنما يحضر في النفس مجملا غير سالم من إبهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيليا جليا، ثم ينقلب النظري منه بالتكرار والمواظبة– بالعمل– بديهيا ضروريا.

ويقول – رشيد رضا: إن في هذا الحجة على قراء القرآن، الذين ليس لهم منه إلا التغني بألفاظه وأفئدتهم هواء لا أثر فيها للقرآن، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به القرآن، وهذا شر نوعي النسيان، وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثل: عبيد أقطعهم سيدهم بستانا وكلفهم إصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتابا يبين لهم فيه كيف يسيرون في هذا الإصلاح، وكيف تكون حياتهم فيه، ووعدهم على الإحسان بمكافأة وأجر فوق ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته، وتوعدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة الشديدة وراء ما يفوتهم من خيرات البستان، وما يذوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم، فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه، والتغني بلفظه، وتكرار تلاوته، بدون مبالاة بالأمر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه، بل عاشوا في أرض

البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل، فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم، وقاطع لألسنة العذر منهم؟ !

أمرهم سبحانه بالذكر الذي يثبت بالعمل، ووصله بذكر فائدته وهي إعداده النفس لتقوى الله – عز وجل – ، فقال: {لعلكم تتقون}، فإن المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله – تعالى – فتكون بها نقية تقية، راضية مرضية {والعاقبة للتقوى}.

وبعد أن ذكر لهم تلك الآية، وما اتصل بها من الهداية، ذكَّرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة والإعراض عن القبول، ثم امتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة، فقال: {ثم توليتم من بعد ذلك} أي ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثِّر في القلوب، وتستكين لها النفوس {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين} أي إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم، ولولا ذلك لخسرتم في الدنيا والاخرة.[١]

أقول: ففضل الله ورحمته هنا إنما بمعنى توفيقهم للتوبة وقبولها منهم أو إعطاءهم فرصة ثانية واختبارهم برسالة محمد عليه السلام. فالخطاب إما على متابعة السياق في الحديث عن بني إسرائيل أسلاف اليهود وجرائمهم الفظيعة وإمهال الله تعالى لهم، واتباع أخلافهم لهم في غيهم.. وإما لليهود المعاصرين لرسول الله ومن يأتي بعدهم في وجوب مخالفة من سبقهم في كفره وضلاله واتباع رسالة خاتم الأنبياء.

وعلى كلٍ فالخطاب على عمومه وتجدده لكل كتبع لنهج أولئك اليهود إلى يوم الدين.

قال القشيري:

أخذ سبحانه ميثاق جميع المكلّفين، ولكنّ قوما أجابوا طوعا لأنه تعرّف إليهم فوحّدوه وقوما أجابوه كرها لأنه ستر عليهم فجحدوه، ولا حجّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور– وهو الجبل– ولكن عدموا نور البصيرة، فلا ينفعهم عيان البصر. قال الله تعالى «ثم توليتم من بعد ذلك» ، أي رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان، ولولا حكمه بإمهاله، وحلمه بأفضاله لعاجلكم بالعقوبة، وأحلّ عليكم عظيم المصيبة ولخسرت صفقتكم بالكلّية.[٢]

---

١ تفسير المنار (1/ 282)

٢ لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 96)

وإنما قال: (ميثاقكم) ولم يقل مواثيقكم لوجهين، أحدهما: أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك الميثاق منه زيادة في تأكيد المعنى وخصوصية الخطاب؛ كما قال تعالى:{ثم يخرجكم طفلا} (غافر: 67) أي كل واحد منكم. والثاني: أنه كان ميثاقا واحدا بشروط واحدة اخذت على الجميع؛ فعبر عنه بالمفرد، والله أعلم.[١]

تم بحمد الله هذا المقطع من تفسير سورة البقرة ويليه بإذن الله تنقيح مقطع آخر.

١ مستفاد من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 538) بتصرف.